Pruelti

الطاقة الإنسانية

تأليف

احمد حسين

أى هــدف إنسـانى × درجة ضرورته =
وضوح صورته فى الذهن × شدة التركيز =
طاقــة تحقق الهــدف فى الخـارج .
عند غياب الظروف المعاكسة .

قانون الطاقة الانسانية

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
١٩٦٢

Hussein, Ahmad

الطاقة الإنسانية

تأليف

احمد حسين

al-Ṭāqah al-insānīyah.

أى هـــدف إنسانى × درجة ضرورته =

وضوح صورته فى الذهن × شـدة التركيز =

طاقة تحقق الهـــدف فى الخـــارج .

عند غياب الظروف المعاكسة .

قانون الطاقة الانسانية

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
١٩٦٢

الإهداء

إلى : الشهيد مصطفى الوكيل قديس الوطنية والعروبة والإسلام
ومثلى الأعلى فى الحياة .

إلى : جميع إخوانى وأصدقائى الذين ربطنا الحب برباطه المقدس
ولم تستطع عاديات الأيام أن تنال منه ، والذين لولاهم
لَما خرج هذا الكتاب إلى النور .

إلى : بنى البشر ، مذ كانوا ، وأينما كانوا .

أهدى الصفحات التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

هذا الكتاب حديث عن الانسان فى مواجهة الكون الخارجى وأيهما مركز للآخر ، ومحاولة لاعادة مفهوم الانسان الى ما كان عليه منذ كان انسانا ، سيدا لهذا الكون ومسيطرا عليه ، حرا مختارا مريدا فعالا ينطوى على القدرة التى تحقق كل ارادته وتخلق أعماله فى الحدود التى لا تتعارض ونواميس الطبيعة .

وهو محاولة لوضع قانون يحكم العلاقة بين ما يدور فى ذهن الانسان من صور وبين تحقق هذه الصور بالفعل فى الخارج عن طريق الطاقة الانسانية الكامنة فى كل انسان بالفطرة كجزء من طاقة الطبيعة الكبرى اذا تحدثنا بلغة المادة ، أو قبس من روح الله اذا تحدثنا بلغة الدين والايمان (الفصل العاشر) .

ولو ان كتابى هذا نشر منذ بضعة قرون فقط لما كان فى جوهره أو ما يهدف اليه أى جديد يستحق الذكر ، فقد كان البشر حتى ذلك الوقت يؤمنون بقدسية الانسان التى لا حد لها ، وقدرته على الاتصال بالملأ الأعلى (السماء) أو الملأ الأدنى (الجن والأشباح) مستمدا من هذا الاتصال قوة خارقة يحقق بها العجائب والمعجزات والكرامات (الفصل الثانى) .

. أما اليوم فى دنيا المادة والافتتان بالعلم الطبيعى ، فلن يكون كتابى جديدا وغير مألوف فحسب بل ان الكثيرين ممن سيطالعونه سواء من الماديين الطبيعيين أم من المؤمنين المتدينين سينكرونه باعتباره لونا من ألوان

الوهم والخيال والعودة الى الخرافات والأساطير ، ولا عجب فى أن يلتقى المؤمنون بالماديين فى انكارهم قدرة الانسان واعتبارهم كل حـديث فى هذه الناحية وهما وخرافة ، ذلك ان المؤمنين أنفسهم قد استسلموا لتفوق العلوم المادية ، فأصبح ايمانهم بما وراء المادة يحاول أن يأخذ له صـورا وأشكالا منتزعة من دنيا المادة وعلوم الطبيعة .

الانسانية أم الانسان ؟

وقد أنزلت هذه العلوم الطبيعية الانسان من عليائه ، وجردته من تاجه وصولجانه ، فهو ليس الا هباءة هائمة لا حول لها ولا طول أمام طبيعة عمياء غاشمة مجردة من كل شعور أو حياة فضلا عن عقل وحكمة ، حقا ان هذه النظرة قد تبدلت أخيرا كما سنرى فى بعض فصول الكتاب ، فعاد الحديث يتردد عن عظمة الانسان وقدرة الانسانية التى لا حد لها ، وعن المستقبل الذى ينتظر الانسانية ، ولكن ذلك لا يرجع الانسان الى مركزه الحقيقى فى الوجود ؛ فالانسانية معنى مجرد لا وجود حقيقيا له الا فى عالم المثل لمن يؤمنون بالمثل من تلامذة أفلاطون ، أما فى دنيا الواقع المحسوس ، دنيا التجربة التى يدعونا العلم للأخذ بها والاعتصام بحبالها ، فليس فى هذا الكون ما يمكن أن نسميه بالانسانية وانما هناك انسان ، أنت وأنا وهذا الطفل وتلك المرأة العجوز ، هناك آدم ونوح وابراهيم واسحق وموسى وعيسى ومحمد وأبو بكر وبوذا وكونفشيوس وفاطمة ومريم واستر وحنا وبطرس وجورج ، الى آخر ملايين الملايين من أسماء البشر الذين عاش كل منهم حياته وألف سيرته وأنشأ كتابه ثم مضى لطيته . هذا هو ما نعرفه كلنا وما نحسه ونشاهده ونحياه . هذا هو الانسان .

أما الانسانية فكلمة مجهولة غامضة لا تعدو أن تكون وصفا يطلق

على الأعمال التى تقع من الانسان فتوصف بأنها انسانية أو على مجموع الناس للفصل بينهم وبين سائر الكائنات الأخرى من حيوانية ونباتية ومادية ، فليس هناك شيء مادي اسمه الانسانية ، وانما هناك شيء مادى اسمه الانسان .

هـذا الانسان الفرد هو الذى يجب أن نضعه فى الميزان ، ما هو ؟ ما قدره ما طاقته ؟ ما هو مكانه فى هذا الكون فى حد ذاته واستقلاله عن غيره من بنى البشر حتى ولو لم يكن فى جماعة ، حتى ولو كان فى صحراء موحشة أو جنة مورقة . (الفصل الخامس)

أهو حقا هذه الهباءة الهائمة من التراب وسط طبيعة عمياء هوجاء ، أم أن هذا الانسان الفرد هو أعظم ما فى هذا الكون الطبيعى من طاقة وأنه يعلو على كل ما يحيط به من كائنات بما أودع فيه من سر العقل وهو سر الوجود ، وعن طريق هذا السر باستطاعة الانسان (كل انسان) أن يفعل ما يريد ، هذا هو محور البحث فى هذا الكتاب (الفصل السادس) .

حديث للناس كافة

ولما كنت لا أخاطب فى هذا الكتاب قراء العربية دون غيرهم أو من يدينون بدين الاسلام أو المسيحية ، أو من يعيشون فى الشرق دون الغرب ، وانما أخاطب البشر كافة ، أخاطب (الانسانية) فى معناها الواسع الاصطلاحى وأنها مجموع الناس منذ كانوا وأينما كانوا ، فقد نحيت عقيدتى الشخصية وحاولت أن أعالج موضوع البحث لا من زاوية دين معين أو الأديان فى مجموعها أو من زاوية العلم الطبيعى ، ولم أقصر بحثى على مجتمع دون مجتمع ولم أهدف من ورائه لتغليب مذهب على مذهب أو فكر على فكر ، أو تفضيل نظام على نظام ، فكل الأفكار وكل المذاهب وكل الأديان

وكل النظم وكل الأجناس والشعوب ، وكلّ الحضارات والمدنيات ، كلها عندى سواء فى أهميتها ، فى قدرها واعتبارها ، لأنها من نتاج الانسان ، الانسان (كما أتصوره) الذى لا يعلو فيه فرد على آخر مهما كان ما يدعيه لنفسه من علو وحضارة وارتفاع . ولغيره من التخلف والبدائية والوحشية . (الفصل الثالث) .

رجاء للمتخصصين

ومشكلة هذا الكتاب أنه قد لا يرضى كثيرا من المتخصصين فى شتى فروع العلوم التى تعرض لبعض موضوعاتها ، لأنهم يعلمون من هـــذه العلوم مالا أعلم فقد يجدون رغم حرصى الشديد بعض أخطاء فى النقل من كتاب علمى أو قصورا فى ادراك بعض الحقائق العلمية التى غمت على وربما يضيقون ذرعا بالأسلوب البسيط الذى عالجت به موضوعات خطيرة فى تقديرهم ، والتى لا يمكن آن تعالج الا عن طريق الألغاز والمعميات التى لا يفهمها الا الراسخون فى العلم .

وذلك فى الوقت الذى قد يضيق فيه القارىء العادى من ناحية أخرى ، بما قد يعتبره صعوبة أو تعقيدا أو غموضا فى بعض الفقرات والفصول فالى العلماء والمتخصصين الرجاء بأن يتجاوزوا عما يصادفون من أخطاء أو قصور فى الاحاطة بجزئيات علومهم ، فلست أدعى لنفسى أننى ند لهم فى علوم الطبيعة أو الكيمياء أو الرياضة أو الأحياء أو ماشاءوا من علوم .

وانما اعتمدت على مطالعاتى كقارىء عادى للكتب العامة فى هـــذه الموضوعات ولذلك فاننى أدعوهم للمضى فى قراءة الكتاب فى كثير من التسامح حتى نهايته فأنا زعيم بأن أى متخصص فى علم من العلوم أو فقيه من الفقهاء فى أى مادة سيجد فيه ما يشحذ فكره ويتحدى عقله ويستحق

دراسته وسيجد فى نهاية الكتاب نظرية علمية وفرضا صيغ على شكل معادلة رياضية فى صورتها الأولى وهذه المعادلة الرياضية فى حاجة لمن يدعمها ويزيدها وضوحا ودقة وتحديدا وتعميقا ، أو هى فى حاجة لمن يدحضها ويكشف عن تداعيها وتهافتها وعدم انطباقها على الواقع . (الفصل العاشر) .

نصيحة للقارىء العادى

أما القارىء العادى فأنصحه أن يمر على بعض الصفحات التى قد يجد صعوبة فى مطالعتها مرا ، ولا يتردد فى اغفال هذه الصفحات والنظر الى ما وراءها حتى تتصل معه القراءة من جديد فى يسر وسهولة ، فلن يفوته قليل أو كثير باسقاط بعض الصفحات أو فصل بأكمله اذا شاء ، فالقسم الباقى ، حتى ولو لم يكن الا هذا الذى يشتمل على لمحات من تاريخ أبطال العالم وعظمائه وبعض نماذج البشر فى الفصلين السادس والسابع (الارادة والايمان) كفيل بأن يحقق الهدف المقصود من الكتاب وهو اعادة الثقة لكل انسان فرد بنفسه ، اعادة الاحساس اليه بالكرامة لمحض كونه انسانا ، اعادة الشعور اليه بالقدرة التى لاحد لها فى مواجهة الكون المحيط به والطبيعة كلها وهو ما كتب الكتاب من أجله ، أما الذين يحرصون على استيعاب الكتاب استيعابا كاملا فهؤلاء لا مناص لهم من التفرقة بين مطالعة كتاب لمجرد التسلية ، ومطالعة كتاب يحاول ، من خلال آخر نظريات العلم الحديث ، أن يضع للطاقة الانسانية نظرية تحدد مكانها بين شتى طاقات الطبيعة الأخرى . ومن هنا يتعين عليهم أن يعيدوا قراءة الكتاب مرة ثانية على مهل وفى تمعن ، بل وأن يعيدوا مطالعة بعض فقرات منه مثنى وثلاث اذا لزم الأمر .

ان هذا الكتاب على صغره قد استغرق منى تأليفه ثلاث سنوات

انقطعت فيها للمطالعة والكتابة والتفكير ومع ذلك فان هذا لايمثل حقيقة ما انطوى عليه ، فما هو الا ثمرة حياة جاوزت الخمسين عاما وثمرة تجربة العديد من السنين التى عشتها كلها يوما يوما وساعة ساعة منفعلا بالحوادث (شأن أى انسان آخر) ومحاولا قدر جهدى متابعة مجريات الأمور فى المحيط القريب والبعيد ، للاستفادة منها فى فهم الكون وأسراره ، وتكوين صورة أكمل عن حياة أعلى وأفضل للمجتمع الانسانى ، مما جعلته خاتمة لهذا الكتاب تحت عنوان (تذييل) .

وسيدرك القارىء منذ الفصل الأول فى الكتاب عن (نسبية المعرفة) أننى لايمكن أن أدعى وأنا أسوق للبشرية نظرية جديدة عن الطاقة الانسانية وبأى قانون تحكم ، أن هذا الذى أقول هو الحقيقة المطلقة فحاشاى أن أزعم هذا الزعم ، وانما هو رأيى وتصورى وما استقر فى روعى واتضحت صورته فى ذهنى فأصبح طبقا للنظرية التى أقمت الدليل عليها فى (الفصل الرابع) يمثل حقيقة كانت أو كائنة أو ستكون .

وانى أترك لمن هم أكثر منى علما فى الطبيعيات والرياضيات وعلوم الحياة والنفس تدعيم النظرية اذا هم اقتنعوا بهـا ، بالأساليب التجريبية العملية وتحويلها الى أرقام وقياسات كمية ، أو دحضها ، اذا لم ترق لهم بنفس الأسلوب والمنهاج فالنتيجة واحدة فى كلتا الحالتين وهى أن يعيد كل ذى علم وفن وفكر دراسة الانسان الفرد على ضوء ما زودنا به العلم الحديث من معارف ومعلومات تبطل الكثير مما كان يعتبرّ حتى الأمس القريب حقائق مطلقة .

الانسان والذرة

واذا كان العلم الحديث قد صحح معلوماته عن الذرة فبعد أن كانت

أصغر شيء فى الوجود وأتفهه اذا بها تتحول الى عالم كامل وكون فى مقابل الكون الأوسع ، فان من حق الإنسان الفرد (كل انسان) وهو الذى يتكون من ملايين الملايين من الذرات ، أن يصحح مكانه من الكون ، فيعود الفرد كما كان الرأى فيه دائما ، كونا فى مقابل الكون الخارجى ، بل ويعلو عليه كما هى دعوانا فى هذا الكتاب .

وما أحوج البشر فى هذه الأيام العاصفة بتجارب القنابل الذرية ، التى تهدد الانسانية فى مجموعها ، أن يقفوا قليلا ليتأملوا ويطيلوا التأمل معيدين النظر فى أى الطريقين يسلكون . فثمة طريق يؤدى الى الهاوية وآخر يؤدى الى الخير والرشاد ، الى الجنة التى طال ماتطلع اليها البشر سواء على الأرض أم فى السماء والكلمة الآن لهم ، لكل انسان ، على حدة أن يختار أى الطريقين .

وبعد فلعلى قد أطلت فى هذه المقدمة بأكثر مما ينبغى فى نظر البعض ، ولكنى قد قصدت الى ذلك قصدا لأهيىء القارى نفسيا لهذهالرحلةالطويلة التى سيجتازها خلال فصول الكتاب العشرة قبــل أن يأتى على سطره الأخــير .

فالى اللقاء أيها القارىء العزيز ، الى اللقاء عند هذا السطر الأخــير لنسر معا على الطريق فى رعاية الله وبركة الله وباسم الله .

الروضة ١٥/١١/١٩٦١

أحمد حسين

الفصل الأول

نسبية المعرفة

عصر الفضاء ـ جاجارين وتيتوف ـ لا نهائية الكون ـ عصر الذرة ـ قنبلة هيروشيما ـ تسخير الطاقة الذرية للاغراض السلمية ـ حجم اجزاء الذرة ـ عصر الطيران ـ من ويلز رايت الى الطائرات النفاثة ـ أفول نجم الطيران ـ عصر اللاسلكى والتلفزيون ـ ماركونى ـ سر انطلاق الأمواج الكهرومغناطيسية ـ عصر الكهرباء ـ اديسون والمصباح الكهربائى ـ عصر البخار ـ من الاسكندر حتى نابليون خريستوف كولمبس وماجلان ـ هتلر ونابليون ـ جورج ستيفنسون ـ اختراع العجلة هو الأساس ـ عصر المطبعة ـ جوتنبرج والكتاب والورق ـ أوراق البردى ـ عصر الكتابة ـ عصر الزراعة ـ عصر النيران ـ أسطورة اسكالس ـ عصر الكلام ـ نسبية المعرفة ـ جمهورية أفلاطون ـ علم قدماء المصريين ـ انقلاب القوانين الطبيعية ـ بحر المعرفة اللانهائى ـ نيوتن .

عصر الفضاء

عندما انطلق أول قمر صناعى (سبوتنك الأول) فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٥٧ فاخترق طبقات الجو المحيطة بالكرة الأرضية متحررا من جاذبية الأرض التى سجنت كل ما كان عليها ألوف الملايين من السنين ، اهتز أولو الألباب فى أنحاء العالمين لعظم الوثبة التى استطاع الانسان أن يثبها فى عالم الطبيعة ، وادراكه الكثير من نواميسها واستغلال هذه النواميس لتحقيق أغراضه .

وسيظل هذا التاريخ ٤ أكتوبر ١٩٥٧ هو التاريخ الفعلى لبدء عصر الفضاء ولكن التاريخ الرسمى أو شهادة الميلاد لهذا العصر يبدأ فى ١٢ ابريل عام ١٩٦١ عندما استطاع « يورى جاجارين » أن يدور حول الأرض داخل

أحد هذه الأقمار ثم يعود سالما ، ثم تلاه جيرمان تيتوف فى ٧ أغسطس من نفس السنة والذى ظل يدور حول الأرض طوال أربع وعشرين ساعة فأكمل سبع عشرة دورة ، وتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية فبدأت تجاربها فى هذا السبيل . وهكذا بدأ بحق ما أطلق عليه اسم عصر الفضاء .

وقد بدأنا منذ الآن نقرأ الكثير عن عصر الفضاء ، وعما سيقع فيه من تبدل فى كل ما اعتاده الانسان وألفه ، يقولون ان الرحلة الى القمر ، لن تعد رحلة بالمعنى المفهوم من كلمة رحلة ، اذ ستكون مجرد انتقال محلى يشبه انتقال الانسان من قلب المدينة الى أحد أطرافها فالقمر لا يبعد عن الأرض الا مسافة تتراوح بين ٢٢٢ ألف ميل و ٢٥٣ ألف ميل [١] .

أما ما يمكن اعتباره سفرا الى المدن القريبة ، فهى الرحلة للى الزهرة ٢٦ مليون ميل فقط أو المريخ ٣٤٫٥ مليون ميل [٢] .

ولن نجد شبها لسفرنا خارج أقطارنا عبر البحار الى قارة أخرى كأفريقيا أو آسيا ، الا أن تكون رحلة لكوكب آخر خارج المجموعة الشمسية . ولعله يحسن بك أن تعرف أن أقرب نجم الينا بعد الشمس ، يعادل بعده ٢٦٠٫٠٠٠ مرة بعد الشمس عنا التى تبعد عنا ٩٣ مليون ميل [٣] .

ويجمح بنا الخيال عن رحلات فى الفضاء عبر نجوم المجرة التى تراها فى السماء فى ليلة صافية وكأنها غبار أبيض أو سحب خفيفة على رقعة السماء ، وقد اسماها القدماء طريق التبانة . والمجرة هذه هى التى تؤلف

---

(١) كتاب الفلك العام ـ سيرهربرت سبنسر جونز ـ ص ١٧٦

(٢) كتاب الفلك العام ـ ص ٣١٧

(٣) من السديم الى الانسان ـ

المجموعة الشمسية أحد ذراتها ، اذ أنها تحتوى على مائة مليون نجم موزعة فيما يشبه القرص المفرطح الرقيق نسبيا .

ويقول هربرت سبنسر جونز مؤلف كتاب الفلك العـام ، ان الضوء يستغرق مائة ألف سنة ضوئية ليصل بين طرفى المجرة ، ومعلوم أن الضوء يسير بسرعة ١٧٦٫٠٠٠ ميل فى الثانية أو ٣٠٠ ألف كيلو متر وعلى هـذا فان السنة الضوئية تعادل ١٠ مليون مليون كيلو متر [١] .

وليست هذه المجرة التى تبلغ هذا الحد من الضخامة التى لا يقوى العقل على استيعابها الا واحدة من كثيرات لم يحصها العد ، وبقى أن تعرف أن أقرب مجرة لمجراتنا تبعد ٧٠٠ ألف سنة ضوئية [١] .

والفضاء هو شىء يختلف كل الاختلاف عن عالمنا ... هناك لا تقاس الأبعاد بالكيلو متر أو الميل أو مئات الألوف من الأميال . وانما تقاس بسرعة الضوء ، وتقاس بالسنين الضوئية كما رأينا .

وعلى ذلك فان هذه السرعة التى تدور بها الأقمار الصناعية أو تنطلق بها والتى بلغت حتى الآن ٤٠ ألف كيلو متر فى الساعة ، ليست سـوى خطى السلحفاة بالنسبة لمراكب الفضاء فى المستقبل والتى يتخيلون لهـا سرعات تقترب من سرعة الضوء .

وبقى لكى تأخذ صورة عن تغير المقاييس والقيم فى هذا العالم الجديد أن تعلم أنه بناء على النظرية النسبية التى أصبح معترفا بها علميا الآن أنه اذا تحرك جسم بسرعة تقترب من سرعة الضوء فان الزمن بالنسبة لهـذا الجسم يصبح بطيئا جدا . وتستطيع السفينة أن ترحل فى الفضاء كشعاع كونى مدى مئات الألوف من السنين الأرضية من نجم الى آخر ولكنها اذا كانت متحركة بسرعة الضوء فان ملاحيها يشعرون بأنه لم يمض عليهم غير

---

(١) قصة الكون من السديم الى الانسان

أسابيع قليلة [1] . ولو قدر لهم أن يعودوا الى الأرض بعد أن يكونوا قد قطعوا فى رحلتهم ٢٠٠٠ سنة ضوئية فانهم سيجدون أن أهلهم وأصدقاءهم قد ارتدوا الى الماضى البعيد وأصبحوا جزءا من التاريخ القديم ، بل ربما وجدوا أن اسم الدولة التى أرسلتهم للقيام برحلتهم قد أصبحت نسيا منسيا [2] .

ذلك كون وعالم لا نعرف منه شيئا ولا نستطيع أن نحيط بأسراره ، ولكن الذى لا شك فيه أننا نشهد اليوم مقـدماته ، والشىء المحقق أن الانقلاب الذى سيطرأ على البشر فى هذا العالم الجديد لا يستطيع خيالنا الآن أن يصل اليه ، ولا شك أن الناس عندئذ سينظرون الى ما نحن عليه اليوم من علوم وفنون وأفكار وآراء ، نظرتهم الى عصـور الجاهلية ، أو العصور الحجرية وما قبل التاريخ ، وكل ما تتصوره اليوم علما وحقائق نعتز بها ، سيبدو الجزء الأكبر منه بمثابة خرافات وأساطير وترهات . لأن كل معارفنا عن الفضاء وما يدور فيه ليس سوى فروض وتكهنات ونظريات وشتان بين من يفرض ويتكهن ، وبين من يعاين ويباشر .

فلندع الآن هذا العالم عالم الفضاء ، ولندع عصر الفضاء لأربابه فأغلب الظن أن جيلنا قد قدر له أن يشهد عن بعد أرض الميعاد دون أن يدخلها .

ولننقل حديثنا عن العصر الذى يظللنا بالفعل وأصبحنا نعيش فيه وهو عصر الذرة .

عصر الذرة

بدأ عصر الذرة فى دوائر العلماء ثم فى معامل الطبيعة بعد ذلك منذ

---

(١) كتاب السفر الى الكواكب ـ تأليف جوناتان نورتون ليونارد ـ ص٢٦١
(٢) المصدر السـابق

أكثر من قرن من الزمان [1] ، عندما وضع دلتون نظريته الأولى عن الذرة ، ولكن عصر الذرة الرسمى ، أو بالأحرى لم يظل عصر الذرة الدنيا الا فى ٦ أغسطس عام ١٩٤٥ عندما أسقطت الولايات المتحدة الأمريكية أول قنبلة ذرية فوق مدينة هيروشيما فقتلت فى أقل من ثانية ١٤٥ ألف نسمة وحولت مدينة ضخمة تغص بالحركة والحياة والمصانع الى أتون مستعر وركام من الأنقاض والخرائب وسحب من الاشعاعات المهلكة ولوثت الجو فى مساحة ضخمة بما يهدد الجنس البشرى بأفدح الأخطار .

وتساءل البشر المذهول عما حدث فقيل له ، ان حلم البشرية قد تحقق أخيرا وأمكن للانسان أن يشطر نواة الذرة ، الذرة التى قال عنها دلتون مؤسس نظرية الذرات فى العصر الحديث انها لا تنشطر ، ولقد مضى الآن على قنبلة هيروشيما أكثر من خمسة عشر عاما ، أصبحت تعتبر شيئا قديما صغيرا جدا بالقياس الى القنبلة الجديدة ، وهى القنبلة الايدروجينية والتى تحتاج لتفجيرها الى قنبلة ذرية فى داخلها [2] .

وبالرغم من أن بضع قنابل ايدروجينية تكفى لمحق دولة بأسرها من الوجود ، فقد وضعت الخطط لصنع قنبلة تتضاءل الى جوارها القنبلة الايدروجينية وتلك هى القنبلة الكوبالتية [3] :

---

(١) احتفل بدلتون عام ١٨٣٤ فى لندن باعتباره أول عالم فى العصر الحديث صاغ نظرية متكاملة عن الذرة ، ثم تتابع بعده العلماء ومنهم طومسون ورزفورد .

(٢) فجر الاتحاد السوفيتى ، يوم الاثنين ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٦١ ، على ما ذكرت وكالات الانباء ،قنبلة ايدروجينية مقدارها خمسون مليون طن ديناميت، أى خمسمائة ضعف قنبلة هيروشيما .

(٣) تقوم فكرة قنبلة الكوبالت على مضاعفة الجانب المخيف فى الانفجارات الذرية ، الا وهو النشاط الاشعاعى ، ويمكن ان يستخدم هذا النشاط فى تسميم العدو ، ولكن زمامه قد يفلت فيسمم الجميع (من كتاب مستقبلنا الذرى)

ومعنى ذلك كله ، ان الانسان أصبح مساحا بما يستطيع به أن يقضى على المدنية الحاضرة فى بضع ساعات ، واذا كان هذا هو الجانب المظلم فى عصر الذرة ، فان له جانبه المشرق ، اذا لم يجن جنون القوم ويشعلوا نيران الحرب التى لن تبقى ولن تذر ، ففى خلال هذه الأعوام الخمسة عشر أمكن السيطرة على هذه الطاقة المنطلقة من شطر الذرة وتوجيهها للأغراض السلمية ، فبدأنا نرى محطات لتوليد الكهرباء تدار بقوة انشطار الذرة ، ورأينا غواصات وسفنا بخارية ومحطمات جليد تستخدم هـذه الطاقة الجديدة ، وليس ذلك سوى نقطة البداية ، ولن ينقضى جيل واحد منـذ الآن ، حتى تكون هذه الطاقة قد سخرت لتحقيق أغراض ضخمة ، كتحويل ماء البحار الى مياه عذبة لرى الصحارى وبالتالى زراعة ألوف الملايين من الأفدنة ، بل ولاستخلاص كل أنواع المعادن والأغذية من مياه البحار التى لا تنفد بكل ما يعنيه ذلك من رخاء للبشر .

ويقف العقل حائرا مشدوها ، أن تكون أتفه الجسيمات فى هـذا الوجود التى لا ترى بأعظم الميكروسكوبات [1] ، منطوية على هذه الطاقة

---

(١) تتألف المادة من ذرات لايمكن رؤيتها بأقوى المجاهر (الميكرسكوب) ولكى نتصور حجم الذرة علينا أن نتصور اننا لو رصصنا مائة مليون ذرة جنبا الى جنب لبلغ طولها بوصة تقريبا . ومن ناحية اخرى يوجد فى قطرة من مياه البحر خمسون مليون مليون ذرة من الذهب .

وتتألف الذرة من نواة تدور حولها كهارب سـلبية (ايلكترونات) فى افلاك مستديرة وبين الاثنين فراغ ، يشبه الفراغ بين الكواكب والشمس من حيث النسبة بين الحجم والأبعاد .

ويبلغ وزن أخف نواة ١٨٥٠ ضعف وزن الايلكترون ، ولو رصت عشرون الف نواة جنبا الى جنب لبلغ طول قطرها قطر الذرة ، أو بعبارة أخرى نسبة النواة الى الذرة كرأس الدبوس ، بالنسبة الى منزل متوسط الحجم .

وتدور الايلكترونات حول النواة فى أفلاك كأفلاك الكواكب اذ تدور حول الشمس ، ولكن هذه الأفلاك أكثر حساسية وأقل تحديدا من أفلاك الكواكب =

الجبارة التى لا حد لها ، والتى جعلت من الانسان سيد هـذا الكوكب الأرضى بلا منازع ان شاء أبقى على حضارته وزادها ازدهارا لم يسمع بمثله فى التاريخ ، وان شاء حولها حطاما وركاما كأن لم تغن بالأمس ، فهل وراء ذلك قوة ، أو وراء ذلك علم ؟ .. ومع ذلك فقد رأينا كيف أن عصر الفضاء يوشـك أن يطمس على ذلك كله ويجعله فى الدرجة الثانية من الأهمية ان لم يكن دون ذلك .

عصر الطيران

ذكرنا فيما سبق أن طائرة هى التى ألقت القنبلة الذرية على هيروشيما ، وذلك يذكرنا بالدور الذى لعبته الطائرة فى حياة البشر ، سـواء خلال الحرب أو أيام السلم ، ولعله لم يحدث فى تاريخ الصناعة كلها أن تطورت آلة هذا التطور العجيب فابتدأت منذ ستين سنة فقط أشبه بلعبة من اللعب وانتهت لتطبع عصرا بطابعها خيّل لمن يعيشون فيه أنهم وصلوا الى قمة السيطرة والسيادة فيه على الجو . ففى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٠٣ استطاع أمريكى يدعى ويلز رايط أن يمتطى طائرة من صنعه هو وشقيقه ، فطار بها

= ولو أن المادة كانت مؤلفة من النوى الذرية فقط مكدسة مع بعضها أى بدون الفراغ الموجود بين النواة والايلكترونات لبلغ وزن قطعة نقدية فى حجم القرشين حوالى ٤٠ مليون طن .

وتتألف النواة من كهارب موجبة (بروتونات) يساوى عددها عدد الكهارب السالبة (الايلكترونات) التى تدور حول النواة ــ ويوجد الى جوار البروتونات كهارب أخرى متعادلة الشحنة تسمى نيوترونات ولو استطعنا ان نخلخل من هذه الرابطة التى تربط بين البروتونات والنيوترونات ، أو بالاحرى لو استطعنا ان نهيىء السبل لهرب نيوترون واحد من بين مجموع النيوترونات التى تحيط بالبروتونات اذن لانطلقت طاقة كبرى كان اينشتين أول من قدرها بأنها تساوى الكتلة فى مربع سرعة الضوء مقدرا بالسنتى متر فى الثانية .

(مستقبلنا الذرى ــ تأليف ادوارد تيللر والبرت لانر)

٨٥٠ قدما فى ٥٩ ثانية [١] وكان يجب أن تنقضى على هذه التجربة الأولى خمس سـنوات كاملة قبل أن يتقبل العالم نهائيا فكرة امكان الطيران ، فقد كان العلماء يؤكدون انه من المستحيل الطيران بآلة أثقل من الهواء ونحن نعرف كلنا باقى القصة ، فهذه الطائرات النفاثة التى تئز فوق رؤوسنا بالليل والنهار ، تحدثنا عن هذه الأعجوبة من أعاجيب التطور ... فلم تعد الطائرة تحمل رجلا أو رجلين بل تحمل المائة والمائتين ، بل انها أصبحت تحمل الدبابات والمدافع الثقيلة والسيارات ، والطائرة التى عجزت عن أن تقطع المسافة منذ خمسين سنة بين مصر الجديدة والأهرام ذهابا وايابا [٢] ، تدور الآن حول العالم كله دون توقف وباستطاعتها أن تظل فى الجو أياما وأسابيع اذا لزم الأمر بعد أن أصبح من الممكن تغذيتها بالوقود وهى طائرة فى الجو ، وأصبح باستطاعتها أن ترتفع الى مائة ألف قدم أو يزيد ، بل ان بعض الطائرات اليوم بعد أن تصل الى هذا الارتفاع الشاهق ترسل من بطنها طائرة أخرى أخف وزنا لتحلق الى ما فوق ذلك ، الى حافة الفضاء الخارجى . وأصبح متوسط سرعة الطائرات هو خمسمائة ميل فى الساعة لطائرات الركاب .. أما الطائرات الأخـرى المقاتلة فقد بلغوا بها سرعة الصـوت ، بل واخترقوا حاجز الصوت فانطلقت طائرات بسرعة ٣٠٠٠ كيلو متر فى الساعة وحق للعالم أن يصف العصر بأنه عصر الطيران ، ولكن ها نحن أولاء نشهد قرب أفول نجم الطيران كوسيلة سريعة للمواصلات فى

---

(١) اساطين العلم الحديث لفؤاد صروف .

(٢) اقيمت فى مصر بضاحية مصر الجديدة (هليوبوليس) فى فبراير سنة ١٩١٠ مسابقة دولية للطيران توافد لها اشهر الطيارين فى العالم فى ذلك الوقت ــ وكانت المسابقة هى الطيران من مصر الجديدة الى الاهرام وبالعكس ففشل جميع الطيارين فى تحقيق هذا الهدف .

(مذكرات لندبرج ــ ترجمة الاستاذ كمال نجيب)

المسافات البعيدة ، فالصواريخ اليوم باتت تنطلق بسرعة عشرة آلاف ميل فى الساعة فتلاشت الحواجز والمحيطات ، وان هى الا بضع سنوات حتى تصبح الطائرات كسلاح من أسلحة الحرب احدى التحف القديمة والعاديات الأثرية ، فليس يحتاج الصاروخ لكى يصيب أى هدف على سطح الأرض الا مجرد ضغطة على زر وبضع دقائق أو بضع ثوان .

وقد تظل الطائرات كوسيلة من وسائل المواصلات للنقل المدنى ، ولكنها عندما تقارن سرعتها بسرعة الصواريخ التى ستنطلق عبر الفضاء ، ستكون أشبه بحمار الأمس فى نسبته الى طائرة اليوم .

وهكذا ما تصورناه فى يوم من الأيام قمة ما وصل اليه الانسان من رقى وسيادة علـى الجو ، يوشك أن يصبح لونا من ألوان التخلف والعجز والقصور بالنسبة لامكانيات البشر الجديدة ، وما انكشف له من قوى جديدة وطاقات .

عصر اللاسلكى والتليفزيون

واذا كان عصر الطيران يعتبر وثبة كبرى من وثبات البشر فى العلوم التطبيقية ، فان وثبة أضخم قد سبقته وعاصرته وتدل كل الدلائل أنها ستخلفه وتخلف سائر العصور الماضية ، وستجد مكانها فى عصر الفضاء وتلك هى وثبة اكتشاف الأمواج الكهرومغناطيسية التى تنطلق بسرعة الضوء ، والتى مكنت الانسان من اسماع صوته عبر البحار والخلاء والفضاء وكما ارتعش أولو الألباب من بنى الانسان يوم سمعوا بنبأ اطلاق أول قمر صناعى ، فكذلك كان شأنهم عندما استطاع ماركونى أن يبعث عبر المحيط الأطلسى (١٨٠٠ ميل) ثلاث نبضات لا أكثر ولا أقل (تك — تك — تك) وذلك فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠١ وهو التاريخ الخالد فى حياة دنيا اللاسلكى ...

ففى هذا اليوم انهارت كل آراء العلماء والاساتذة الــذين اجمعوا بالدليــل والبرهان الحسى والمعادلات الرياضية التى لايأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها ، على أن ارسال مثل هذه الاشارة اللاسـلكية عبر المحيط الأطلسى أمر مستحيل ، ذلك أن الأمواج الكهرومغناطيسية ، وهى أمواج تســير بسرعة الضوء تسير فى خطوط مستقيمة ، ولما كانت الأرض كروية ، فان الانحناء بين شاطئى الأطلسى تؤلف جدارا ارتفاعه مائة ميل فى وجه هذه الأمواج المنطلقة من أحد شاطئيه ، فيستحيل أن تصل الى الشاطىء الآخر .

أرأيت ماذا قال العلماء ؟ أرأيت حديث العلم التجريبى عندما يتحدث بالحقائق والأرقام ؟ [1] ولكن الاشارات الثلاث وصلت مع ذلك مكذبة كل ما كانوا يدعون ومؤكدة ان فوق كل ذى علم عليم .

ونحن نعيش اليــوم فى دنيا اللاسلكى وآيات اللاسلكى ففى بيوتنا الراديو والتليفزيون الذى لا يحمل عن بعد الأصوات فقط بل والصور وسائر المشاهد .. وان هى الا أعوام حتى يلحق التلفزيون بالراديو ليصبح عالميا فنرى فى بيوتنا كل ما يدور فى العالم ساعة حدوثه .

بقى أن تعرف أن ماركونى وان كان هو الاسم العلم فى دنيا اللاسلكى ، فلم يكن كشفه الا كما هو الشأن فى كل اختراع أو كشف سابق ، مجرد حلقة فى سلسلة طويلة من الحلقات التى سبقته [2] .

عصر الكهرباء

ـ وهل كان من المتصور امكان التفكير فى اللاسلكى لو لم يكن العالم

---

(١) اكتشف العلماء بعد أن تمت هذه التجربة ، أن فى الجو طبقة مؤينة ionized تعكس هــذه الأمواج فتردها الى الأرض التى تعكسـها من جديد ، لتعكس مرة أخرى وهكذا حتى تصل الى هدفها ـ (اساطين العــلم الحديث ـ فؤاد صروف)

(٢) تعتبر مباحث جوزف هنرى الامريكى (١٨٤٢) ودافيد هيوز مخترع الميكرفون واديسون ومكسويل وهرتز من العلماء الذين هيأوا السبيل لامكان اكتشاف اللاسلكى ـ (اساطين العلم الحديث)

قد استضاء بنور الكهرباء ، ألم تكن الكهرباء هى صانعة هذه الحضارة التى نعيش فيها .. أكان من الممكن أن تطير الطائرات أو تنطلق السيارات ، أو تنتقل المحادثات أو تسجل البرقيات ، أو تفتح دور السينما وأن تحتشد الملايين فى المدن مواصلة العمل بالليل والنهار ، الا بعد أن استظل البشر بعصر الكهرباء ، وهل تنطلق الصواريخ التى تنطلق اليوم ، وتدور الأقمار الصناعية التى تدور وترسل لنا كل ما نطالعه فى صفحة الفضاء الخارجى ، بل ترسل لنا صور الوجه المختفى من القمر الا بواسطة الكهرباء .. ومع ذلك فما أكثر ما أصبحت الكهرباء فى حياتنا شيئا لا يلفت الأنظار .. وكم من الناس يعلم أن هذا المصباح الذى يضىء حجرته بالليل فلا يكاد يتأمل فى صنعه قد هز الدنيا كلها هزا عندما صنعه أديسون لأول مرة فى التاريخ .. واعتبر ولا يزال يعتبر عند البعض من أعظم الاختراعات التى جاء بها البشر [1] .

عصر البخار

واذا كان عصر الكهرباء قد تربع على عرش العلوم الانسانية فى القرن العشرين ، فقد كانت الصيحة فى القرن التاسع عشر لعصر البخار ، والذى قالوا عنه وما أكثر ما قالوا وسوف يقولون ، قالوا عنه انه هو الذى قلب حياة البشر رأسا على عقب ، وهو الذى يفصل بين تاريخ الانسان ، ما قبل عصر البخار وما بعد هذا العصر ، فالانسانية بعد عصر البخار قد دخلت فى دنيا جديدة ومفاهيم جديدة ومقاييس جديدة ، ويدللون على ذلك بمثال لا تنقصه الطرافة . فقد اضطر نابليون أن يتقهقر عن موسكو

---

(١) لم يكن اختراع اديسون لمصباحه هو أول عهد البشر بالكهرباء فقد كانت اسماء مكسويل وفراداى وأمبير وفولتا أعلام فى دنيا الكهرباء ، وكل منهم قد أسهم بنصيب فى تقرير بعض الحقائق وصنع بعض الأجهزة ..

عام ١٨١٢ ، وأسرع يعدو الى باريس لانقاذ عرشه المنهار ، تاركا جيشه فى سهوب روسيا وجليدها تتناوشه عوامل الفناء .. ومع ذلك فلم يكن باستطاعة نابليون أن يسرع من موسكو الى باريس بأداة أسرع مما كان يستطيعه الاسكندر المقدونى قبل ذلك بأربعة وعشرين قرنا من الزمان وهى العربة التى تجرها الجياد . أما بعد اكتشاف قوة البخار فانظر الانقلاب الذى وقع فى العالمين .

خريستوف كولمبس وماجلان

ولو أنهم تعمقوا قليلا فى البحث ، ولم تخطف أبصارهم هذه القعقعات التى تثيرها الاختراعات الجديدة ، لوجدوا أن البشر قد طافوا حول أفريقيا من ألوف من السنين قبل اكتشاف البخـــار . ولقد اكتشف خريستوف كولمبوس أمريكا ولم تكن سفينته ذات بخار [1] ، وطاف ماجلان حول الدنيا كلها بمركب ذات شراع [2] . ووصل الاسكندر المقدونى من أوروبا الى أسوار الصين هو وجنوده سيرا على الأقدام ، وحكم الرومان العالم القديم واحتلوا الجزر البريطانية وسيطروا على أوروبا وأفريقيـــا وشرق آسيا .. ولم يكن ثمة بخار أو كهرباء ، وفعل العرب بعدهم مثل ذلك ، عندما خرجوا من جزيرة العرب وساروا شرقا حتى الصين وجنوبا حتى جزر الهند الشرقية فى أندونيسيا وغربا خلال أفريقيا ، وعبروا جبل طارق الى الأندلس .. وأنشأوا هذه الدولة التى لا تغيب عنها الشمس . ولم يكن ثمة برق أو تلغراف أو بخار أو سيارات أو طائرات .

نابليون وهتلر فى روسيا

وها هو هتلر يلقى فى روسيا نفس المصير الذى لاقاه نابليون من قبله

---

(١) وصل خريستوف كولمبس الى أمريكا أول مرة عام ١٤٩٢

(٢) بدأ ماجلان رحلته من مدينة اشبليه عام ١٥١٩

وهو الهزيمة الساحقة الماحقة التى أدت الى نهـايته .. ولقد تصور هتلر بالنظرة السطحية التى ينظر بها العوام ، أن لا محل للمقارنة بين نابليون الذى كان يجتاح روسيا سيرا على الأقدام ، وبين جيوش ألمانيا التى تجتاحها بالدبابات والطائرات والسيارات ، والتى تتراسل باللاسلكى والتلفزيون ، والتى يزودها القرن العشرون بأعظم الطاقات التى أذهلت بنى الانسان . ولكن الجليد الذى هرأ جيوش نابليون قد فعل مثل ذلك بجيوش هتلر ، وقد استطاع نابليون راكب الحصان أن يدخل موسكو ، ولكن هتـلر راكب الطائرة لم يستطع أن يدخلها أبدا ..

وما حدث فى الشرق قد حدث مثله فى الغرب .. فقد وقف نابليون الذى وضع قدميه على القارة الأوروبية عاجزا عن غزو الجزر البريطانية ، لأن قنال المانش وقف حاجزا فى وجه أطماعه .. وصرخ هتلر فى يوم من الأيام أنه لم يعد هناك مانش يفصل الجزر البريطانية عن أوروبا ، بعد أن أصبحت ألمانيا سيدة الجو بطائراتها .. ومع ذلك فقد وقف هتلر عاجزا عن غزو الجزر البريطانية فى صيف، عام ١٩٤٠ تماما كما عجز نابليون راكب الحصان من قبله .

فالقول بأن قوة البخار قد قلبت الدنيا رأسا على عقب ، وتعد تاريخا فاصلا بين حقبتين من حياة البشر ، هو قول ساذج تلهيه القشور عن جوهر الأمـور .

ومع ذلك فأى هزة عمت الدنيا فى ذلك الوقت عندما استطاع جورج ستيفنسن (١٧٧١ — ١٨٤١) أن ينشىء أول قاطرة تسير بالبخار .. لقد وصف الانجليز هذه المركبة التى لا تجرها الجياد أنها مركبة الشيطان ورجموها بالحجارة ومنعوا دخولها فى أراضيهم ، بينما كان أولو الألباب

يتصورون أن الانسان قد وصل الى ذروة العلم والسلطان بعد أن اكتشف قوة البخار .

ولم يقف واحد منهم ليتساءل أكان هذا الاختراع متصورا أو ممكنا لولا هذا الشيء البسيط الذى يبدو لنا اليوم تافها ، وأعنى به العجـلة ؟ ألا يجب اعتبار اختراع العجلة وثبة من وثبات الانسانية الكبرى ، فهل الآلات كلها صغيرها وكبيرها بسيطها ومعقدها ، الا عجلات تدور . فالعربة والسيارة والقاطرة وكل آلة رحوية من أى نوع كان ، قد اخترعت يوم أن اصطنع الانسان الأول عجلة تدور ، ويجب أن نعود الى عصور موغلة فى القدم لم يسجلها التاريخ اذا أردت أن تعرف متى وأين كانت هذه الوثبة الضخمة من وثبات البشرية .

عصر المطبعة والكتاب والورق

وما لنا نذهب بعيدا الى العجلة ولدينا ما هو أقرب عهدا منها ، وما كانت كل اختراعات القرون الحديثة لتوجد لولاها ، وأعنى بذلك اختراع المطبعة (جوتنبرج ١٤٠٠ — ١٤٦٨ م) والتى جعلت العلم فى متناول الجميع بنشر الكتاب ، وهـل كانت المطبعة توجد لو لم يوجد الورق الذى اخترعه الصينيون على هذه الصورة منذ ألفى عام [١] وصنعه المصريون من قبلهم من ورق البردى منذ خمسة آلاف عام .

انك لم تفكر لحظة فيما يعنيه الورق بالنسبة لحياتنا انه شيء لا يثير فيك أى اهتمام ومع ذلك فلو تلفت حولك لما وجدت حضارتنا كلها تقوم على عنصر أهم من عنصر الورق ، فلو لم يتسلح الانسان بالورق لما أمكن بحال أن يشيد هذه الحضارة الانسانية الباذخة .

---

(١) الكشف والفتح فى الميدان العلمى ـ تأليف مالكوم بير

عصر الكتـــابة

بل انه لا الورق ولا الكتاب ولا المطبعة بالذى كان يأخذ طريقه للحياة لولا الكتابة ، فهل يمكن أن تقاس الوثبة التى وثبتها الانسانية فى أى مرحلة من مراحلها بتلك التى كانت تثبها عندما اهتدت الى فكرة الكتابة فاخترعت رموزا تسجلها على قطعة حجر أو خشب أو ورق شجر لتعبر بها عن معنى مشترك بين الكاتب والقارىء والانسانية فى مجموعها .. وعندما أخذت هذه الرموز شكلا محددا فى أحرف الأبجدية ألم يكن ذلك هو بدء صفحة جديدة فى حياة البشر ، اذ أصبح العلم ممكنا ، وأصبح بحرا يغترف منه من يشاء .

عصر الزراعـــة

وعندما اكتشف الانسان الزراعة لأول مرة وأدرك أن باستطاعته أن يضع الحب فى الأرض ويستنبته حينما يشاء بالقدر الذى يشاء فلا يعيش تحت رحمة الطبيعة عندما اتخذ الانسان من الزراعة على نطاق واسـع سبيلا لاطعام نفسه ، والذى يقدر العلماء أنه حدث منذ عشرة آلاف سنة[1] . ألم يكن ذلك انقلابا بعيد الغور ، ختم الانسان به مرحلة الصيد والقنص والتنقل والهجرة الى مرحلة الاستقرار وما أدت اليه من كل مظاهر الحضارة ان كثيرا من فلاسفة التاريخ يقفون طويلا أمام هذه النقلة فى حياة البشر ، ويعتبرونها النقطة الحاسمة لبدء الحضارة الانسانية . ولكننا لا نقول بمثل قولهم من أن الحضارة بدأت أو ستبدأ من نقطة محددة أو عمل معين .

عصر النـيران

وعندما استطاع الانسان لأول مرة منذ نصف مليون سنة [1] أن يحدث

---

(١) الكشف والفتح فى الميدان العلمى ٠ مالكولم بير

نارا مثل هذه النار التى كانت تسقط عليه من السماء ، والتى كانت تشعل الغابات فى أيام الصيف القائظ فتحولها الى جحيم يشوى الأبدان .. عندما حك لأول مرة غصنين فأحدث منهما شرارة ، أو عندما طرق حجرا بآخر فانطلقت منه الشرارة .. ألم يكن بذلك يبدأ البحث فى سر الوجود الذى ما زلنا نتيه فى بيدائه .. ما هو البخـــار ، ما هى الكهرباء ، ما هو انشطار الذرة ، ما هى الشمس والنجوم ، بل وما هى الحياة كلها .. نار وحرارة ولا شىء زيادة .

فالانسان الأول وهو يحدث لأول مرة نارا بيديه كان يثب من غير شك أو شبهة ، وثبة لا تدانيها وثبة من بعد [1] .

عصر الكلام

وأخيرا وليس آخرا فباستطاعتنا أن نمضى فى استعراضنا صاعدين الى ما لا نهاية ، لا نعرف أين نقف ولا بأى وثبة نعجب أشد العجب .. فعندما نطق الانسان أول ما نطق بالكلام وربما حدث هذا منذ أكثر من مليون سنة،

---

(١) لاعجب اذا قدر الاغريق بعبقريتهم الفذة خطورة اهتداء الانسان الى النار فصوروا ذلك فى اسطورة رائعة خلدها اسكلس فى القرن الخامس قبل الميلاد فى رواية تمثيلية ، وتقوم الاسطورة على أن برومثيوس قد صـــعد الى السماء ، واختلس النار من محفة الشمس الملتهبة فى غفلة من الالهة ، وهبط بها الى الأرض خفية ، وقدمها هدية الى قومه يستخدمونها فى قضاء مآربهم ، وقد كانت قبلا ملكا خالصا للآلهة المتازين يحتفظون بجذوتها دائمة الاشتعال فى مغاورهم على قمم الجبال ويحرصون على الانتفاع بها دون الانسان ، لكيلا يرتفع الانسان بعض الدرجات فى سبيل رفعه الى مستواهم • ولذلك فقـــد غضب زيوس كبير الالهة على برومثيوس وكبله بالاغلال ووضعه فى العـــذاب المهين ثلاثة عشر جيلا من أجيال الآدميين انتقاما منه لأنه علم الآدميين فن النار•
(النار والنور ــ امين ابراهيم كحيل)
(وقصة الحضارة البشرية لول ديورانت ــ الجزء الثانى ــ المجلد الثانى)

ألم يكن بذلك يخرج لأول مرة من جنس الحيوان ليدخل فى نوع الانسان ؟ فهل الانسان الا حيوان ناطق ، وبالنطق وحده امتاز الانسان على كل ما فى الوجود من موجودات على ما يقولون ؟

نسبية المعرفة

وهكذا يتضح لنا من هذا الاستعراض ، أنه من الوهم والخطأ أن يتصور متصور أن الانسانية فى عصورها الحديثة قد بلغت من الاقتدار نهايته أو من المعرفة أوجها ، وأنها اخترعت وابتكرت مالم يطف بعقول الأقدمين فى خيال ، وأن العقل البشرى كان فى القرون السابقة يعيش فى جهالة وطفولة لا يعرف كيف يخترع أو يبتكر وكيف يزيد سلطانه على العناصرالتىتحيط به ، وأنه اليوم واليوم فقط قد بلغ مرحلة النضج والرجولة .. مرحلة الابتكار والابتداع ، مرحلة الاحاطة بحقائق الطبيعة والحياة . ان ما فى أيدينا اليوم من آلات ، وما فى عقولنا من آراء ومعتقدات وأفكار ، هو ثمرة علوم من سبقونا وآلاتهم ، فلولا العجلة ما كانت السيارة ، ولولا كور الحداد ما كانت أفران الصلب والفولاذ ، ولولا المعارف التى تركوها لنا ما استطعنا أن نتطور بالمعرفة أو نزيد عليها ، وأيا كانت الآفاق التى ستصل اليها الأجيال القادمة ، أيا كانت الآلات والقدرات التى سيظفر بها من يجيئون بعدنا ، أيا كانت المعرفة التى سيحيط بها البشر فى المستقبل ، فليس ذلك كله الا النمو الطبيعى لهـذه الشجرة التى سقيناها بعرقنا ، وسقاها من كانوا قبلنا ، وما الشجرة الا نتيجة البذرة التى انطوى عليها الانسان الأول ، بذرة الوجود وأسراره .

فالخلاف بين علم أى جيل والأجيال السابقة أو اللاحقة هو خلاف فى الدرجة ، لا فى الكيف أو النوع فضلا عن الطبيعة ، علم أى جيل من الأجيال هو مجرد حلقة من هذه السلسلة التى لا أول لها ولا آخر .

ويخطىء من يتصور أن عقولنا اليوم أنضج من عقول من سبقنا لأننا نعرف مالم يعرفوا ، فان الانسان ليذهل وهو يطالع كتب الأقدمين،الذاهبين فى القدم اذ يرى أن كل ما تتصور أنه نظريات وحقائق علمية من خلق العصور الحديثة ، قد طاف بخيال الكتاب والفلاسفة فكتبوا فيه ودعوا اليه مما سنشير اليه فى فصل قادم ، بل ان كتابا واحدا كجمهورية أفلاطون قد حمل أمرسون الفيلسوف الأمريكى على أن يقول « احرقوا كل الكتب ففى هذا الكتاب غنى عنها » . ولا يملك ول دورانت أعظم مؤرخ أمريكى معاصر نفسه عن متابعة أمرسون فيقول « ان جمهورية أفلاطون — من أثمن الآثار التى يقتنيها البشر ، ففيها تجد مباحث ما وراء الطبيعة والآداب وفلسفة النفس واللاهوت والسياسة والفن ، فيها تجد المبادىء التى تنشدها طالبات التحرر من النساء ، وفيها تقع على القواعد التى يدعو اليها علماء الحياة لتحديد النسل ، فيها تعالج مبادىء الاشتراكية ، بل والشيوعية ، واليوجينية ، والأرستقراطية ، والديموقراطية ، والتحليل النفسى ، والمذهب القائل بأن الحياة مظهر من مظاهر التفاعل الكيميائى ، فلا عجب أن يقول أمرسون فى هذا الكتاب — احرقوا كل الكتب ففى هـذا الكتاب غنى عنها » [1] .

فاذا كان هذا هو الشعور الذى يتملك جهابذة العقول لدى مطالعة كتاب واحد فكم بالأحرى يكون موقفهم لو عثروا على ألوف الكتب التى لم تقع فى أيدينا بسبب الضياع والاندراس ؟

علم قدماء المصريين

واذا كنا نجد فى الحضارات القديمة بذور ما فى أيدينا من المعرفة ، فان

(١) جمهورية أفلاطون ترجمة حنا خباز ـ الطبعة الثالثة ص ب

باستطاعتنا أن نعثر على أكثر من ذلك ، على حقائق عرفوها وجهلناها ، وعلى علوم مارسوها ونعجز اليوم عن ممارستها ، فلن تجد اليوم عالما واحدا بين أساطين علم الكيمياء والحياة ، يستطيع أن يفسر لك كيف استطاع المصريون القدماء أن يحنطوا الأجساد فيحولوا بينها وبين البلى ألوف السنين ، حيث لا نستطيع اليوم بكل علومنا الكيميائية أن نحفظ جسما من الفناء الا أن تعاد عملية تحنيطه عاما بعد آخر [1] .

ويعجز كيميائيو العصر الحديث عن تركيب ألوان كألوان قدماء المصريين التى تتحدى الزمن والرياح والمطر آلوف السنين ، ويعجز مهندسو العصر الحديث وعلماؤه أن يفسروا كيف استطاع المصريون القدماء أن يقطعوا أحجار الجرانيت دون أن يكون لديهم متفجرات أو ديناميت ، وكيف استطاعوا بعد ذلك أن ينحتوها وينقشوها ويحملوها مئات الكيلومترات ويرفعوها الى قمة الأهرامات ، دون أن تكون لديهم أدوات من الصلب والفولاذ أو آلات رافعة أو قوة من البخار أو الكهرباء ، وسيعجزون بالأكثر أن يفسروا كيف استطاع قدماء المصريين أن يزينوا المقابر المنحوتة داخل الجبل والتى لا ينفذ اليها ضوء الشمس ، على أى ضوء نقشوها ، فنحن لا نعرف ضوءا لا يترك أثرا سوى الكهرباء ؟ كل هذه ألغاز ومعميات لا تجد عليها جوابا شافيا الا محض فروض ونظريات لو صحت لكانت أكثر مدعاة للعجب والدهشة من كل اختراعاتنا الحديثة وما تنطوى عليه من تعقيدات [2] .

---

(١) كما هو الشأن بالنسبة لجدث لينين فى موسكو ، حيث يعالج بالكيماويات من حين لآخر .

(٢) من ذلك قولهم ان الاحجار الجرانيتية كانت تقطع بوضع أخشاب فى ثقوب بين الأحجار وصب الماء عليها فيتمدد الخشب ، وتتمزق الأحجار بالتالى .

وهكذا تقف معارف الأقدمين فى منأى عن كل علومنـــا واختراعاتنا الحديثة ، وتفسير ذلك أنهم أحسوا بحاجات لا نحس بها ، وكانت لهم معتقدات وتصورات لا ندين بها ، والحاجة أم الاختراع ، والعلم ثمرة التصــور .

فلنضع ذلك نصب أعيننا دائما ونحن ننظر لآثار الأقدمين ، وأديانهم وعلومهم وفنونهم ، ولنقتصد فى نظرتنا لأنفسنا كعمالقة بازاء قطيع من الأقزام .

انقلاب القوانين الطبيعية

ولنكن متواضعين بالأكثر فيما نظن اننا قد ظفرنا به من حقائق علمية مطلقة ، فقد بدأ العلم نفسه يحل الاحتمال مكان اليقين ، والنسبية بديلا عن المطلق .

لقد قام علم الطبيعة الشامخ خلال القرون الثلاثة الماضية ، مذ وضع أسسه اسحق نيوتن [1] على أساس آلية الطبيعة وميكانيكيتها ، وأنقوانين الطبيعة ثابتة ومطردة على سبيل القطع واليقــين ، وأن الزمان والمكان مطلقان ، فجاءت النظرية النسبية والطبيعة الكمية فى مستهل القرنالعشرين تهز هذه المعتقدات من أساسها وتقلب كل القوانين الطبيعية رأسا علىعقب. لمتعد المادة شيئا يغــاير الطاقة فهذه من تــلك ،وأصبح يقال انكتلة أى

---

(١) هو اسحق نيوتن العالم الانجليزى (١٦٤٢ - ١٧٢٧) وقد كتب على قبره فى وستمنستر « هنا يرقد السير اسحق نيوتن الفارس الذى تمكن بقوة عقله التى تكاد تكون فوق الطبيعة ، من اثبات حركة السيارات واشكالها ، ومسارات المذنبات ، واسرار المد والجزر ، لقد بحث جاهدا فى معرفة انكسار أشعة النور وخواص الألوان ، وكان مفسرا بارعا حكيما أمينا للطبيعة والتاريخ وآيات الكتاب أكد فى فلسفته جلال الله وكشف فىسلوكه عن بساطة الأنجيل، فليفتخر الأحياء أنه قام فى العالم انسان كان فخرا عظيما للجنس البشرى ».
(اساطين العلم الحديث لفؤاد صروف)

جسم تزداد بازدياد سرعته ، وأنه يتقلص تمـاما اذا بلغت سرعته سرعة الضوء [1] .

وليس هناك وجود للزمان والمكان المطلقين ، فالزمان لا وجود له الا فى مكان معين ، والمكان لا وجود له الا فى زمان معين ، الأمر الذى جعل الطبيعة فى هذا التصور لا تقتصر على الأبعاد الثلاثة المعروفة من طول وعرض وعمق ، بل أصبحت تتألف من أربعة أبعاد بعد أن أضيف اليها البعد الرابع أو (الزمكان) أى الزمان المكانى ؟؟ .

ولم تعد قوانين الطبيعة ثابتة أو مطردة الا من حيث النظرة الاجمالية أما بالنسبة للنظرة التفصيلية لكل ذرة على حدة ، لكل كهرب فالقوانين احتمالية بحتة .

وفى ذلك يقول أينشتين فى كتابه تطور علم الطبيعة « لقد أدت تطورات العلم الحديث الى القضاء على المعتقدات القديمة واستحداث أخرى جديدة ، فقد قضت نظرية النسبية ، على فكرة الزمن المطلق والمجموعة الأحداثية القاصرة ، ولم يعد مسرح الحوادث هو متصل الفضاء ذو الثلاثة الأبعاد ، والزمن ذو البعد الواحد بل أصبح هو متصل المكان والزمان ذا الأبعاد الأربعة الذى تختلف قوانين تحويله عن القوانين القديمة .

وقد استحدثت نظرية الكم أيضا آراء ومعتقدات جديدة وأساسية ، فقد استبدلت فكرة عدم الاتصال بالاتصال وظهرت قوانين الاحتمال بدلا من القوانين التى تتحكم فى حركة الأجسام الفردية [2] » .

وهكذا بدأ هذا البناء الشامخ من العلوم الطبيعية التى تقوم عــلى

---

(١) تطور علم الطبيعة ـ ص ١٤٠
(٢) تطور علم الطبيعة ـ ص ٢١٩

أساس آلية الطبيعة يهتز من أساسه ، ودل ذلك على نسبية المعرفة ، وأن ما حصله الانسان أو سوف يحصله ، انما هى ومضات وشـرر من النور الأزلى الخالد ، أو قطرات من بحر المعرفة الطامى الذى لا أول له يعرف ، أو نهاية له تدرك ، وكل الذى يستطيعه الانسان أن يظل طافيا على سطح هذا البحر ، وأن يعب من مائه العذب ما وسعته القدرة أن يعب ، أما الوصول الى القاع فيكاد يكون أحد المستحيلات لأنه لا قاع له .

واذا كنا نقول ان بامكان الانسان أن يسبح فوق بحر المعـرفة فان نيوتن ، أعظم عقل جبار على ما يقولون أبى الذهاب الى هذا المدى ، اذ يقول لنا فى أخريات حياته أى فى الوقت الذى كان العالم ينظر اليه فيه على أنه أعلم العلماء « لست أدرى كيف ينظـر العالم الى ولكن أتراءى لنفسى كما لو كنت غلاما يلهو على شاطىء البحر ، وأسلى نفسى بين الحين والآخر بالعثور على حصاة أكثر ملاسة أو صدفة أجمل من المعتاد ، بينما كان محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامى دون كشف [1] » .

---

(١) رجـال الرياضـة ـ ص ١٢٦

مراجع الفصل الأول

١ — كتاب الفلك العام — سير هربرت سبنسر جونز — ترجمة عبد الحميد سماحة والدكتور حلمى عبد الرحمن .

٢ — قصة الكون من السديم الى الانسان — تأليف الدكتورين محمد جمال الفندى ومحمد يوسف حسن .

٣ — السفر الى الكواكب — تأليف جوناتان نورتون ليونارد ترجمة اسماعيل حقى .

٤ — مستقبلنا الذرى — تأليف ادوارد تيللر وألبرت لاتر ترجمه الدكتور محمد الشحات .

٥ — أساطين العلم الحديث — للدكتور فؤاد صروف .

٦ — مذكرات لندنبرج — ترجمة الأستاذ كمال نجيب .

٧ — الكشف والفتح فى الميدان العلمى — تأليف مالكولم بير — ترجمة الدكتورين أحمد حماد الحسينى وعبد الحليم منتصر .

٨ — النار والنور — تأليف أمين ابراهيم كحيل (من سلسلة اقرأ) .

٩ — قصة الحضارة البشرية — تأليف ول ديورانت — ٢١ جزء ترجمة محمد بدران والدكتور زكى نجيب محمود .

١٠ — جمهورية أفلاطون — ترجمة الأستاذ الكبير حنا خباز — الطبعة الثالثة .

١١— تطور علم الطبيعة — تأليف البرت أينشتين وليوبلد أنفلد — ترجمة الدكتورين محمد عبد المقصود النادى وعطية عبد السلام عاشور .

١٢— رجال الرياضة تأليف ا . ت . بل ترجمة الدكتور حسن محمد حسين وعبد الحميد لطفى .

١٣— استخدام الطاقة الذرية — تأليف البروفسور اتوهان — تعريب الدكتور عفاف صبرى .

١٤— الطاقة الذرية واستعمالها في السلم — تأليف جرالد وندت — تعريب الدكتورين محمد الشحات ، ابراهيم حلمى عبد الرحمن .

١٥— التلفزيون — تأليف فوزى كامل لطفى .

الفصل الثانى

هل الإنسان اليوم أحسن حالا منه بالأمس ؟

هل للانسانية هدف ؟ ـ المحافظة على الذات ـ المحافظة على النوع ـ هل انتصرنا على الموت ؟ ما الذى تعنيه زيادة السكان ؟ ـ هل زاد متوسط العمر؟ ـ هل قضينا على الأوبئة ؟ ـ حوادث السيارات ـ حوادث اصابات العمل ـ تنوعت الأسباب والموت واحد ـ مشكلة المرض ـ أمراض الحضارة ـ السرطان ـ مشكلة الغذاء ـ مشاكل البشر المعنوية ـ الانسان وشريعة الغاب ـ جرائم القتل والعدوان ـ الحروب ـ جريمة إبادة الجنس ـ مذبحة دير ياسين ـ دماء فى الهند ـ ثورات ـ مصرع لومومبا ـ هل ألغى الرق ؟ ـ هل قضى على التعصب ؟ ـ السعى لتحقيق العالمية ـ افلاس ـ اين تقهقر البشر ـ الانسان بين التأليه وذرة التراب ـ دارون والانتخاب الطبيعى ـ اهدار حقوق الفرد .

الانسان ... بين اليوم والأمس

بينا فى الفصل السابق نسبية المعرفة الانسانية وأنها واحدة فى طبيعتها لا تختلف على مر العصور الا فى الدرجة وتزداد نتيجة الحاجات التى يحسها الانسان فى وقت من الأوقات ، وهى تتسع باستمرار دون أن يكون لأية درجة من درجات المعرفة فضل أو امتياز من حيث النوع أو الكيف . ونريد أن نتساءل فى هذا الفصل عن موقف الانسان بين أمسه ويومه .

الانسان اليوم يطير بالطائرة النفاثة ويركب عابرات المحيط ويمتطى السيارات والقطارات ويستطيع أن يرى ما يقع فى العالم كله وأن يسمع ما يقال وهو جالس فى عقر داره ،و أصبح يستطيع بالضغط على أزرار أن يفعل فى لحظات مئات الأشياء التى كان يستغرق صنعها فى الماضى أياما وشهور .. الى آخر هذه القدرات الصناعية والانتاجية التى يسرها استخدام

الكهرباء ، فهل نستطيع أن نقرر أن انسان اليوم أكثر سعادة من انسان العصر الماضى فى أى قرن من القرون السالفة . واذا كانت السعادة كلمة غامضة ، قد يختلف على مدلولها وما يراه قوم سعادة قد يراه الآخرون نهاية الشقاء ، فقد يكون من الخير أن نضع السؤال بصيغة أخرى . هل أصبح الانسان اليوم أكثر قدرة على حل ما يعترضه من مشاكل الحياة من الانسان فى العصور الماضية ؟ .

ولنضع السؤال من زاوية جديدة ، هل للانسان فى هذه الحياة هدف ؟ فاذا كان له هدف فهل هو اليوم أقدر على تحقيق هذا الهدف من انسان العصور السالفة ؟ فأما أن لكل انسان هدفا يهدف اليه فذلك هو المشاهد والمحسوس وهو مبعث النشاط الانسانى كله . فالطفل يهدف الى أن يكبر ، والكبير يهدف الى المحافظة على ذاته ، ويعمل على تكوين أسرة لانجاب أطفال يرثونه من بعده ، وهو لا يقف عند المحافظة على الذات بل يرنو ببصره الى آفاق أبعد ، كل ذلك يقطع بأن الانسان يندفع نحو غاية أو أنه مدفوع لتحقيق غاية ، والنتيجة واحدة فى كلتا الحالتين وهى أن له هدفا ، فما هو هذا الهدف .

هدف الأنسانية

فى ختام هذا الكتاب فصلنا ما نتصور أنه هدف الانسانية مجتمعة ، وكل انسان على حدة . أما فى المرحلة الحاضرة من الكتاب ، فلست أريد أن أرسم هذا الهدف على ضوء ما تقول به الأديان ، أو مباحث ما وراء الطبيعة ، وحسبى أن أحدد هذا الهدف فى أضيق الحدود التى لا تثير أى جدل ، لأنها أهداف كل انسان من يوم ليوم ، ومن ساعة لأخرى .

الحصول على الغذاء

فاذا قلنا مثلا ان أحد أهداف الانسان المستمرة المتواصلة هو الحصول على الغذاء باعتباره السبيل الوحيد للمحافظة على البقاء ، الذى هو غاية الغايات ، فلا نعدو الواقع وبالتالى الصواب .

الحرص على الصحة والسلامة

واذا قلنا ان من أهداف الانسان المستمرة كذلك ، المحافظة على صحته وسلامته بحيث لا يصاب بمرض أو حادث يعجزه ، باعتبار أن ذلك أحد مقومات الحرص على الذات ، فاننا نكون لا نزال فى دائرة الواقع والمحسوس .

المحافظة على النوع

واذا قلنا ان الانسان بعد أن اكتشف أنه مهما يعمل ويجتهد فى المحافظة على جسده ، سليما معافى من الأمراض والحوادث ، فهو لابد ميت فى نهاية الأمر ، فقد جعل لنفسه هدفا آخر الى جوار المحافظة على الذات وهو المحافظة على النوع ، وذلك عن طريق الزواج والتناسل وانجاب الأطفال ، فالأمر لا يزال فى دائرة الواقع والمحسوس كذلك .

الأهداف المعنوية

واذا كانت الأهداف المادية التى أشرنا اليها فيما سبق ، لا يمكن أن يحدث حولها خلاف باعتبارها هدف كل كائن حى ، ابتداء من الخلية الواحدة فى النبات حتى الانسان المتكامل ، فان أهداف الانسان المعنوية لا تلقى مثل هذا الاجماع ، ومع ذلك فنحن مضطرون أن نسجل ما يحسه غالبية البشر من أنفسهم . فالانسان لمحض كونه انسانا يحس بامتيازه وتفوقه على سائر الكائنات والأحياء ، ففى الانسان شعور بآدميته وهذه الآدمية

تعنى عنده أن يكون حرا مختارا ذا ارادة فعالة غير مغلوب على أمره أو شاعر بالقهر والاذلال والتبعية ، يحس الانسان العادى من نفسه بالكرامة التى تعنى المساواة مع الآخرين من أبناء جنسه فى كل الحقوق والواجبات بازاء الطبيعة وكل ما يحيط به .

واهدار حرية الانسان فى الاختيار ، والاخلال بحقه فى المساواة وشعوره بقدرته ، هو اهدار لآدميته ، ومن هنا كان من أقدس أهداف البشر المعنوية المحافظة على الكرامة ، وحرية الارادة والقدرة على العمل . ويمكن تلخيص أهداف الانسان سواء كانت مادية أو معنوية فى المحافظة على الذات ماديا ومعنويا .

والآن وقد عرفنا الهدف ، فقد أصبح باستطاعتنا أن نوجه السؤال الذى جعلناه موضوعا لهذا الفصل هل يحقق الانسان فى العصر الحديث أهدافه بأكثر مما كان يحققها انسان العصور القديمة ؟

ولنبدأ بكبرى مشاكل الانسان ونعنى بها الموت .

هل انتصرنا على الموت ؟

هل استطعنا بكل علومنا ، أن نتغلب على شبح الموت أو أن نبعده عنا أطول مدة ممكنة على الأقل بأكثر مما كان يفعل أسلافنا ؟

يجيب البعض على هذا السؤال بالايجاب ، مستدلين على ذلك بتضاعف سكان العالم بحيث أصبح عددهم يقترب من ثلاثة آلاف مليون نسمة[1] .

وهذه الزيادة هى ثمرة زيادة المواليد على الوفيات كنتيجة للتقدم

---

(١) بلغ عدد سكان العالم حسب احصائية هيئة الأمم عام ١٩٥٨ ـ٢٨٥٢ مليون نسمة ، ولما كان متوسط زيادة سكان العالم سنويا خمسين مليونا ، فان الرقم الآن يناهز الثلاثة آلاف مليون .

الصحى الهائل الذى حققته البشرية فى العصر الحديث . وواضح أن هذه لا تصلح أن تكون حجة قاطعة ، فالزيادة فى سـكان البشر ليست أمرا طارئا أو جديدا ، ولا هى من نتاج العصر الحديث دون غيره من العصور ، فنمو الحياة هو أحد نواميس الطبيعة . واذا كان سكان العالم اليوم قد باتوا يقدرون بثلاثة آلاف مليون نسمة ، فان هذا العدد كله قد انحدر من عدد أقل فأقل ، حتى نصل فى بادىء الأمر الي ذكر وأنثى ، فالنمو والتكاثر أحد خصائص الحياة ، والانسان ينمو بمتوالية هندسية وليس أدل على أن تزايد النسل ليس مظهرا من مظاهر الرقى أو الحضارة أو تحسين وسائل الصحة ، من أن سكان الريف ينسلون بأكثر من سكان المدن ، والفقراء ينسلون بأكثر من الأغنيـاء ، وغير المثقفين بأكثر من المثقفين ، والعمال بأبدانهم بأكثر من العاملين بعقولهم ، وشعوب آسيا وأفريقيا بأكثر من شعوب أوروبا وأمريكا ، والزنوج فى داخل الولايات المتحدة أو جنوب أفريقيا بأكثر من البيض .

فتكاثر السكان اذن مسألة حتمية . بل ان الصيحة تتعالى من كل مكان بوجوب الحد من زيادة النسل [١] ، وهم يحذرون وينذرون أنه لن يكون باستطاعة أى شعب أن يرتفع بمستواه ، الا اذا حدد من نسله . فزيادة السكان اذن ليست مظهر رقى أو حضارة والا وجب أن نعتبر أنفسنا اليوم نعيش فى تخلف وانحطاط ما دامت الدعـوة هى للحد من النسـل لا الاكثار منه .

---

(١) كان مالتوس الانجليزى هو أول من لفت النظر فى العصر الحديث الى تكاثر السكان بمتوالية هندسية فى الوقت الذى لاتتكاثر فيه مواد الغذاء الا بمتوالية عددية الامر الذى يهدد العالم بكارثة انسانية .

زيادة متوسط عمر الانسان

يقولون بعد ذلك أن متوسط عمر الانسان فى زيادة مطردة فى بعض البلاد كالولايات المتحدة الأمريكية (٦٨ سنة) وأوروبا الغربية ، وأولا وقبل كل شيء فنحن عندما نتحدث عن الانسان فلا يمكن أن نقصد به فئة من البشر فى جزء من أجزاء العالم ، فقد وجدت فى كل زمان ومكان شعوب تمتعت بأكبر نصيب من الصحة وطول العمر والغنى ؛ فلا جديد فى ذلك ، ونحن عندما نتحدث انما نتحدث عن الانسانية ككل . والرقم القياسى لمتوسط أكثر من نصف سكان العالم يقل عن ثلاثين سنة ، وذلك حسبما تقرر الهيئة الدولية للصحة .

فاذا كان من المسلم به أن الانسان يستطيع أن يعيش حتى مائة سنة بل وأن يتجاوزها ، واذا سلمنا أن الانسان العادى يجب أن يعيش فى الغالب حتى سن الستين (موعد الاحالة على المعاش) استطعنا أن ندرك كيف أن متوسط الحياة لأكثر من نصف البشر وهو لا يتجاوز ثلاثين سنة لا يمكن أن يكون مظهر انتصار الانسان الحديث على الموت [١] .

وحتى القول بأن متوسط الأعمار فى ازدياد فى بلاد كالولايات المتحدة أو أوروبا الغربية ، هو مجرد مقارنة بين هذه البلاد ونفسها منذ عهد قريب

---

(١) وحسبنا لكى نجعل الصورة واضحة بالأرقام أن نثبت نسبة وفيات الاطفال فى بعض بلاد العالم ليتضح كيف أن نسبة كبيرة من بنى الانسان لاتزال تموت وهى لاتزال فى المهد .

ففى كل الف طفل يولدون فى الولايات المتحدة يموت حوالى ٢٧ طفل ، وفى جارتها المكسيك يموت ٨٠ طفلا فى كل الف طفل ، وفى جواتيمالا يرتفع هذا الرقم الى ١٠٣ ، وفى جمهورية شيلى يزداد هذا الرقم ارتفاعا فيصل الى ١٢٦ فى الالف . وفى جنوب افريقيا يبلغ عدد وفيات الاطفال بين السكان السود ١٣١ فى كل ألف .

(احصائيات هيئة الأمم ـ منظمة الصحة العالمية)

جدا ، فليست لدينا احصاءات عن العهود السابقة فى ابان ازدهار مدنياتها ليست لدينا احصاءات عن متوسط أعمار البشر فى عهد الحضارة الفرعونية أو الاغريقية أو الرومانية أو الاسلامية أو الصينية . واذا أخذنا بما سجله التاريخ فالتاريخ يحدثنا عن أقوال يعدها العلم الحديث ضربا من ضروب الأساطير لأنه يقول لنا ان أسلاف البشر كانوا يعمرون مئات السنين [1] . فاذا لم نرد أن نأخذ بهذه الأقوال فلا أقل من أن نكف عن الادعاء بأن متوسط عمر الانسان فى بعض البلدان يفوق متوسطه فى العصور الماضية فهذه دعوى بلا دليل ، وتقوم القرائن التى نشاهدها حتى فى أيامنا الحديثة على عكسها ، فالمعمرون القليلون الذين تجاوز أعمارهم المائة فى العصر الحاضر لا يوجدون اذا وجدوا بين سكان نيويورك أو غيرها من المدن التى تغص بأسباب الحضارة الحديثة ، ولا يوجدون بين صفوف الأغنياء وأصحاب الملايين القادرين على توفير آخر ما انتهى اليه العلم من محافظة على الصحة . وانما يوجدون بين الفلاحين ، أو بين صفوف بقايا الهنود الحمر أو سكان الجبال أو فى أعماق الصحراء كما هو الشأن فى واحة سيوه ، أو احدى قرى القوقاز النائية .

ومرة أخرى لنا الحقيقة التى تسجلها الأرقام وهى أن أكثر من نصف سكان العالم لا يزيد متوسط عمرهم فى الحياة عن ثلاثين سنة ، ولا يجرأ مدع أن يقول أن الحال فيما مضى من القرون كان أسوأ من ذلك .

نجاح الانسان فى القضاء على الأوبئة

وهنا تعترضنا ظاهرة مسلم بها ونعنى بها انتصار الانسان على الأوبئة التى كانت فيما مضى لا تبقى ولا تذر ونعنى بهـا الكوليرا والطاعـون

---

(١) جاء فى الفصل الخامس من سفر التكوين فى العهـد القديم أن آدم عاش ٩٣٠ سنة وابنه شيث ٩١٢ سنة

والجدرى وأمثالها ، فقد كانت هذه الأوبئة تتقاضى ضريبة باهظة من أرواح البشر والذين كانوا يتساقطون بالألوف ومئات الألوف . أما اليوم فلا شيء من ذلك واستطاع الانسان أن يقهر الطاعون والجدرى والكوليرا .. الخ.

وقبل أن نمضى لنبين أثر هذا الانتصار على مشكلة الموت يجب أن نسجل بعض الحقائق التى قد تغيب عن بعض الأذهان . فأولا وقبل كل شيء يجب أن يكون معروفا أن هذه الأوبئة لا تزال موجودة وعاملة فى أماكن شتى من أنحاء العالم ، فهى موجودة مثلا فى الحبشة وايران وعدن وغيرها من بلاد آسيا وأفريقيا ، وقد مات بالكوليرا فى الباكستان الشرقية عام ١٩٥٨ — ١٦٠١٨ وارتفع هذا الرقم الى ٢٠٠٣٥ عام ١٩٥٩ .

أما الجدرى فقد مات به أيضا فى الباكستان الشرقية ٢٤٧٣٤ عام ١٩٥٧ ومات فى عام ١٩٥٨ ضعف هذا العدد تقريبا وهو ٤٧٨٩٧ نسمة ولم تخف وطأة الوباء الا فى عام ١٩٥٩ حيث لم يتجاوز من أصيبوا بالجدرى ٦٢٩٢ (احصاءات الهيئة العالمية للصحة) .

ونحن فى مصر لن ننسى وباء الكوليرا الذى اجتاح بلادنا عام ١٩٤٧ والذى مات به حسب الاحصائيات الرسمية ، عشرات من الألوف .

الملاريـــا

وثمة مرض لا يزال يهدد مئات الملايين من البشر بصورة وبائية وذلك هو الملاريا التى يموت بها مليونا نسمة فى كل عام ويبلغ عدد المصـابين بها ٢٥٠ مليونا بكل ما تجره الاصابة بالملاريا من هزال وضعف وقصور همة وعزيمة وطحن للصحة العامة للفرد تنتهى بالوفاة بنسبة واحد فى المائة تقريبا [١] ، مما اضطر المنظمة العالمية للصحة التابعة لهيئة الأمم أن تتخذ اجراءات لشن حرب ضد الملاريا بتعاون شعوب العالم .

---

(١) المختار عدد اغسطس سنة ١٩٥٨ « لنخرج جميعا لمحاربة الملاريا »

فالأوبئة اذن موجودة وهى كالنار تحت الرماد ، تنتظر أى فرصة من فرص الفوضى وسوء الادارة أو تقاعس الجهود العالمية فى الوقوف المستمر لها بالمرصاد لكى تستشرى كما كانت تفعل من قبل كالنار فى الهشيم .

ولن ينسى مواليد مطلع القرن العشرين الذين لا يزالون أحياء ، وباء التيفوس الذى اجتاح أوروبا عقب الحرب العالمية الأولى والملايين الذين سقطوا صرعى هذا الوباء (١) .

فالقول اذن بأن العلم الحديث قد قضى نهائيا على الأوبئة هو قول غير صحيح أو هو على الأقل قول غير دقيق ، والصحيح أن يقال ان الانسان قد استطاع أن يحد من استشراء هذه الأوبئة اذا هى حلت بشرط أن تكون هناك سلطة مركزية قوية تفرض النظام وتعزل المرضى والأماكن الموبوءة وتقوم بعملية التطهير المستمر وبدون ذلك لن يكون نجاح .. وهو عين ما كان يحدث فى السابق ، فالأوبئة لم تكن تفتك فتكها الذريع الا خلال المجاعات والحروب وفترات الفوضى ..

الحقيقة الثانية التى يجب أن تسجل بخصوص مفعول الأمصال المضادة للأوبئة أن مفعولها ليس مائة فى المائة ، فليس كل من يحقن ضد الكوليرا أو الطاعون أو الجدرى ينجو حتما من الوفاة بهذه الأوبئة ، فقد يحقن المريض بالمصل ويموت مع ذلك . بل ان حقنة المصل قد تكون هى السبب المباشر فى الوفاة . كما أن أشخاصا لا يحقنون ومع ذلك لا تمتد اليهم العدوى مع انهم يعيشون فى قلب العاصفة .

---

(١) ذكرت شركات الأنباء فى ١٩٦٢/١/٥ أن صحف وارسو نشرت أن نحو عشرة آلاف مصاب بالأنفلونزا يدخلون مستشفيات بولندا وعياداتها للعلاج فى كل يوم بعد أن انتشر وباء الأنفلونزا بشكل مخيف . (الاهرام ١٩٦٢/١/٦)

فغير صحيح اذن ان الانسان قد استطاع أن يهزم الكوليرا أو الطاعون أو الجدرى نهائيا . أو أن اللقاح ضد هذه الأوبئة محقق المفعول مائة فى المائة .

تنوعت الأسباب والموت واحد

ولنسلم أخيرا أن العلم الحديث قد استطاع أن ينتصر نهائيا على الكوليرا والجدرى والطاعون والتيفود فلم يعد لها على ظهر الأرض وجود فهل لذلك أدنى تأثير فى هزيمة الموت نفسه . ان هذه الأوبئة ليست سوى سبب من بين ألوف ومئات الألوف من الأسباب المفضية الى الموت ، وقد يكون باستطاعة الانسان أن يتجنب أحد هذه الأسباب فلا يعنى ذلك أنه تقدم خطوة لحل مشكلة الموت ، لأن أسبابا أخرى سرعان ما توجد لاحداث الموت الذى لا يزال كما كان مذ عرف الانسان نفسه هو النهاية الحتمية لكل كائن حى . فاذا كان الانسان قد قضى على الكوليرا أو الطاعون مثلا ، فانه لا يزال يموت بالسل أو بالسرطان أو تصلب الشرايين أو بأمراض القلب ... وقد بلغ عدد ضحايا أمراض القلب وتصلب الشرايين فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها عام ١٩٦٠ — ٩٢١ر٥٤٠ أمريكيا [١] .

ما هو الفرق بين أن يموت الانسان بالتيفود أو يحترق كما يحدث الآن كثيرا بالطائرة أو أن يهلك تحت عجلات السيارات ، التى فتكت فى سنة ١٩٤٨ وحدها فى بلد كالولايات المتحدة الأمريكية بـ ٣٢ ألف نسمة فقدوا أرواحهم و ١ر١٠٠ر٠٠٠ نسمة أصيبوا بجراحات مختلفة أعجزت الكثيرين منهم عن العمل [٢] . وبلغ عدد الحوادث التى أدت الى الموت فى المصانع الأمريكية ، ١٦ر٥٠٠ حالة . أما الحوادث الأخرى التى تسبب عنها عجز العمال لمدد متفاوتة فقد بلغت ، ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ حالة . وبلغ مجموع

---

(١) جريدة الأهرام ١٩٦١/١١/٢٥
(٢) ميادين علم النفس الجزء الثانى ـ ص ٨٤٣

الخسائر المادية بالنسبة لحوادث المصانع والسيارات ، فى عام ١٩٤٨ ما يزيد على ثلاثة بلايين دولار [١] وبلغ عدد الذين انتحروا فى الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ — ١٨ ألف نسمة قتلوا أنفسهم عن طريق اطلاق النار والشنق ، والتسمم [٢] ، واذا كانت هذه الأرقام خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية فقد نشرت جريدة الأهرام آخر احصائيات الحوادث فى العالم تحت عنوان حقائق ، فذكرت أن عدد الضحايا الذين ماتوا بالحوادث عام ١٩٦٠ هو ٩٣ ألف نسمة وعدد من أصيبوا بجراح واصابات تعجيزية هو ٩٫٣٠٠٫٠٠٠ وأن جملة ما نجم عن ذلك من الخسائر المادية قد زاد على ١٤ مليار دولار [٣] .

قتلى الحروب

رب قائل ان الوفاة بالسيارات أو فى حوادث المصانع أو عن طريق الانتحار هى فى نهاية الأمر حوادث فردية لا تروع البشر فى مجموعهم كما تفعل الأوبئة عندما تجتاح الألوف ومئات الألوف فى أيام وأسابيع . فما الرأى فى أن الانسان الحديث قد جعل من حروبه ما يتضاءل الى جواره أعنف ما شهد التاريخ من جائحات وأوبئة ؟ ما الرأى أنه سقط فى الحرب العالمية الأولى أكثر من ١٢ مليونا من القتلى فى أربع سنوات فقط ، أما عدد من جرحوا فقد بلغ ٢١٫٢١٩٫٤٥٢ نسمة وهذا القدر من الموتى يربو على كل قتلى الحروب خلال العشرة قرون السابقة على الحرب العالمية الأولى بما فيها حروب نابليون ، وحرب الثلاثين عام [٤] والمعروف أن ضحايا الحرب العالمية الثانية لا تقل عن هذا القدر ان لم تزد ، ذلك أن الاحصاء الدقيق للقتلى كان متعذرا ، فى ظل هذا الأسلوب الجديد من

(١) ميادين علم النفس الجزء الثانى — ص ٨٤٣
(٢) جريدة الاهرام يوم الأثنين ١٩٦١/٣/٢٧
(٣) جريدة الأهرام يوم الخميس ١٩٦١/٩/٢١
(٤) دائرة المعارف الامريكية Americana مادة « حرب »

القتال ، حيث تدك الطائرات البيوت والمدن على رؤوس الأطفال والنساء[1] وقد أشرنا من قبل كيف أن قنبلة هيروشيما وحدها قد أبادت فى أقل من لحظة أكثر من ١٤٥ ألف نسمة وهو العدد الذى أمكن احصاؤه من ضحايا هذه المدينة التعسة . ولو قدر اليوم أن تشتعل نيران الحــرب ، وهو ما يتحدثون عنه كل صباح ومساء ، ويفجرون القنابل الذرية على سبيل التجربة والانذار ، فان المتفق عليه أن عدد الضحايا الذى يسقط فى الأيام الأولى للحرب فقط سيناهز ٢٠٠ مليون نسمة ، مما يجعل كل انسان يتساءل ماهو مستقبل البشرية بعــد حرب ذرية قادمة .. والتى ستظل تؤثر على البشر حتى بعد انتهائها لعشرات السنين نتيجة الاشعاعات القاتلة . بل أى صورة لهذه الانسانية المقبلة . ولم تعد الأسلحة التى تعد للحرب القادمة وقفا على القنابل الذرية بل تعدتهــا الى ما يسمى الحــــرب الكيماوية والجراثيمية حيث قد أعد العلماء بالفعل داخل المخازن قنابل تصيب العدو بالحمى الجنبية والدوسنطاريا والحمى الراجعــــة والكوليرا والدفتريا والطاعون الدملى أو الرئوى وحمى التيفود والسل والكساح والتيفوس والجدرى والحمى الصفراء والتسمم [2] .

فالقول اذن بأن الانسان قد نجح فى حربه ضد الأوبئة هو قول لا يقدم ولا يؤخر ما دام قد أصبح يخترع من آلات الدمار ما هو أشد فتكا من ويلات الأوبئة وما يجعل مئات الملايين فى الشرق والغرب تصطك أسنانهم

---

(١) بلغ ما حرق أو دمر فى روسيا وحدها خلال الحرب العالمية الثانية ، ١٧١٠ مدينة ومركز ، ونحو ٧٠٠٠٠ مزرعة ، وأصبح ٢٥ مليون شخص بلا مأوى ومات عدة ملايين كثيرة من أبناء الشعب ، وتحملت روسيا خسارة مادية تبلغ ٥٠٠٠٠٠ مليون دولار . (من خطاب خروشـــوف ـ فى التليفزيون الامريكى . كتاب « فى سبيل السلام والصداقة » ص ٢٨٢

وناهز قتلى ألمانيا ستة ملايين نسمة (داخل اوربا الجديدة ـ جنتر)

(٢) المختار عدد اكتوبر عام ١٩٦٠ ص ١١١

رعبا كلما تصوروا الهول الذى يعيشون فى ظله ، والبشر اليوم ينادون بنزع الأسلحة والعيش فى سلام . والى أن يتم ذلك فانسان القرن العشرين يعيش فى فزع من الموت الذى قد يدهمه فى أى لحظة على صورة حرب ذرية أشد من فزع انسان القرون الماضية من الأوبئة ومختلف أنواع الجائحات.

سعى الانسان للقضاء على الموت

بقى ان علماء الحياة فى العصر الحديث يؤكدون أنهم ماضون فى معركة الصراع ضد الموت بالبحث عن سر الحياة ومتى أدركوا هذا السر فسيكون باستطاعتهم هزيمة الموت ، ويتصور أقوام ان مجرد هذا التطلع والسعى هو شىء جديد فى حياة البشر وينسون ان الكيمياء عند العرب كانت تدور حول هذا المطلب .. مطلب الكشف عن « اكسير الحياة » أو ماء الحياة الذى يعيد الشباب ويطيل العمر ويقهر الموت .. فلا جديد حتى فى هذا اللون من ألوان التفكير ، ولسنا الآن بصدد البحث فى امكان الانسان التوصل الى ذلك فمكان ذلك فصل تال . وانما النتيجة التى يجب أن نخلص بها من هذا العرض المتقدم أن مشكلة الموت لا تزال بالنسبة للانسان كما كانت منذ أى عصر مضى لم يتقدم فى سبيل التغلب عليها أى خطوة واحدة نحو الأمام .

مشكلة المرض

فاذا كان موقف الانسان من مشكلته الرئيسية ونعنى بها الموت الذى يختم حياته لا تزال كما كانت ، فهل هو أسعد حظا فى معالجة المشكلة الأقل استعصاء وهى مشكلة المرض .

ان المرض باعتباره السبيل المؤدى الى الموت فى نهاية الأمر هو المصدر الأعظم لآلام الانسان . فهل الانسان اليوم قد حل مشكلة المرض خيرا مما فعل فيما مضى من الزمان ؟

هنا وترتفع الصيحة وتتعالى من كل مكان ردا على هذا السؤال بالايجاب . انظر الى ما تحققه العقاقير الحديثة التى توشك أن تكون سحرية . انظر كيف استطاع البنسلين والاستربتومايسين ومركبات السلفا أن تهزم أشد الأمراض عتوا وتعيد الصحة والعافية لمئات الألوف والملايين.. بل انظر الى ما تحققه الجراحة اليوم من معجزات ، وهى ترد الحياة الى القلوب التى وقفت وتزود الانسان بالكلى الصناعية والرئات الصناعية والأطراف الصناعية للتغلب على كل صنوف الأمراض .

حقيقة التقدم الجراحى ؟ !

وباستثناء القدرة على تخدير المريض ، ابان اجراء العملية بحيث لا يشعر أثناءها بأى ألم ، فان ما زاد على ذلك فى الجراحة ، مسألة فيها نظر . وحسبنا أن نسأل أشد المغالين فى الايمان بالتقدم الجراحى ألا يحدث أن تجرى الجراحة لعلاج مريض بداء معين ، ثم يظل المريض يشكو مما كان يشكو منه قبل اجراء العملية ؟ وألا يحدث أنه قد تجرى لمريض واحد أكثر من عملية لعلاج نفس المرض ، ويظل المريض يشكو بعد كل ذلك؟ وألا يحدث أن عددا من المرضى يموت بعد اجراء العملية ، والبعض يموت أثناء اجراء العملية ذاتها . بل ألا يحدث أن تكون العملية هى السبب المباشر لاحداث الوفاة التى لم تكن متوقعة ؟ الجواب على كل هذه الأسئلة هو بالايجاب

ولنفحص هذا التقدم الجراحى المقال به من زاوية أخرى . ألا يحدث أن عمليات يقوم بها أعظم الجراحين فى أرقى المستشفيات وأكثرها استعدادا يمنى بالفشل ، فى الوقت الذى تنجح فيه عمليات مماثلة فى مستشفيات أقل استعدادا وعلى يد أطباء أقل قدرة ؟ ألا تضطر الظروف بعض الأطباء أحيانا أن يجروا عمليات جراحية فى أسوأ الظروف حيث لا مخدر ولا أجهزة تعقيم

أو أسلحة ممتازة ، ومع ذلك فان هذه العمليات تنجح ؟ أو لا يحدث ابان الحروب بصفة خاصة أن يجد الطبيب نفسه مضطرا للعمل أربعا وعشرين ساعة بغير مساعدين فنيين ، فيقطع أوصالا ويبقر بطونا ويفتح رؤوسا دون أن يستعمل أجهزة التخدير ؟ فهل يموت كل الذين تجرى لهم العمليات بهذا الأسلوب أم أن عددا كبيرا منهم يشفى ويصح ؟ فالمعجزة التى نشهدها فى الجراحة ليست معجزة التقدم الجراحى وأدواته ، وانما هى معجزة الجسد الحى ، الذى ينطوى على هذه القدرة التى لا حد لها ، للالتحام والالتئام والتعويض والتحوير ، يستوى فى ذلك أن يكون القائم بالعملية هو أعظم الأطباء أو أصغرهم شأنا ، بآلات ممتازة أو بآلات عادية .

مركبات (البنسلين والسلفا)

وما يقال عن التقدم الجراحى وأثره فى شفاء الأمراض ، يقال عن هذه العقاقير السحرية ، الحيويات المضادة للميكروبات (البنسلين والسلفا) ومشتقاتهما ، فسؤالنا بالنسبة لها هو نفس السؤال . ألا يحدث أن تستعمل هذه العقاقير كلها دون أن يطرأ أى تحسن على المريض ؟ وهلا يحدث أحيانا أن التحسن لا يبدأ الا بعد أن يكف عن تناول هذه المركبات ؟ وهلا يحدث أن هذه العقاقير نفسها تسبب للمريض بعد شفائه من المرض الرئيسى أو قبل شفائه أمراضا أخرى ؟ والرد على هذا السؤال الأخير كبقية الأسئلة الأخرى هو بالايجاب . فمن المسلم به أن البنسلين يحدث لشديدى الحساسية أمراض الأرتكريا والطفح الجلدى والأديما ، وهو يسبب أعراضا أخرى تشبه أعراض مرض المصل ، واذا أسيىء استعماله بالاكثار منه ، فان الميكروبات تتعود عليه كما يتعود المريض على المخدرات فيصبح لا مناص من استمرار مضاعفة الكمية اللازمة

للتأثير على هذه الميكروبات . وقد يؤدى (الستربتومايسين) الى الصمم اذا لم يكن الطبيب يقظا ، كما يسبب الطفح الجلدى والتهاب الفم والصداع ومضاعفات أخرى ، مما جعل الأطباء يقللون من استعماله . أما مركبات السلفا فهى تسبب أضرارا كبيرة اذا أسىء استعمالها ، فهى تترسب فى الكليتين مكونة نواة للحصاة والبول الدموى وتؤثر على كريات الدم البيضاء فتسبب نقصا كبيرا فى الخلايا ذات النوايا العديدة ، وقد تحدث طفحا جلديا وتسبب صداعا وقتيا وغير ذلك من المضاعفات [١] .

وأخيرا فليس من الأمور المستبعدة أن يموت بعض الأشخاص بسبب الصدمة التى قد تحدثها لهم حقنة البنسلين عندما تعطى لهم لأول مرة .

العلاج قديما وحديثا

وآخر ما نستطيع أن نقوله عن العلاج فى عصرنا الحديث سواء كان عن طريق الجراحة أو طريق العقاقير أن الأغلبية الكبرى ممن يعالجون يصحون اثر العلاج ، وأن عددا أقل لا يمكن تخليصه من علته بالرغم من استخدام الجراحة أو العقاقير .. وان أحوالا أقل من هذا القليل يموت منها المريض بسبب الجراحة أو بسبب تناول العقاقير .

وهذا التقسيم الثلاثى لآثار العلاج هو بعينه التقسيم الذى كان فى كل عصر وزمان منذ عرف الانسان شيئا اسمه طب ودواء . فمذ كان الطب لا يعدو أن يكون سحرا وطردا للأرواح الشريرة والعلاج يتم عن طريق التمائم والرقى والتعاويذ .. الى أن تطور العلاج فأصبح كيا أو حجامة والى أن تطور أكثر من ذلك فاستخدم خصائص الأعشاب والمعادن المختلفة

---

(١) المواد المضادة للميكروبات ـ لطيف بسطورس ص ٦١ و ٣٥ و ٤٩

لاحداث الشفاء .. فقد كان الوضع هو نفس الوضع الذى يقوم عليه فن العلاج هذه الأيام ألا وهو كثرة ممن يعالجون تصح أبدانهم وقلة لا يجدى فيهم العلاج فيواصلون الشكوى من عللهم ، وعندما يحم القضاء فلا ينفع طب أو علاج والا فلو كان الموقف غير ذلك لما كان هناك معنى لوجود طائفة الأطباء منذ أقدم العصور . فوجود هذه المهنة هو الدليل القاطع على أن أشخاصا قد احترفوا شفاء الناس منذ أقدم العصور بشتى الأساليب وأقبلت الناس عليهم يلتمسون ما لديهم من علم بعد أن شهدوا بالتجربة شفاء المرض على أيديهم . والحقيقة فى كل ذلك أن الشفاء من أى مرض من الأمراض عرضيا كان أو مزمنا ، انما يرجع الى درجة معينة من الحيوية فى جسد الانسان فاذا توافرت هذه الدرجة لأى انسان فهو قادر على الشفاء حتما ولو لم يتناول أى علاج من أى نوع كان وسواء أكان الذى يعالجه ساحرا فى العصر القديم بالرقى والتعاويذ أم حلاق الصحة فى القرية ، أم اختصاصيا من أعظم الاختصاصيين من موسكو أو لندن أو نيويورك . أما اذا هبطت هذه الدرجة من الحيوية اللازمة للشفاء عن حد معين فلا جدوى من أى علاج عن طريق الجراحة أو العقاقير يستوى فى ذلك العصر القديم والجديد معا .

ويكون دور الطبيب الرئيسى فى الواقع الذى قام به فى كل عصور التاريخ هو الايحاء للمزيض بامكان الشفاء والقدرة عليه .. وبمقدار ما ينجح الطبيب من بث هذه الثقة فى نفس المريض بمقدار ما يكون نجاح العلاج [1] .. فهى مسألة نفسية بحتة كما سنفصل ذلك فى فصل مقبل .

---

(١) قد لايعرف الكثيرون أن علاج الكثير من الأمراض لا يعدو أن يكون مجرد اخلاد المريض الى الراحة فى الفراش ، ولكن الطبيب لايستطيع أن يقول ذلك لمرضاه ، بل لابد له من وصف أنواع الأدوية والحقن التى يؤمن المريض أنه لن يكون هناك شفاء الا عن طريقها .

فالطب لم يحقق كما يتصور الكثيرون هـذا النجاح الساحق الذى يعزونه اليه .. وهو اذا كان قد استطاع مواجهة بعض الأمراض القديمة فقد خلقت له الحضارة الحديثة بأوضاعها الصناعية الجـديدة ألوانا من الأمراض التى لم تكن موجودة من قبل وما على الانسان الا أن يطالع ما تتضمنه قوانين العمل الحديثة من جداول الأمراض المهنية التى أصبح العمال يتعرضون لها من تسمم بشتى المعادن كالزرنيخ أو الرصاص أو الزئبق أو الكبريت أو الفسفور أو البترول أو الفلور وشتى صنوف الأحماض[1]. ناهيك بما أصبح ملايين العمال معرضين له أثناء العمل من بتر الأصـابع أو فقـد الذراع أو أحد السـاقين أو الساقين معا أو ضيـاع البصر بأكمله مما تنظمه قوانين اصابات العمل وتحدد فئات للتعويض عن كل عضو من هذه الأعضاء .

بل ان مجرد الحياة وسط المدن الحديثة بما يمتلىء به جوها من غازات سامة لا تفتأ تتصاعد من احتراق البنزين فى السيارات ومن مراجل المصانع، وما يتعرض له الانسان العصرى من ضجيج مستمر متواصل ، وما يؤدى اليه تلاحق الحوادث والأخبار وسرعة المواصلات من توتر مستمر فى أعصابه كل ذلك قد أدى الى أمراض وعلل لم تكن معروفة من قبل وكل ما يبذله العلم الحديث هو الوقوف فى وجه هذا السيل الجـارف من الوافدات الجديدة التى اقتضتها ظروف حياتنا الآلية والميكانيكية .

ماذا يقول الكسيس كاريل

وحسبى الآن أن أنقل اليك أقوال عالم من أكبر علماء الطب فى العصر

---

(١) راجع جداول امراض المهنة بالقانون رقم ٩٢ لسنة ١٩٥٩ الخـاص بالتأمينات الاجتماعية •

الحديث والحاصل على جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية العديدة وذلك هو الكسيس كارل :

« من المؤسف حقا أن الطب لم يستطع حتى الآن أن يقلل من الآلام البشرية الى الحد الذى يريد أن يدخله فى روعنا ، صحيح أن الوفيات الناجمة من الأمراض المعـدية نقصت كثيرا ، ولكن لا مفر للانسان من الموت ، وكثيرون منا يموتون من أمراض الانحلال . وسنوات الحياة التى ظفرنا بها نتيجة القضاء على الدفتريا والجدرى والحمى التيفودية .. الخ ندفع ثمنها آلاما مريرة تسببها الوفيات التى تحلق فوق الرؤوس نتيجة للالتهابات المزمنة ، وبخاصة السرطان والسكر وأمراض القلب . وعلاوة على ذلك فان الانسان معرض الآن كما كان معرضا من قبل ، لالتهاب الكلى والقروح المخية والتهاب الشرايين والزهرى ونزيف المخ وضغط الدم ، علاوة على الاضطراب العقلى والفسيولوجى والأدبى الذى تسببه هذه الأمراض ، كما أنه معرض للاضطرابات العضوية والوظيفية التى تأتى نتيجة الافراط فى الطعام ، وعدم كفاية الرياضة والارهاق فى العمل .. ثم انعدام التوازن واعتلال الجهاز العصبى الباطن ، يؤدى الى الاصابة بكثير من أمراض المعدة والأمعاء . كما أصبحت أمراض القلب أكثر انتشارا ، وكذلك السكر وأمراض الجهاز العصبى الرئيسى لا عداد لها .. وكل انسان يتعرض فى حياته بالاصابة بالنورستانيا والانقباض العصبى اللذين ينتجهما الانفعال المستمر والقلق ، وعلى الرغم من أن علم الصحة الحديث قد جعل الحيـاة الانسانية أكثر أمنا ، وأطول مدى وأوفر متعة ، فاننا لم نستطع بعد السيطرة على الأمراض ، وحقيقة الأمر ان الأمراض قد غيرت طبيعتها أو يبدو أن الجسم أصبح سريع التأثر بأمراض الانحلال [١] .

---

(١) الانسان ذلك المجهول ـ تأليف الكسيس كارل ـ تعريب شـــفيق اسعد فريد ـ ص ١٤٢

ويقول ذلك العالم الكبير فى موضع آخر من كتابه (الانسان ذلك المجهول) :

« ان شخصا من كل ٢٢ شخص من سكان نيويورك يجب ادخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر . وفى الولايات المتحدة تبدى المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال عدد المصدورين . ففى كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات حوالى ٨٦ ألف حالة ، فاذا استمر عدد المجانين فى السير على هذا المعدل فان حوالى مليونا من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن الى المدارس والكليات سوف يذهبون (الى مستشفيات الأمراض العقلية) ان عاجلا أو آجلا .

ففى عام ١٩٣٢ كان عـدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠ر٠٠٠ مجنون كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين والمحجوزين فى المصحات الخاصة ٨١ر٥٨٠ وكان عدد مطلقى السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠ر٩٣٠ ولا تشمل هذه الاحصاءات الحالات العقلية التى تعالج فى المصحات الخاصة .

ويقدر ان عدة مئات من الآلاف لم تشـملهم الاحصائيات الرسمية يصابون باضطرابات نفسية وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب ، وكيف ان مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التى يواجهها المجتمع العصرى فان أمراض العقل خطر داهم ، انها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى بل والتيفوس والطاعون والكوليرا فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها لا لأنهـا

تزيد عدد المجرمين فحسب بل لأنها ستضعف حتما التفوق الذى تتمتع به الأجناس البيضاء حاليا » [1] .

مرض السرطان

وقد جاء فى مجلة المختار الأمريكية فى عدد يونيو سنة ١٩٦٠ ، بحث دار بين نخبة من علماء الأطباء المشتغلين بمقاومة السرطان واليك بعض الحقائق التى تكشفت عنها هذه المباحث :

س — هل يرتفع معدل الوفيات بسبب السرطان ؟

ج — (الدكتور رافدين أستاذ الجراحة بكلية طب جامعة بنسلفانيا) بالنسبة لبعض أنواع السرطان كسرطان المعدة مثلا — فان المعدل فى هبوط أما بالنسبة للأنواع الأخرى — (كسرطان الرئة والدم) فان معدل الوفيات يزداد زيادة شديدة ، فاذا جمعت كل أنواع السرطان معا فان الاتجاه فى ازدياد .

— دكتور وبهل (نائب أول مدير الأبحاث والشئون الطبية بجمعية مكافحة السرطان الأمريكية) :

« كان معدل الوفاة بسبب السرطان فى عام ١٩٣٥ هو ١٠٨ لكل مائة ألف ممن يعيشون فى أمريكا وقد ارتفع هذا المعدل الآن الى ١٤٧ لكل مائة ألف أى بزيادة ٣٦٪ وقد يمكن تفسير ذلك جزئيا بتحسين وسائل التشخيص أو بزيادة عدد المتقدمين فى السن الذين يجد السرطان من بينهم أكبر نسبة من الضحايا — ولكن هذه الزيادة لا يمكن تفسيرها بهذين العاملين » .

وهكذا تنطق الأرقام أن العالم اليوم يعانى مشكلة المرض كما عاناها

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٧

دائما .. وقد تصل بعض الشعوب الى درجة عالية من الصحة نسبيا ، ولكن السواد الأعظم من البشر يعانون من الأمراض ما عاناه أسلافهم من قبل .. وحتى فى هذه المجتمعات الأعلى صحة .. فان الأمراض تتشكل وتأخذ ألوانا جديدة وأعراضا جديدة .

أى أنه حتى لو سلمنا بأن الانسان قد قطع شوطا فى معرفة أسباب كثير من الأمراض وبالتالى أصبح أقدر على علاجها فان أمراضا أخرى جديدة قد حلت محل هذه القديمة وراحت تتحدى الانسان بغموضها وجهله حتى الآن معرفة أسبابها . ومرة أخرى يعلن علماء عصرنا ، أن الانسان لابد واصل الى القضاء على الأمراض وتطهير العالم منها ، ونحن لا ننازع فى هذه القضية ، بل نحن ممن يؤمنون بقدرة الانسان على القضاء على كل الأمراض بدون استثناء ولكن الحقيقة التى يجب أن نسجلها الآن ، هو أننا لا نزال بالنسبة لمشكلة المرض بصفة عامة ، حيث كان أسلافنا من قبل ينجح علاجنا فى بعض الأحيان ويفشل أحيانا أخرى ، والموت لنا بالمرصاد فى خاتمة المطاف .

مشكلة الغذاء

ولنصل الآن الى السؤال الذى كان يجب أن يكون أول ما نسأله : باعتباره الأساس الذى تتفرع منه المشكلتان السابقتان ، ونعنى به السؤال الذى يدور حول مشكلة الغذاء ، فغير خاف أن قلة الغذاء تؤدى الى المرض وانعدام الغذاء يؤدى الى الموت .

فهل انسان القرن العشرين أقدر على تحصيل غذائه من أسلافه ؟ وهل يمتاز غذاؤه فى النوع والكم عن انسان العصور الماضية ؟ هنا ولا يستطيع أشد الناس تفاؤلا وايمانا بتقدم البشرية أن يرد على هذا السؤال بالأيجاب. حقا ان بعض الشعوب الغنية كالولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب

أوروبا ، قد حققت لنفسها مستوى عاليا من توفير مواد الغذاء لرعاياها على حساب تجويع ملايين من البشر ، ولكن هؤلاء مع ذلك لا يعدون أن يكونوا قلة بين شعوب العالم الأخرى . ان ما يقرب من نصف سكان العالم لا يجدون ما يسد غائلة الجوع الا بشق النفس ، فهم يعيشون على الكفاف الذى يبقيهم أحياء فحسب [١] .

وقد كان مالتوس الانجليزى أول من لفت الأنظار فى القرن الثامن عشر الى هذه الحقيقة الرهيبة ، ألا وهى أن السكان يزيدون بنسبة تعلو على زيادة المواد الغذائية أضعافا مضاعفة ، فبينما يزيد السكان بمتوالية هندسية ١ — ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ — ٣٢ فان الانتاج الزراعى لا يزيد الا بمتوالية عددية أى ١ — ٢ — ٣ — ٤ — ٥ — ٦ [٢] .

ففى العصر الحديث مثلا يتزايد سكان العالم بنسبة ١٧ نسمة فى كل ألف أى ما يقرب من خمسين مليون نسمة سنويا ومن المقرر أن يصبح هذا الرقم مضاعفا عند نهاية القرن العشرين [٣] .. وواضح ان موارد العالم الغذائية لا تزيد بنفس هذه النسبة . وهذا ما حدا بهيئة الأمم أن تؤلف المنظمة العالمية للتغذية والزراعة F.A.O.

ولانشاء منظمة أخرى للمساعدة الفنية لمعاونة مختلف الشعوب على انتاج مزيد من الطعام . وقد جاء فى احدى نشرات الهيئة ما يعتبر بحق أصدق تصوير لموقف العالم فى العصر الحديث بالنسبة للمشاكل السابقة .

« يواجه رجل القرن العشرين بكثير من المشاكل الخطيرة . على أنه من بين هذه المشاكل توجد مشكلتان أساسيتان يتوقف عليهما مستقبل

(١) من بيانات الهيئة العالمية للتغذية والزراعة F.A.O.
(٢) أصول الاقتصاد ــ الدكتور محمد حلمى مراد
(٣) Demographic Yearbook. 1959

الانسان بأكمله . أما المشكلة الأولى فهى كيف يحول دون وقوع حرب عالمية ثالثة لابد أن تؤدى حتما فى حالة نشوبها الى تدمير الحضارة الانسانية بل ومحوها بالكلية . أما المشكلة الثانية فهى كيف يكون باستطاعة القسم الأكبر من الجنس البشرى الاستفادة من التقدم الاقتصادى والاجتماعى الذى أصبح أمرا واقعا لدى عدد قليل من الشعوب . ان العالم اليوم ينقسم الى عالمين ، عالم يتمتع فيه الانسان بازدهار نسبى ، وعالم آخر يعيش فيه الانسان أقرب ما يكون الى الاملاق والعدم . ان نصف سكان العالم يعيشون فى حالة جوع مستمر ، وثلثى سكان العالم فى أمية مطلقة وتعاسة ومتوسط أملهم فى الحياة لا يتجاوز الثلاثين عاما .

ان الفجوة بين الشعوب الغنية والفقيرة تزداد اتساعا بدون انقطاع وهذا الفقدان للتوازن من شأنه أن يبقى العالم فى حالة مستمرة من التوتر » [1] .

ولعل حالة العالم المتدهورة فى الناحية الغذائية هى التى حدت بالولايات المتحدة وهى من الدول القليلة المحظوظة التى تنتج من الطعام أكثر من حاجتها أن تخصص فائضا من طعامها لتوزعه على شعوب العالم المحرومة مطلقة على هذا العون اسم « الطعام من أجل السلام » ذلك ان الجياع لا يمكن فى يوم من الأيام الا أن يثوروا ويحرقوا ويقوضوا كل نظام .

وهم يتحدثون اليوم عن وجوب اتخاذ اجراءات واسعة النطاق لتوفير الغذاء لشعوب العالم عن طريق تقطير ماء البحر وزرع الصحارى الشاسعة، والى أن يتم ذلك فالمشكلة قائمة ، بأحد مما كانت فى يوم من الأيام .

فمما لا جدال فيه ان العصور القديمة كانت فى هذه الناحية بصفة

---

(1) Technical Assistance. A United nations Review.

عامة (فى غير حالات المجاعة والقحط التى كانت تنشأ ابان عصور الحروب والفوضى) أحسن حالا ، فكانت المواد الغذائية أوفر كمًّا وأحسن نوعا وأرخص ثمنا بحيث يستطيع الكافة الحصــول عليها فى غــير ارهاق أو عسر [1] .

---

(١) اتيح لنا نحن الذين ولدنا فى مطلع هذا القرن ان نشهد وفرة المواد الغذائية وجودة نوعها ورخص أثمانها ، فقد كان باستطاعتى عندما كونت اسرتى لأول مرة عام ١٩٣٩ (اى من عشرين سنة فقط) أن أعيش بخمسة قروش فى اليوم الواحد ، فقد كانت هذه القروش الخمسة تكفى لشراء اللحم والخضـــار والفاكهة . وقد كانت هذه الحالة بدورها تؤلف بالنسبة لوالدتى التى ولدت فى القرن السابق حالة من الغلاء تضج منها ، وكانت تنعى الايام الســـابقة وجودة الاغذية ورخص ثمنها وأين هذا كله مما يحدثنا عنه الجبرتى عن أحوال مصر فى القرن الثامن عشر الهجرى عندما كان القرش يقسم الى خمسين نصفــا . واسمع الآن قائمة الاسعار فى ذلك الزمان :

« ومصر فى تلك المدة هادئة من الفتن والشرور والاقليم البحرى والقبلى امن وأمان والاسعار رخيصة والاحوال مرضية واللحم الضانى المجروم من عظمه رطله بنصفين والجاموس بنصف والسمن البقرى عشرته (أى عشرة أرطال) بأربعين نصف فضة (أقل من قرش) واللبن الحليب عشرته باربعة أنصاف والرطل الصابون بخمسة أنصاف والسكر المنعاد كذلك والمكرر قنطاره بألف نصـــف (عشرين قرش) والعسل المقطر قنطاره بمائة وعشرين نصف . والرطل البن القهوة باثنى عشر نصفا ، والتمر يجلب من الصعيد فى المراكب الكبار ويصب على ساحل بولاق مثل عرم الغلال ويباع بالكيــــل والاردب . والارز اردبـــه بأربعمائة نصف (ثمانية قروش) والعســــل النحل قنطـاره بخمســـمائة نصف وشمع العسل رطله بخمسة وعشرين نصف وشمع الدهان باربعـــة انصاف والفحم قنطاره باربعين نصف والبصل قنطاره سبعة انصاف وقس على ذلك » .

ولو شئنا ان نصعد فى التاريخ قبل ذلك لوجــدنا فى كتب رواد الشرق الاوسط فى العصور الوسطى من أمثال عبد اللطيف البغدادى وخسروشاه أى فى القرن الثالث عشر الميلادى المعجب والمطرب عن وفرة الاغذية فى مصر .

أما من تاريخ الفراعنة أى منذ أربعة آلاف سنة أو يزيد فقد سجلت الآثار المنحوتة على الصخر وصية احد أعيان قدماء المصريين حيث طلب ان يوزع على قبره فى المواسم والاعياد « عشرة أنواع من اللحم وخمسة أشكال من الطيــور وستة عشر صنفا من الخبز والكعك وستة أنواع من النبيذ وأربعة أشكال من الجعة واحد عشر صنفا من الفواكه علاوة على أنواع الحلوى العديدة وغير ذلك.

(برستيد ـ تاريخ مصر القديمة ـ ترجمة الدكتور حسنن كمال)

فاذا استحضرنا فى أذهاننا ما قلناه من أن الغذاء هو وسيلة الانسانية للابقاء على ذاتها ، وأن قلته مصدر ألم للانسان ، وتوافره مصدر سعادة ولذة .. أدركنا كم يعانى البشر فى العصر الحديث وأن كل هذه الاختراعات والاكتشافات والصناعات لم تستطع أن تحل له حتى الآن ، الا لعدد محدود ومحظوظ ، أخطر مشكلة من مشاكل الوجود وهى توفير الغذاء . وما دام الغذاء غير متوفر فالمرض ينمو ويترعرع والموت يزدهر ويضاعف فى حصيلته .

مشاكل البشر المعنوية

ذكرنا من قبل أن الانسان فى سعيه المتواصل خلال مرحلة الحياة يحس بحاجات مادية وأخرى معنوية ، وقد رأينا فيما سبق أن حظ الانسان من آلامه ولذاته المادية لا يزال كما كان منذ ألوف السنين . فهل انسان العصر الحديث أهنأ بالا وأكثر أمنا وأرقى خلقا وأشد تراحما وعطفا على أخيه الانسان مما كان فيما مضى من الزمان ؟ هل الناس اليوم أكثر أمانة وأكثر وفاء وأكثر كرما وأكثر صدقا مما كانوا عليه فى الأزمان السالفة ؟ هل خلت قلوب الناس من الغل والحقد والأنانية وشهوة السيطرة والغلبة ، هل انتفى الظلم وساد العدل وزال الخوف من بين صفوف البشر ؟ لا يوجد انسان واحد من المفكرين يجرؤ على الادعاء بشىء من ذلك ، بل ان القول المتفق عليه هو أن الانسانية لم تستطع أن تجارى فى حياتها المعنوية التقدم العظيم الذى حققته فى حياتها المادية وأنها اذا لم تبادر برفع معنوياتها الى مستوى امكانياتها المادية فسوف تدمر نفسها . ولكن هذا القول الذى يقول به البعض قد يشعر أن البشرية تقدمت فى هذه الناحية أيضا وان كان تقدمها بنسبة أقل . ولذلك فسوف أستعرض بعض الحقائق لأترك لكل قارىء أن يحكم بنفسه فيما اذا كانت البشرية قد تأخرت ، ذلك أن القدر الذى يعنينى هو أنها لم تتقدم فى هذا السبيل خطوة واحدة .

هل تخطى الانسان دور الوحشية وشريعة الغاب ؟

يحلو للكتاب والأدباء والمفكرين غير المتخصصين اذا كتبوا عن الانسان الحديث أن يعتبروا الانسانية قد خرجت من مرحلة الوحشية وشريعة الغاب ، وأنها أصبحت الآن تعيش فى مدنية وحضـارة وتطبق قوانين أسمى من شريعة الغاب .

وعبثا حاولت أن أقرأ شيئا فى جميع مطالعاتى عن هذا العصر الذى كان الانسان فيه وحشا يطبق شريعة الغاب .. فلم أجد أمامى فى أبعد تاريخ عرفه الانسان الا حضارات ومدنيات تقوم على القانون وروابط من الحب والعاطفة لا تختلف عن كل ما نعرف اليوم من أرق العواطف وقد خلفت لنا من الفنون ما نقف مبهورين حائرين أمام جلاله ، ومن المتفق عليه أن الفنون هى مقياس ما يصل اليه الانسان من رقى . والاجماع منعقد اليوم على أنه يجب الرجوع الى الوراء دائما للاستمتاع بروائع الفن سواء كان ذلك فى البناء والعمارة أو النحت والتصوير أو الشعر والأدب أو الغناء والموسيقى .

ولقد هممت بأن أنقل اليك بعض عبارات تصف أقدم ما وصل اليـه الانسان من حضارات منذ خمس آلاف وست آلاف سنة قبل المسيح سواء فى مصر أو فى آشور وبابل أو عند الاغريق أو فى الهند والصين ، فوجدت أن لو فعلت ذلك لاحتجت الى مؤلف أضخم من هذا الكتاب ، بل ان عالما أمريكيا قد وضع فى ذلك عشرين مجلدا دون أن يفى الموضوع حقه من العرض والايضاح [1] . ولن تجد صفحة واحدة من صفحات هذا الكتاب التى جاوزت بضعة عشر ألفا ، خالية من التسبيح والتمجيد لهذه العصور القـديمة ، والذهول من سمو أحكام القـانون ، ودقة المعاملات ورقى الأخلاق ، ونضوج العاطفة ورقتها مما لا يطوف لنا فى خيال .

---

(١) قصة الحضارة ــ تأليف ول‌ديورانت

فلست أعرف متى وأين وجد هذا العصر الذى عاش الانسان فيه وحشا لا يعرف نظاما ولا قانونا ولا يعرف اجتماعا ولا يعرف حبا ولا رحمة [1] ان البديهة تملى علينا أنه منذ وجد الانسان نفسه على ظهر هذه الدنيا فلابد أنه اتخذ له قرينة من جنسه ، فلم يلبث أن أنجب منها أولادا ، واذا كنا نرى بالمشاهدة أن جميع الحيوانات بلا استثناء تحب صغارها بل وتضحى بنفسها من أجلها فلا يمكن أن تتصور الانسان فى أى مرحلة من المراحل دون ذلك ، واذن فمذ كوّن الانسان أسرة فقد كوّن مجتمعا يسوده الحب والقانون الذى ينظم العلاقات بين أفراد الأسرة وكلما اتسعت هذه الأسرة اتسع القانون معها .

فما هو المقصود اذن بطور الوحشية الذى عاش فيه الانسان ردحا من الزمن ثم خرج منه الى حظيرة المدنية والحضارة التى ما فتئت ترتقى حتى وصلت الى ذروتها فى عصرنا الحاضر ؟

وما هو المقصود بشريعة الغاب التى كان الانسان يحكم بها فى هذا العصر الوحشى ثم خرج منها الى قانون المدنية والحضارة ؟

الوحشية وشريعة الغاب

واضح أن كلمة الوحشية نسبة الى الوحش ، وهو الحيوان المفترس الذى يعيش فى الغابة يفتك بصغار الحيوانات والضعاف منها ليقتات بها ، ويتلخص قانون الغابة فى أن يأكل القوى الضعيف .

والآن فلنتساءل بم استحق الحيوان المفترس أن يسمى وحشا وأن تكون هذه الكلمة رمزا على كل ما تشمئز منه النفوس .

---

(١) اقرأ للمؤلف كتاب «من وحى الجنوب» وفيه حديث عن قبائل جنوب السودان كما رآها المؤلف فى احدى رحلاته ، وكيف تعيش هذه القبائل فى حالة بدائية ، ومع ذلك فالأمن بينها مستتب ولا تقع الجرائم ولا يعرفونها .

هل رأينا أسدا يغتال أسدا ؟ أو هل رأينا حيوانا من هذه الحيوانات يعتدى على صغار نوعه فيضربها أو يخطفها أو يفتك بها ، لا يحدث شيء من ذلك ، فالحيوانات المفترسة قد يتشاجر ذكورها حول أنثى يريد كل منهم أن يختص بها ، أو حول فريسة يقتنصها ولكن هذه المشاجرة لا تصل بحال الى أن يفتك أحدهما بالآخر لأن المساواة بين الطرفين تحول دون ذلك من ناحية ، ولأن أحد الطرفين لا يلبث أن يسلم للآخر فتنتهى المعركة .

ولا يمكن أن يكون ذلك الشجار هو ما عناه الانسان بالوحشية ، لأن الانسان اليوم وفى كل وقت يتصارع مع أمثاله من الذكور للفوز بحب غانية ، وقد يقتل بعضهم بعضا لهذا السبب لا فى معركة شريفة كما يحدث بين أسدين أو فهدين أو كما كان يحدث فى عصور الفروسية قديما عندما كان يتبارز الرجلان ، وانما الذى يحدث اليوم أن يفتك العاشق بغريمه غيلة برصاصة ، أو عن طريق دس السم له أو باغراقه أو حرقه بالنار .

لا يستحق الحيوان المفترس أن يلقب اذن بالوحش لتنازعه مع ند له حول أنثى أو حول فريسة ، ما دام الانسان يفعل مثل ذلك ، بل ويصل فيه الى أبشع مما يفعل الحيوان .

أيكون الحيوان المفترس اذن قد استحق أن يوصف بالوحشية لأنه يفتك بالحيوانات الضعيفة ويأكلها ؟ ولكن الانسان يفعل نفس الشيء . أى فارق بين الذئب يغافل الشاة فينقض عليها ويأكلها وبين الانسان يذبح الشاة ليأكلها . اذا كان هناك فارق فانه لصالح الذئب والحيوان وليس لصالح الانسان .. ذلك أن الذئب أو أى حيوان مفترس يقتنص فريسته وهى حرة طليقة تعيش فى الغابة كما يعيش وتستخدم من أساليب الدفاع عن نفسها والاحتماء والاختباء ما تمليه عليها غريزتها ، أى ان كل حيوان فى

الغابة له فرصة تكافىء أى حيوان آخر فى حرية الانطلاق والهرب أو الدفاع عن نفسه .

الانسان أكثر امعانا فى العدوان

أما الانسان فهو يحرم الحيوانات التى يأكلها من هـذا الحق ، انه يحبسها ويقيدها داخل الأقفاص والأسوار ، ويتظاهر لها بالحب والرعاية أو يقدم لها غذاءها حتى تألفه ويألفها وتحبه ويحبها ثم ينقض عليها ذات يوم بالسكين ليسد بها نهم نفسه الجائعة ...

ما أكثر ما يصورون لنا فى الأفلام السينمائية الأسود وهى تقتنص فرائسها وعندما ينقض الأسد على غزال صغير أو عجل رضيع فان قلوبنا تنفطر أسى ولوعة ودموعنا تسيل من أعيننا رحمة ورقة بهذا الوليد البرىء الذى يفتك به الأسد المتوحش فتكا .. فما الذى يفعله الانسان بالليل والنهار وهو يربى الجاموس والأبقار لينتزع صغارها من أحضانها ليذبحها ذبحا حيث تظل الأم الثكلى تنوح على وليدها ، وقد يحدث العكس فتؤخذ الأم لتسلم لسكين الجزار تاركة أولادها الذين يخورون ويموءون بالأنين والحزن .. وما الذى نفعله بالذبيحة أو لا نسلخها أو لا نمزقها ونقطعها أو لا يأكل بعضنا رأسها ولا يلتذ الا بمخها وعيونها ولسانها ..

فلماذا نعد الحيوان المفترس وحشا اذا فتك ليأكل ولا نطلق هـذا الاسم على أنفسنا ونحن نفعل فعلته . الحق أنه لا يوجد ما يبرر هـذه التفرقة الا أننا ما زلنا نحكم بل ونفكر بشريعة الغاب فعلا التى تجعل الحق هو ما يقول به القـوى ، وأن ما يعد بالنسبة للضعيف رذيلة فهو بالنسبة للقوى فضيلة .

وهل يقتصر حكمنا بشريعة الغاب على معاملتنا للحيوان أم ان هذه الشريعة كما تتصورها هى التى باتت تحكم كل أفعالنا ، بل انها الأساس

الذى تقوم عليه فلسفة العصر المادى الحديث . ولنبدأ منذ البداية .. لنبدأ من الجريمة التى يعتدى فيها الانسان على أخيه الانسان .

جرائم القتل والعدوان

رأينا فيما سبق ان الحيوان لا يعتدى على جنسه بالقتل ، فضلا عن أنه لم يحدث أبدا أن قتل حيوان مفترس أنثاه أو قتل أشباله وجراءه . فهل استطاعت البشرية فى أرقى مجتمعاتنا الحديثة أن تصل الى هـذه المرتبة .. لست أريد أن أعقد مقارنة بين حاضر الانسان وماضيه فى هذه الناحية وهل زادت الجرائم اليوم عمـا كانت عليه منذ قرون والمهم أنها لا تزال موجودة ، وموجودة فى أرقى مجتمعات الانسان ، وانها تضم نماذج تقشعر لهولها الأبدان لفرط ما فيها من عـدوان على كل مقدسات البشر مذ عرفوا أنفسهم فى هذا الوجود . فهناك أبناء تقتل أمهاتها وآباءها وأمهات وآباء يقتلون أطفالهم وأولادهم وهناك أزواج يقتلون زوجاتهم وزوجات يقتلن أزواجهن ، وأصدقاء يقتلون أصدقاءهم ، وهناك غاصبو الفتيات الصغيرات اللواتى لا يصلحن للمعاشرة الجنسية وهناك خاطفو الأطفال وحارقو الدور والمزروعات ، وبائعو السموم التى تفتك بالبشر على صورة مخدرات وهناك المجرمون من كل صنف وطراز . واذا كانت العدالة [1] تضع يدها من حين لآخر على بعض المجرمين فالى جوار كل مجرم تقتص

---

(١) ايا كان الأساس الذى تقوم عليه شرعية القصـاص من أنه ضرورى ولازم لامكان قيام الاجتماع البشرى ـ فعملية القصاص (الاعدام)لاتعـدو أن تكون ازهاقا للروح البشرية • فالدولة القوية أو صاحب السلطان كائنا من كان يقتل المجرم الذى أصبح ضعيفا بوقوعـه فى يد العدالة وهكـذا تطرد القاعدة أن القوى يقتل الضعيف ، فالمجرم كان قويا فقتل ضحيته الأضعف منه ، والدولة القوية تقتل المجرم الأضعف منها • (انظر خاتمة الكتاب ـ تذييل)

منه العدالة ، عشرات من المجرمين الأحرار الطلقاء الذين يواصلون جرائمهم فى منأى عن القانون لقوتهم أو حذقهم أو لجاههم وسلطانهم .

الجريمة فى الولايات المتحدة الأمريكية

وحسب الانسان أن يطالع ما كتبته دائرة المعارف الأمريكية Americana فى جزئها الثامن تحت مادة «جريمة» لكى يهوله أن يكون سلطان الجريمة قد وصل الى هذا الحد فى مجتمع يريد أن يجعل من نفسه قدوة للبشرية . لم تعد الجريمة فى أمريكا عملا فرديا ، بل لقد أخذت صورة الشركات والنقابات ، فهناك نقابات تتولى عمليات القتل ، وأخرى للسرقة والابتزاز ، وبعضها للقمار والمخدرات والرقيق الأبيض ، وبعضها للسيطرة على العمال . وتعمل النقابات بطريقة مكشوفة وكثيرا ما يشركون السلطات فى أعمالهم الاجرامية ، وينضمون للحزبين الكبيرين للاستظلال بجاههما . تقول دائرة المعارف « وقد تصل قدرة بعض الجمعيات الاجرامية الى حد يعلن البوليس معه عجزه عن امكان التغلب عليها » . واذا كان هذا ما تقوله دائرة المعارف الأمريكية ، فيجب اعتباره تصويرا متواضعا للحقيقة ، هذه الحقيقة التى حملت الينا وكالات الأنباء أخيرا صورة منها ، فقد أعلن أنه قد ظهر أن خمس عدد رجال البوليس فى مدينة دنفر الأمريكية من اللصوص والمجرمين ، وقد ظل هذا العدد من رجال البوليس يسرق وهو يرتدى زيه الرسمى طوال الأربع عشرة سنة الماضية . ولما كان عدد رجال بوليس مدينة دنفر هو ٨٠٠ فمعنى ذلك أن عدد أفراد البوليس الذين اشتركوا فى هذه الجرائم يبلغ ١٥٠ رجلا [١] .

واذا كنا قد سقنا المثل من الولايات المتحدة الأمريكية فما ذلك الا لأنها

(١) ملحق الأهرام الأدبى يوم الجمعة ١٩٦١/١١/٢٠ ص ٨

تمثل لدى البعض ذروة ما وصل اليه المجتمع الانسانى من رقى مادى ، والا فالجريمة موجودة فى كل البلاد والمجتمعات . وهى أحد معالم عصرنا الحديث بأبشع مما كانت فى أى يوم من الأيام . واذا كان هناك اليـوم مجتمعات برئت من الجريمة فهى هذه المجتمعات التى لا تزال فى حالة من البدائية ، ولم تصل اليها نعمة الحضارة الحديثة ؟؟

جرائم الأحـــداث

رب قائل يقول ان ذلك كله من رواسب الماضى التى لا تلبث أن تزول بالتعليم والتربية وأن الأجيال القادمة ستكون خـيرا من الأجيال السابقة ولكن الواقع يؤكد عكس ذلك فجرائم الأحداث فى ازدياد مستمر فى كل بلاد العالم ، حتى لقد ألفت منظمة الصحة الدولية لجانا من أعاظم الخبراء من الأطباء والباحثين الاجتماعيين فخرجوا من أبحاثهم بأن ازدياد جرائم الأحداث هو مشكلة المشاكل فى المجتمعات الأمريكية والأوروبيـة وأن معدل الزيادة مستمر فى جرائم العنف والجرائم الجنسية (بين صفوف المراهقين) وجرائم السرقة ، بل ان نوعا جديدا من الجرائم قد خرج فى زيادته عن المعدل المألوف وأصبح ظاهرة جديدة جديرة بالدراسة وتلك هى جرائم تحطيم النوافذ ومصابيح الشوارع واتلاف السيارات والسب والعربدة . ولقد وصل الأمر بواحد من هؤلاء الخبراء الذين تصدوا لدراسة هذه المشكلة أن تلمس ناحية من نواحى الخير فى جرائم الأحداث وهو أن تعرف المجتمع بالمجرمين القادمين فيبادر بعلاجهم ان كان يجدى العلاج [1] .

---

(١) اليك ما قاله هذا الخبير نقلا عن نشرة تصدرها منظمة الصـــحة العالمية .

« هناك اعتقاد سائد أن مجتمعا راقيا وسليما يجب أن يخلو من جـرائم الأحداث . ولاشك أن ذلك هو المثل الأعلى ، ولكن ما بقى الأبوان غير مستقرين، والصغار يجربون كما هو الشأن حاليا ، فان السؤال يعرض لنا هل من المرغوب=

الحرب كبرى الجرائم

ولننتقل الآن الى كبرى الجرائم التى اختص الانسان بها نفسه دون سائر الحيوانات والحشرات كلها (باستثناء النمل ، أو بالأحرى أحد أنواعه فقط) [1] ونعنى بهذه الجريمة الحرب العدوانية التى يحاول فيها المتحاربان أن يبيد كل منهما الآخر . فاذا زعم زاعم أن الاجرام فى نهاية الأمر قاصر على فئة قليلة من المجموع الانسانى الذى لا يجرم ، فما هو الرأى فى الحروب الجماعية المخربة المدمرة والتى يتحول فيها قتل الانسان ونهبه وتعذيبه وتعذيب أولاده هو أكبر الفضائل التى يقلد فاعلها الأوسمة والنياشين وسط الحفلات الصاخبة .

هل يجرأ أى مدع ممن يملأون الجو صياحا عن التقدم الرائع الذى حققه البشر ، أن يزعم أن البشرية قد خطت خطوة واحدة فى سبيل التقدم فى هذا السبيل؟ ما هو أسود ما يسجله التاريخ لجيش من الجيوش فى أى عصر من العصور التى توصف بالهمجية والبربرية ؟ أيمكن أن يقارن بشىء مما ارتكب فى الحربين العالميتين الماضيتين ؟

ألم تستخدم الغازات السامة لأعماء الجنود أو دفعهم الى الجنون ؟ ألم تهاجم المدن فى الليلة الواحدة بألف من الطائرات التى تحول بعض

= فيه حقا القضاء على جرائم الأحداث فيما لو كان ذلك ممكنا . ان هناك أكثر من عنصر يدل على أن جرائم الاحداث هى نوع من اختلال نظام الحدث مصحوب بما يمكن الى حد ما من تشخيص علته • الأمر الذى يجعل هذه الجرائم أشبه بصمام الأمن • فمن وجهة نظر الصحة العقلية العامة الأوسع نطاقا فستبقى مسألة القضاء على جرائم الاحداث محل جدل • فحيث يكثر نزلاء المستشفيات العقلية يقل نزلاء السجون والعكس بالعكس

Gibben T.C.N. 196 Trends in Juvenile delinquency

(١) الانسان فى العالم الحديث ـ جوليان هوكسلى ـ ص ٣٠٨

البيوت بما فيها من سكان الى حطام وشظايا وعجين من دم الضحايا الأبرياء وأجسادهم ؟

ما الذى فعلته قنبلة هيروشيما وهى تقضى فى لحظة واحدة على ١٤٥ ألف نسمة و ٧٠ ألفا فى نجازاكى ، مع أنه لم تكن هناك ضرورة لفعل ذلك فقد كانت اليابان قد بدأت تتفاوض فى التسليم بالفعل ولم يكن لها من شرط سوى الابقاء على امبراطورها . فما الذى دفع الى الاقدام على هذه المجزرة التى لم يسمع بمثلها التاريخ .. لقد قيل فى تبرير ذلك أنه قد قصد بها تقصير أمد الحرب .. فما هو الدافع للمغول والتتار لقتل من قتلوا أو ذبح من ذبحوا الا أن تكون نفس الحجة ونفس الهدف وهو تقصير أمد الحرب .

هل استطاعت الحرب العالمية الأولى بكل فظائعها ، وبكل ويلاتها .. هل استطاعت هذه الحرب التى اصطلى العالم بحرها أربع سنوات ذاق فيها الأمرين أن تلقنه درسا فى كره الحروب والابتعاد عنها .. ألم تقع الحرب العالمية الثانية ولم ينقض عشرون عاما على انتهاء الحرب الأولى ؟ . وهل تعلم البشر شيئا من هاتين الحربين ، أو لا يتصرفون بنفس الأسلوب وبنفس الطريقة التى أدت الى قيام الحربين السابقتين ؟ أو لا يحشدون الأسلحة ويتكلمون عن نزع السلاح كما كانوا يفعلون قبل الحربين الماضيتين ؟ أو لا ينفقون نصف ميزانية البشر [1] لاعداد وسائل التخريب والتدمير التى تقضى على الحضارة والانسانية من أساسها ؟ فما هو المبرر لذلك كله ؟ يدعى كل من الطرفين أنه يفعل ذلك دفاعا عن نفسه . وكل

(١) كانت ميزانية ايرادات الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦١ ـ ٨٢ ألف مليون دولار خصص منها للدفاع ٤٢ ألف مليون دولار وليس ذلك الا نموذجا لباقى الدول .

الفظائع التى ارتكبها الطرفان فى الحربين الماضيتين لم تكن الا دفاعا عن النفس .. فهل كان الانسان القديم يقول غير ذلك .. وهل كان يفعل الا هذا اذا حارب ؟ وعندما تتحدث عن الانسان القديم فنحن نعنى به الانسان الذى وضع قدمه على سلم ما يسمى بالحضارة ونشوء الممتلكات والمقتنيات والا فان علماء الحياة يقررون أن الانسان البدائى فى العصر الحجرى لم يكن يعرف الحرب [1] .

جرائم ابادة الجنس Genocide

بقى ما قد يقال أحيانا من أن العادة جرت فى القديم باعدام الأسرى ، وهو مالم نعد نفعله ، ولقد فعلت ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية مالم يسمع بمثله فى التاريخ على هذا النطاق الواسع . فقد أباح الألمان لأنفسهم أن يفتكوا ببضع ملايين من اليهود [2] باعتبارهم أعداء للريخ الألمانى ، فكانوا يسوقون اليهود المنكودين ، الذين كانوا يعيشون فى البلاد التى فتحها الألمان ، الى أفران الغاز ليختنقوا فى داخلها فلم تكن هناك وسيلة لقتل هذا العدد الضخم الا عن هذا الطريق الوحشى . وقد أطلق على عملية ابادة اليهود بهذا الأسلوب اسم « الحل الأخير » وقد احتفل بمصرع هذا العدد الضخم من الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة ، كما يحتفل بأعظم الانتصارات .

ولو أن ألمانيا خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية لظل موضوع ابادة هذا العدد من اليهود أحد المفاخر التى يحتفل بها فى كل عام ، ولأصبحت قدوة تحتذى فى كل بقاع العالم . ولكن ألمانيا خسرت الحرب فوصف

(١) الانسان فى العالم الحديث ــ ص ٣١٨

(٢) يقدر اليهود عدد من قتلوا فى هذه المذابح بستة ملايين ، كما تردد ذلك ابان محاكمة « ايخمان » فى اسرائيل ، وحتى لو كانت حقيقة الرقم لاتتجاوز النصف ، فانها تظل رهيبة .

هذا الذى فعلته بأنه جريمة ابادة الجنس التى يجب أن يتضامن العـالم لاستنكارها ومحاربتها ، ووضعت لذلك معاهدة واليك بعض ما قيل حول هـذه الجريمة :

« جريمة ابادة الجنس اسم جديد لجريمة قديمة — والمعنى الحرفى للكلمة هو تعمد القضاء على جماعة وطنية أو جنسية أو دينية وقد كررت هذه الجريمة نفسها عبر التاريخ منذ اليوم الذى محت فيه روما قرطاجنة من الوجود ، كما لو كانت أحد قوانين الحياة ، ومع ذلك فقد كان مقدورا على جيلنا (على ما يقول الدكتور روفاييل لمكين الذى صك اسم هـذه الجريمة) أن يشهد هذه الجريمة وهى تمارس على أوسع نطاق بمعرفة ألمانيا النازية ، حيث اتخذت الدولة من جريمة ابادة الجنس سياسة عليا دائمة نفذتها فى برود واصرار مستعملة فى ذلك آخر ما انتهى اليه العلم الحديث فى انكار تام للانسانية .

وقال الدكتور W. I. ممثل استراليا فى الجمعية العمومية لهيئة الأمم عام ١٩٤٨ .

« لا يمكن للعقل أن يتصور أن تقوم الحيوانات نفسها أو الهمج الذين لم يتعلموا شيئا على الاطلاق ، بارتكاب هذه الأعمال التى دبرت بأساليب جهنمية فى تعمد وقسوة ونفذت بدم بارد فى عصرنا الحديث لابادة أحد الأجناس .

ان أعصاب الجنود الذين تمرسوا بالحرب وتحجرت عواطفهم لكثرة ما عانوا من ويلاتها وارتكبوا من فظائعها ، لم تستطع أن تحتمل رؤية هذه النفايات الجسدية لبعض ضحايا جريمة ابادة الجنس ممن ظلوا على قيد الحياة ، عندما رأوهم لأول مرة » [١] .

---

(١) The Grime of Genocide. A United Nations Convention

وقيل ان ضمير الانسانية قد اهتز لهذا النوع من الجرائم ، فاجتمعت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة وأصدرت قرارها باعداد معاهدة بين الدول للحيلولة دون تكرر المأساة . وحتى أول يناير سنة ١٩٥٩ كانت ٥٩ دولة قد وقعت هذه المعاهدة . فهل احترمتها دولة واحدة ممن وقعتها ؟

مذبحـــة دير ياسين

ولنبدأ باليهود أنفسهم الذين كانوا هم محل العدوان ، ألم يكونوا هم أول من ارتكب هذه الجريمة ضد العرب الذين آووهم وأحسنوا اليهم خلال القرون ؟ أو لم يعمدوا عقب صدور القرار بتقسيم فلسطين الى افزاع العرب لحملهم على الهجرة من فلسطين ، فأوقعوا المذابح التى يشيب لهولها الولدان فى دير ياسين ، حيث كانوا يفقأون العيون ويقطعون الأوصـــال ، ويبقرون بطون الحبالى ويمزقون الأطفال فى حجور أمهاتهم [١] . ولولا أن هبت الجيوش العربية لحماية الشعب الفلسطينى لكان مصيره الذبح عن بكرة أبيه ، ولكم أذهلنا نحن الذين عاصرنا الحوادث فى ذلك الوقت ، كيف راحت العصابات الاسرائيلية تتنافس للاستئثار بشرف نسبة هـذه العملية اليها ، الى أن استقر الشرف لدى عصابة « شترن » . ونجح اليهود فى الوصول الى هدفهم وهو اجلاء العرب عن بيوتهم وقراهم وأراضيهم ، لينعم بها اليهود ويؤلفوا دولة اسرائيل . ويعيش الآن فى الصحارى المحدقة بفلسطين ، أكثر من مليون عربى من اللاجئين [٢] بعد أن جردوا من كل شىء الا من حياة التشرد ، فما هو ابادة الجنس الا هذا .

---

(١) الصحف ووكالات الانباء ابريل عام ١٩٤٨ ـ وانظر جريدة مصر الفتاة العدد ١٥٥ الصادر فى ١٩٤٨/٤/١٢ ـ والمؤرخ الانجليزى « توينبى »

(٢) يبلغ العدد الرسمى للاجئين كما هو مسجل فىسجلات المنظمة العالمية التابعة لهيئة الأمم .U.N.R.W.A قرابة المليون ، موزعين على الوجه التالى :
٦٠٠ ألف فى الاردن ، ٢٤٠ ألفا فى قطاع غزة ، و ١٤٠ ألفا فى لبنان ، و ١١٠ آلاف فى سوريا .

وعندما قضى بتقسيم الهند الى دولتين مستقلتين فى سبتمبر عام ١٩٤٧ — الهند والباكستان — أى مذبحة مروعة تلك التى حدثت أثناء الرحلة بين البلدين ، والتى قدرت ضحاياها ببضعة ملايين ، ولم تقف هذه المجازر ولم يكن مقدرا لها أن تقف لولا أن ضحى غاندى بحياته فكان دمه المطلول هو الذى وضع حدا لهذه الكارثة ، التى لم يسمع بمثلها فى أى زمان أو مكان [١] .

حرب الجزائر

وما الذى يحدث فى الجزائر منذ سبع سنوات ولا يزال يحدث فى هذه اللحظات التى أكتب فيها كتابى ، ألا يحاول نصف مليون جندى فرنسى مدججين بآخر ما عرف البشر من أسلحة الدمار أن يحولوا بين شعب من الشعوب وتقرير مصيره فى حرية ، بالرغم من اجماع العالم ممثلا فى هيئة الأمم على وجوب ذلك ؟ أو لم يبلغ عدد ضحايا الثورة الجزائرية حتى الآن على ما يقول الجزائريون ، ما يناهز المليون قتيل ؟ فما هى جريمة ابادة الجنس الا هذا . ولندع ما يجرى فى الجزائر نفسها مما كان محل استنكار العالم كله وتبرؤ الفرنسيين [٢] لنرى ما الذى يجرى فى باريس هذه اللحظات ، باريس عاصمة النور كما يحلو لهم أن يسموها ، أو لم يقذف البوليس الباريسى المتمدن بمائة جثة من المتظاهرين الجزائريين فى مياه السين ، الأمر الذى أثار على ما تقول الصحف ثائرة نقابة المحامين الفرنسيين

---

(١) اغتال هندوكى متهوس غاندى فى ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨ ـ طالع فى تفصيل المذابح التى جرت فى الهند عقب التقسيم كتاب أمة تبعث للمؤلف

(٢) اقرأ كتاب «عارنا فى الجزائر» لجان بول سارتر الفيلسوف الفرنسى ـ ترجمة الدار القومية للطباعة والنشر .

فطالبت باجراء التحقيق ، وبدىء التحقيق بالفعل بعد أن انتشلوا ستين جثة ، غداة اليوم الذى كان المجلس البلدى يهنىء بوليس العاصمة [1].

ألا يزيد عدد المعتقلين فى سجون فرنسا من الجزائريين على خمسة عشر ألف جزائرى يساموه سوء العذاب لا لذنب أو جريرة الا أنهم يطالبون باستقلال بلادهم الأمـــر الذى حملهم جميعا على الاضراب عن الطعام ، احتجاجا على وحشية الفرنسيين [2] . واذا كان الجـــزائريون لا يزالون صامدين أمام هذه المحن والويلات ، فليس ذلك الا آية الاعجاز البشرى ، مما ندرسه فى هذا الكتاب .

وما الذى يفعله البرتغاليون فى انجولا هذه الأيام أيضا ؟ أو لم يقتلوا فى الأسابيع الأولى لقيام الحركة التحررية ٥٠ ألف رجل وامرأة وطفل ؟ فما هى جريمة ابادة الجنس الا هذا الذى ترتكبه هذه الشعوب المتحضرة والمتمدينة والتى استنكرت عمل هتلر من قبل ؟

الثـــورات

وأخيرا ما الذى يحدث عندما تقوم الثورات فى أى بلد من البلاد لقلب نظام واقامة نظام ؟ أى انفجار دموى ذلك الذى يحدث ، عندما يلغ الانسان فى دم أخيه الانسان ، وهو فى هـــذه المرة ليس بالعدو الخارجى وليس الثائرون فى حالة دفاع عن النفس ، يبررون بها ما يفعلون ، ذلك أن القائمين بالثورة يكونون هم المهاجمين فى أغلب الأحوال . ولست أريد أن أعود الى الثورة الفرنسية وكم أريق فيها من دماء ، وارتكب من مظالم باسم الحرية لئلا يقال ان ذلك قد مضى وانقضى فى القرن التاسع عشر ، ولأسرع الى

(١) جريدة الاهرام يوم الثلاثاء ـ ٧ نوفمبر ١٩٦١
(٢) جريدة الاهرام ١٢ نوفمبر سنة ١٩٦١

الثورة التى قلبت نظام الحكم فى روسيا القيصرية ، ولن أرجع الى ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ وما جرى فيها من مذابح فلست أريد كما أكرر دائما أن أخوض فى مناقشات مذهبية ، فلندع ثورة أكتوبر بل فلندع ماتلاها من حرب أهلية ، يمكن أن يتخذها البعض مبررا لأشنع الجرائم ، ولنصل الى عام ١٩٣٧ حيث كان الحزب الشيوعى أكثر ما يكون استقرارا فى حكم البلاد ، وديكتاتورية العمال لاتجد من يفكر فى تحديها ولو فى الخيال ، فما الذى حدث وما الذى جرى ؟ مالذى فعله ستالين باسم التقدم وباسم العمل من أجل الشعب والانسانية ؟ ولأدع خليفته هو الذى يقول لنا ماذا فعل ستالين : —

« لقد لقى آلاف من الشيوعيين الأبرياء المخلصين حتفهم نتيجة تلفيقات وحشية دنيئة ، وكان المتهمون يرغمون على اتهام أنفسهم فضلا عن اتهام الآخرين ، تخلصا من العذاب .

وكانت الوسيلة الشهيرة فى هذا الشأن أن يعد البوليس السرى قوائم ، بأسماء الأشخاص الذين تنظرقضاياهم ثم ترسل القوائم الى ستالين شخصيا، ليصدق على العقوبات سلفا . وقد أرسلت له خلال عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ قوائم بلغ عددها ٣٨٣ تحتوى على أسماء ألوف من أعضاء الحزب ومنظمة الشباب (الكموسمول ورجال الجيش وبعض العاملين فى الحقل الاقتصادى، وصدق ستالين على هذه القوائم » .

وبهذا الأسلوب لاقى عشرات الألوف حتفهم أيام ستالين، ومن هم هؤلاء الذين لاقوا حتفهم ؟ انهم أعضاء الحزب ، بل أعضاء اللجنة المركزية فمن بين المائة وتسعة وثلاثين عضوا الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر أعـدم بالرصاص ، ٩٨ أى ٧٠ ٪ من أعضاء اللجنة المركزية .

ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب وانما كان مصير الغالبية العظمى ممن اشتركوا فى المؤتمر الســـابع عشر فمن بين ١٩٦٦ عضوا يملكون حق الاشتراك والاقتراع ، ألقى القبض على ١١٠٨ أعضاء بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة . من هذا يتبين أن عدد الذين قبض عليهم كان أكثر من الغالبية — ولا شك أن هذه الحقيقة فى ذاتها كافية بأن توضح مدى ما كانت عليه تلك الاتهامات من سخف وقســوة ومجافات للمنطق ، اذ كيف يعقل أن توجه تهمة ارتكاب أعمال مناهضة للثورة الى غالبية المشتركين فى هذا المؤتمر » [١]

واذا كان خلفاء ستالين يرون من مصلحتهم أن ينددوا بما فعله ستالين بأعضاء الحزب ، فمن حق التاريخ أن يذكر ماعمل فى الفلاحين ممن أسموهم الملاك الجدد (الكلاك) عندما استؤصلت على ما يقولون شأفة عشرة ملايين انسان مابين مقتول أو مذبوح أو محروق أو منفى فى سيبريا ليموت [٢] . ان خلفاء ستالين لايقولون كلمة واحدة عن هذا العدد الضخم من الضحايا بل ان ذلك يعتبر من مفاخر ستالين ، كيف لا وهو قد قضى نهائيا على أعداء الثورة فى الاتحاد السوفييتى .

وما الذى عاناه الشعب الصينى لا من اليابان التى حاولت السيطرة عليه ، بل من الجيوش الصينية المتحاربة فيما بينها بعد جلاء اليابانيين ، عشرات بل مئات الألوف ان لم يكن ملايين ، سقطوا صرعى فى الخلاف الناشب بين أبناء البلد الواحد بعد أن أصبح لهؤلاء مذهب وأولئك مذهب آخــر .

---

(١) خطاب الرفيق خروشيشيف فى المؤتمر العشرين ـ ترجمة ماهر نسيم

(٢) ذكر هذا الرقم تشرشل فى مذكراته نقلا عن ستالين شخصيا ـ انظر صفحة ١٦٥ من كتاب : Khrushchev and Stalin's Ghost.

وماذا حدث فى المجر عندما ثارت بعض الطوائف على الحكم القائم فرد الحكم عن نفسه ، كم من ألوف الأرواح التى أزهقت فى بطش وضراوة سواء كان من هذا الجانب أو ذاك وعندما قامت ثورة قريبة فى أحد الأقطار العربية أو لم يفتك الجمهور الغاضب بأعـداء الأمس فدك بيوتهم وقتل نساءهم وأطفالهم بل ومزق أجسادهم حتى اذا فرغ من أعداء الأمس راح يتخاصم فيما بينه ويمثل بعضه بأجساد بعض (1) ..

مصرع لومومبا

وأخيرا وليس آخرا ماذا كان نصيب لومومبا رئيس وزراء الكونغو الذى أعلن استقلال بلاده ، أو لم يقيد بالحبال كما تقيد الحيوانات ويضرب بالنعال والسياط ، أو لم ينزع شعر رأسه ثم يدس فى فمه ويطلب منه أن يأكله . وعندما اشمأز الضمير العالمى من هذا التعذيب والتنكيل لرجل أعلن استقلال بلاده على يد مواطنيه أو لم يستأنف تعذيبه بأشد مما جرى من قبل ثم قتل فى خسة ودناءة وأخفيت جثته حتى لا يعرف مكانها .

رب معترض يقول ولكن ذلك حدث فى الكونغو وهى بلاد لم تتهذب بعد ، ولكن الذى فعل ذلك بلومومبا ليسوا غـير المهذبين وليسوا من القبائل الهمجية ، وانما فعله المتعلمون .. فعله الحكام الذين تتعامل معهم الدول . ولقد رأينا صـورة الذى حل به فى الصحف وفى السينما وفى التليفزيون ، أى انه كان يقع على ملأ من العالمين الذين لا يرون فى ذلك الا مجرد رواية تمثل ... وحدث بالأكثر وللأمم المتحدة جيش فى الكونغو ليحول دون ذلك ، جيش قد ذهب الى الكونغو بناء على طلب لومومبا

---

(1) الاشارة الى المجر لما وقع فيها من احداث عام ١٩٥٦ ، والقطر العـربى المقصود هو ثورة العراق عام ١٩٥٨ ، وما أعقبها من ثورة الشواف فى الموصل .

بالذات .. ولكن الأمم المتحدة رأت فى هذه الوحشية أمورا داخلية لا يصح لها أن تتدخل لمنعها .

وقد كان من جراء هذا التهاون ، أن صرع هامرشولد نفسه ، أمين هيئة الأمم ، على يد الأشخاص الذين صرعوا لومومبا . فهل تغير وجه البشرية عام ١٩٦١ عما كان عليه فى أى قرن سابق على الميلاد ؟ على كل انسان أن يكون لنفسه رأيا فى هذا الموضوع .

وقد بقى لكى يكون استعراضنا كاملا أن نشير الى مايتصوره البعض امتيازا للعصر الحديث ، من انه لم يعد هناك رق ، كما زال التعصب الدينى من الوجود ، وانتشرت الدعوة للعالمية ، لنرى الى أى حدد يمثل هذا القول الحقيقة .

الغاء الرق

فهل صحيح أن الانسان قد ألغى الرق لأنه أصبح أكثر انسانية ؟ أم أنه ألغاه لأنه لم يعد نافعا بصورته القديمة ، فجاء بصور جديدة من الاستغلال والاسترقاق ، تجعل الرق فى صورته القديمة نعمة ورحمة من السماء ؟ يرد على هذا التساؤل الواقع الذى نعيش فيه . ماهو الاستعمار الذى ساد القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، الا أن يكون استرقاق شعوب بالجملة ، واليوم والاستعمار يتداعى كما يقال ، أولا تتشبث شعوب أوربية بضرورة ابقاء بعض الشعوب فى العبودية الكاملة كما يحدث الآن فى أنجولا على يد البرتغال [١] ، وكما يحدث فى جنوب افريقيا حيث يأبى البيض الا أن يعتبروا السود قد وجدوا فى الدنيا لخدمتهم . وهلا يوجد فى الولايات المتحدة نفسها من يتصور هذا التصور ويصر على التفرقة العنصرية .

---

(١) راجع «الرق الحديث فى افريقيا البرتغالية ـ للدكتور راشد البراوى»

ولندع موضوع الاستعمار جانبا وتتكلم عن علاقات البشر داخل الوطن الواحد ، ما الذى مارسته الرأسمالية فى عصورها الأولى ، كيف عومل العمال باعتبارهم سلعة كأى سلعة أخرى فى السوق ، كيف كان الصبيان والنساء يشتغلن اثنتى عشرة ساعة أمام الآلات ، كيف وصل الأمر الى حد أن بعض الآباء كانوا يحملون أولادهم المرضى للعمل فى المصانع لأن ذلك هو السبيل الوحيد للحصول على القوت ، وكان بعض الآباء يطعمـــون أولادهم وهم وقوف أمام الآلات فليس هناك وقت لتناول الطعام [1] .

كل ذلك وأكثر منه قد حدث مما تغص به كتب التاريخ والاقتصـــــاد والاجتماع ، وما كان هو السبب المباشر لاندلاع الثورات الشيوعية ، كرد فعل لهذه المظالم .

الأرقـــاء الذين صـــاروا ملوكـــا

أين هذا مما كان يتمتع به الرقيق من عناية ســـيده فى الزمن القديم باعتباره مالا مملوكا له يحرص عليه من الضياع ، ولو حـــدث أن أظهر الرقيق شيئا من الاخلاص والوفاء فضلا عن الذكاء ، فان سيده كان يبادر بتعليمه ، والاعتماد عليه فى كل شئونه ، وكثيرا ماكان الرقيق يصبح شريكا لسيده ، أو ابنا له بالتبنى [2] ، ويسجل لنا تاريخ مصر كيف ان طائفة من الرقيق قد استطاعوا أن يصبحوا حكاما وأمراء ، وأن يصلوا فى نهاية الأمر الى أن يكونوا ملوكا من أعظم من عرفتهم مصر فى كل تاريخها الطويل ، من أمثال قطز قاهر التتار والظاهر بيبرس وقلاوون والغورى .

فالتشدق بأن العصر الحديث قد ألغى الرق وحرر الانسان ، هو مجرد قول سطحى لا يمثل حقيقة الواقع .

---

(١) رأس المال لكارل ماركس ـ ترجمة الدكتور راشد البراوى .

(٢) من الأمور المألوفة فى مجتمعنا المصرى القديم هذه الأوقافات المخصصة لذرية من كانوا فى القديم من الأرقاء .

رب قائل يقول ان العمال اليوم قد تحرروا من الرأسمالية وأصبحوا يستمتعون بالحياة ، ولكن الواقع مرة أخرى يؤكد أنه فى المجتمعات الأكثر تقدمية على ما يقولون ، وهى المجتمعات الشيوعية ، قد فقد العمال حريتهم وعاشوا فى ضنك لم يسبق له مثيل ، حتى يكون فى استطاعة الدولة أن تقوم بعمليات التصنيع ، واليوم يعيش العمال فى الصين فى أشق أنواع العمل والعبودية لما يسمونه «الكميونات» أى العمل الجماعى لمصلحة المجموع . ولسنا الآن فى صدد الحكم على هذا النظام أو ذاك ، ولكننا فى صدد اثبات أن كل حديث عن التقدم البشرى المزعوم ، هو حديث خرافة ، وأن الرق بمعنى فقدان الحرية الشخصية يمارس الآن فى أنحاء العالم على صورة أو أخرى ، فالسيد هو الذى يتغير فتارة يكون أميرا ، وتارة يكون رأسماليا ، وثالثة يكون الدولة ، ولكن المضمون واحد فى كل هذه الأحوال ، وهو أن يشقى السواد الأعظم من الشعب ، تحت أسوأ الظروف لينعموا فى المستقبل البعيد ، أو ينعم أولادهم من بعدهم ، أو لتنعم الأجيال القادمة من بنى الانسان . أما الرؤساء والمديرون ، أما المنظمون والقادة ، فمن حقهم أن ينعموا فى التو واللحظة .

هل قضى على التعصب ؟

واذا كان الأمر فى موضوع الرق يقوم على مجرد اللعب بالألفاظ ، ونقل حقيقة الرق من ميدان الى ميدان ، فكذلك الشأن بالنسبة لهذه الدعوى التى تقول ان العصر الحديث قد قضى على التعصب الدينى وحرر العقل من القيود التى كانت تكبله بها الكنيسة أو رجال الدين فى أى عهد من العهود .

ويحلو للكتاب دائما أن يذكروا بأسماء برونو الذى حرق لأنه خرج على الكنيسة ، واسم جاليلو الذى أوشك أن يحرق لأنه قال بكروية

الأرض ، وأن يتحـدثوا عن محاكم التفتيش التى كانت تعذب المتهمين للحصول على اعترافاتهم ، وأن يشيروا الى المذابح التى أوقعها الكاثوليك بالبروتستانت وعلى رأسها مذبحة سانت بارتلمى ، وما أوقعه البروتستانت بعد ذلك بالكاثوليك فى المجتمعات التى آلت اليهم فيها السلطة .

ويتنفس الناس الصعداء أنهم لا يستظلون بهذه العهـود ويفركون أيديهم فرحا وابتهاجا .

وصحيح أن كل انسان اليوم جر فى أن يكفر بالله والكنيسة والأديان كلها، وحقا ان كل انسان يستطيع أن يقول اليوم آن الأرض تدور أو لا تدور وأنه يوجد فى الكواكب الأخرى حياة أو لا يوجد عليها حياة ، وأن الانسان سيخلق المادة الحية وأن لا اله سوى الطبيعة ان كان هناك اله على الاطلاق .. أجل باستطاعة كل انسان أن يقول ذلك اليوم بملء حريته .. فهل معنى ذلك أن الانسانية قد قضت على التعصب وأن العقل قد أصبح حـرا طليقا يمرح كما يشاء ويقول ما يشاء ؟ والجواب على ذلك بالسلب . فالتعصب هو التعصب كما كان فى أى عصر وزمان ، وكل ما فى الأمر أن ميدان التعصب الذى تزاوله الدولة قد تغير فانتقل من ميدان الدين الى ميدان الوطنية أو ميدان المذهب .

فبالأمس كان الدين هو الأساس الذى يقوم عليه البنيان الاجتماعى فكل محاولة لهدم الدين ومعتقداته الأساسية هى عدوان على آسس النظـام الاجتماعى الأمر الذى يهدد سلامة الجماعة واذن فقد كان لابد أن يقمع ـ وأن يقمع بالشدة التى تراها الجماعة محققة لأمنها وسلامتها .

وعلى هذا الأساس قامت محاكم التفتيش وعلى هذا حرق من حرق وسجن من سجن ومنع الناس من أن يقولوا بدوران الأرض ما دام أن

القول بذلك يخالف ماهو مثبوث فى التوراة والانجيل ، وهـو الأسـاس الذى يقوم عليه النظام الاجتماعى .

واليوم أصبح الولاء للوطن لا للدين هو أساس المجتمع ، فهل يسمح لمسلم فى بلد مسيحى ، أو هل يسمح لمسيحى فى بلد مسلم ، أو يسمح لكاثوليكى فى مجتمع بروتستنتى ، أن ينادى بالولاء لبلد آخر كاثوليكى والعكس بالعكس .. ان مثل ذلك يعتبر خيـانة للوطن يدفع المنادى بها حياته ثمنا لذلك مع دمغه بالخيانة والمروق .

وفى مجتمع ملكى رجعى هـل يسمح لانسان ما أن يدعو للنظـام الجمهورى وأن يعمل على تفويض النظام الملكى أو لا يكون جزاؤه الاعدام شنقا أو حرقا أو رميا بالرصاص من خلال محاكمة عادلة أو بدون محاكمة على الاطلاق ..

وأخيرا فى مجتمع شيوعى يقوم على أساس الملكية الجماعية ونظريات كارل ماركس .. هل يستطيع انسان أن يندد بالملكية الجماعية وأن يدعو للملكية الفردية وأن يحقر من شـأن كارل ماركس أو يجدف بكتابه رأس المال ؟ هل يستطيع انسان فى الاتحاد السوفييتى أو فى الصين ، أن يدحض المادية الجـدلية ألا يكون نصيب هـذا الشخص هو الشنق أو الحرق أو الاعدام رميا بالرصاص من خلال محاكمة عادلة أو غير عادلة أو بدون محاكمة على الاطلاق ؟

ومثل ذلك يقال عن المجتمع الرأسمالى .. هل يسمح فى ذلك المجتمع بقيام من يدعو لتقويض هذا النظام . لا أحد يسمح بذلك [١] .

وهكذا نرى أن المسألة بالأمس لم تكن مسألة تعصب أو تسامح وانما

---

(١) راجع فى ذلك الموضوع بالتفصيل ــ رسالة الدكتوراه للدكتور محمد عصفور حول « وقاية النظام الاجتماعى باعتبارها قيدا على الحريات »

مسألة أسس المجتمع التى يراد المحافظة عليها لصالح حاكم أو جماعة أو طائفة من أى نوع كان . والأمر اليوم كما كان بالأمس لا علاقة له بالتعصب أو التسامح وانما هى مسألة كيان يعمل المجتمع على المحافظة عليه والبطش بكل من يهدد أسسه . ولحماية الدولة ونظامها الاجتماعى ، تجرى وسائل التعذيب للحصول على الاعترافات بأبشع مما حدث فى أى يوم من أيام التاريخ ، وتقع المذابح وحمامات الدم بما تعد الى جواره مذبحة سانت بارتلمى مجرد مناوشة صغيرة [١]

فالتسامح اليوم الذى تبديه الدولة فى الأمور الدينية لم ينبع من رقى أو تطور فى طبيعة الانسان وانما يرجع الى أن الدولة قد أخرجت الدين من الحساب ، وأحلت أمورا أخرى هى التى تتعصب لها ولا تقبل فيها تسامحا من أى نوع كان . ويكون الانسان اليوم كما كان فيما مضى من الزمان .

السعى لتحقيق العالمية

ونصل أخيرا الى ما يعتبره البعض سمة تميز عصرنا الحديث من أنه يدعو بل ويعمل لتحقيق الدولة العالمية التى تصون السلام وتقضى على الحروب وتحقق التآخى بين البشر . وهيئة الأمم هى أكبر شاهد على ذلك ، ليس فقط فى جهودها السياسية بل فى هيئاتها الفنية الأخرى التى تضم جهود شتى الدول لمواجهة المشاكل على الصعيد الانسانى [٢] . ونحن ممن يؤمنون بأن البشرية لابد محققة فى يوم من الأيام هذا الهدف ولكنه

---

(١) حدثت أيام هتلر مذبحة رهيبة اطلق عليها اسم حمامات الدم وقد قتل فيها عشرات الالوف . كما استغل حادث حرق الريشستاغ ، للتنكيل بمئات الالوف من الشيوعيين ومطاردة الملايين منهم .

(٢) راجع التذييل فى آخر الكتاب

حتى الآن لم يتحقق بعد ، والحقيقة الواقعة التى نحياها هذه الأيام هى أنه لم يحدث أن انقسم العالم الى كتلتين متباغضتين بأشد مما يحدث اليوم حيث يغرق العالم نتيجة هذا التباغض فيما أسموه الحرب الباردة والتى قد تتحول فى أى لحظة ولو بسبب غلطة عابرة الى حرب ساخنة أو بالأحرى الى كارثة .

فالى أن يتم الوفاق وازالة أسباب الشحناء فكل حديث عن توحيد العالم لا يزال فى دور المحاولة وليست هذه المحاولة فضلا يستأثر به العصر الحديث دون العصور الماضية فالدعوة للعالمية لم تنقطع فى أى يوم من الأيام .. وقد حققتها روما بصفة جزئية فى فترة من الفترات ، حيث كان حوض البحر الأبيض المتوسط كله والجزء الأكبر من أوروبا تسيطر عليه حكومة واحدة وقوانين واحدة .

وعملت عليها الأديان التى ليست فى طبيعتها الا دعوة لتوحيد بنى الانسان تحت لواء رب واحد وقانون سماوى واحد . ووصل الاسلام فى ذلك للذروة سواء من الناحية النظرية أو العملية .. فمحمد رسول قد أرسل للناس كافة ورحمة للعالمين ، ليعبدوا ربا واحدا ويستظلوا بشريعة واحدة ، ويؤلفوا دولة واحدة لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى لأن القرآن يقول « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . وعلى هذا الأساس قامت الدولة الاسلامية من غرب الصين حتى ساحل المحيط الأطلسى وكان المسلم ، كل مسلم ، يعتبر نفسه مواطنا فى هذه الدولة المترامية الأطراف يتجول فيها وينتقل ويتاجر ويملك ويتزوج ويخاصم ويصالح دون أن يطلب منه ابراز جواز سفر ، أو تقف فى وجهه حواجز جمركية ، وحسب الانسان أن يطالع كتب الرحالة من أمثال المسعودى والبغدادى وابن جبير

وابن بطوطة وخسروشاه ، ليرى كيف ساح هؤلاء فى هذه الدولة الاسلامية التى تؤلف الجزء الأكبر من آسيا وأفريقيا ، فكانوا هم هم فى كل مكان يحلون فيه ، مسلمين فى دولة اسلامية يتمتعون بكل حقوق المواطن فى هذه الدولة الواحدة ، أيا كان الحكام الذين يحكمونها . بل ان العجب ليذهب بنا الى أبعد من ذلك ونحن نطالع كتب هؤلاء الرحالة عندما يقولون لنا ان الحروب الصليبية بكل أهوالها كانت وقفا على المتحاربين من الجانبين ، أما المدنيون فلم يكن يتعرض لهم أحد فكان المسيحيون يدخلون الى مدن المسلمين ، والمسلمون يدخلون الى مدن النصارى والحرب دائرة بين الطرفين ، دون أن يفكر أحد فى منعهم أو التعرض لهم بأى صورة من الصور [1] ولم يكن ذلك وقفا على الشرق الاسلامى ، فقد كان الحال كذلك فى أوروبا تحت حكم شارلمان ، ومن قبل تحت حكم بيزانطة والرومان من قبل . فالدعوة للعالمية ليست شيئا جديدا ، ولا هى من خلق العصر الحديث أو ثمرة حضارته كما يظن البعض ، بل ان الذى لا شك فيه أن العصر الحديث متخلف جدا فى هذه الناحية بالنسبة للامكانيات المتاحة له ونعنى بها انتشار اللاسلكى والتلفزيون والطائرات .. الخ .

افلاس

وهكذا يقف الانسان فى منحدر القرن العشرين ، وهو فى حالة افلاس بالنسبة لتحقيق أى تقدم حقيقى فى علاج المشاكل المزمنة التى واجهت البشر منذ أقدم العصور . فالآلام البشرية مادية كانت أو معنوية ، لا تزال هى الآلام ، والحرمان والمرض والجوع هى الطاحونة التى تطحن السواد الأعظم ، ولا يزال القانون السائد فى علاقات البشر بعضهم ببعض هو غلبة الأقوياء على الضعفاء وتحكم القلة فى الغالبية .

(١) الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى للدكتور نظير حسان سعداوى ص ١٦٨

ولا يزال الحقد والحسد والبغضاء والمنازعات والفتن ، هى أسلوب الحياة المتبع سواء فى المعاملات بين الأفراد أو الجماعات . ولا يزال ملايين البشر يعيشون فى رعب دائم ، وهم مقيم من خوف الحرب الطاحنة التى لا تبقى ولا تذر .

فكل حديث عن تقدم البشرية نحو المثل الأعلى الذى ينشده بنو الانسان هو مجرد وهم وسراب يحسبه الظمآن ماء فاذا جاءه لم يجده شيئا ، والأمر لا يعدو أن يكون قعقعة بالألفاظ ، ولونا من ألوان الغرور الذى يتردى فيه كل جيل من الأجيال الحديثة عندما يتصور نفسه ، أحسن حالا مما كان عليه السابقون .

اين تقهقر البشر ؟

واذا كنت أريد أن أترك للقارىء نفسه ، الحكم على ما اذا كانت البشرية قد تقدمت أو تخلفت ، واقفا عند حد القول بأنها لم تتقدم على التحقيق ، فان هنـــاك ناحية لا أتردد بالنسبة لها فى الجزم بأن الانسانية قد تخلفت فيها ، بل وتدهورت وتلك الناحية هى النظرة الى الانسان الفرد وتقويمه ، ووزنه فى المجتمع ومكانه فى هذا الكون .

ولن أحاول أن أقارن بين نظرة القرن التاسع عشر الى الانسان الفرد ونظرة القرن العشرين ، لئلا يزج ذلك بنا فى مناقشات مذهبية تخرج عن نطاق هذا الكتاب ، وانما سأعود الى العصور القديمة لأحاول أن أستشف نظرة الانسان الأول الى نفسه ، لنرجع الى الآراء والمعتقدات القديمة التى يحلو للكثيرين منا أن يسخروا منها ، لنبحث عن قيمة الانسان الفرد .

الانسان فى العالم القديم

الانسان فى كل المعتقدات القديمة هو الله بذاته ، أو هو من سلالة الآلهة ، أو هو المسكن الذى يمكن أن تحل به الآلهة . فتأليه الأجداد

وعبادتهم باعتبارهم آلهة هى أقدم العبادات ظهورا فى الوجود . وكان المصريون القدماء يعتقدون أن كل انسان صالح يتحول بعـد موته الى أوزوريس ، ولذلك لم يكونوا ينظرون الى الموت فى خوف أو وجل [1] . وكان مجمع الآلهة الاغريقية فوق جبل الأولمب لا يختلف عن أى مجتمع انسانى ، وكانت العلاقة مستمرة بين الانسان والآلهة فيدخلون فى علاقات مشتركة من كل لون وطراز [2] . والفكرة الرئيسية فى أديان الهند تقوم على وحدة الوجود ، فالانسان من الله والله فى الانسان . ومن المشهور والمعروف أن اليابانيين يعتبرون الميكادو هو ابن الشمس ، وعندما كان للصينيين امبراطور فقد كانوا يعتبرونه ابن السماء .

فاذا انتقلنا الى الأديان السماوية فان العهد القديم يقول لنا « ان الله قد صنع الانسان على صورته ومثاله » [3] . والعقيدة المسيحية كما لخصها مجمع نيقية عام ٣٢٥ م تقول « يسوع المسيح هو ابن الله ، المولود غير المخلوق من نفس جوهر الأب ، وبأنه من أجل البشر ومن أجل نجاتهم نزل وتجسد وصار انسانا وتعذب . »

فاذا جئنا الى الاسلام الذى انفرد بتنزيه الله عن الحلول والتجسيد والتشبيه ، فالانسان فى تعاليم هذا الدين الحنيف ، به نفحة من الله ، وقد سجدت له الملائكة ، التى لا تسجد الا لله ، وقد اختاره الله ليكون خليفته على الأرض وسيدا للكون . ويتصل الله بالبشر عن طريق الروح الأمين وهو جبريل ، والذى وصف فى بعض الآيات بأنه روح القدس .

وطبقا لهذه العقيدة والتصور ، فان أى انسان يمكن أن يقع عليـه

---

(١) تاريخ مصر القديمة ترجمة حسن كمال ص ٤٣
(٢) قصة الحضارة الجزء الاول ــ المجلد الثانى ص ٨١
(٣) سفر التكوين ــ الفصل الاول

اختيار الله ليكون رسولا أو نبيا أوْ وليا أو قديسا فيتصل برب العالمين ويعمل بقوته ، ويبشر بحكمته ، ويفيض على الناس بهدايته ، وهو فى كل الأحوال قادر على أن يغترف من قدرة الله ما يجعله يقوم بالمعجـزات والخوارق .

ومرة أخرى لست بصدد مناقشة هذه الآراء والمعتقدات ، ومدى حظها من الخطأ أو الصواب فذلك يخرج عن دائرة بحثنا فى هذا الفصل ، وانما سقنا هذه الأقوال لأنها تدلنا على نظرة البشر المؤمنين منـذ أقدم العصور الى الانسان وقد كان العلم فى القديم يقوم على تأكيد هذه النظرية وتدعيمها بالدليل المنطقى والعقلى والتجريبى . وهو ما كان الناس جميعا لا فرق فيهم بين عالم وجاهل يعتبرونه حقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فعلام يؤدى هذا التصور ، أو بالأحرى ماهى العنـاصر التى يقوم عليها كيان الانسان فى سائر الأديان والعقائد التى توصف بالقديمة كلهـا ؟

تقوم عناصر الكيان الانسانى على الحقائق الآتية :

١ — خلق الله الانسان فى أحسن تقويم .

٢ — لا حد لقدرة الانسان ولما يستطيع أن يفعله اذا أفاض الله عليه من قوته .

٣ — روح الانسان خالدة لا تموت لأنها قبس من روح الله .

خلق الانسـان فى أحسـن تقويم

وتلك هى النتيجة الطبيعية لكونه سليل الآلهة أو خلق على صورة الله أو اتخذ الله من صورته محلا ليتجلى على البشر أو كان خليفة الله ونائبه فى السيادة على هذا الكون .

وقد كان هذا الشعور الانسانى بالصلة التى تربط الانسان بالله الذى يمثل الكمال المطلق هو الحافز القوى الذى دفع البشر لالتماس الكمال فى كل شىء كما يتجلى ذلك فى صناعاتهم وأعمالهم ونفوسهم بل وأخلاقهم وفلسفاتهم . ولم يتصوروا الكمال المطلق أمرا مستحيلا أو بعيد التحقيق ، بل تصوروه دائما أمرا مستطاعا كامنا فى نفوسهم ، فقد ولدوا كاملين واذا كانت بعض العناصر قد انحرفت بهم عن طريق الكمال فان بعض المجاهدة تردهم الى هذا الكمال الذى هو من نصيب الانسان .

ولا حد لقدرة الانسان

ولم يتصور الانسان القديم أن هناك حدا تقف عنده قدرته فالانسان قادر على كل شىء مستطيع لكل شىء ، وقد انعكس ذلك على آداب هذا الانسان فقد أطلق لخياله العنان ولم يضع على هذا الخيال قيودا أو سدودا فحيثما حلق الانسان بخياله فقدرة الانسان واصلة حتما الى هذا الخيال . والمستحيلات لا تعدو أن تكون حقيقة أو حقيقتين ذهنيتين ، كقولك ان الشىء لا يمكن أن يكون معدوما وموجودا فى ذات الوقت ، أو قولك ان الجزء لا يمكن أن يكون أكبر من الكل .. وفيما خلا ذلك فكل ما دار فى الذهن على أنه ممكن فهو جائز الوقوع وليس بعيدا عن قدرة الانسان . فلو قال قائل لآخر انه سمع أن انسانا طار فى الهواء فلن يكذبه مكذب ذلك أنه قادر على ذلك بتسخير بعض القوى الأرضية أو العلوية .. ولو روى انسان أنه شهد انسانا قد شرب البحر فلا محل للقول بأن ذلك مستحيل ، فالانسان قادر على كل شىء لو أنه أدرك بعض الأسرار وهيمن على بعض القــوى .

خلود الروح الانسانية

وأخيرا فان حياة الانسان لا تنتهى بموته ، فان روحه خالدة لا تموت

لأنها من روح هذا الكون وقبس منه ، وليس الموت سوى نقله من صورة الى صورة ومن حالة الى أخرى ، فالروح خالدة ولا فناء للرَوح .

وقد انبثقت من هذه الأسس التى قامت عليها عقيدة الانسان القديم كل ما يهزنا ويروعنا من هذه الحضارات القديمة سواء فى آثارها المادية أو المعنوية والتى تصل الى ذروتها فى تقديس الحياة الإنسانية اذ يعبر عنها القرآن أروع تعبير عندما يقول :

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل النـاس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » (١) أو قوله : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (٢) .

وليس وراء ذلك مطمع يمكن أن يطمع فيه بنو البشر لاعلاء مكانة الانسان الفرد وهو أن تصبح حياة الفرد الواحد منهم مساوية لحياة البشر أجمعين فمن اعتدى عليها فكأنما اعتدى على الانسانية كلها . وأنه يفوق السموات والجبال والأرض فى القدرة ، اذ احتمل من المسئوليةمالم تحتمل، اما عجزا ، أو خوفا .

نكسة العصور الحديثة

هذا هو المكان الرفيع الذى كان الانسان يتبوأه فى هذا الكون حتى أنزلته عنه العصور الحديثة ، عصور المادة والآلة وجحود الروح والرب وكل المعنويات والقيم والأخلاق .

وباستطاعتنا أن نضع أيدينا على الفكرة التى كانت السبب فى النكسة التى أصابت مكانة الانسان الفرد فى العصور الحديثة . كان ذلك عندما نشر لأول مرة فى مدينة نورمبرج عام ١٥٤٣ كتاب كوبرنيكس الذى هدم

(١) المـــائدة ٣٢ (٢) الأحزاب ٧٢

فيه نظرية بطليموس وأرسطو من قبله ، وهى التى سادت العالم بضعة عشر قرنا من الزمان والتى تقول بأن الأرض هى مركز الكون وهى ثابتة لا تتحرك والشمس وباقى الأجرام السماوية هى التى تدور حولها .

فجاء كوبرنيكس الفلكى البولندى يقول لنا بل الأرض هى التى تدور حول الشمس وبالتالى فهى ليست مركز العالم [١] . ولم يكن فى هذا الذى قاله كوبرنيكس شىء جديد فى عالم العلم والمعرفة الا بالنسبةلسكانأوروبا فقديما قال بهـذا الرأى فيثاغورس (٥٧٢ — ٤١٧ ق . م) وزاد عليـه استرخس (٣١٠ — ٢٣٠ ق . م) أن لأرض تدور دورتين مرة حـول نفسها كل ٢٤ ساعة ومرة حول الشمس كل عام [٢] . فليس فيما جاء به كوبر نيكس جديد ، ولكن الجديد أن الكنيسة فى أوربا كانت قد اتخذت من نظرية بطليموس وارسطو أساسا لتعاليمها التى تفسر بها الكتاب المقدس فالأرض هى مركز الكون ، والانسان هو مركز الأرض فالانسان هو مركز الكون ، ولذلك فقد بعث الله ابنه الحبيب ليقيل عثرته وليخلصه من خطيئته التى ارتكبها أبوه آدم من قبل . ولقد تصورت الكنيسة فى ذلك الوقت أن هذه العقيدة تضطرب وتتزعزع من أساسها ، اذا لم تعد الأرض هى مركز الكون ومن هنا ولهذا السبب كان حرب الكنيسة لفكرة دوران الأرض حول الشمس [٣] .

---

(١) اساطين العلم الحديث ـ ليعقوب صروف

(٢) اساطين العلم الحديث

(٣) لولا أن كوبرنيكس الذى دعا الى هذا القول قد مات فى نفس العـام الذى نشر فيه كتابه لربما كان مصيره مصير برونو من بعده ، والذى دفع حياته ثمنا لتمسكه بهذا القول من دوران الأرض حول الشمس .

كما أوشك جاليليو (١٦١٠) أن يلقى ذات المصير لولا أنه كان من الحكمة بحيث تراجع عن قوله فى الظاهر . والى جاليليو يرجع الفضل فى اثبات ما قال به كوبرنيكس لأختراعه (التلسكوب) أى المنظار المكبر الذى أمكن بواسطته رؤية أقمار تدور حول الزهرة ، وأوجه للمريخ وهو ما قـال به كوبرنيكس باعتباره النتيجة الطبيعية لدوران الأرض حول الشمس .

وتحولت الكنيسة التى كانت أكبر مشجع على العلم الى أكبر عدوة له ، وبدأ العلماء يعملون خارج نطاق الكنيسة ويعادونها ، وبدأ هذا العداء يجرف فى طريقه كل ما تتمسك به الكنيسة ، فاذا كانت الكنيسة تعتبر أرسطو هو المعلم الأول ، اذن فليسقط أرسطو ولتسقط كل العلوم التى تجىء عن طريق أرسطو وأفلاطون معا ، ولقد زاد فى تأكيد هذا المعنى أن أرسطو قد قال بأنك لو ألقيت بجسمين من مكان عال فان الجسم الكبير أو الثقيل يسقط بأسرع من الجسم الصغير أو الخفيف ، ولقد أثبت جاليليو فساد ذلك ، فلابد أن تكون كل المعارف القديمة على هذه الوتيرة . واذن فلا مناص من انكار كل ماقال به الأقدمون جملة وأن يعاد النظر فى كل شىء فما ثبت بالتجربة فهو العلم الصحيح وما لم يثبت فلا يمكن أن يكون علما [1] .

ورفع لواء هـذه الصيحات الجديدة (فرنسيس بيكون الانجليزى ١٥٦١ — ١٦٢١) ورينيه ديكارت الفرنسى (١٥٩٦ — ١٦٥٠) .

ومع كل اختراع جديد أو كشف جديد كانت الصيحة تقوى ضد كل ما هو قديم ، ومع رغبة الانسان الحديث فى التحرر من سلطان الكنيسة وقيودها راح يحطم كل ما يمت الى الدين والكنيسة بصلة ... راح يكفر بالمعجزات وبالدين من أساسه ، بل وبفكرة الله ، وبالروح وبالنفس ولا يؤمن بغير المادة موجـودا وبالطبيعة خالقا . واعتبر كل تراث الانسانية القديم ليس سوى لون من ألوان الخرافات والترهات والأساطير . .

وفات هؤلاء الثائرون على الله وعـلى تراث البشرية القديم ، أنهم اذ يحطمون فكرة الله ، فهم يحطمون الانسان معه ، فقد رأينا الصلة الوثيقة

(١) اعتبار التجربة عندامكانها اساسا لاثبات الحقائق لم يكن أمرا جديدا الا على أوربا فقد كان علماء العرب يدعون اليه ويمارسونه .

بين الله والانسان ورقى الانسان ومكانته فى هذا الكون مستمدة من فكرة الألوهية ، وعلى ذلك فلم يعد الانسان يزيد فى عالم القيم الجديدة عن ذرة تراب هائمة فى هذا الكون اللانهائى بلا هدف أو غاية أمام قوى الطبيعة الساحقة الماحقة ، المجردة من كل حياة وشعور ، الطبيعة العمياء التى لا تنطوى على حب أو رحمة أو معاملة خاصة لهذا المخلوق الذى يسمى الانسان .

دارون والانتخـــــاب الطبيعى

وأسرع علم القرن التاسع عشر ليجهز على يد شارل دارون (١٨٠٩ — ١٨٨٢) على آخر ما بقى للانسان من امتياز أو تفوق على سائر الكائنات .

فالأحياء الأرضية كلها قد نشأت من أصل واحد ، فمن الأحياء المائية نشأت الأحياء البرمائية ، ومن هذه الأحياء نشأت الأحياء البرية .. ومن الحيوانات البرية نشأ الانسان الذى لا يفصله عن القرد سوى حلقة واحدة ، اذا كانت لا تزال مفقودة فسوف يكشف عنها فى مقبل الزمان .

ولو أن نظرية دارون قد وقفت عند حد القول بأن الانسان قد نشأ من القرد ، لما كان فى ذلك أى خطر أو جديد ، ولا هو بمنقص من شأن الانسان ، فقد قدس الانسان على مر العصور والأزمان شتى صنوف الحيوانات ، والقرد بالفعل حيوان مقدس لدى الهنود ، ولقد دخلت معابد فى بنارس يسرح القرود فيها ويمرحون ، ويتقرب اليهم بالهدايا [١] .وتصور المصريون القدماء الآلهة على صورة بشر لهم رؤوس حيوانية أو أجسام حيوانات لها رأس انسان ، (كما هو الشأن فيما يتعلق بأبى الهول) ، فالمزج بين الانسان والحيوان كصورتين لجوهر واحد ، اعتقاد جد قديم ولا جديد فيه . وغير خاف أن تعريف الانسان منذ وضعه أرسطو يقوم على أن الانسان حيوان ناطق .

(١) أمـــة تبعث ـ للمـــؤلف

ولكن الخطير فى نظرية دارون ، هو أن التطور من الكائنات الأدنى الى الأعلى يتم بطريقة حتمية آلية على أساس الانتخاب الطبيعى ، الذى يقوم على تنازع البقاء والبقاء للأصلح . فعملية التطور نحو الأرقى لكى تتم لا مناص لها من القضاء على الضعيف ، وابادة الأدنى لحساب الأعلى ، والا فلن يكون رقى ولن يتحقق تطور .

الآثـــار المفجعـــة لنظرية دارون

وهكذا انهار كل ما حاولت الانسانية أن تبنيه خلال الأجيال من رحمة بالضعفاء ، وأخذ بيد المنكوبين والتقريب بين البشر على أساس من الحب والتسامح ، واحلال التعاون بين البشر محل الصراع . كارثة الداروينيه على البشر أنها لم تجعل فى الطبيعة مكانا الا للصراع ، حيث يفوز الأقوى ويندحر الضعيف ولا كرامة . وأصبحت هذه الفكرة دينا لدى البشر المتحضرين ، وأصبح العمل على أساسها هو مقياس الرقى والحضارة . فراح نيتشه يبشر بالقوة الساحقة ، ويقول فيما يقول ان المسيحية بحضها على الرفق بالضعفاء لا تستحق أن تعيش . وكانت مأساة الاستعمار فى القرن التاسع عشر احدى ثمرات هذه الفلسفة الرهيبة ، وكانت هذه الحروب التى غرقت فيها أوروبا الى الأذقان بعد أن تجردت من تقاليد الشرف والفروسية القديمة التى كانت تنأى بنفسها عن المساس بالضعفاء وتعتبر اهانة النساء الجريمة التى لا تغتفر ، ناهيك بالاعتداء عليهن . أما قتل الأطفال فهذه لم تكن تطوف لأى محارب فى الخيال .

وكان طبيعيا وقد أصبحت الحياة ليست شيئا سوى الصراع والقضاء على من يمكن القضاء عليه ، أن تنبثق الفلسفة الماركسية التى تصـــور الطبيعة كلها حربا بين المتناقضات ، والتاريخ بالتالى حربا بين الطبقات . وبما أن العمال هم الطبقة الأقوى والأكثر عددا ، فيجب أن يقوموا بدورهم

بالقضاء على الطبقات الأخرى ولا تأخذهم بهذه الطبقات رحمة ولا شفقة فتلك هى سنة الحياة التى لا سنة لها غيرها [1] .

هذه هى نتائج العلم الحديث وبركاته ، هذه هى هدية الحضارة فى عصرنا للجنس البشرى .

هذا ما نحن مدعوون جميعا لاعتناقه باسم التمدن ، والتقدم . تلك هى النتيجة الطبيعية لتصور هذا الكون خاليا من كل قوة حكيمة مدبرة ، هذه هى النتيجة الحتمية للقول بأن ليس فى الكون الا المادة العمياء المجردة من كل شعور ، والتى يقف أمامها الانسان ضعيفا ، لا يعدو أن يكون ذرة من تراب ، تنتهى قصته بانتهاء هذه الحياة الظاهرة . وبعد أن كان مضمون الحضارة ، أى حضـارة هو محاولة الترقى بعواطف الانسان وتنظيمها والسمو بها ، لتحقيق مثل أعلى لخصته الأديان كلها فى أن يحب الانسان جاره كنفسه ، أصبح الشعار اسحق جارك اذا استطعت الى ذلك سبيلا لأنك ان لم تسحقه فسوف يسحقك هو ، وتلخصت الحضارة نهاية الحضارة فى اطلاق الغرائز من عقالها ، فى كل الاتجاهات ومحاولة اشباعها ولو على حساب الآخر اذا استطاع الانسان الى ذلك سبيلا .

وأصبح العلم كل العلم أن يسخر الانسان بكلمات الشرف والضمير

---

(١) ختم كارل ماركس البيان الشيوعى بهذه العبارات :

« ان الشيوعيين يأنفون من اخفاء حقيقة ارائهم وأهدافهم · انهم يعلنون فى صراحة وعلى رؤوس الأشهاد ، أن هدفهم النهائى لايمكن تحقيقه الا بقلب جميع النظم الاجتماعية القائمة بالقوة ·
فلترتعد الطبقات الحاكمة من الثورة الشيوعية · ليس لدى الكادحين ما يخسرونه سوى أغلالهم ، فى الوقت الذى أمامهم الدنيا كلها ليربحوها · أيها العمال فى أنحاء العالم اتحدوا » ·

Manifesto of the Communist Party.

والأخلاق فكل هذه لا تعدو أن تكون كلمات جوفاء لا معنى لها ولا مدلول فقد اصطنعها الأغنياء ليسخروا من خلالها الفقراء .

هوان الفرد

وتضاءل الانسان الفرد الى جوار الجماعة ، وكيف يكون له قدر أو اعتبار ما دامت المسألة قد أصبحت مسألة غلبة وقوة . ليس للفرد اليوم حق الى جوار حق الجماعة ، لا حديث كما قلنا من قبل الا عن الشعوب وعن الدول ، والكتل فهى وحدها القوية ، وهى وحدها الباقية أما الانسان الفرد فالى زوال ، لم يعد الأنسان الفرد يزيد عن أن يكون لبنة فى البناء الكبير ، انه ليس شيئا الا ذرة فى الصحراء الشاسعة ، أو قطرة من مياه البحر المالح ، وهو على أحسن الأحوال مسمار فى الآلة الكبيرة آلة الدولة أو الانسانية أو الأمة أو الحزب أو ما شئت من أسماء ضخمة رنانة . ولا عجب فى ذلك فما دامت البشرية أصبحت تقاس كأى شيء آخر بالعدد والوزن والكيل ، فما قيمة انسان فرد الى جوار الملايين ، بل ما قيمة المليون من البشر اذا قورن بالمائة مليون ، وما قيمة المائة مليون نفسها اذا تحدثنا عن البشرية فى مجموعها ، عن الأجيال القادمة كلها . وهكذا أصبح البشر أرقاما ، أرقاما تجمع وتطرح وتضرب ، وتطحن اذا لزم الأمر باسم التقدم والعمران . لقد قال لنا فلاسفة النازية وعلماء العصر ان ليس « للفرد أي حق أو واجب فى الوجود ، ما دامت جميع الحقوق والواجبات مشتقة من الجماعة فقط » [1] .

وهكذا بعد أن كان الفرد واسعاد الفرد وحرية الفرد وكرامته هى الهدف النهائى من كل نشاط انسانى وهى الأصل فى الاجتماع ومحور الأديان والنظم والقوانين والفلسفة ، أصبح من أيسر الأمور وأهونها

(١) اتوديتريتش ـ مدخل الى الفلسفة ص ١٩٤

أن يضحى بالفرد من أجل المجموع ، وأن يشقى الفرد لاسعاد المجموع ، بل وأن تشقى الأقلية لحساب الأغلبية . فالعدالة هى القوة ، والحق ليس شيئا الا الغلبة والقوة .

• ولسنا نزعم أن ذلك لم يكن يحدث فى الماضى ، فقد حدث وكان من غير شك ولكنه عندما كان يقع كان يعتبر استثناء من القاعدة ، وكان يعتبر انحرافا وشذوذا ، أما اليوم فهو يحدث باعتباره الأساس والقاعدة ، باعتباره المثل الأعلى الذى يجب أن يسعى البشر لادراكه ، أو لم يأتك نبأ النزاع الذى يدور بين الشيوعيين هذه الأيام ، حيث تعتبر الدعوة الى التعايش السلمى ، والى امكان تحقق الاشتراكية بالطرق السلمية ، لونا من ألوان الرجعية ، وخروجا على الماركسية المقدسة التى تقول بحتمية الصراع ، ووجوب اراقة الدماء باعتبارها السبيل الوحيد لتحقق الاشتراكية ؟

فهل صحيح أن الحيـاة ليست شيئا سـوى الصراع والحرب بين المتناقضات ، وأن ذلك قدر محتوم على الانسان لا فكاك له منه فيجب أن يمضى الى قدره قاتلا أو مقتولا ، ساحقا أو مسحوقا ، آكلا أو مأكولا ؟

هل صحيح أن لا حق للفرد الى جوار الجماعة ، وأن لا قدرة للفرد الى جوار قدرة الجماعة ؟

هل صحيح أن كل دعوة للحب والتآخى والفضيلة والتطهر والكمال ، هى دعوات خرافية عفى عليها الزمان ؟

وأخيرا بل وأولا ، هل صحيح أن الانسان الفرد لا يعدو أن يكون ذرة بازاء الطبيعة الجبارة ، أم أن الانسان قوة تعلو على الطبيعة المادية نفسها ؟

هذا هو ما سنحاول أن نجيب عليه فى الفصول التالية .

مراجع الفصل الثانى

١٦ — ميادين علم النفس — النظرية والتطبيقية — جزآن .
أشرف على تأليفه ج . ب . جليفورد أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا — وأشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد .

١٧ — المواد المضادة للميكروبات فى الماضى والحاضر والمستقبل .
تأليف الأستاذ لطيف بسطورس مدرس أول العلوم — طبع لجنة البيان العربى .

١٨ — الانسان ذلك المجهول — تأليف الكسيس كاريل تعريب شفيق أسعد فريد — مكتبة المعارف ببيروت .

١٩ — أصول الاقتصاد للدكتور محمد حلمى مراد — الجزء الأول .

٢٠ — رواد الشرق الأوسط فى العصور الوسطى — تأليف نقولا. زيادة طبع مجلة المقتطف ١٩٤٣ .

٢١ — عجائب الآثار للجبرتى طبع جريدة الشعب .

٢٢ — تاريخ مصر القديمة — تأليف بريستد ترجمة الدكتورحسن كمال.

٢٣ — الانسان فى العالم الحديث — تأليف جوليان هكسلى ترجمة حسن خطاب .

٢٤ — الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى للدكتور نظير حسان سعداوى .

٢٥ — الكتاب المقدس العهد العتيق طبع جمعيات الكتاب المقدس المتحدة — بيروت عام ١٩٥١ .

٢٦ — مدخل الى الفلسفة — تأليف جون لويس ترجمة أنور عبد الملك.
٢٧ — وقاية النظام الاجتماعى — للدكتور محمد عصفور — رسالة دكتوراه .
٢٨ — خطاب الرفيق خروشيشيف فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى ترجمة ماهر نسيم .
٢٩ — مجموعة مجلة المختار (ريدرز ديجست)
٣٠ — مجموعة جريدة الأهرام
٣١ — فى سبيل السلام والصداقة
(مجموعة خطب خروشوف فى التلفزيون الأمريكى) طبع مكتب الصحافة التابع لسفارة الاتحاد السوفيتى .
٣٢ — داخل أوربا — جون جنتز — ترجمة الدار القومية للطباعة والنشر .
٣٣ — قانون التأمينات الاجتماعية ٩٢ لسنة ١٩٥٩
٣٤ — من وحى الجنوب — للمؤلف — طبع دار المعارف .
٣٥ — أمة تبعث — للمؤلف (كتب للجميع)
٣٦ — عارنا فى الجزائر — جان بول سارتر — ترجمة الدار القومية للطباعة والنشر .
٣٧ — Khrushchev-And Stalin's Ghost. By B.D. Wolfe.
٣٨ — Annual Report. World health Organization
٣٩ — Demographic Yearbook 1959-U.N.

٤٠ — The crime of Genocide. U.N.

٤١ — The Encyclopedia Americana.

٤٢ — Manifesto Of The Communist Party-By Karl Marx and F. Engles.

مراجع سبقت الاشارة اليها

— قصة الحضارة

— أساطين العلم الحديث

الفصل الثالث

هذا الكون أهو من صنع الإنسان ؟

- أيظل الكون محتفظا بصورته الحالية لو لم يكن للانسان بصر ؟
- هل يبقى من الكون شيء اذا فقد الانسان ، السمع والشم والاحساس بعد فقد البصر ؟
- ايمكن اثبات الوجود استقلالا عن الانسان ، بغير العقل البشرى ؟
- لكل انسان دنياه وعالمه الخاص .
- الخير والشر من صنع الانســـان — القبح والجمال — الحلال والحرام —
- معالم الحضـــارة تتغير بتغير البشر .
- الحقائق المادية الكونية من صنع الانسان كأى شيء آخر .
- لا حرارة ولا برودة — لاصغر ولا كبر — الزمان والمكان لامعنى لهما بغير الانســـان .
- أكوان وعوالم بعدد أفراد الجنس البشرى .

الكون أهو من صنع الانسان ؟

لا يتصور القارىء العزيز أننى فى الرد على هذا السؤال سأغرق فى طوفان من هذه المباحث الفلسفية ، التى قسمت الفلاسفة منذ عصر أفلاطون وما قبله ، حتى هجل ومن بعده ، الى فريقين ، فريق يقول ان الوجود الحقيقى هو للفكرة وليس المادة سوى وهم وتخيل ، وفريق يقول أن لا وجود حقيقى الا للمادة ، وما الفكرة الا انعكاس هذه المادة وصداها[1].

لن نخوض فى هذه المباحث فليس ذلك موضوع كتابنا ، وانما سنسلك

(١) يعتبر الماركسيون هم حملة هذه الفلسفة فى العصر الحديث — انظر ص ٥٧٦ من كتاب مدخل الى الفلسفة .

فى الرد على السؤال طريقا عمليا بسيطا باستطاعة كل قارىء ، بل وكل انسان أن يقول فيه كلمته .

العين والضوء

نحن نعلم أن الضوء هو أعظم ظواهر الطبيعة على الاطلاق ، واليه ترتد باقى العناصر الأخرى حسب آخر النظريات العلمية ، فمن الضوء كان الاشعاع ومن الاشعاع تنبعث الطاقة ، ومن الطاقة تنبثق المادة والضوء سواء كان طبيعيا أو صناعيا ، سواء كان منبعثا أصلا من مصادره التى تشعه نتيجة الاحتراق أو كان مجرد انعكاس لأشعته من الأجسام العاكسة فانه هو الذى يكشف عن كل ما فى الوجود ويحدد معالمه ويبرز كيانه ويخلع عليه اللون أو الألوان التى تميزه . والعين هى سبيل الانسان لأدراك ذلك كله بالرغم من صغر حجمها ، فالكون كله يلتقى فى بؤرتها بواسطة الأشعة الصادرة من كل جزء من أجزائه ، فالسموات بكل شموسها ، ونجومها ، وكواكبها ، وأقمارها ، ومجراتها وسدمها ، والأرض بكل ما عليها من صحارى ، أو جبال أو مزارع وحقول وسهول ووديان ، وترع وأنهار ، ومساكن وقصور أو حيوانات وحشرات ، كل ذلك يلتقى فى عين الانسان بمجرد أن يفتحها ويديرها نحو القطاع الذى يريد رؤيته ، ويتم الالتقاء فى نقطة صغيرة جدا من شبكية العين . ولقد استطاع الانسان على مر العصور أن يدرك الكثير مما أسماه حقائق علمية عن القوانين التى تحكم الضوء ، ويعمل بها ابتداء من ألوان الطيف وانكسار الضوء وانتهاء بسرعة الضوء ، ومعارف الانسان عن الضوء واستعماله كانت خير معين له منذ أقدم العصور حتى اليوم على معرفة باقى أسرار الطبيعة ونظمها وقوانينها ، وقد زاد فى قدرة الانسان على اكتناه هذه الأسرار ما استحدثه من آلات تعتمد على قوانين الضوء كالمرايا والعدسات والمجاهر والمراقب والمطياف والسينما والتلفزيون ... الخ .

والآن يحق لنا أن تتساءل ماذا كان يكون الحال لو أن الانسانية خلقت عاطلة من حاسة البصر فلم يكن للانسان عينان ولم يكن مزودا بأى جهاز آخر للقيام بوظيفتهما . أو ما كانت صورة الكون ، كما نعرفها الآن وتتحدث عن قوانينها ونواميسها وأسرارها ، أو ما كانت هذه الصورة الكونية بكل ما يتبعها من حقائق علمية ونواميس نعزوها للطبيعة تصبح ولا وجود لها ، فلا نعرف ما السماء ولا الشمس ولا الكواكب ... ولا صورة أى شىء آخر فى هذا الكون ؟ أحسب أن ذلك هو النتيجة الحتمية لو جرد الانسان (كل انسان من بصره) ولقد اضطررت لذكر هذا الاحتياط (كل انسان) خوفا من أن يخطىء البعض فيقول ان المكفوفين يعيشون بين ظهرانينا وهم يعرفون كل شىء عن الكون ، بل ان الأمر قد وصل ببعضهم فى القديم والحديث ليكونوا أعلاما فى الأدب يبرعون فى تصوير بعض الأحداث بأبلغ وأبهى مما يصوره به المبصرون [1] .

ان هؤلاء المكفوفين انما قد وصلوا ، ويصلون الى ادراك صورة الكون ، كما ندركها بمعاونة المبصرين الذين ينقلون لهم ما يرون . والمكفوفون من ناحية أخرى يتلقون معلوماتهم عن الكون بواسطة السماع والشم والذوق وسائر الاحساسات الأخرى ، ويقف العقل وراء ذلك كله ليتخيل ويتذكر ويفكر ويدرك ثم يتحكم ويقرر .

والفرض الذى تقدمنا به هو أن يكون البشر جميعا قد خلقوا بغير حاسة البصر ، فلا مناص من الاقرار بما قررناه آنفا من اختفاء صورة

(١) يروى لبشار بن برد الذى ولد مكفوفا بيتا من الشعر يعتبر آية فى الوصف هو قوله ·

كأن مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

الكون كما هى ثابتة الآن فى أذهاننا واختفاء كل العلوم والمعارف وما تتصوره من قوانين للطبيعة نفسر بها تصرفاتها .

الانسانية بغير بصر أو سمع أو شم

ولننتقل خطوة أبعد لنتساءل عن هذا الانسان (كل انسان) الفاقد لحاسة البصر ، ماذا يمكن أن تكون معارفه عن هذا الكون . لا جدال أن هذا الانسان سيظل يعرف الكثير ، سيكون بقدرته أن يفرق بين الكائنات قبل اقترابها منه أو اقترابه منها ، سواء كانت هذه الكائنات ماديات أو نباتات وحيوانات أو انسانا من نوعه .

ستبقى لهذا الانسان عواطف الحب والكره والانشراح والانقباض ، والشعور باللذة والألم . فعن طريق الأصوات والروائح واللمس يستطيع الانسان أن يميز الأشياء كلها وأن يفرق بينها . فلو كان للانسان سمع وشم ، فسيظل يدرك الكثير من أمر هذا الكون ويتفاعل معه حتى لو لم يكن له بصر . سيظل كونه طويلا عريضا عميقا مليئا ، بكل ما تمتلىء به دنيا الصورة والنظر من كل ما يخيف ويرعب ، أو يؤنس ويفرح ، أو يلذ ويؤلم . فالأذن فى الدرجة الأولى ، والأنف فى الدرجة الثانية ينقلان للانسان صوت أو رائحة أى شيء من الأشياء قبل أن يقترب منه .

وقد أدرك الانسان من حقائق الصوت [1] (بمساعدة البصر طبعا) الكثير من قوانينه ونواميسه التى يعمل بها واستفاد بذلك فى صنع

---

(١) نشوء الصوت من الاهتزازات • كيف تنتقل الاصوات فى الاجسام الصلبة والسائلة وفى الهواء سرعة الصوت ـ الحركة الاهتزازية والحركة التموجية ـ درجة الصوت ـ شدة الصوت ونوعه ـ انعكاس الصوت وانكساره ـ الرنين ـ اهتزازات الاوتار والقضبان والصفائح ـ الآلات الموسيقية والصوتية (راجع كتب الطبيعة) •

آلات تقوم على هذه النواميس ، كالصفارات والآلات الموسيقية والحاكى وأجهزة التسجيل والتليفون والتلغراف والميكروفون والراديو .. الى آخر كل هذه الآلات والاختراعات التى تنقل الصوت أو تسجله .

فلو تصورنا كما تصورنا من قبل أن هذا الانسان الذى ولد بغير بصر قد ولد أيضا بغير سمع أو شم [1] . فلا شك أن هذا الكون الطويل العريض العميق ، الذى يكونه الصوت وتشترك فى تكوينه الرائحة ، لا يصبح له وجود بالنسبة للانسان ، ويصبح الكون بحيث لا يزيد فى حجمه عما يلامس جسد الانسان مباشرة . ويختفى من عقل الانسان كل ما يمكن أن يكون قد تصوره ، من قوانين ونواميس وتفسيرات وتحليلات لهذا الكون .

الانسانية بغير حاسة على الاطلاق

ومع ذلك فان الكون يبقى موجودا بكل التمايز بين الكثير من أجزائه انه يضيق حقا ولكنه لا يختفى فان حاسة اللمس التى تشمل جلد الجسد كله وتتركز بالأكثر عند أطراف اللسان والأصابع وأجزاء أخرى من جلد الانسان ، ستظل تحمل للانسان فيضا غزيرا من المعلومات والمعارف .. سيظل يشعر بالبرودة أو الحرارة ، بالصلب واللين ، بالنعومة والخشونة ، بالحلو والمر، بالكبير والصغير ، سيظل يحس بما يلذ ويؤلم ، بما ينبسط له وما ينقبض منه ، وسيؤلف الانسان مجموعة من الحقائق من هذه الأحاسيس التى تتدفق الى رأسه من خلال الأعصاب المنتشرة على جلده .

---

(١) من حسن الحظ أن الطبيعة تقدم لنا من حين لآخر بعض النماذج لمثل هذا الانسان الفاقد البصر والسمع ـ فقد ولدت هيلين كيلر الامريكية بلا سمع أو بصر راجع ص ٢٧٢ .

فلو تصورنا أن هذه النافذة المطلة على العالم قد أقفلت بدورها ، فماذا يبقى للانسان فى هذا الكون ؟ لا شيء .. لا شيء علـى الاطلاق اللهم الا أنه موجود ، فما دمنا لا نزال نفرض للانسان عقلا يعمل بداخله فانه سيظل بقدرة هذا العقل أن يشعرنا بأننا شيء موجود ، وقد كانت هذه هى نقطة الابتداء عند ديكارت ليستمد اليقين بالوجود ، فقال قولته المشهورة « أنا أفكر فأنا موجود » .

فلو أنا تخيلنا كتلة من اللحم البشرى تحتوى على عقل ، فان هذا العقل سيمنح هذه الكتلة شعورا بالوجود ، وعلى ذلك فالوجود باق ما بقى عقل الانسان . فاذا اختفى العقل بدوره بعد اختفاء الحواس فقد زال الوجود نهائيا ولم يعد له أى مدلول (١)

وهنا أعرف أن البعض سيبادرون بالسؤال عما أعنيه بزوال الوجود كنتيجة لزوال العقل والحواس ، هل أقصد بذلك زوال الوجـود من أساسه ، أم زواله بالنسبة للانسان ؟

وعندى أن النتيجة واحدة فى كلتا الحالتين مادام الانسان هو الذى يوجه السؤال ، وهو الذى ينتظر الجواب ، ذلك أن شيئا لا نكون طرفا فيه ، لا نستطيع التحدث عنه بأى حال من الأحوال ، يستوى فى ذلك النفى والاثبات .

صحيح أننا ندرك بعقولنا امكان وجود هذا العالم ، حتى ولو لم نكن موجودين فيه ، بل لقد استطاع الانسان عن طريق الوجدان أو الالهام حينا ، وعن طريق العقل المجرد حينا آخر ، أن يؤكد نشوء الكون قبل

(١) ينطبق هذا المعنى الذى نقول به على ما يستفاد من الحديث القدسى « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف ، فخلقت العقل فبه عرفونى »

الانسان ، وأن يرسم لذلك تصورات يستمدها من محض الخيال أو على ضوء معارفه العلمية وقد جعل الانسان لوجوده على الأرض تاريخا حديثا نسبيا لا يعدو أن يكون خمسين مليونا من السنين فقط ، وهو قدر تافه من الزمن الذى حدده لبدء تطور الكون ، وهو بليون بليون سنة [1] .

والانسان يدرك من أمر نفسه أنه لم يكن هو الذى خلق نفسه ، فلابد أنه قد خلق من شىء سابق عليه وأكثر قدرة منه ، كل ذلك حق وواقع يشهد به الحس ويؤكده العقل ، ومن هنا يأتى فرضنا فاذا لم يكن هناك حواس لتشهد وعقل ليقرر فكيف يكون بوسعنا أن نناقش هذه القضية ، قضية وجود الكون ولو لم يوجد الانسان ، فضلا عن اقامة الدليل عليها ؟ أليس كل دليل نسوقه هو من صنع عقولنا التى فرضنا انها لا وجود لها ؟ الحق أنه حيث لا حواس فلا شعور بوجود الكون ، وحيث لا عقل فلا يمكن اقامة برهان على وجوده ، ولا يعود هناك مجال لبحث هذه القضية من أساسها .

ان كل شىء فى هذا الكون يصيح بنا ويهتف أنه من صنع الانسان ، كل انسان على حدة ، ذلك أن صورة الكون لا تختلف فقط من عصر الى عصر ومن اقليم لآخر ، بل ان صورة الكون تختلف من انسان لانسان ، تبعا لما اذا كان مبصرا أو كفيفا طويل النظر أم قصيره ، حاد السمع أم ثقيله وهكذا . ومن الأمور المحققة أن دنيا الطفل غير دنيا الرجل ،

---

(١) الرأى عند علماء الفلك وطبقات الارض ، أن الكون بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة ، أما الارض فقد نشأت حديثا جدا اذ لم توجد الا منذ بليونين من السنين فقط ، وظهرت الحياة على الارض منذ بليون سنة ، والحيوانات البرمائية منذ ٢٠٠ مليون سنة ، أما الحيوانات الثديية التى يعتبر الانسان أحد فروعها ، فقد بدأ ظهورها على الارض منذ ١٢٠ مليون سنة والانسان هو أحدث الوافدين على الارض اذ بدأ على صورته الانسانية منذ ٥٠ مليون سنة . (تاريخ الارض - لجورج جامبو) .

ودنيا العالم غير دنيا الجاهل ، ودنيا ساكن الغابة غير دنيا ساكن مدينة نيويورك ، أو ساكن الصحراء وهكذا . فكل ما حولنا من مناظر وصور وفى عقولنا من أفكار يقوم عليها الكون هو مما ارتضاه كل انسان لنفسه واعتبره حقا فى تصوره ، فلا حقيقة الا ما رآها الانسان حقا ، ولا وجود الا ما اعترف الانسان بوجوده ، والأمور كلها نسبية تتغير تبعا لتغير كل انسان على حدة ، وتعال نستعرض سويا شتى المعارف البشرية سواء فى الأمور المعنوية أو المادية ، ليتضح لك هذه النسبية فى كل شيء .

فكرة الخير والشر

ولنبدأ بموضوع الخير والشر الذى يتصل بعقيدة البشر كل حسب دينه فيعتبر دائما من الأمور المطلقة . أصحيح أن هناك ما يمكن اعتباره شرا وخيرا مطلقين فى كل زمان ومكان ؟ لقد حاولنا أن نجيب على هذا السؤال من وجهة نظرنا فى آخر الكتاب ، فنقرر ما يمكن اعتباره شرا أو خيرا بصفة مطلقة (١) ، أما الآن فسوف نستعرض ما يجرى عليه العمل بالفعل ، حيث يقرر كل جماعة من الناس الخير والشر طبقا لرغباتهم وأهوائهم .

ان الأمر الواحد يكون شرا لدى البعض وهو خير لدى البعض مما عبرنا عنه بالقول المشهور (مصائب قوم عند قوم فوائد) فالمرض هو فرصة الطبيب لكى يحصل رزقه ، ومواسم الأمراض التى يضج منها الناس هى مواسم العمل عند الأطباء ، وجريمة قتل تقع هى فرصة المحامى لكى يجد مجالا للعمل ، وكل خلاف من أى نوع بين اثنين هى فرصته للعمل كذلك ، واندلاع نيران الحرب هى فرصة مصانع السلاح وغيرها

(١) انظر « تذييل » بآخر الكتاب .

وهكذا . بل ان العمل الواحد الذى ينظر اليه باعتباره شرا فى بعض اللحظات قد ينقلب الى خير فى لحظة أخرى ، (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهـو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

بل ان العمل الواحد يحكم عليه بالخير أو الشر بالنظر الى نتائجه .

الشرور المادية

والألم والجوع والضعف والموت كل هذه شرور مادية لأن الانسان يراها كذلك ، ولكنها فى حقيقتها لا يمكن أن توصف بالخير أو الشر ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الناس ينظرون اليها كأسمى ما يمكن أن يحققوه لأنفسهم من الخير . فالبعض يرون فى الموت فى سبيل الله أو العقيدة أو الوطن أو الميكادو شيئا جديرا بأن يسعوا اليه ويتنافسوا فى الحصول عليه ايمانا منهم بأن ذلك هو سبيلهم للخلود فى العالم الآخر أو فى هذا العالم .

وهناك أشخاص آخرون يتصـورون فى الموت حلا لاشـكالاتهم أو لآلامهم فيقبلون على الانتحار فى هدوء وبساطة عجيبين . وهكذا يتحول أمقت الأشياء الى نفوس الأغلبية الساحقة من البشر ، وهو الموت ، الى أحب الأشياء الى أقلية منهم .

وكذلك الشأن بالنسبة للألم والجوع والضعف ، فثمة أشخاص يرون فى اضعاف أجسادهم وتجويعها فرصة لطهارة الروح ، ويرون فى ايلام الجسد خلاص الروح فيقبلون على ضروب من التعذيب يقشعر لهولها البدن ، بنفوس راضية وقلوب مطمئنة ، بل وفى لذة وسعادة يختفى معها كل ألم [1] ، لذة تتضاءل معها لذة من يشربون الخمر أو يعاشرون النساء .

---

(١) اتباع طريقة اليوجا ـ انظر ص ٢٦٨ .

واذا كانت هذه هى حقيقة الحال بالنسبة لهذه الشرور المادية ، فان الأمر أوضح بالنسبة للشرور المعنوية التى تتصل بقيم القبح والجمال والحلال والحرام ، والعقائد الدينية ، من حيث كونها من صنع الانسان ولذلك فهى تتغير بتغير الأشخاص والزمان والمكان .

القبح والجمال

فأروع الآثار الفنية القديمة تجد بين نقاد العصر الحديث من يهز كتفيه ولا يراها تنطوى على أى معنى من المعانى ويقولون لك ، ان أى آلة تصوير تستطيع أن تخرج لك صوراً ملونة تفوق هذه الآثار . ولا يرون الفن الحقيقى الا بالأخذ بالمذاهب السريالية أو التكعيبية ، أو التأثيرية ، الى غير ذلك من الأسماء التى لا نفقه منها نحن القدامى شيئا على الاطلاق. وتباع صور أعلام هذا الفن بعشرات الألوف من الجنيهات . ولو أن هذه الصور وقعت فى أيدى الأجيال القديمة لكان من المحتمل أن يعلق أصحابها على أعواد المشانق كأتباع للشيطان . وقد كان جمال المرأة فى القديم يقاس ببدانتها أحيانا ، فلا تقوم المرأة النحيفة بمال ، واليوم يوشك النساء أن يهلكن أنفسهن توصلا الى النحافة باعتبارها أكبر علامات الجمال . وقديما كان الرجال يختصون أنفسهم بالتزين ولبس أزهى الملابس ، ويضعون على رؤوسهم الشعور المستعارة ، ويطلون وجوههم بالمساحيق ، وكان ذلك هو مظهر الرجولة وزى الفرسان فى العصور الوسطى ، واليوم لو فعل رجل شيئا من ذلك ، لوصف بالتخنث ولتبرأ منه أقرب الناس اليه .

وحديث المودة وتقلبات المودة ليس عنا ببعيد ، حيث يعتبر اليوم جميلا ما كان يعد حتى الأمس شيئا قبيحا ، ثم يعد قبيحا ما كان يعتبر جميلا وهكذ دواليك .

فاذا دخلنا فى باب الحلال والحرام ، لم نجد عملا واحدا يمكن وصفه بهذه الصفة على سبيل الاطلاق فالخمر مثلا لدى قوم من الأقوام رجس من عمل الشيطان ، ولدى قوم آخرين أحسن ما يمكن أن يتقرب به الى الآلهة . واحتراف البغاء شيء كريه فى أكثر المجتمعات ، وهــو لون من ألوان العبــادة بحيث يزاول فى الهياكل ودور العبــادة فى مجتمعات أخرى [1] .

والبكارة عند النساء هى على ما نعرف فى بعض المجتمعات ، مقياس الشرف الوحيد لا للبنت فحسب بل لكل من يتصل بها من الرجال على سبيل القربى ، ونحن نعلم كيف تفقد البنات اللواتى يفرطن فى بكارتهن حياتهن أحيانا على يد الآباء أو الأخوات ، كل ذلك معروف ومشــهور وفى بعض المجتمعات التقدمية يعتبر البعض البكارة كلون من ألوان الأمية عند المرأة [2] أما فى بعض المجتمعات القديمة فكانت البكارة تعتبر بمثابة لعنة تحول بين البنت وبين الزواج ، ولذلك تلتمس أى وسيلة وتستجدى أى عابر سبيل أن يفتض بكارتها ليكون بقــدرتها أن تجد لها زوجا [3] .

وفى المجتمعات الشرقية بصفة عامة يعتبر الزواج بأكثر من واحدة من

---

(١) كان الزنافى الأعم الأغلب مقصورا على المعــابد ـ ففى الأصــقاع الجنوبية من الهند كانت رغبات الرجل الشهوانى تشــبعها له من كن يطلق عليهن اسم « خادمات الله » طائعات فى ذلك أوامر السماء وما خــادمات الله أو ـ دافداس ـ الا العاهرات وكان فى كل معبد فى تامل مجموعة من هذه النسوة» (قصةالحضارة الجزء الثالث ص ١٧٤)

(٢) الباحثون ـ غرانين ـ ص ٣٧٢

(٣) قصة الحضارة ـ الجزء الأول المجلد الاول ـ ص ٨١

الأمور المشروعة ، بل والمندوبة ، وفى مجتمعات أخرى يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون . وأن يكون للمرأة أكثر من زوج هو أشنع ما يمكن أن يطوف بخيـــال البعض ، مـــع أن أفلاطون اعتبره مثلا أعلى دعا اليه فى جمهوريته [1] .

والنهب والسلب هو كبرى الجرائم فى مجتمع يقوم على آساس الملكية الفردية واحترامها ، وهو عند البعض كالعرب فى الجاهلية ، النشـــاط العادى الذى يزاوله رجل القبيلة وتقاس به قدرته وبطولته . والقتـــل أخذا بالثأر هو أحد الواجبات الملقـــاة على عاتق كل انســـان ، بحيث يسقط اعتباره اذا لم يقم بهذا الواجب ، وهو يؤلف جريمة فى عصرنا الحديث يعاقب عليها القانون . ومن لم يتعصب للقبيلة بالأمس كان يرتكب شرا ومن يتعصب لها اليوم يرتكب نفس الشر . ومن كان لا يتعصب للوطن فهو خائن ، ومن يتعصب اليوم للوطن فهو خائن فى تقدير الشيوعية العالمية مثـــلا .

العقيدة الدينية

وبالنسبة للعقيدة الدينية جاء وقت من لم يسجد للأصنام يعتبر كافرا يحرق بالنار ، ثم جاء الوقت الذى أصبح فيه الحرق بالنار من نصيب الساجد للصنم . ومن لا يقول عند المسيحيين أن يسوع المسيح هو ابن الله فهو كافر ، ومن يقول انه ابن الله من المسلمين فهو كافر ، ومن يقول بوجود الله اليوم فى روسيا فهو كافر بالتعاليم الماركسية التى لا تقل فى قداستها عن أى دين من الأديان ، وهكذا ..

معالم الحضارة

والاشتغال بالزراعة كان هو ذروة ما وصل اليه الانسان من حضارة

---

(١) جمهورية أفـــلاطون ــ ص ١١٤

فى وقت من الأوقات ، والأمم التى تقتصر اليوم على احتراف الزراعة هى رمز على التخلف والانحطاط . وفى النظم الاجتماعية كانت الملكية الفردية هى أقدس حقوق الانسان ، بحيث أجيز اعدام الانسان دون اجازة مصادرة أمواله ، ونحن نعلم اليوم كيف أن الشيوعية والاشتراكية تعتبرها لعنة اللعنات التى نزلت بالبشر . والحكم الملكى المطلق هو خير فى بعض العصور ونعمة من السماء ، وهو شر ونقمة فى الوقت الحاضر ، والديمقراطية كانت المثل الأعلى فى الحكم ، وهى تعد اليوم أكذوبة من أكبر الأكاذيب . وكانت الديكتاتورية تعتبر أشر ما يمكن أن يبلى بها مجتمع ، وهى التى يبشر بها اليوم كوسيلة وحيدة لوصول العمال الى المجتمع المثالى المنشود . وهكذا نستطيع أن نمضى على هذه الوتيرة مستعرضين كل ما تعارف عليه البشر من قيم خلقية ، أو أنظمة اجتماعية لنراها تتبدل فى كل وقت وآن من مكان الى مكان ومن عصر الى عصر بل ومن انسان الى انسان .

والحق أن التقرير بأن قيم الجمال والخير والشر والحلال والحرام والعقائد الدينية ، هى من صنع الانسان مسألة لا تثير كبير صعوبة ، فالذين يقولون ان لهذه القيم وللخير والشر معالم ثابتة جاءت بها الأديان ، فلا فكاك لهم من الاعتراف أنها جاءت عن طريق انسان لخير الانسان . وهؤلاء الذين ينكرون أن تكون هذه القيم قد أوحيت الى الانسان ، وانما هى تنبع من ضميره ووجدانه ، فهم يسلمون بدور الانسان .

والخلاصة أنه سواء أكان الانسان هو مستودع قيم الجمال والخير والشر أم كانت أوحيت له فهو محورها وغايتها وهدفها ، فحيث لا انسان فلا خير ولا شر ولا جمال أو قبح على الاطلاق .

الحقائق المادية

واذا كان من السهل التسليم بأن المسائل المعنوية هى من خلق الانسان ،

فكون القيم المادية البحتة من صنع الانسان فى حاجة الى مزيد من الشرح ، فكيف يقال ان الأبيض والأسود والحار والبارد والصلب والسائل والمادة والطاقة والزمان والمكان هى أشياء من صنع الانسان . وأنا أقول لك انها من صنعه تماما ككل الأفكار المعنوية وانها كسابقتها فى تغير مستمر تبعا للزمان والمكان واختلاف الأشخاص .

النور والظلام

ولنبدأ بالنور والظلام ، هاتين الظاهرتين اللتين حملتا الانسان منذ أقدم العصور ، على أن يتصور الكون خاضعا لقوتين متناقضتين ، ولا يزال متأثرا بهذا التفكير حتى الآن ، والحقيقة أن لا فرق بين ما نسميه نورا أو ظلاما الا بالنسبة لعين الانسان ، فالعين تتجاوب مع بعض الأشعة دون غيرها فما تجاوبت معه اعتبرته ضوءا ، ومالم تتجاوب معه عدته ظلاما ، فهى لا ترى من أشعة الطيف الشمسى الا ما يتوسط الأحمر والبنفسجى ، أما ما فوق البنفسجى وما تحت الأحمر من الأشعة فالعين لا تراه فتتصوره ظلاما ، مع أنها عناصر الضوء ، وهى لا تختلف عن الأشعة التى تراها العين الا من حيث طول موجتها ، ولما كان لا حد لما فى الكون من أمواج متناهية فى الطول ، وأخرى متناهية فى الصغر فان مدى الأمواج المرئية يكاد يفقد فى هذا المجال الشاسع [1] .

وليس أدل على أن النور والظلام ليسا الا انطباعا انسانيا بحتا فى ظل ظروف معينة ، ان الانسان لا يكاد يخرج من الغلاف الجوى للأرض حتى يرى السماء مظلمة ، ويتجلى له قرص الشمس قرصا لامعا وسط السواد [2] ، وقد أكد هذه الحقيقة ، جاجارين وتيتوف ، اذ قالا لنا ان

(١) العين والشمس ــ ص ١٤٥
(٢) مع الله فى السماء ــ الدكتور احمد زكى ــ ص ٢٤٩

النور كان أسفل منهم أما السماء فمظلمة ، مع أن الأشعة الكونية وأشعة الشمس تغمر ما فوقهم كما تغمر ما تحتهم ، ولكن ما تحتهم كان يعكس أشعة بأطوال تراها العين ، أما الفضاء الخارجى فليس ثمة ما يعكس الأشعة فلا يعود الانسان قادرا على رؤية ما اعتدنا أن نسميه ضوءا . فالنور والظلام ليسا ظاهرتين متناقضتين الا بالنسبة لعين الانسان وليسا كذلك فى حقيقة الأمـر .

واذا كان النور والظلام لا يعدوان أن يكونا مجرد اختلاف فى أطوال أمواج الأشعة ، فان الحال كذلك بالنسبة لجميع الألوان ، التى لا تعـدو بدورها أن تكون مجرد اختلاف فى أطوال الأمواج ، فليس بينها هـذا التناقض الذى يتصور الانسان وجوده بين الأبيض والأسود أو بين الأحمر والأصـفر .

وبعض الأشـخاص يكونون مصابين بما يسمى عمى الألوان فيرون الأصفر أخضر والأحمر أسود والارجوانى أزرق وعلى ذلك تختلف صورة الكون فى أذهانهم عما هى فى أذهان الأغلبية الساحقة من الناس ، ولا يعود للون الأصفر عندهم أى مدلول ولا يكون باستطاعتهم تمثله أو تخيله .

الحرارة والبرودة

ولنأخذ موضوع الحرارة والبرودة وهما أهم ماديات هذا الكون تأثيرا فى الانسان ، فالحرارة عنده صنو الحياة والبرودة قرينة الموت ، وقد جرى الانسان على اعتبارهما كالظلام والنور ظاهرتين متناقضتين على طرفى نقيض بحيث لا يجتمعان ، واذا وجدت احداهما انعدمت الثانية ، وليس ذلك كله الا شيئا خاصا بالانسان ومن تقرير الانسان ، فهو الذى اختار حالة تحول الماء الى جليد لتكون مقياسا له ليقارن به درجة حرارة الأشياء الأخـرى فجعلها صفرا وراح يقول ان حرارة هذا الشىء تعلو الصفر بكذا وكيت فدرجة برودته كذا .

والطبيعة لا تعرف هذا المقياس الذى صنعه الانسان فثمة أشـــياء تبلغ حرارتها ملايين الدرجات فوق الصفر الانسانى ، وأشياء أخـــرى تبلغ الملايين من الدرجات تحت الصفر الانسانى وهى كلها درجة حرارة اذا شئت ، وهى كلها درجة برودة اذا شئت .. لأنها ليست حرارة أو برودة الا فى تسميتنا وبالنسبة لنا .. أما بالنسبة للطبيعة فهى مجرد ذبذبات تختلف سرعتها صاعدة الى ما لا نهاية وهابطة الى ما لا نهاية دون أن يكون هناك أى معنى لهذا الصفر الذى افترضه الانسان .. فهذا الماء الذى تصوره الانسان شيئا هاما ليتخذه مقياسا للبرودة والحرارة وخطيرا لأنه حيوى له .. لا يساوى فى عالم الطبيعة شيئا أكثر قيمة من أى شىء غيره .

الأحجام الكبيرة والصغيرة

واذا كان الانسان قد أعد لنفسه مقياسا لقياس الحرارة والبرودة وراح ينظم حقائق الكون ويرتبها فيصف هذا بالحرارة والبرودة مع أنها بالنسبة للطبيعة لا حرارة ولا برودة .. فكذلك شأنه بالنسبة لكل ما يحيط به من ظواهر مادية . فقد جعل من نفسه مقياسا لكل شىء وراح يرتب الحقائق على هذ الأساس . فالشمس مثلا جرم كبير جدا بالنسبة للانسان والشمس ذرة بالنسبة للمجرة ، والمجرة ذرة فى الفضاء ، والنملة شىء صغير جدا بالنسبة للانسان كذلك ، فتكون النملة بالنسبة للشمس شيئا لا يذكر ، وعلى هذا الأساس راح العقل الانسانى يرتب هذا الكون وينظمه فهذا شىء وهذا أكبر .. وهذا أكبر جدا وهذا أصغر ويؤلف من ذلك علما ومعرفة يطلق عليها اسم الحقائق الكونية .. مع أن الكون لا يمكن أن يعرف كبيرا أو صغيرا وليس لهذه المقارنة عنده أى مدلول .

وحسبنا أن نستحضر هذا الذى تقوله كتب الطبيعة من أن وزن ذرة الايدروجينين تساوى ٧ر١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ و٠

من الجرام [1] . فما الذى يعنيه اذن قولنا أن الجرام شىء صــغير الا أن يكون ذلك بالنسبة لنا .

فها هى ذرة الايدروجين تصغر الجرام بهذا الرقم الذى لا يستطيع البشر أن يطالعوه فيكتفوا برسمه .

ويقول العلم لنا : ان نواة الذرة تساوى جزءا من ألف مليون جزء من حجم الذرة أى لو أنك أردت أن تعرف وزن حجم نواة ذرة الايدروجين فيجب أن تضرب ألف مليون فى هذا العدد المؤلف من ٢٥ رقما ، ولكى تصل الى حجم البروتون الذى هو أحد أجزاء النواة فلابد لك من الوصول الى أرقام أضخم وأضخم للتعبير عن هذه الأجسام الصغيرة ، وترى أى رقم الذى يعبر عن حجم الانسان بالنسبة للنواة وبالنسبة للأكترون أو البروتون والى ما دون ذلك كالفوتون . وهكذا الى ما لا نهاية ليس فى الطبيعة حــد لما يتصوره الانسان كبرا ليقف عنده ، أو لما تتصوره صغيرا لنقف عنده ، فليس ثمة جرم كبير أو صغير الا بالنسبة للانسان ، وليس للكبر والصغر من أى معنى الا فى عقل الانسان ولذلك اعتبر ذلك بديهية من البديهيات التى لا تحتاج لبرهان .

الزمان والمكان

لا يمكن فهم المادة ووجودها الا متصلة بالزمان والمكان فهل للزمان والمكان كما نفهمهما وجود فى غير ذهن الانسان .

لقد قسم الانسان الزمان الى ماض وحاضر ومستقبل ، وهو تقسيم لا معنى له ولا وجود الا بالنسبة له . لأن الانسان هو الذى يجعل ما وقع

---

(١) تطور علم الطبيعة لاينشتين ـ ص ١٨٦

له أو منه من الحوادث شيئا قد مضى وفات ومالم يقع بعد فى طى المستقبل ثم مد ماضيه ليشمل تاريخ كل من سبق ومد فى آفاق المستقبل الى مالا نهاية له أى الخلود الأبدى سواء لروحه كما كان يتصور قديما أو لجنسه كما يتصور اليوم .

وحقيقة الحال أن الزمان لا يمكن أن يكون له ماض ومستقبل ، الا مقاسا بنوع معين من الساعات سواء كانت من صنع الانسان أو من صنع الطبيعة ، كدوران الشمس أو الأرض والكواكب والنجوم الأخرى ، فقبل أن توجد هذه الأجسام التى تقسم بحركتها الزمن ، فلم يكن للزمن وجود أو مدلول من أى نوع كان .

والانسان وحده هو الذى اتخذ من دوران الشمس والقمر ساعات يقيس بها الزمن ، ثم صنع المزاول والساعات لقياس الزمن ، واتخذ من شتى الحوادث كميلاد شخص أو وفاته نقطة ابتداء ليؤرخ منها ، أو يعتبر قيام حضارة أو انهيارها ، أحد المعالم التى يؤرخ بها . فالانسان هو صانع التاريخ ولو لم يكن الانسان لما كان هناك تاريخ ، وهو الذى راح يقيس الزمن بمقياس تحكمى من صنعه ، تماما كمقياسه للبرودة والحرارة . وعندنا أنه ما دام الزمان لا يمكن أن يكون له أول أو آخر ، لأنه من المستحيل عقلا ان تكون هناك بداية لم يسبقها زمن ، أو نهاية يتوقف بعدها الزمن ، فالزمن لا يمكن أن يكون له ماض وحاضر ومستقبل . انه ليس شريطا يلف على بكرة ، فيصبح له جزء مطوى وآخر لا يزال منشورا ، انه مجرد معنى من خلق الانسان وحواسه ، وشعوره بالتغيرات التى تطرأ عليه اذ يرى نفسه طفلا فرجلا فشيخا ، فميتا ، ويرى النهار يعقبه الليل ، وقمر يروح وآخر ينمو ويكبر ، فخلق لنفسه مفهوم الزمن ، ليستطيع أن يرتب

معارفه ، وحياته القصيرة . فالقول بالقبلية والبعدية وأن شيئا قد حدث قبل شيء آخر وأن شيئا سيحدث فى مقبل الزمان هو قول لا يعنى شيئا الا بالنسبة للانسان . وان الحادث الواحد ليقع فيكون ماضيا بالنسبة لأقوام ، ويكون مستقبلا بالنسبة لمن لم يعرفوه بعد . ولو كانت الكواكب مسكونة بالناس ، لرأوا ما وقع على الأرض منذ آلاف السنين .

فكرة المكان

واذا كان الزمان هو احساس انسانى بحت ، فكذلك الشأن بالنسبة للمكان على الصورة التى يصوره بها الانسان من حيث أن له طولا وعرضا وارتفاعا . ان الانسان يصف الشيء بأنه فوق لمجرد أنه يقع فوق رأسه فى لحظة معينة ، وأن هذا تحت لأنه يقع تحت أقدام الانسان فى لحظة معينة ونحن نعلم أن ليس هناك ما يمكن أن يكون فوقا ، أو ما يمكن أن يكون تحتا ، ما دام كل شيء فى هذا الكون يدور ، وما هو فوقنا فى لحظة يكون أسفل منا فى لحظة أخرى ، وما يصدق على الفوقية والتحتية يصدق على كل ما نسميه الجهات الأصلية ، من شرق وغرب وشمال وجنوب ، فليس ذلك كله الا أمور اعتبارية فى لحظة من اللحظات ، وبالنسبة لانسان معين فى لحظة معينة . بل ان الامتداد نفسه من حيث الطول والعرض والسمك أو الارتفاع ، لا يعنى شيئا الا بالنسبة للانسان وحواس الانسان . ونسبية الزمان والمكان قد أصبحت على كل حال أحد مسلمات العلم الحديث كما أشرنا الى ذلك فى الفصل الأول .

فحيث لا عقل انسانى يحاول أن يستوعب الكون ونواميسه ويقدم ويؤخر ويرتب وينظم قايسا الأشياء بمقاييسه التى اخترعها منسوبة الى نفسه فلا زمان ولا مكان ولا حرارة أو برودة ولا أبيض أو أسود ولا كبير

أو صغير ولا سائل أو صلب فانما هى كلها ذبذبات .. ذبذبات لا نهاية لها أو بداية (١) ، وهذه الذبذبات اذا تكدست الى درجة معينة من التركيز أصبحت بحيث يدركها الانسان بحواسه فأطلق عليها اسم مادة ، واذا خف تركيز هذه الذبذبات خرجت عن دائرة السمع والبصر ، فأصبحت طاقة ، ويكون مفهوم الكون فى العلم الحديث أنه مجرد حركة (٢) .

والانسان وحده عن طريق حواسه أولا وعقله ثانيا هو الذى يكيف هذه الحركات ويصنع منها كونا على هذه الصورة المستقرة فى أذهاننا والتى هى صورة انسانية بحتة .

صورة الكون المتغيرة أبدا

ولما كان لا حقيقة الا ما اطمأنت اليه عقولنا ، وما رفضته عقولنا فلا مجال له فى عالم الحقيقة ، ولما كانت العقول فى تطور مستمر فقد تغيرت حقيقة العالم من عصر الى عصر ومن مكان الى آخر . وقد اعتبر كل جيل من الأجيال أن معارف الأجيال السابقة ، خرافات وأساطير أو على أحسن تقدير معلومات خاطئة .

لقد حاول المصرى القديم أن يتصور هذا الكون ففرض انه على صورة بقرة كبيرة قائمة فى الفلك على أرجلها الأربع متجهة الرأس نحو الغرب والأرض بين رجليها الأمامتين والخلفيتين واعتبر السماء بطن البقرة مزدانة بالنجوم . وتخيل فريق آخر السماء على شكل امرأة منحنية الجسد مستندة الى الأرض بطرفى رجليها وغربا بطرفى يديها (٣) . وقد وصل بهم اليقين فى

(١) اثبت العلم الحديث أن الذرة فى حركة مستمرة

(٢) كان ارسطو أول من لخص علم الطبيعة فى الحركة (علم الطبيعة لأرسطو)

(٣) قصة الحضارة ـ الجزء الثانى من المجلد الأول ـ ص ١٥٦

هذا الفرض الى حد أن صوروها ونقشوها على آثارهم الخالدة فبقيت لنا حتى اليوم تحدثنا عن تصور الكون فى ذهن المصرى القديم . ولم يكن المصرى القديم الذى سجل هذه النقوش على آثاره ساذجا أو غريرا ، ولم يكن جاهلا أو همجيا وانما كان صاحب أعظم حضارة عرفها البشر حتى اليوم ولا تزال الأهرام أعجوبة الدنيا أثرا حيا شاهدا على ذلك ولا يزال معبد الكرنك ناطقا بأنه أعظم بناء شاده الانسان فى كل عصور التاريخ ، ويتضافر العالم اليوم للمساهمة والاكتتاب لانقاذ معبد أبى سنبل وبقية معابد النوبة كأعظم تراث خلده البشر .

وكان للاغريق كون من صنع أذهانهم ، تصوروا فيه امتلاء العالم بعدد لا يحصى من الآلهة يتولون الاشراف على كل مرفق ، وكل نشاط يطوف للانسان فى ذهن .

وكان لعدد من هذه الآلهة مجمع فوق الأولمب يديرون فيه شئون البشر وعلى هذا التصور قامت آدابهم وحول هذا المعنى نسجت الياذتهم التى تعد أروع ما يملك العالم من تراث شعرى ، ولهذه الآلهة الجالسة فوق جبل الأولمب شيدت المعابد التى يحج البشر لزيارتها من أربعة أرجاء الدنيا ليعجبوا بعظمة هؤلاء الفنانين والمهندسين والبنائين الذين شادوا هذه الهياكل الرائعة .

ومرة أخرى لم يكن الاغريق بلهاء أو سذجا أو بسطاء ، ولم يكونوا جهالا ولا هم من الهمج والبرابرة .. وانما كانوا هم من يعترف العالم لهم بالأستاذية فى شتى العلوم ، فمنهم فيثاغورس واقليدس وأرشميدس ، وسقراط وأفلاطون وأرسطو معلم الانسانية الأول . وقد حفظ لنا التاريخ بصفة خاصة أن سقراط الأب الأكبر للفلسفة الذى جعل الفضيلة فى ذروتها

هى المعرفة ، كان ممن يؤمنون بمعتقدات قومه ، بل انه بدأ حياته الفلسفية اثر وحى هبط على الكاهنة فى دلفى معلنا أن سقراط هو أعقل الناس طرا .
ويدهش الكثيرون فى عصرنا من هذه الظاهرة التى يعتبرونها غير مفهومة فكيف يستسيغ أصحاب هذه العقول الجبارة التى استطاعت أن تشيد هذه المدنيات القديمة ، أن تشيد الأهرام والكرنك والأكروبول ، وأن تضع جميع أسس العلوم والمعارف البشرية ، أن تتصور الكون على صورة بقرة أو أن تكون الآلهة مشغولة بالمشاجرات والمخاصمات فوق جبل الأولمب ؟ يدهش الكثيرون كيف أن اليابانيين على الرغم من قدرتهم على اللحاق بالأوربيين فى صناعاتهم واتناجهم الفذ ، لا يزالون يؤمنون بأن الميكادو هو ابن الشمس ولا يزالون يقدسونه ، حتى بلغ الأمر بهم أن جعلوا المحافظة على شخص الميكادو هو الشرط الوحيد الذى يشترطونه لكى يسلموا نهائيا فى الحرب الماضية .

وكيف لا يزال الهنود بكل ما فيهم من علمـــاء وحكماء ومفكرين ، ينظرون الى البقرة كشىء مقدس لا يجوز المساس به فيتركونها تسرح وتمرح وسط المدن الكبرى الغاصة بالحركة الحديثة ؟

وعندنا أن ذلك كله ليس أعصى على الفهم ، من حيث تقديس الانسان لبعض المعانى ، مما يفعله الروس الممعنين فى التقدمية والأخذ بالمادية والعلم الحديث ، وهم يحتفظون بجسد لينين محنطا ويتجمع فى كل يوم على مقبرته ألوف من الشيوعيين ، ينظرون اليه على سبيل التقديس والتكريم ، بينما هو من الناحية العملية والمادية البحتة لا يعدو أن يكون مجرد جيفة ، يرى الكثيرون أنه من الأكرم لها أن توارى التراب . أما من ناحية تصور الكون على صورة ما ، فأى فرق بين تصور الكون على صورة بقرة ، أو تصوره على صورة فقاعة صابون على ما يقول به فى عصرنا الحديث العالم الطبيعى

الكبير السير جيمس جينس [1] الحق أنه لا فرق هناك الا أن القدامى لم يكونوا يحتقرون البقرة ، أما نحن فنحتقرها ونؤثر عليها فقاعة الصابون كصورة للكون . فهى مسألة مزاج كما ترى ومسألة تصور ذهنى لا أكثر ولا أقل .. فما هو فى الذهن ينعكس على الخارج فاذا الأمور كلها تجرى وكأنها تثبت هذا الذى نعتقد . فالذين يؤمنون بالمعجزات والخوارق يرون فى أعمال الرسل والأنبياء والقديسين والصالحين خوارق ومعجزات ،والذين آمنوا بأن المسيح ابن الله يمشى على الأرض رأوا فى كل حركة من حركاته مصداق هذا الذى آمنوا به . وعندما وجدوا قبره مفتوحا فى اليوم الثالث ولم يجدوا جثته قال المؤمنون بالمسيح : انه رفع الى السماء ، ورأوا فى هذا الدليل على ربوبيته ، والذين لم يؤمنوا بالمسيح قالوا ان جثته قد سرقت وأخفيت ، فازداد الأولون ايمانا وازداد الآخرون جحودا وكفرا .

والمسلمون فى صدر الاسلام كانوا يؤمنون بأن الله لابد ناصرهم ، وأنه باعث الملائكة لتحقيق هذا النصر فرأوا الملائكة وسمعوا أصواتهم وصهيل خيولهم بل انهم ليصفون لنا ملابسهم [2] أما المشركون فلم يروا فى انتصار محمد فى غزوة بدر الاسوء حظ وفشل فى تدبير الخطة العسكرية.

والذين يؤمنون بالجن والعفاريت يرون الجن والعفاريت . والذين لا يؤمنون لا يرونهم ، ويسفهون القائلين برؤيتهم ..

وفى عصرنا الحديث : الذين يؤمنون بامكان تحضير الأرواح ، يرون الأرواح ويسمعون أصواتها والذين لا يؤمنون لا يرون فى كل ما يوصف بأنه تحضير الأرواح الا أنه دجل فى دجل .

(١) العالم وأينشتين – ص ١٠٢

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك . الجزء الثانى – ص ٢٥٣ طبعة مصطفى محمد .

التجربة تؤيد الأفكار المتعارضة

ولا يتخيلن متخيل أن هذا الذى نقول به من رؤية كل انسان ما يتوهمه أنه وقف على أفراد الشعب الجاهل أو العوام ، أو على المباحث والأفكار النظرية البحتة ، أما العلماء وفى العلوم التى تقوم على التجـربة وشهادة الحس ، فلا محل للتحدث عن الوهم أو التصورات الذهنية التى تختلف من انسان لآخر . ولكن الواقع أن القاعدة تطرد حتى فى هذا الميدان من العلوم وحتى بالنسبة لهذا الطراز من العلماء ، فقد رأينا فيما سبق كيف أن العلوم والمعارف قد تطورت أحيانا من النقيض الى النقيض واعتبر خطأ ما كان يعتبر حتى الأمس القريب علما ، ولن أحدثك كيف أن هتلر عندما قال بتفوق العنصر الآرى والألمانى بصفة خاصة على بقية العناصر الانسانية ، كيف أن كل علماء ألمانيا فى شتى فروع العلم قد راحوا يجرون التجارب التى تثبت هذه الحقيقة ، وكيف كانت الاكتشافات العلمية فى هذه الفترة من حياة ألمانيا كلها تتوالى فى هذا الاتجاه ، وكيف ثبت ثبوتا علميا بالتجربة والبرهان اختلاف الدم الألمانى عن دم بقية بنى الانسان .

لندع ذلك ولنسق لك مثالا واحدا من دنيا الطبيعة والكمياء حيث لا مجال الا للتجربة والحقائق الثابتة . فهذا عالم هولندى يدعى « بشر » طلع عـلى أوروبا قرب نهاية القرن السابع عشر بما أسماه الفلوجستين زاعما أن الفلوجستين هو العنصر الكامن فى كل جسم ويؤدى خروجه منه الى عملية الاحتراق المعروفة . هذه النظرية التى لا أساس لها من الواقع كما نعرف الآن ، سرعان ما سيطرت على عقول العلماء أكثر من قرن من الزمان ، وكان ممن آمن بها علمـــاء أفذاذ من أمثال بريستلى كاشف الأوكسجين بالذات ، وكانت هذه النظرية هى التى تفسر بها كل شىء فى دنيا الكيمياء فى يسر وبساطة لا تدع مجالا للشك فى صحتها . ومعنى ذلك

أن باستطاعة أى تفسير خاطىء أن يكون أساسا لعديد من التجارب الناجحة ويوصف بأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها . ومثال ذلك تفسير الكون على أنه يتألف من عناصر أربعة ، وهى الماء والنار والهواء والتراب ، فقد كانت هذه هى الحقيقة العلمية الثابتة ، التى يفسر بها كل شىء فى الكون وتتواتر الأدلة والآيات على صحتها ، ويعالج المرضى ويبرأون على أساسها وتقوم الصناعات والفنون على هديها وهكذا .

وعندما كان الظن أن الشمس هى التى تدور حول الأرض ، فقد استطاع هذا التصور أن يفسر كل الظواهر الفلكية ، بحيث كان بقدرة الأقدمين أن يتنبأوا بالكسوف والخسوف بنفس الدقة التى نحسبهما بها ، وأن يجوبوا الآفاق فى البر والبحر على هديها ، وأن يشيدوا هذه الحضارات التى تذهلنا ، ومعنى ذلك أن هذا التصور المقلوب لما نعتبره اليوم حقائق كونية ثابتة لم يكن له أى أثر على حياتهم .

والخلاصة

ان أقصى ما يمكن أن يقال ردا على سؤالنا ، الذى جعلناه موضوع هذا الفصل ، « هذا الكون أهو من صنع الانسان ؟ » ان هذا الوجود المادى للكون ان كان له وجود حقيقى بالفعل خارج الانسان ومستقل عنه ، فان هذا الوجود لا يمكن أن يزيد فى حقيقته ، على مجرد كيفية معينة من الطاقة أو القوة التى لا نستطيع لها تصورا ، أو ادراكا فهى مجرد حركة أو ذبذبة على ما يقولون ، تسرع حينا ، وتبطىء حينا آخر ، ولا زيادة . ثم يأتى الانسان بحواسه وعقله ، فيقسم هذه الحركات والذبذبات الى طاقة ومادة وضوء وظلام ، وأصوات ومشمومات ، وحركات وأبعاد فى الزمان والمكان ، ويروح العقل الانسانى يربط بين الظواهر ويرتبها ويبوبها ويقارن فيما بينها

ويجمع بين الأشياء والنظائر مكونا من ذلك كله علما ومعرفة جاعلا من هذه المعرفة قوانين يفرضها على الطبيعة فرضا ، مدعيا أنها لا تعمل الا من خلالها وبواسطتها .

ولما كانت ظروف الحياة الانسانية حتى الآن ، قد فرقت بين كل انسان وآخر ، من حيث القدرة على أى شىء ، على السمع والبصر والشم والحس ، على التفكير والتصور والتخيل . ولما كان الظلم الاجتماعى الذى يرزح تحته الانسان قد جعل التفاوت بين البشر يكاد يكون أحد حقائق الحياة الثابتة ، فقد انبنى على ذلك اختلاف الصورة الذهنية لهذا الكون من انسان لآخر . بحيث نستطيع القول انه لو كان عدد سكان العالم هو ثلاثة آلاف ملايين نسمة ، فان هناك بالتالى ثلاثة آلاف مليون صورة مختلفة لهذا الكون ، تتغير باستمرار من لحظة لأخرى ، بحيث لايمكن أن تنطبق الصورة الكونية لأى انسان على الصورة الكونية لأى انسان آخر كما لايمكن أن تنطبق بصمة ابهام أى انسان على انسان آخر .

ولعل هذا يثبت لنا بوضوح ذاتية الانسان الفرد ، وعلاقة كل انسان المستقلة بالوجود ، وأن ليس هناك انسان أو جماعة من الناس مهما بلغ عددهم ، يمكن أن يسدوا فى الوجود مسد أى انسان كائنا من كان ، مادام لكل انسان تصوره الخاص عن الكون وبالتالى دوره الخاص فى الوجود .

قد يقول قائل ولكنك بذلك تكاد تجعل المعرفة شيئا مستحيلا ، ومجرد وهم يختلف من انسان لانسان . وحقا كان يمكن أن يكون الأمر كذلك ، لولا أن كل انسان ليس منبت الصلة عن بقية البشر ، وعقله ليس نسيج وحده من سائر العقول . لقد جاء الانسان من انسان آخر ، والعقل تراث ينتقل بين رؤوس البشر ، فالناس جميعا بما فيهم عقولهم قد جاءوا من أصل

مشترك وكأثر من هذا الأصل المشترك تلتقى العقول على ما يسمى بديهيات مقررة ومسلمات متفقا عليها ، وتتأثر العقول من خلال الحواس بمؤثرات مشتركة كذلك ، وتلقى العلم والمعرفة عن الآخرين يؤدى الى انطباعات مشتركة فى العقل .

ومن هذه المؤثرات المشتركة والبديهيات الكامنة فى كل عقل تصاغ هذه الفروض والنظريات التى توصف أحيانا بأنها حقائق علمية يرتب البشر عليها معاشهم .

فالخلاف بين كل عقل وعقل موجود ومسألة مقررة ومؤكدة يؤكدها الحس والعقل كما رأينا ، ولكن القسم المشترك موجـود كذلك ، وبهذا القسم المشترك يتفاهم البشر ويتعاطفون ويتعاونون .

وباستطاعتنا الآن وقد أدركنا مدى العلاقة بين ذهن الانسان والوجود الخارجى ، أن ننتقل الى البحث التالى لنقرر أن : كل ما يدور فى عقـل الانسان ، اما أنه كان أو كائن أو سيكون .

مراجع الفصل الثالث

٤٣ — العين والشمس — تأليف س . فافيلوف — ترجمة الدكتور عطية عبد السلام عاشور .

٤٤ — الصوت والضوء (كتاب مدرسى) تأليف الأساتذة : محمد محمد فياض ، محمد عاطف البرقوقى ، عبد المنعم السيد عشرى وأحمد أمين ابراهيم .

٤٥ — تاريخ الأرض — تأليف جورج جامبو — تعريب محمد أبو شلباية .

٤٦ — العالم واينشتين — تأليف لنكولن بارنت وترجمة محمد عاطف البرقوقى .

٤٧ — بواتق وأنابيب — قصة الكيمياء — تأليف برنارد جافى — ترجمة الدكتور أحمد زكى .

٤٨ — تاريخ الأمم والملوك ، للامام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى راجعه وصححه وضبطه نخبة من العلماء — طبع المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد — عام ١٩٣٩ — ثمانية مجلدات .

٤٩ — مع الله فى السماء — تأليف الدكتور أحمد زكى — من كتب الهلال .

٥٠ — الباحثون — تأليف غرانين — من مؤلفات الأدب السوفيتى.

٥١ — علم الطبيعة — أرسطو — ترجمة لطفى السيد .

مراجع سبقت الاشارة اليها

— تطور علم الطبيعة

— مدخل الى علم الفلسفة .

— قصة الحضارة .

— جمهورية أفلاطون .

الفصل الرابع

كل ما يدور فى عقل البشر ، إما أنه كان أو كائن ، أو سيكون

التلازم بين ما يدور فى الذهن وما يقع بالفعل ـ حقيقة الأحلام ـ الأساطير والخرافات ـ الأفكار الدينية ـ الكون المخلوق ـ السبب الأول الخالق ـ صلة الانسان بالسبب الأول ـ موت الانسان أهو نهايته ؟ ـ الثواب والعقاب ـ السجل الأحصائى لأعمال الانسان ـ الله نور السموات والأرض ـ كائنات تصورها العقل ـ المردة والغيلان والرخ ـ الجن والعفاريت والأرواح ـ الملائكة وسكان السماء ـ وعدنا نتطلع للسماء ـ فكرة الطيران ـ أفكار جميع المخترعات ـ الحقائق العلمية ـ حجر الفلاسفة أو الاكسير ـ كشوف القرن التاسع عشر الثلاثة ـ أينشتين والمادة والطاقة .

رأينا فى الفصل السابق كيف أن العقل البشرى هو أحد محاور هذا الوجود الذى لا يتم الوجود بصورته التى نعرفه بها الا بواسطته ، وسواء كان للوجود حقيقة ذاتية خارج الانسان ، هى التى تنعكس على عقله عن طريق الحواس ، فيراه على هذا النظام والاحكام كما يقول أصحاب النظرية الواقعية فى المعرفة أو لم يكن للوجود من حقيقة الا فى عقل الانسان الذى يضفى على الكون من حوله هذه الصور والأشكال التى هى من صنعه وخلقه كما يقول المثاليون .

أو كان الوجود مزيجا من الوجود الواقعى خارج عقل الانسان ومن مبادىء أساسية مستقرة فى العقل تضفى على المؤثرات التى تأتيها من

الخارج أحكاما هى من صنع العقل كما يقرر بعض المذاهب الفلسفية [1] ، أقول أيا ما تكون العلاقة التى تقوم بين العقل والوجود ، فالأمر المحقق أنه عنصر لازم وضرورى اما لخلق الوجود كما نعرفه أو للكشف عنه بالصورة التى نعرفها ، وينبنى على ذلك فى كلتا الحالتين أن تكون الحقائق الكونية كلها مستقرة فى عقل الانسان ومجبولة فيه مذ يولد أو أنها منعكسة عليه مذ يولد كذلك ، أو أنها من صنعه تمهيدا لايجادها فى الخارج .

ومن هنا جاز لنا أن نفرض أن كل ما دار فى ذهن الانسان على أنه أمر واقع ، فان هذا الأمر لا يمكن الا أن يكون قد وقع بالفعل فى زمن مضى وهو يستثار فى الذهن من قبيل الذكريات ، أو يكون انعكاسا لأمر يقع فى التو واللحظة التى تتم فيها عملية الفكر ، أو أنه تنبؤ عن أمر سيقع فى المستقبل يعبر عنه العقل بصيغة الماضى لأن العقل المطلق لا يعرف ماضيا أو مستقبلا .

وفى رأينا أن الأمر لا يمكن أن يكون الا كذلك .. فاحدى المسلمات التى تتفق عليها جميعا وقد تكون احدى البديهيات المجبولة فى العقل : أنه لا يمكن خلق شىء من عدم ، كما أن لا شىء موجود يذهب الى عدم ، أو بتعبير آخر « فاقد الشىء لا يعطيه » وينبنى على ذلك أنه يستحيل عقلا أن يدور فى ذهن الانسان شىء ليس له أصل من واقع سبق أو حال أو سيكون .

هنا ويحق للكثيرين أن يتساءلوا فاذا كان الأمر كذلك فما الرأى فى الأحلام والرؤى سواء فى اليقظة أو فى المنام ، وهى محض تخليط وتخرصات ؟ بل ما هو القول فى الأساطير والخرافات وحكايات الأطفال التى تغص بها الآداب الشعبية فى كل زمان ومكان ؟

---

(١) مسائل فلسفية للدكاترة توفيق الطويل وعبده فراج وزكى نجيب محمود .

وما الرأى فى العقائد الدينية على اختلاف أنواعها وتناقضها من شعب الى شعب ، ومن عصر الى عصر بل ومن قبيلة الى قبيلة ، وهى لا يمكن الا أن تكون من نسج الخيال . وأخيرا ما هو الرأى فى هذا الخيال الانسانى بصفة عامة ، وهو الذى ينطلق غير متقيد بزمان أو مكان ، غير متقيد بما يعد مستحيلا ومالا يعد ؟

وجوابنا على كل هذه الأسئلة أو بالأحرى الاعتراضات ، هو نفس ما قررناه حتى الآن ، فما من صورة يمكن أن ترد على الذهن ، الا وهى على صلة بالحقيقة والواقع بعلاقة ما ، والا لما اتخذت سبيلها الى الذهن . وحسبنا أن ندرس آخر ما أصبح يقال عن الأحلام ، والأساطير والخرافات والعقائد الدينية ليتبين لنا مصداق ذلك .

الرؤى والأحلام

كانت العقيدة المستقرة فى عقول الناس منذ أقدم العصور ، أن للأحلام وجودا حقيقيا ، أو بالأحرى تمثل حقيقة بعض ما جرى أو يجرى أو سوف يجرى ويقع . وقد ذهب الرأى فى تفسيرها مذاهب شتى ، فمن قائل ان الأحلام هى حياة لروح الانسان التى تنفصل عن جسده ابان النوم وتنطلق فى متاهات ومجاهل لا نعرف من أمرها شيئا ، ومن هنا جاء فى أحد كتب (يوبانشاد) الهندية القديمة « لا يوقظن أحد نائما ايقاظا مفاجئا عنيفا ، لأنه من أصعب الأمور علاجا أن تضل الروح فلا تعرف طريقها الى جسدها » [1]

---

(١) قصة الحضارة الجزء الأول — ص ١٠٠

وقد أشار القرآن الكريم لفكرة انفصال الروح عن الجسد خلال النوم فى الآية الكريمة « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى » الزمر ٤٢

وفى رأى آخر أن الأحلام لون من ألوان ذكريات الروح عن تجاربها فى حياة مضت . (مذهب تناسخ الأرواح) والاجماع منعقد منذ القديم على أن الأحلام فى كل الأحوال ، تتكلم بلغة الرموز ، ومن هنا جاءالغموض الذى يطبع الأحلام بطابعه . ولم يكن هناك فى القديم من يداخله الشك ، فى أن الأحلام قد تكشف عن مستقبل الانسان وعما قد يقع له من الحوادث ومن الأمور المقررة فى الفقه الاسلامى ، أن الرؤيا الصادقة جزء من النبوة [1] .

ولقد أقدم رسول الله (صلعم) على خوض معركة بدر الفاصلة فى تاريخ الاسلام والانسانية بالتالى ، بناء على رؤيا رآها فى المنام ، من أنه سينتصر على المشركين . [2] كما رأى فى منامه مرة أخرى أنه سيدخل مكة آمنا مطمئنا هو وبقية المسلمين ، رغم الحرب التى كانت مستعرة بينه وبين قريش وأنه سيطوف بالمسجد الحرام ، فكان الذى رأى فى منامه [3] .

ومن هنا قام للأحلام وتفسيرها علم شامخ فى القديم ، ساهم فى تشييده الفلاسفة والعلماء والكهنة والسحرة ، وكما يلتمس الناس الأطباء لعلاج ما يلم بهم من أمراض فقد كانوا يلتمسون أهل الذكر لتفسير

---

(١) فى الحديث الشريف عن عائشة قالت « أول ما بدىء به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لايرى الرؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح» (رواه الشيخان والترمذى) وتضمن العهد القديم اشارات للأحلام المنبئة بالمستقبل كما فى قصة يوسف وما رآه فرعون ، على التفصيل الذى ورد فى القرآن الكريم .

(٢) « اذ يريكهم الله فى منامك قليلا » (سورة الأنفال ـ آية ٤٣) .

(٣) « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » ـ سورة الفتح ٢٧ .

ما يعرض لهم من أحلام ، اذا لم يستطيعوا هم أو ذووهم أن يفسروا هذه الأحــلام .

وكل ذلك يدل على أن أحدا فى الماضى لم يتشكك فى انطواء الأحلام على حقائق وأسرار تتصل بالوجود وبما كان وســوف يكون ، أيا كان التشويش الذى قد ينتابها .

ثم كانت موجة العلوم المادية ، علوم التجربة والحواس والمشاهدة التى لا تؤمن الا بما نمسك أو نشم أو نرى ، والتى ترى فى كل حــديث عن الروح حديثا عن مجهول وفرض لا لزوم له لأن المادة كفيــلة بحل كل اشكال ، فكان طبيعيا أن يجرف هذا التفكير الجديد كل ما قيل فى القديم عن تفسير الأحلام ، ولم تعد الأحلام شيئا حقيقا بأن يشغل نفسه به عالم أو فيلسوف ، والا كان معنى ذلك اشتغاله بالأوهام ، وسقط بالتالى كل تصور أن تتضمن الأحلام حديثا عن المستقبل أو تنبؤا بالغيب . ولكن العقل البشرى من ديدنه أن يفكر فى كل شىء وأن يقلب الأمور على كل وجه ، وأن يرى اليوم وجها من الصورة وفى يوم آخر الوجه الثانى ثم الوجــه الثالث وهكذا ، فلا خوف منه على الحقيقة أبدا ، مهما كان انحرافه أو نكسته لأن الانحراف لا يلبث أن يعود الى الاستواء والنكسة تعود الى انطلاق ! فقد كان الماديون ورسل المادة المؤمنون بها ، هم الذين أعادوا للأحلام سابق مكانتها وخطورتها فى حياة الانسان ونددوا بهذا الاغفال الذى أصبحت تلقاه الأحلام .

وكان نبى هذا البعث الجديد هو سيجموند فرويد [١] الطبيب العالم

---

(١) بدأ فرويد حياته طبيبا فى المستشفى العام فى مدينة فينا ، وقد راح يجرى سلسلة من التجارب الشاقة لشفاء المدمنين بالمورفين باعطائهم حقنــا من الكوكايين (قصة العقاقير ــ الدكتور محمود سلامه ص ٤٥)

الذى بدأ حياته باحثا خلف العناصر وتركيبات المادة وطرق العلاج ، عندما أصدر كتابه (تفسير الأحلام) فى سنة ١٩٠٠ [1] مبتدئا بذلك علم الطب النفسانى صاحب الصولة والجولة اليوم فى العالم الغربى وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية . واليك ماقاله سيجموند فرويد عن حقيقة الأحلام وكيف أنها تمثل الرغبات المكبوتة ، وترمز الى الحقيقة بصورة من الصور :

١ — ان عدد الذكريات التى تظهر أثناء الحلم يفوق كثيرا عدد الذكريات التى تظهر أثناء اليقظة . فالأحلام تعيد ذكريات كان الشخص قد نسيها ولا يستطيع تذكرها أثناء اليقظة .

٢ — تستخدم الأحلام رموزا لفظية بصورة لا حد لها ، ويكون معنى هذه الرموز فى معظم الأحوال ، غير معروف للحالم غير أننا نستطيع بما لنا من خبرة أن نعرف معناها . ومن المحتمل أنها تنشأ من المراحل الأولى لنشوء الكلام .

٣ — غالبا ما تستعيد الذاكرة أثناء الأحلام ذكريات من أيام الطفولة الأولى للشخص الحالم نستطيع منها أن نؤكد فى يقين أنها ليست فقط نفسية ، بل انها أصبحت لا شعورية بما عانت من كبت . وهذا يفسر لنا المعونة — التى لا غنى عنها عادة — التى تقدمها لنا الأحلام عندما نحاول أثناء علاج الأمراض العصابية بالتحليل أن نعيد بناء الحياة الأولى للحالم .

٤ — وفيما عدا ذلك فان الأحلام تظهر مادة لا يمكن أن تكون أتت من شباب الحالم ، ولا من طفولته المنسية ونحن مضطرون الى

---

(١) الاحلام والرؤى ـ عبد العزيز جادو ـ ص ٥٣

اعتبار هذه المادة جزءا من الميراث الفطرى الذى يحضره الطفل معه الى هذا العالم نتيجة خبرات أسلافه ، وذلك قبل أن تحدث له أية خبرة خاصة . ونجد فى الأساطير القديمة ، وفى التقاليد الباقية عناصر تماثل هذه المادة المتعلقة بنشوء الجنس. وهكذا نرى الأحلام تمدنا بمصدر لتاريخ الانسان لا يجب التقليل من شأنه . » (1)

وهكذا لم تعد الأحلام أضغاثا ، وانما هى اشارات ورموز وذكريات وتعبير عما يخالج النفس ، فهى الدليل على أن كل ما دار فى الذهن ، حتى ولو فى حالة النوم هو تعبير عن حقيقة كانت أو كائنة أو سوف تكون . ولم يكن فرويد الا الطليعة لسيل من الأبحاث المماثلة ، وعديد من العلماء الذين ، وان اتفقوا معه فى المنهج فقد اختلفوا معه فى التعليل ، من أمثال أدلر ويونج .

وما من طبيب نفسانى فى طول العالم وعرضه فى أيامنا هذه الا ويتخذ من أحلام مريضه ، سبيلا لمعرفة ما يعتلج فى صدره من الذكريات والرغبات والعقد النفسية التى تسببله المتاعب ، أو الآلام .

الأساطير والخرافات

واذا كانت الأحلام قد عادت الى سابق أهميتها ، من حيث كشفها عن مكنونات النفس ، وذكريات الانسان عن حوادث ماضية ، فكذلك أصبح الشأن بالنسبة لما اعتدنا أن نطلق عليه أساطير العصور الأولى وخرافاتها مما ألقى به جملة فى سلة المهملات فى وقت من الأوقات ، باعتباره لونا من

---

(1) معالم التحليل النفسانى ـ فرويد ـ ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى ـ ص ٩٣

ألوان الهذيان الذى طاف فى العقل البشرى فى مراحله الأولى البدائية التى كانت تتسم بالفجاجة والطفولة .

ومما يؤسف له حقا أن البعض قد ذهب الى اعتبار المعتقدات القديمة كلها ، بما فيها الأديان ، سواء كانت أديانا سماوية أو وثنية ، لا تخرج عن أن تكون ضربا من ضروب الأوهام والأساطير ، بحيث لا تستحق أن يختلف مصيرها عن مصير بقية الأساطير والأوهام ، ألا وهو سلة المهملات. بل لقد ذهب بعض المذاهب الى حد التسامح مع الخرافات والأساطير فلم تعد تلقيها فى سلة المهملات ، أما بالنسبة للأديان والمعتقدات فلم يعد يرضيها الا أن تحاربها ، وتحارب معتنقيها وتستأصل شأفتهم ، كما كان يفعل بالأمس بالكفار والمشركين بمقولة أن لا سبيل لرقى الانسان الا بعد أن يطهر نفسه وذهنه من هذه السموم والمخدرات . [1] . ولو صح هذا القول لكان معناه أن هذا الذى دار فى عقول البشر خلال عشرات القرون كان وهما ولونا من ألوان الخزعبلات التى لا تنطوى على حق أو واقع من أى شىء كان وهو ما يهدر العقل البشرى ويزرى به ويدفع الى التشكك فى كل ما يقول به العقل البشرى اليوم أو غدا أو فى أى يوم من الأيام ... ما دام أن أمورا ظل يرددها خلال القرون وآلاف السنين ليست سوى

---

(١) اتخذ المؤتمر الشيوعى الدولى السادس المنعقد عام ١٩٢٨ القرار التالى :

ان أحد المهام الملقاة على عاتق الثورة الثقافيه التى تؤثر على الجماهير ، هو واجب العمل المنظم الدائب فى محاربة الدين ، هذا الأفيون الذى يخدر الشعوب ..... ويتعين على الدولة فى الوقت الذى تسمح فيه بحرية العبادة بعد الغاء المركز الممتاز الذى كان يتمتع به الدين فى القديم ، أن تقوم بدعاية ضد الدين بكل الوسائل التى تسيطر عليها الدول وتعيد بناء العمل التربوى والتعليمى على أساس المادية العلمية .

الدين تاليف لينين المجلد السابع ص ٦ — Religion - By V.I. Lenin

أكاذيب وترهات وأوهام ، فليس ما يمنع أن يكون كل ما يقوله اليوم هو من هذا القبيل . وبدأ العلماء بحثهم فى الأساطير والخرافات والسحر القديم والشعوذة كما لا تزال ممثلة لدى بعض الشعوب البدائية فى افريقيا وآسيا واستراليا ، واذا بالعلماء يرون فى هذه الأساطير والخرافات حديثا جديرا بكل تقدير واعتبار فهى ليست سوى التاريخ ... تاريخ البشر وتاريخ جماعة من الجماعات مصاغا بلغة قديمة ومفاهيم قديمة .

فعندما يعتقد المصرى القديم فى الاله رع وأنه حكم الأرض ثم صعد الى السماء ، وعندما تتحدث عن هذا النزاع الدموى بين ست وبين أوزوريس وكيف قتل ست أخاه ومزق جسده اشلاء فعملت ايزيس زوجة أوزوريس على تربية ابنها حوريس على فكرة الانتقام لمقتل أبيه وكيف جمعت أشلاء زوجها لتدفنه ، ليس ذلك كله الا حديثا عن وقائع حدثت بالفعل وملوك كانوا أول من حكم مصر ثم قدسهم الناس بعد موتهم كما يحدث فى كل زمان ومكان .

وعندما يتحدث الاغريق عن آلهة الأولمب وما يقع بينهم من نزاع وصدام ومناقشات ومحاورات ، فليس ذلك كله الا حديثا عن أصول الاغريق القدامى ورؤساء القبائل والعشائر الذين نسلوا أحفادهم الذين قدسوا أجدادهم كما هو شأن الطبيعة البشرية فى احترام الموتى واجلالهم .

وليس أدل على هذا الفهم لهذه الأساطير القديمة وأنها تمثل تاريخا انسانيا ، أنه لا المصرى القديم ولا الاغريقى ولا الرومانى نسبوا الى هذه الآلهة المعبودة خلق هذا الكون ، فقد كان موجودا قبل أن توجد الآلهة من أمثال رع أو أوزوريس أو آمون أو زيوس أو جوبيتر ، والآلهة المصرية كالآلهة الاغريقية كالرومانية كلها لا تستطيع أن تتحكم فى القضاء

والقدر الذى يهيمن على أقدارها كما يهيمن على أقدار البشر سواء بسواء. فدل ذلك على أن هذه الآلهة المعبودة ليست فى طبيعتهـا الا بشرا ممن سبق [1] . وهكذا لم تعد الأسطورة شيئا من اختلاق العقـل البشرى ، وانما هى تسجيل لوقائع حدثت بالفعل وتحدث عنها الخلف نقلا عن السلف بلغة تختلف عن لغتنا الحاضرة فى مدلول معانى الكلمات وما ترمز اليه ، فكلمة اله لدينا فى الوقت الحاضر ترمز الى معنى ضخم لم تكن ترمز له فى القديم ومن هنا جاء اللبس الذى وقعنا فيه ونحن نطالع هذه الأساطير .

وبدأ علماء كبار يعنون بكل ما يؤثر عن الماضى فيقول لنا FRAZER الذى يصفه ول ديورانت بأنه عالم مبدع موهوب « ان أمجاد العلم تمتد بجذورها الى سخافات السحر لأن الساحر كلما أخفق فى سحره استفاد من اخفاقه هذا استكشافا لقانون من قوانين الطبيعة ، وعلى هذا النحو كان السحر هو الذى أنشأ لنا الطبيب والصيدلى ، وعالم المعـادن وعالم الفلك [1] . »

ويقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه (وحدة المعرفة) «الخرافة أول العلم فهى نظرية لم تثبت أما العلم فخرافة قد ثبتت أصولها واطردت نتائجها الى حد ما . وعلم الأمس لا يعدو أن يكون خرافة اليوم ، وعلمنا سيكون عند أبنائنا خرافة ، وقوام المذهب الخرافى العلمى هو قدرة العقل على تنظيم ما يعلم » [2] .

وراح العقل يحفل من جديد بكل المعتقدات والأديان القديمة ، فبعثت كتب البوذية والهندوكية والزرادشتية . وطاف العلماء بين شعوب أفريقيا

---

(١) كتاب قصة الحضارة ــ الجزء الأول ــ المجلد الأول .

(٢) وحدة المعرفة ــ ص ١٦ ــ الدكتور محمد كامل حسين

واستراليا وآسيا يبحثون أصول المعتقدات والأديان ، واستخلص من ذلك كله ومن الأديان السماوية الأخرى كالموسوية والمسيحية والاسـلام علم من أكبر العلوم ، وهو علم الدين المقارن الذى دل على أن للمعتقـدات وللأديان ، على اختلاف أشكالها وتباعد أزمانها ، جوهرا مشتركا يلتقى عند أفكار وصور معينة طافت كلها بالذهن البشرى ، سواء كان هـذا الذهن مستقرا فى رأس أحد الهنود الحمر أم أحد أبناء الدنكا والشلوك فى مديرية خط الاستواء ، أو كان عالما من كبار علماء اللاهوت فى الفاتيكان، أو ابن رشد وابن سينا والغزالى من فلاسفة الاسلام أو أرسطو وسقراط وافلاطون من أعلام الاغريق .

ولو أننا فحصنا هذه الأفكار التى تؤلف جوهر الأديان لوجـدناها لا تخرج عما أصبح العلم الحديث يعتبره حقائق مقررة يثبتهـا الحس والتجربة ، وما تكشف عنه الآلات فى المعامل والمراصد ودور الأبحـاث فما هى هذه الأفكار ؟

افكار العقائد الدينية

ما من دين من الأديان الا وهو منطو على الأفكار الآتية وان اختلفت التعابير والأسماء :

١ — هذا الكون قد خلق أى انه كان حيث لم يكن من قبل موجودا على هذه الصورة .

٢ — يرجع خلق هذا الكون الى سبب أول أقدر وأكفأ وأكمل من الانسان .

٣ — ان الانسان على صلة مستمرة بهذا السبب الأول الذى منه نشأ الكون .

٤ — ان موت الانسان ليس هو نهاية قصته .

٥ — ما يأتيه الانسان من أعمال فلا بد أن يحاسب عليها ان خيرا فخير وان شرا فشر . هذه هى الأفكار التى دارت فى رؤوس البشر منذ عرفوا نفسهم حتى الآن ، فأى شىء فى هذه الأفكار مما يصح أن يوصف بأنه محض هذيان أو ضرب من ضروب الأوهام ، أو بالأحرى أى شىء قد أثبت العلم الحديث بطلانه أو لم يقم الدليل على صحته .

الكون المخلوق

فاما أن هذا الكون قد خلق حيث لم يكن من قبل على هذه الصورة، بمعنى أن له بداية تختلف عما انتهى اليه حتى الآن ، فهذه احدى مسلمات العلم الحديث فى جميع فروعه ، سواء كانت علوما فلكية أو علوما طبيعية أو علوما خاصة بطبقات الأرض والحياة .

وهناك اليوم عدة نظريات فى كيفية نشوء المجموعة الشمسية وكيف انفصل بعضها عن البعض ، ولكن لا خلاف عندهم فى أن القمر قد انفصل من الأرض بل ويحدد بعض العلماء مكان انفصاله وهو حيث يوجد المحيط الهادى . والأرض وسائر الكواكب الأخرى قد انفصلت عن الشمس ، والشمس فى بادىء أمرها لم تكن شيئا سوى كتلة غازية كسائر النجوم الأخرى التى لم تكن قبل ذلك الا سديما على تفصيل طويل فى مختلف فروع العلم [١] .

وهكذا لم يكن وهما عندما تصور العقل البشرى أن هذا الكون قد خلق حيث لم يكن على صورته هذه من قبل .

---

(١) الفلك العام ـ سير هربرت سبنسر جونز · تاريخ الأرض لجورج جامبو ـ قصة الكون من السديم الى الانسان ···

السـبب الأول

يقول علم الطبيعة الحديث ان المادة هى سبب هذا الكون فلولاها لما كان . وهذه المادة قديمة أزلية تنطوى على النواميس اللازمة لانتهاء الكون الى هذه الصورة التى انتهى اليها ، وهى منطوية كذلك على النواميس التى تبقيه متحركا فعالا متطورا كما هو شأنه الحالى .

وهذا الذى يقول به علم الطبيعة لا يخرج فى حرفيته عما تقول به الأديان كلها وهى تصف الله الخالق من أنه قادر مريد فعال قديم أزلى .ولعل الفارق هو فى اللفظ . فالمعتقدات القديمة قد خلعت على هذا السبب الأول شتى الأسماء فهو أهورامزدا لدى أتباع زرادشت ، وهو يهوه لدى الاسرائيليين القدامى ، وهو رع أو آمون لدى المصريين القدامى ، وهو الآب لدى المسيحيين ، وهو الله لدى المسلمين ، الى آخر هذه الأسماء التى اختلفت باختلاف اللغات واللهجات . وعلم الطبيعة الحديث يسمى هذه القوة الخلاقة باسم المادة فهو اسم جديد يضاف الى ألوف الأسماء التى رمزت لهذا السبب الأول .

يقول لنا العلم الطبيعى : لا يوجد فى هذا الكون سوى المادة ، المادة هى سدى الوجود ولحمته ، انها مبثوثة فى كل مكان ، انها الشمس فى عليائها وهى النملة فى جحرها ، وهى الرياح فى هبوبها وهى العقل البشرى فى ابداعه ، وليست المادة سوى الطاقة وليست الطاقة سوى المادة ، فهذا الكون كله ينتهى الى أصل واحد هو المادة قوام كل شىء .

فأى جديد فى هذا يختلف عما يقول به الهندوكى من وحدة الوجود، وما تقول به منظومة الأديان كلها ، وما يقول به كل مؤمن ، من أى لون وطراز ، من أن الله فى كل مكان ، وأن قدرته مبثوثة فى كل شىء ، وهى قوام كل شىء ، ولا يقوم شىء الا بها .

أغلب الظن أن الماديين عندما ينكرون فكرة الله الخالق كما تصورها الأديان والمعتقدات ، فهم لا ينكرون وجـــود السبب الأول للوجود ، ولكنهم ينكرون الصورة البشرية التى اعتاد البشر أن يخلعوها على الله الخالق ، وينكرون ما اعتاد البشر أن ينسبوه الى الله ، من أنه قال كذا وفعل كيت ، وأنه جالس على هذا الكرسى أو فوق هـذا العرش ، وأنه يروح ويجيء ويصعد وينزل . وينسى الماديون أن لا وسيلة للانسان للتعبير عن أى معنى من المعانى الا بالقياس على حركاته وتصرفاته وأفكاره ، مما جعلنا نتساءل فى الفصل السابق عما اذا كان الوجـود من خلق العقـل البشرى ، فمحال على العقل البشرى أن يتحدث عن شيء الا وهو يضفى عليه الحياة الانسانية ، والا فبأى شيء يستطيع أن يتحـدث عن حركات الشمس الا أن يقول عنها انها تشرق وهى تغرب وهى تكسف وهى تحمر وهى تصعد وهى تنزل ... الخ . بل ماذا يقول علماء الطبيعة الماديون وهم يتحدثون عن المادة ، أو لا يخلعون عليها الحياة ، فيقولون ان المادة تفعل كذا وهى فى تطور مستمر وهى تنزع نحو الأصلح ونحو الأكمل ... أليست كل هذه معانى بشرية نخلعها على المادة بمقاييسنا وآرائنا وأفكارنا ؟

فلا مناص للانسان فى كل عصر وزمان ومكان من أن يخلع الحياة على كل مافى الكون .

صلة الانسان المستمرة بالسبب الأول

أما ثالث هذه الأفكار التى تنطوى عليها الأديان والمعتقدات كلها فهو الاتصال المستمر الدائم بين الانسان وبين هذا السبب الأول للوجـود ، والذى يجعل الانسان بذلك منطويا على قبس أو نفحة من هـذا السر الالهى ، وبهذه المشاركة فى سر الوجود استحق الانسان أن يكون سيدا

على كل مافى هذا الكون من كائنات ما ظهر منها وما بطن ، وراح يتسلط على مافى الطبيعة من قوى ونواميس ويسخرها لخدمته وأغراضه .

فما الذى يقول به علم الطبيعة أو المادة ، وهل يختلف فى قليل أو كثير عن هذا الذى تقرره الأديان ؟ أليس الانسان بلغة الطبيعة ، كما سنرى فى الفصل التالى ، هو أسمى ما أنتجته المادة ؟ أليس العقل البشرى هو ذروة ما وصلت اليه الطبيعة من تطور ؟ أليس الانسان هو الكائن الوحيد من بين الكائنات الأخرى القادر على فهم الطبيعة وأسرارها واستغلالها وتسخيرها لما يعود عليه بالنفع ؟ أليس ذلك هو بعينه التفكير الدينى فى كل المعتقدات القديمة كما أشرنا اليه فى الفصل السابق .

موت الانسان أهو نهايته ؟

وننتقل بعد ذلك الى الفكرة التالية التى تجمع عليها الأديان من أن وفاة الانسان ليست نهاية قصته ، فهى لا تعدو أن تكون مجرد تغيير من حالة الى أخرى أو من صورة الى صورة ثانية ، أو نقله من هذه الدار الى الدار الخالدة . فأى شىء فى العلم الحديث لا يهتف بهذه الحقيقة ويؤكدها بل ويسوق البراهين عليها ؟ أليس علم الطبيعة هو الذى يقول لنا ان المادة لا تفنى وانما تتشكل وتتغير وتنتقل من حالة لأخرى ، ومن صورة الى صورة ثانية . أليس هو علم الطبيعة الذى يقول لنا ان الماء اذا تبخر فلم يعد له وجود فى الاناء ، فهو لم يتلاش بل ولم ينقص مقدار ذرة ، ذلك أننا لو جمعنا من جديد هذا البخار المتصاعد فى الهواء ، الى هذه الأملاح الراسبة فى الاناء لوجدناها تزن نفس المقدار الذى كانت تزنه كمية الماء . بل ان هذا البخار المتصاعد الى عنان السماء ، لن يلبث حتى يؤلف سحابا ليعود من جديد ماء زلالا أكثر عذوبة من هذا الذى كان فى الاناء .

وعندما نحرق بعض هذه الأخشاب فيتصاعد منها اللهب والدخان الأسود وبخار الماء ثم لا يبقى منها سوى بعض الرماد ، أو لا يقول لنا العلم (كما قال الهنود من قبل) ان هذه الشجرة التى احترقت لم تتلاش ولكنها تحولت الى عناصرها التى تكونت منها ، وهى الضوء والماء والكربون والأكسجين ، والتى لن تلبث أن تكون الشجرة من جديد ؟

فاذا كان هذا هو الذى يثبته العلم من أن المادة لا تفنى والطاقة لا تفنى بل تتحول لتأخذ صورا متعددة ، بل اذا كان العلم قد انتهى الى أن الطاقة ليست شيئا سوى المادة ، والمادة ليست شيئا سوى الطاقة وأن التبادل بين الاثنتين كان وسيبقى الى ما شاء الله . فعلى أى أساس يريد البعض أن ينحرفوا بهذه القواعد والنواميس ليبطلوها بالنسبة للانسان ، فيقولوا ان صفحته تنتهى بموته وهذه خاتمة المطاف ؟ أغلب الظن أن ما ينكره الماديون على الأديان ليس قولها بقاء الانسان بعد موته فى صورة من الصور وانما هم ينكرون هذه الصور الحسية التى تعزى لهذه الحياة الثانية ولهذه التقسيمات من جنة ونار ، ومرة أخرى نذكر باسقاط الخلاف اللفظى وطريقة التعبير لنبحث عن الفكرة التى يراد التعبير عنها . فالأديان تقول ان الانسان بعد موته يعود من حيث بدأ ، يعود الى سبب وجوده الأصلى ليعيش فى كنفه ، أو ليتحد معه بحيث يصبح فى كلتا الحالتين خالدا لا يعرض له الموت أو الفناء . فأى شىء فى ذلك لا يقول به العلم المادى ، أليس الانسان قد جاء من المادة فاذا مات عاد الى المادة ، أو ليست المادة خالدة ؟ فالفكرة واحدة وان اختلف التعبير .

بقى أننا لا نعرف على أى أساس يجحد العقل فكرة أن تعود الحياة الانسانية بكامل صورتها ، بحواسها وبكل مشاعرها ، وهو ما نراه كل

صباح ومساء فى الدورة النباتية حيث يموت أو تموت الشجرة وتذوى ثم لا تلبث أن تعود سيرتها الأولى . وقد ألحت فكرة دورة الحياة على أذهان كثير من الفلاسفة والعلمـاء حتى الذين ثاروا على الدين ، ومن هؤلاء فردريك نيتشه الذى قال بفكرة العود الأبدى : « كل شىء يغدو وكل شىء يعود ، والى الأبد تدور عجلة الوجود ، كل شىء يبيد وكل شىء يحيا من جديد والى الأبد تسير سنة الوجود [1] »

الثواب والعقاب

ونصل أخيرا الى فكرة الثواب والعقاب التى هى الهدف الرئيسى لأى دين من الأديان . وفكرة الثواب والعقاب تقوم على عدة عناصر ، العنصر الأول أن أعمال الانسان لا يمكن الا أن تنقسم الى خير يعود على شخصه وعلى الآخرين من بنى الانســان ، والى شر يؤذيه ويؤذى غيره من بنى الانسان ، وأن لا قوام للجماعة الا اذا دعت الى الخير وكافأت عليه وحظرت الشر وعاقبت عليه . هذه الفكرة الأساسية فى كل دين ، لا نحسب أى عالم أو مفكر ، مهما يكن جحوده للأديان أو انكاره لها ، يمكن أن يقول بغير ذلك أو يدعو لغير ذلك . وتقوم القوانين التى تسنها كل الأمم والجماعات شاهدا على أن هذا الذى دعت اليه الأديان لم يكن وهما ولا سذاجة ، وانما هو ضرورة اجتماعية عمرانية .

هنا ويقال لنا ان الاعتراض ليس على فكرة العقاب والثواب فى حد ذاتها وانما هو على الصورة التى تقول الأديان أنه سيتم بها ، وهذا تعلق بالأعراض والقشور ، واغفال اللب والجوهر .

---

(١) نيتشة ــ الدكتور عبد الرحمن بدوى ــ ص ٢٣٦

احصاء أعمال الانسان وأقواله :

وأعود الى الدعامة التى استندت اليها المعتقدات الدينية فى أن الانسان مجزى بأعماله الى أبد الآبدين ، وكيف تقوم على فكرة تسجيل أعمال الانسان وأقواله بمجرد صدورها عنه .

لقد وجد فى كل عصر وزمان ومكان من لا يسيغ هذه الفكرة ، فهو يرى بالتجربة أن ما ينطق به يتلاشى بمجرد النطق به ، وما يعمله فى الخفاء دون أن يراه أحد يصبح فى طى النسيان .

ثم جاء العلم الحديث ليبرهن على صحة ما ذهبت اليه الأديان وليثبت بالطريق المادى أن كل ما يلفظ به الانسان فهو مسجل فى كتاب ، وما يقوم به من عمل فهو فى امام مبين ، أو لم يعد بقدرة الانسان اليوم أن يسجل على الأشرطة أصوات البشر فاذا هى خالدة الى أبد الآبدين ، أو لسنا نسمع فى الاذاعة اليوم أصوات من بارحوا هذه الدنيا منذ أمد بعيد ، واذ نستمع الى تسجيلات أصواتهم يخيل الينا أنهم أحياء يرزقون ، فتتصاعد زفراتهم مع القول أو الغناء ، ومع ذلك فهم أموات منذ عشرات السنين . ولو أن واحدا من هؤلاء الذين سجلت أصواتهم قد أخطأ (كما حدث بالنسبة لبعض كبار المطربين) فى نطق كلمة أو اعرابها أو لا تظل هذه الغلطة محصاة عليه ومسجلة كلما دار الشريط ولو بعد ألوف السنين .

ولست أذكر موضوع أجهزة التسجيل الا لأقرب الموضوع الى ذهن القارىء من امكان تخليد الأصوات ، والا فهذا الخلود ليس فى حاجة لأن يسجل فى اسطوانة أو على شريط مغناطيسى ، اذ لا تكاد الكلمة تخرج من فم الانسان حتى تكون قد سجلت على صفحة هذا الكون ، فتظل تدوى وتدوى الى أبد الآبدين ولا سبيل لأن تختلط أى كلمة بأى كلمة أخرى

كما لا تختلط هذه الملايين التى لا حد لها من الكلمات المذاعة بالراديو والتى تحملها أمواج الأثير فى هذا الكون اللانهائى .

وما يقال عن الصوت وتسجيله على صفحة الكون ، يقال بالمثل عن الحركات وصور الأفعال ، فنحن نرى اليوم أشرطة السينما لممثلين غابوا عن الوجود منذ أمد بعيد ومع ذلك يروحون ويجيئون أمامنا كما اعتادوا أن يفعلوا طوال حياتهم يضحكون فنسمع ضحكاتهم ، ويبكون فنئن لشكاتهم ، ويرتكبون الشر فنحنق عليهم ، وليس شريط السينما أو التليفزيون ضروريا لتخليد الصورة والحركة ، فمنذ وجدت الصورة ، أى صورة ، وهى تعكس نفسها على صورة أمواج تنطلق فى هذا الكون ولا ينبغى أن نذهل لذلك أو نعجب فهو العلم الذى يقول لنا هذا القول ، بل ان العلماء ليقولون لنا انه قد يكون من المستطاع فى يوم من الأيام استعادة الحوادث الكونية التى حدثت منذ ألوف السنين . ولو أن أقواما يعيشون الآن على بعض الكواكب التى تبعد عنا بضعة ألوف من السنين الضوئية ولديهم بعض المراقب الكبيرة ، اذن لرأوا فى هذه اللحظات ما كان يجرى على الأرض أيام المسيح وعصر بناة الأهرام .

اللوح المحفوظ .

وما دمنا بصدد تسجيل أعمال الانسان بعد وقوعها ، فمن الحق أن نسجل أن أحد المبادىء التى تقوم عليها الأديان ، هو القول بأن أعمال الانسان لا تسجل بعد وقوعها فحسب ، بل انها كانت مسجلة قبل ذلك ومقررة فى اللوح المحفوظ ، وجرى بها قضاء الله وهى فى مكنون علمه من قبل أن يولد الانسان ، أو توجد الحياة الانسانية من أساسها .

هذه الفكرة أليست هى ما يقول به علماء المادة والطبيعة بصفة عامة ، وهم يتحدثون عن آلية الطبيعة ، وأن كل شىء يجرى فى الطبيعة وفق

النواميس المقررة ، وأن التاريخ الانسانى ، يقع بحتمية لافكاك له منها . أو لا ينفى علماء السلوك عن الانسان الارادة كما سنرى ، بمقولة أن كل مايصدر عن الانسان هو انعكاسات محتومة لمؤثرات خارجية لايستطيع الانسان عنها حولا .

ومعنى ذلك أن العلم المادى ينتهى بنا دائما الى ما قال به البشر منذ أقدم العصور ، فى الوقت الذى يندد فيه بتراث البشر القديم ، واصفا اياه بأنه محض هذيان وأوهام وخرافات .

الله نور السموات والأرض

بقى لكى نختم هذا العرض من الأفكار التى قامت عليها المعتقدات والأديان القديمة أن نشير الى المكانة التى يحتلها النور من هذه التعاليم . فالنور هو أصل الوجود ، واله النور يعلو دائما فوق الآلهة الأخرى .

والعهد القديم يقول « ان النور قد بدأ حيث لم يكن شىء فى هذا الوجود فقال الله : ليكن نور فكان نور » .

ويقول القرآن بلسان عربى مبين « الله نور السموات والأرض » . واليوم يدور العلم الطبعى فى هذه الدائرة ، فاينشتين أبو الطبيعة الجديدة يقول ان ليس فى الكون سرعة تفوق سرعة الضوء فهى نهاية السرعة كلها والجسم الذى ينطلق بسرعة الضوء لا يلبث أن يتلاشى ، وعلماء الطبيعة يحاولون أن يردوا كل الظواهر الكونية الى الضوء ، فهم بعد أن فرغوا من اثبات أن المادة هى الطاقة ، فقد بدأوا يتساءلون هل الطاقة شىء غير الاشعاع ، وهل الاشعاع الا الضوء ... وهكذا لم يكن العقل البشرى يلغو أو يخرف وهو يقول : « وقال الله ليكن نور فكان النور » ، أو ليردد مع القرآن « الله نور السموات والأرض »

كائنات تصور العقل البشرى وجودها

اذا كانت الأفكار السابقة هى الأفكار الرئيسية فى الأديان ، وقد رأينا كيف أنها كلها بدون استثناء تنطوى على ما يعمل العلم التجريبى المادى على اثباته واقامة البراهين عليه . فقد تفرع من هــذه الأفكار الرئيسية ، أفكار أخرى ثانوية ، ومع ذلك فقد احتلت مكانا ملحوظا فى الشعر والأدب والفنون والأديان أيضا ، ومن ذلك تصور العقل البشرى وجود كائنــات أخرى تختلف عن الانسان يعيش بعضها فى السموات العلا ، ويعيش بعضها الآخر على هذا الكوكب الأرضى ، وتنقسم هذه الكائنات التى تشــارك الانسان معيشته على هذه الأرض الى قسمين : كائنات منظورة وأخرى غير منظورة ، ومثال الأولى الغول والمارد وبعض الطيور الضخمة المخيفة كالرخ والعنقاء . ومثال الكائنات غير المنظورة الجن والعفاريت والأرواح الشريرة .

وقد نسبت الى هذه الكائنات غير المنظــورة قوى خارقة ، وطاقات لا حد لها ، كما نسبت اليها بالدرجة الأولى شتى صنوف الأمراض التى تصيب الانسان ولا يعرف لها علة مفهومة أو دواء شافيا .

وقد اعتدنا عندما نطالع هذا الذى يقول به القــدامى ، ويستسيغه الأطفال فى كل زمان ومكان ، أن ترتسم على شفاهنا بسمة الأشفاق مما كان عليه الأقدمون من جهل ، وعقلية لا تتميز عن عقلية الأطفال ونمتلىء شعورا بالغبطة لما أصبحنا عليه من علم ونضج ، وارتفاع عن مســـتوى الخرافات .

فهل صحيح أن هذه الكائنات التى قال الانسان القــديم بوجودها لا وجود لها ، أو لم يكن لها وجود فى يوم من الأيام ، أو يمكن أن يكون لها وجود فى مقبل الزمان ؟

حقيقة الغيلان والمردة والطيور الخرافية

يقول علماء الحفريات ، وتقوم بعض الهياكل التى عثر عليها فى طبقات الأرض كشاهد على صحة ما يقولون ، ان الأرض قد حكمت منذ عهد سحيق (يقدرونه بمائة وخمسين مليونا من السنين) بكائنات حية متناهية فى الضخامة وقد أخذت عدة أشكال مابين أسماك فى البحر وزحافات وحيوانات وطيور ، حتى ليذهب البعض فى تعليل انقراض هذه الكائنات الى القول بأن افراطها فى الضخامة كان أحد أسباب ضعفها ، بحيث استطاعت كائنات أخرى أقل منها ضخامة وهى « الماموث » أن تتفوق عليها وأن تخلفها فى سيادة الأرض ، ويقول علماء الأحياء ان الانسان هو واحد من هذه الفصيلة الأخيرة فصيلة الماموث .

والذى يعنينا الآن أن العلم الحديث قد أصبح يقرر أنه قد عاش على هذا الكوكب الأرضى كائنات مخيفة أطلق عليها اسم الديناصورات (الملك المرعب) وقد عثر على بقايا بعض هذه الديناصورات فكان ارتفاعها يبلغ عشرين قدما وطولها ٤٥ قدما ، كما قيل بوجود كائن آخر يسمى البروتنوسور يبلغ طوله مائة قدم أى أكثر من ثلاثين مترا ويبلغ وزنه خمسين طنا ، كما قالوا بوجود طيور عملاقة يبلغ طول جناحيها ٥٥ قدما ، ومن حسن الحظ أن الطبيعة قد حفظت لنا حتى الآن بقية حية من بقايا هذه الكائنات المفرطة فى الضخامة ، حتى لا يكون لدى انسان شك فى وجودها فى عصر مضى، وتتمثل هذه البقية فى حيوان الحوت والذى قد يتجاوز المائة قدم طولا .

فتصور القدامى وتصور الطفل فى كل زمان ومكان ، وجود كائنات جبارة من المردة والغيلان والرخ والعنقاء ، وتصوره مع ذلك غلبة الانسان عليها بالرغم من خطورتها وضخامتها ، ليس وهما لا وجود له ، بل هو استعادة لذكريات طبعت فى العقل البشرى منذ عشرات الملايين من السنين.

وعلم الحياة والوراثة يؤكدان أن أصغر خلية حية تحمل فى ثنـــاياها كل مراحل تطور الحياة الماضية منذ ملايين الملايين من السنين ، ويكون العقل بالتالى الذى هو على حد قولهم جزء من هذه المادة لا يمكن الا أن يكون قد وعى كذلك ما مر به من تجارب عبر السنين الخـــوالى ، لا تجاربه الذاتية فقط بل تجارب أسلافه وأسلاف أسلافه .

الجن والعفاريت والأرواح الشريرة

وأطلق العقل البشرى على مجموعة من الظواهر التى تخرج عن حدود نطاق قدرته العادية أنها لا بد أن تكون من صنع موجـــودات من الجن والعفاريت ، وعزا للجن والعفاريت القدرة على التشكل فى صورة ريح عاصف ، أو برق خاطف ، أو حيوان ماكر ، وعزا اليها فى الدرجة الأولى أسباب مايصيبه من أمراض ، وانتهى فى قصصه وأدبه ومعتقداته بتفوق الانسان حتى على الجن والعفاريت ، واستطاعته أن يقيدها وأن يسخرها وأن يخضعها لسلطانه ، ويستغلها لتحقيق أغراضه . وليس ذلك كله الا نوعا مما أشرنا اليه من قبل من عدم استطاعة الانسان التعبير عن شىء من الأشياء الا فى صورة حية ، فالحديث عن العفاريت والجن والأرواح الشريرة ليس فى حقيقته الا تعبيرا عن قوى الطبيعة التى نسخرها اليـــوم لأغراضنا فى صورة الكهرباء والأمواج الكهرومغناطيسية وشتى نواميس الطبيعـــة الأخرى ، والتعبير بكلمة العفريت أو الجن لا يعدو أن يكون استخداما لفظيا ونوعا من الرمز لظاهرة موجودة لا لشىء غير موجود .

ويظهر لنا ذلك بوضوح من دور هذه الجن والعفـــاريت والأرواح الشريرة فى أمراض الانسان ، فنحن اليوم نقرر أن المرض حقا وصدقا ، هو من صنع كائنات شريرة متناهية فى الصغر أطلقنا عليها اسم الميكروب، وتغزو هذه الميكروبات الجسم فى شتى الصور والأشكال فقد تأتينا مع

الهواء والريح ، وقد تنفذ الينا عن طريق بعوضة تلدغنا ، أو كلب يعضنا أو فأر يلغ فى طعامنا ، وكل ذلك تصوره العقل البشرى فيما يفعله الجن والعفاريت لايذائنا . واذا كانت المجاهر قد أصبحت ترى الميكروبات ، فانها لا تزال فيما هو أدق حجما من الميكروب وهو الفيروس ترجم بالغيب، بل انها لتتصور وجود كائنات دون الفيروس لم تكشف عنها بعد تحدث بدورها بعض الأمراض ...

وهكذا ترانا نتحدث اليوم عن الميكروب والفيروس غير المنظورين بالعين المجردة كأسباب للمرض ، كما كان الأقدمون يتحدثون عن الجن والعفاريت .. ونحن نتصور اليوم أننا نتفوق عليهم باستطاعتنا السيطرة الفعلية على الميكروب ، وهم لم يكونوا يقلون ايمانا عنا فى استطاعة الانسان السيطرة على الجن والعفاريت ..

والمهم فى ذلك أن العقل البشرى لم يكن يخترع شيئا لا وجود له أولا حقيقة له فى الكون كما يتصور البعض ، وانما كان يتحدث عن شىء موجود وكائن بالفعل . فنحن نتفق على تصوير الظاهرة وان كنا نختلف فى الأسماء التى نطلقها على علة الظاهرة ، وعلى مدى النجاح فى صدق التفسير الذى نفسرها به ، واقترابه من الحقيقة فى تصورنا .

ولعله من الطريف ومما يؤكد هذا التطابق العجيب بين الانسان فى كل زمان ومكان ، هو أن البعض منا يتحدث فى اشفاق عن هذا الانسان القديم الذى كان يعيش فى رعب وفزع دائمين من هذه العفاريت والأرواح الشريرة ، ناسيا أن أبناء العصر الحديث يعيشون فى فزع دائم مستمر من انتشار الأوبئة والميكروبات التى تجىء مع الهواء ، ويبلغ الوسواس بالبعض حتى لا يكادون يصافحون أحدا أو يمسكون شيئا الا من وراء قفاز ، ولا يأكلون شيئا الا بعد أن يطهر ... أما زيارة مريض فهذه قد

تساوى عندهم نهايتهم المحتومة ، وينتهى الحال بالبعض الى فقدان العقل جملة خوفا من هذه الميكروبات والفيروسات التى تتربص الدوائربالانسان. ونحن نشهد اليوم الفزع الذى يستولى على شعوب أوربا وأمريكا من الاشعاعات الذرية ، فالخوف واحد وهو اليوم كما كان بالأمس ، وان اختلفت أسماء موضوع الخوف .

سكان السماء

واذا كان الانسان قد جعل الأرض مثوى الجن والعفاريت والأرواح الشريرة ، وأبى الا أن يتخيلها مساكنة اياه ومشاركة له فى داره [1] ، فانه قد تخيل وجود كائنات أخرى لا تضمر له سوى الخير ولا عمل لها الا السهر عليه والعمل على اسعاده ، وقد ارتفع الانسان بهذه الكائنات الى السماء فجعلها مثوى الأجداد والأسلاف الذين يحفظونه ويرعونه ، ومثوى القديسين والشهداء والصالحين ، ومثوى الآلهة والملائكة ، والأرواح الخيرة .. وتصور هذه الكائنات دائما على صورة مضيئة مشرقة يحف بها النور أو بالأحرى هى النور والاشعاع والبهاء .

وعلى ذلك فلم يكن الانسان يتطلع الى الأرض قدر تطلعه الى السماء، ففى الأرض الجن والعفاريت والشياطين التى تروعه وتتربص به الدوائر لتفتك به ، أما فى السماء فالراحة والدعة والخير والأمل ، لقد كانت أسعد ساعات الانسان عندما يستلقى على ظهره تحت أشعة القمر يرقب السماء بنجومها وكواكبها وبهائها الذى لا ينتهى .

---

(١) قارن ذلك بما يتردد الآن من عدم وجود الميكروبات فى الفضاء الخارجى ، وارتفاع الصيحة بتحذير الانسان من نقل الميكروبات الىالقمر داخل الصاروخ ، واعلان روسيا أنها عقمت بالفعل صاروخها الذى ارتطم بالقمر ، تدرك مدى التطابق العجيب بين نظريات الانسان القديمة عن مساكنة الجن والعفاريت فى هذه الأرض وعدم وجودها فى السماء .

ومن هنا كان علم الفلك هو أسبق العلوم ظهورا فى عقل الانسان على الاطلاق ، ذلك أن الطفل لا تكاد تنجاب الحجب عن بصره ، حتى يميز بين الظلام والنور فيدرك أول ما يدرك تعاقب الليل والنهار ويقرن الشمس بالضوء والظلام بغيابها ، ويدرك أن القمر يضيء الكون فى بعض الأوقات ويختفى عنه فى أيام أخرى . لقد فرضت الشمس والكواكب نفسها على الانسان قبل أى شيء آخر فى هذا الوجود ، ومن هنا كان علم الفلك أو ان شئت علم التنجيم هو أعرق العلوم وأقدسها لدى الانسان لأنه يربطه بالملأ الأعلى ويعده بالتحرر من ويلات الأرض وقيودها .

لم يكن البشر يزاولون عملا من الأعمال ، الا اذا استشاروا علماء الفلك والتنجيم ، وكان الكبراء والصغار على السواء يربطون مصائرهم بمصائر الأفلاك والبروج .

كانت أعظم وظائف قصر أى ملك من الملوك أو أمير من الأمراء هى وظيفة عالم الفلك أو المنجم الذى يستشار فى كل ما حزب من الأمر ، فيسأل عن أحسن الساعات للسفر وعن أحسن الساعات لتأسيس مدفن أو بناء دار ، ويسأل عن أحسن الساعات لاعلان الحرب وضمان النصر .

وكان من آثار القول بأن الأرض هى التى تدور حول الشمس وأنها ليست مركز الكون ، وبالتالى فليس الأنسان الا ذرة هائمة فى هذا الكون، أن اعتبر كل هذا الذى عاش فيه الانسان من تطلعه الدائم الى السماءوربط مصيره بما يحدث فى الكواكب والفضاء الخارجى ، هو من أوهام العقل البشرى وترهاته فى طفولته ... وأصبحت الصيحة التى تمثل الحضارة والمدنية الحديثة هى الاقلاع عن التحليق فى السماء والاخلاد الى الأرض، وقامت الأناشيد والأغانى لأمنا الأرض ، منها نشأنا وعليها درجنا واليها

نعود ، وأصبح كل حديث عن السماء وعن كائنات السماء ، عن الملائكة أو أرواح القديسين والشهداء ، بما فى ذلك الحديث عن رب السماء هو محض هذيان وصرف للناس عن حقائق الحياة ، وهو حديث العجائز والشعوب المنحلة والعقول المتخلفة .

ومع ذلك فنحن نعلم اليوم بأقوى ما علم الانسان فى أى يوم من الأيام بارتباط ما يجرى على الأرض بما يجرى أو يقع فى النجوم والكواكب . . . فظاهرة المد والجزر هى من صنع القمر ، بل ان ثمة علاقة بين دورة الحيض عند النساء ودورة القمر ، ويكفى أن يقع بعض الكلف على سطح الشمس لكى تضطرب المواصلات اللاسلكية . والحياة كلها وقف على أشعة الشمس الكونية التى تؤثر على حياتنا بشتى أنواع المؤثرات . واذا كانت هذه حقائق يعنى بها العلماء فان حياة الأفراد العاديين فى المجتمعات الراقية فى أوربا وأمريكا ، قد أصبحت معلقة بالأرصاد الجوية . وعادت صورة الأمس كأعنف ما كانت فى أى يوم من الأيام ، فمصلحة الأرصاد فى كل دولة تصبح الناس وتمسيهم بما سيكون عليه الجو فى يومهم ، فيرتدى بعضهم المعاطف أو يخلعونها طبقا لهذه التنبؤات ، ويقرر بعضهم الخروج الى المتنزهات أو الاخلاد الى البيت بناء على هذه التنبؤات ، وتخرج الطائرات من حظائرها لتبدأ عملها فى نقل المسافرين الى أطراف الأرض أو تظل رابضة على الأرض لسوء الأحوال الجوية .. ؟

وهل يخرج الصيادون الى عرض البحار للسعى وراء رزقهم أم يقبعون على الشاطىء خوف العواصف التى يمكن أن تثور ؟ ... ويتم استشارة الأرصاد فى أيام الحرب مثل مافى أيام السلم فلامكان القيام بغارة جوية لا بد من جو معين وساعة معينة تحددها مصلحة الأرصاد ، وللهجوم على غرب أوربا لابد من ستار معين من الضباب لايتحقق الا فى

يوم معين وساعة من نهار تحددها سلفا مصلحة الأرصاد . وكل ذلك ليس الا عودا لسلطان الفلكى القديم الذى كان يرصد النجوم والأفلاك ويعطى الاذن بعمل هذا أو ذاك . فنحن اليوم نرصد الجو والسماء كما كان يفعل الأقدمون ، وان اختلفت الآلات ، ونحن اليوم نحاول التنبؤ كما كانوا يحاولون التنبؤ بغض النظر عن توفيقنا وسداد تنبؤاتنا وأنها أصبحت كما تصور ، تستند الى أساس علمى ، فالمهم فى عقد هذه المقارنة أن العقل البشرى عندما كان يربط بين ما يجرى فى الأرض وما حدث أو يحدث فى الفضاء الخارجى والشمس والقمر وبقية الكواكب والنجوم ، لم يكن فى ذلك غارقا فى الوهم أو يتصور شيئا لا حقيقة له ، وانما كان يعكس الأمر الواقع الذى نعمل اليوم على اثباته بالتجربة والبرهان .

وعدنا الى التفكير فى سكان السماء

ومنذ شرع الانسان يسعى للانطلاق من دائرة الجاذبية الأرضية والتحليق فى الفضاء الخارجى ، أصبحت أعناقنا جميعا مشدودة من جديد الى السماء بأقوى ما شدت اليها فى يوم من الأيام ، والنبأ الذى تنتظره البشرية كلها بفارغ الصبر ، هو اعلان نجاح وصول أول انسان الى القمر . وحتى ينطلق الانسان الى القمر والى الزهرة والمريخ ، ومع اقتراب هذه الأهداف بدأ اللغط يرتفع عن وجود سكان فى المريخ أو فى الزهرة ، وأن هؤلاء السكان ان وجدوا فلا بد أن يكونوا على صورة تختلف وصورة الانسان ، لاختلاف الظروف التى انتهى اليها التطور فى كل كوكب من الكواكب . بل بدأ الحديث عن اختلاف قدرة الانسان نفسه وهو على هذه الكواكب ، فقوة الانسان على العدو والقفز ورفع الأثقال تزيد أضعافا مضاعفة عن قدرته على ذلك كله على الأرض وذلك لضعف جاذبية القمر بالنسبة لجاذبية الأرض .

بل ان ما يقال الآن على أنه حقائق علمية مما سيكون عليه انسان الفضاء ، وما أشرنا اليه فى الفصل الأول ، يصور قدرة الانسان على أن يعيش آلاف السنين الأرضية وهو يتصور أنه لم يمض عليه سوى بضعة أعوام . وتقول هذه الحقائق العلمية ، أن الانسان اذا كان فى الفضاء بعيدا عن جاذبية الأرض وقبل أن يدخل فى جاذبية القمر أو أى كوكب آخر ، فلا يمكن الا أن يهيم فى الفضاء لا يقع أو يسقط هنا أو هناك ، وانما يتحرك فى الفضاء اللانهائى حيث يشاء ، تكفى حركة بسيطة من يده أو قدمه أو رأسه لتدفعه فى هذا الاتجاه أو ذاك .

واذن فلم يكن العقل البشرى وهو يتمثل حياة فى السماء تغاير الحياة على الأرض ، وهو يتخيل للانسان قدرات فى السماء تختلف عن قدراته على الأرض ، لم يكن العقل البشرى وهو ينشىء فى مصر القديمة مراكب الشمس ليصل بها الى الشمس ويطوف حولها ، لم يكن ذلك مظهر فجاجته أو طفولته بمعنى عدم نضجه ، وانما كان يشير لهذا الذى سوف يكون بعد بضعة آلاف من الأعوام ، عندما أرسل الانسان صواريخه الأولى التى تطوف الآن حول الشمس وليس ذلك سوى البداية . لم يكن المؤمنون اذ يصدقون امكان صعود الانسان الى السماء والعودة منها ، كما هو الشأن عند المسلمين فى قصة الاسراء والمعراج ، بالذين يتصورون مستحيلا ووهما من الأوهام ، وانما كان ذلك مظهر النضج الذى لا يضع حدا على قدرة الانسان .

فكرة الطيران

وهكذا لم تدر فى عقل الانسان فكرة من الأفكار ، الا وكان يعنى ذلك امكان تحققها بالفعل ، وكان مجرد قيام الفكرة فى عقل الانسان ، هو دليل امكانها والا لما كان هناك سبيل لوجودها فى العقل .

واليك مثلا فكرة طيران الانسان التى ألحت على العقل البشرى منذ أقدم العصور ، حيث يأخذنا العجب لتعدد الطرق التى فكر فيها العقل البشرى لامكان الطيران ، ومدى مقابلة هذه الطرق المختلفة لشتى الطرق التى يتم الطيران بها فى الوقت الحاضر .

فقد تصور الانسان أن يستخدم طيور السماء فى معاونته على الطيران بمعنى أن يسرجها ويلجمها كما يفعل بسائر الحيوانات ، وتضمن الأدب القديم هذه الفكرة فى قصة السندباد البحرى عندما ربط نفسه فى ساق طائر الرخ الضخم فنقله من الجزيرة المهجورة الى العمران .

على أن فكرة الطيران بالجام الطير والسيطرة عليه لم تصور بأجمل مما صورت به فى بعض وقائع التاريخ ، مما رواه لنا الطبرى فى تاريخ الأمم والملوك ، اذ يقول لنا :

« ان النمرود بن كنعان وهو من حاج ابراهيم فى ربه ، أراد أن يتحدى الله ففكر فى التحليق الى السماء فأخذ « أربعة من أفراخ النسور ورباهن باللحم والخمر حتى اذا كبرن وغلظن واستعلجن ، قرنهن بتابوت وقعد فى هذا التابوت ، ثم رفع لهن اللحم فطرن به حتى اذا ذهب الى السماء أشرف ينظر الى الأرض فرأى الجبال تدب دبيب النمل ، ثم رفع لهن اللحم ثم نظر فرأى الأرض يحيط بها بحر كأنها فلكة (سفينة) فى الماء ، ثم رفع طويلا فوقع فى ظلمة فلم ير ما فوقه وما تحته ، ففزع فألقى اللحم فاتبعته النسور منقضات وعادت به الى الأرض » [1]

والعجيب فى هذه القصة بقطع النظر عن حدوثها بالفعل أو عدم حدوثها هو هذا الوصف للابتعاد عن الأرض وكيف تتعاقب صورها المختلفة ، وانطباق ذلك على ما يقول به الطيارون الذين وصلوا فى طائراتهم الى

(١) تاريخ الامم والملوك ، الطبرى ـ الجزء الأول ـ ص ٢٠٣

حافة الفضاء ... بما فى ذلك الظلمة التى يدخلون فيها بمجرد الابتعاد عن الغلاف الجوى الذى يعكس أشعة الشمس .

وفكر الانسان فى صورة أخرى للطيران وهو أن يصطنع له أجنحة كأجنحة الطير ورداء كاملا من الريش . كما تصور الانسان الطيران مستخدما حصانا سحريا مصنوعا من النحاس ، اذا حرك الانسان لولبا فى مقدمته ، طار به فى الفضاء ونقله من مكان الى مكان . وتصور نقل العدد الكبير عن طريق البساط السحرى . وتصور الانسان امتطاء الجن بطريق مباشر لينقلوه من مكان الى مكان .

واذا كانت بعض هذه الأنواع من الطيران قد اختلط بها السحر ، فقد احتفظ الانسان بنوع آخر من الانتقال بالروح والجسد فى طرفة عين من مكان الى مكان ، لأولياء الله الصالحين مستخدمين فى ذلك سر الاسم الأعظم .

واليوم نرى الطيران والانتقال فى الجو يتحقق بعديد من الصور والأشكال تكاد تقابل هذه الصور والأشكال القديمة .

فهناك التحليق فى الفضاء عن طريق المنطاد (البالون) الأخف من الهواء ، والذى يحمل صندوقا معلقا يجلس فيه فرد من الناس ، فاذا شاء الارتفاع قذف من الصندوق بعض الأثقال ، واذا شاء الهبوط أطلق من داخل البالون بعض الغازات . وكأن قصة الطبرى التى أشرنا اليها ترمز الى هذا النوع من الطيران .

وهناك الطيران الشراعى ، الذى يطير الانسان فيه بغير آلات مستخدما أجنحة أشبه بأجنحة الطير ، ومستغلا التيارات الهوائية لنقله من مكان الى مكان ، ومساعدته على البقاء أكثر مدة ممكنة فى الجو .

وهناك الطائرات الصغيرة ذات المحرك الواحد والمصنوعة من المعدن، لا يكاد الانسان يدير لولبا فيها حتى ينطلق ، أشبه الأشياء بهذا الحصان النحاسي الذى تخيله الانسان .

وهناك الطائرات الجبارة النفاثة التى تطير الآن حاملة مئات البشر وهى تنفث من مؤخرتها النار كأنها جحيم منطلق وتملأ الجو أزيزا يصم الآذان ، أشبه الأشياء بالجن والعفاريت كما تصورها الانسان وهى تحمل بساط الريح . وأخيرا سيجىء دور الصواريخ التى تنقل الانسان من الشرق الى الغرب فى بضع ثوان أشبه الأشياء بانتقال عباد الله الصالحين فى طرفة العين.

فكرة جميع المخترعات الحديثة

وباستطاعتنا أن تتبع كل المخترعات الحديثة لنجد فكرتها تتردد فى كل المعتقدات والآداب القديمة ابتداء من رؤية الانسان ما يجرى على بعد ألوف الأميال واسماعه صوته لشخص آخر على بعد ألوف الأميال كذلك [1] ، حتى غواصة جول فيرن ، والصاروخ الصاعد الى القمر ، وجهاز التليفزيون الذى لا يخرج عن فكرة المرآة السحرية ؛ أو البللورة السحرية التى تغص بها القصص القديمة ، وكان الانسان يرى فيها ما يقع فى أى ركن من أركان العالم بمجرد التحديق فيها .

بل ان ما تصورناه دائما لونا من ألوان التخريف والهذيان من أن حكة صغيرة على ما أسموه خاتم سليمان ، أو حكة على مصباح علاء الدين من

---

(١) يسجل لنا التاريخ كواقعة مؤكدة لدى المسلمين فى صدر الأسلام . كيف أن عمر بن الخطاب ، قد رأى جيوشه التى تحارب فى فارس ، وحذر قائدها « سارية » من كمين يدبر له ، وقد سمع سارية صوت عمر وانتبه للخطر بالفعل ، وكان النصر حليف المسلمين . وقد كانت ألوف الاميال تفصل بين عمر فى المدينة وسارية فى فارس ـ (الطبرى ـ الجزء الثالث ـ ص ٢٥٤)

شأنها احضـــار القوى المنوطة بخدمة الخاتم أو المصباح لتنفذ مشيئة الانسـان ، فان شاء دك مدينة بأسرها ، وان شاء أزال الجبال من أماكنها ، وان شاء طار حامل الخاتم أو المصباح من مشرق الدنيا لمغربهـا ، فليس ذلك كله الا ما أصبحنا نعيش فيه مما نسميه دنيا الأزرار بضغطة بسيطة يفتح لنا الراديو أو التليفزيون ليسمعنا أو يرينا ما يدور فى أنحاء العالمين ، وضغطة بسيطة تطلق صواريخ جبارة لتنسف مدنا عامرة ، بل وشعوبا بأسرها ، وسوف تصعد بنا غدا ضغطة بسيطة الى القمـــر أو المريخ أو الزهرة أو ما شئت من عوالم .

ومعنى ذلك أن العقل البشرى وهو يصوغ هذه الصور ويتخيلهـا ، كان يبدأ عملية خلق هذه الأشياء بالفعل .

الحقائق العلمية

ولنصل الآن الى خاتمة المطاف فى هذا الاستعراض بالاشـــارة الى ما نعتبره اليوم حقائق علمية وكونية توصلنا اليها نتيجة البحث والتجربة، وما أصبح يتوافر لدينا من آلات تمكننا من رؤية البعيد والصغير ، وسنجد أن كل هذه الحقائق ، قد أدركها الأقدمون بحدسهم أو ان شئت فبخيالهم، والمهم أنهم أدركوها ، ولو ذكرت كل حقائقنا اليوم للقدامى لما دهشوا منها بحال .

فقد قال انكسوجاريس ان الشمس ليست سوى كرة مشتعلة من النار وقال فيثاغورس (٥٧٢—٤١٧ق.م) ان الشمس لا الأرض هىمركزالكون، وقال ارسترخس (٣١٠ — ٢٣٠ ق.م) ان للأرض حركتين حـركة تدور فيها حول نفسها ، وحركة تدور فيها حول الشمس [١]

---

(١) اساطين العلم ص ٥

وقال ديمقريطس ان الكون يتألف من ذرات متماثلة فى النوع وان اختلفت فى أوزانها ، وان هذه الذرات ليست سوى دوامات وفراغ ومنها تكونت الكواكب والنجوم والأشياء جميعها ، بما فى ذلك النفس البشرية ، وهذا هو آخر ما يقول به علم الطبيعة .

وقال الهنود فى بعض كتب حكمتهم ان عمر الأرض يبلغ ١ر٩٧٢ر٩٤٩ر٠٤٨ [١] ويقدر علم طبقات الأرض الحديث عمر الأرض بعد الحسابات المختلفة سواء عن طريق قياس ملوحة البحار ، أو عن طريق العناصر المشعة ، بـ ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ والفارق بين الرقمين جد طفيف كما ترى ، ولعله أكثر دقة بحساب الهنود .

واذا كان خريستوف كولمبس لم يكتشف أمريكا الا عام ١٤٩٢ م فقد قال بوجودها استرابون عام ٧ ق٠م فى كتابه العظيم « الجغرافيا » والذى قال فيه « ان قارات بأكملها لا تزال مجهولة وربما كانت هذه القارات فى المحيط الأطلسى ، ولما كانت الأرض شبه كروية فان الانسان اذا سافر من أسبانيا متجها نحو الغرب فانه يصل بعد وقت ما الى الهند » [٢] .

ونحن نسمى الأمريكتين بالعالم الجديد ، فهل هو جديد حقا الا بالنسبة للأوربيين ؟ ألم يكن فى الأمريكتين وبصفة خاصة امريكا الجنوبية، حضارة من أزهى الحضارات ؟

والحق ان الانسان ليذهل وهو يطالع كتب الأقدمين ، كيف أن نظريات ضخمة تنسب الى علماء عصريين ليست فى حقيقتها ، الا ترديدا لما قاله بعض علماء الأغريق أو الهنود أو المصريين القدماء من قبل .

---

(١) مع الله فى السماء للدكتور احمد زكى ص ١٤٢
(٢) قصة الحضارة جزء ٣ مجلد ٣ ــ ص ١٤٣

ومحال أن نمضى فى استعراض كل ما دار فى ذهن البشر قديما واعتبر فى وقت من الأوقات خرافة ، ثم أثبتت الأيام صحته ، ومع ذلك فلا نجد مناصا من الاشارة الى هذا الموضوع المشهور الذي طالما أخذه الكثيرون على كيمائيى العرب باعتباره لونا من ألوان الجهل والتخبط ، ونعنى به محاولتهم تحويل الزئبق الى ذهب ، فهو مثل صارخ لصحة ما نقول من أنه محال أن يدور فى ذهن البشر شىء لا يمت الى الحقيقة بصلة .

حجر الفـــــلاسفة

فقد ذهب كيمائيو العرب وعلى رأسهم جابر بن حيــان ، الى امكان تحويل الزئبق الى ذهب ، وقد تابعهم على هــذا التصور كل المشتغلين بالكيمياء من الأوربيين فى العصور الوسطى . وقد أطلق على المادة التى سعى هؤلاء الكيمائيون للحصول عليها ، حجر الفلاسفة أو الأكسير .

وقام علماء القرن التاسع عشر يسفهون هذه الجهود ويعتبرونها ضربا من ضروب الأوهام والفساد التى تردى فيها علماء العــرب . فالعناصر فى هذا الكون مستقل بعضها عن بعض ويستحيل أن يتحول عنصر الى عنصر آخر ، لاختلاف طبيعة ذرة كل عنصر عن ذرة العنصر الآخر . وكان معنى ذلك أن هذه الفكرة التى ألحت على عقول علماء العرب بضعة قرون لم يكن لها أصل من الواقع وكانت لونا من ألوان التخــريف ... ولكن علم الطبيعة الحديثة ، قد عاد ليرد للعقل البشرى كرامته وأنه لا يمكن أبدا أن يتعلق بوهم أو بحقيقة لا وجود لها ، فانشطار الذرة قد جعل من المستطاع تحويل أى عنصر الى عنصر آخر ، بل لقد أمكن تحويل الزئبق بالفعل الى ذهب وتوجد الآن بالمتحف العلمى بشيكاغو عينة من أول ذهب صناعى أمكن الحصول عليه كشاهد على أن ما دار فى ذهن علماء العصور الوسطى

بصفة عامة لم يكن محض هذيان [1] ... واذا كان العلم اليوم فى حاجة الى زئبق نقى بأكثر من حاجته الى ذهب فان ما يحدث اليوم هو تحويل الذهب الى زئبق بأكثر من تحويل الزئبق الى ذهب [1] .

كشوف القرن التاسع عشر العلمية

وقد سجل لنا القرن التاسع عشر عددا من أخطر الكشوف العلمية التى تقوم عليها حضارة القرن العشرين ، دارت كلها فى عقل بعض العلماء فوصفت بالخيال والتخبط فى بادىء الأمر ثم أصبحت حقيقة واقعة تشهد بأنه لا يدور فى ذهن الانسان شىء لا يمت الى الحقيقة بصلة .

اكتشاف السيار نبتون

كان أول هذه الاكتشافات التى هزت الدنيا فى وقتها ما قال به عالم فلكى يدعى (بسل Bessel) من ضرورة وجود سيار غير معروف بعد أورانوس لا يرى بالعين المجردة يؤثر فى أورانوس بالجاذبية مما ينشأ عنه الاختلاف الذى لوحظ على مسار أورانوس . وقد اتخذ كل من الفلكى الفرنسى لفرييه Leverrier والفلكى الانجليزى آدمز Adams هذا الرأى أساسا لحساب موقع السيار المزعوم ، فحددا من خلال معادلات رياضية معقدة وعمليات حسابية مضنية ، ما يجب أن يكون عليه جرم هذا السيار ومساره وموقعه بالضبط فى وقت معلوم ، واشرأبت المراقب

(١) استخدام الطاقة الذرية بروفسور أتوهان .

ومما هو جدير بالملاحظة أن كتاب العرب المحدثين ، اذا خاضوا فى هذا الموضوع راح بعضهم يعتذر عما يتصوره وصمة فى جبين علماء العرب ،فيشيرون الى أن ابن سينا تدارك ما فى فكرة تحويل الزئبق الى ذهب من بطلان وفساد.

كما استمر بعض المؤلفين فى وصف محاولات العرب بالفساد والبطلان ، والتحدث عن استحالة تحويل العناصر كما فى (قصة العناصر)

الضخمة فى الوقت المحدد نحو هذا السيار الجديد فاذا بها فى عام ١٨٤٠ ، تجده هناك ، تماما كما دار فى ذهن بسل ، وكما حقق آدمز [1] ولفرييه . وهكذا سبق العقل بفروضه وحساباته ، ما اهتدت اليه الآلات الجبارة .

الامواج الكهرومغناطيسية

واذا كان اكتشاف السيار نبتون لم يؤثر فى حياة البشر ، فان عقل رجل آخر قد اكتشف ما يؤثر اليوم فى حياة كل انسان منا أعمق الأثر ، وليس ذلك الرجل الا مكسويل (١٨٣١—١٨٧٩) وليس الكشف الا الأمواج الكهرومغناطيسية ، ولم يكن مكان الكشف أحد المعامل بل داخل عقل الانسان .

لقد تصور مكسويل أن كل موجة كهربائية لا بد أن تحدث موجة مغناطيسية ، وكل موجة مغناطيسية لا يمكن الا أن تحدث موجة كهربائية، لأن الواحدة مستحيلة بدون الأخرى ، ويكون معنى ذلك هو انطلاق هذه الأمواج لانتشارها بسرعة الضوء الى مالا نهاية ، ولم يكن ذلك الا مجرد فرض وتصور قام فى ذهن كلارك مكسويل فسجله فى كتاب له عام ١٨٧٣ عن الكهرباء والمغناطيسية [2] . ومات مكسويل دون أن يكون قد توصل الى هذا الفرض نتيجة أبحاث وتجارب علمية ، وقبل أن تكون لديه أى وسيلة أو فكرة عن امكان التحقق من هذا الفرض .

وجاء العالم هرتز بعد ثلاثة عشر عاما من نشر كتاب مكسويل وبعد وفاته بعدة سنوات ليكون هو الرجل الذى اكتشف الأداة التى يمكن بواسطتها التحقق من وجود هذه الأمواج الكهرومغناطيسية التى قال بها

---

(١) الفلك العام ـ ص ٣٦١
(٢) اساطين العلم الحديث ـ ص ١٠٣

مكسويل ، ثم تتابعت الأبحاث والتجارب واذا بالأمواج حقيقة موجودة واذا بسرعتها كما تخيل مكسويل أن تكون ، وهى سرعة الضوء .

وهكذا تتأكد القاعدة من أن الوجود فى الذهن هو دليل الوجود فى الواقع .

ثلاثة عناصر

وفى روسيا قام عالم يدعى مندليف عام ١٨٦٩ يحدث العالم عن ثلاثة عناصر لم تكتشف بعد فى الطبيعة ولم تقع عليها عينا انسان ، ودعا البشر الى اكتشاف هذه العناصر محددا لهم صفاتها وأوزانها الذرية وخصائصها [١] . وقد سبق مندليف علماء آخرون تنبأوا بوجود بعض العناصر على الأرض مما لم يكشف عنه بعد كالهليوم .. ولكن هذا التنبؤ جاء نتيجة أبحاث فى المعمل واكتشاف آثار مادية تدل على وجود الهليوم على الأرض .. ولكن تنبؤات مندليف لم تكن نتيجة تجارب قام بها أو معادلات رياضية وحسابات تحتم وجودها ، وانما قال ما قال وكأنه نبى يوحى اليه .. وان هى الا سنوات هزأ فيها الهازئون بهذا العالم الروسى المخرف ، حتى أعلن بعض العلماء أنهم كشفوا عن عنصر جديد ينطبق على ما قال به مندليف من أوصاف ... وان هى الا سنوات أخرى حتى كشف عن العنصر الثانى ثم الثالث ، واستطارت شهرته فى دنيا العلم وطبقت الآفاق ، وبفضل أحد هذه العناصر الثلاثة وهو (الجرمانيوم) أصبح عمل (الترانزستور) ممكنا اذا استبدلت صمامات الراديو الكبيرة بحبة صغيرة من عنصر الجرمانيوم .

---

(١) بواتق وانابيق ـ وأساطين العلم ـ ص ١٤٥

وأخيرا وليس آخرا نصل الى معجزة العقل البشرى فى جيلنا الحديث ونعنى به القانون الذى كشف به أينشتين عن العلاقة بين المادة والطاقة (ط = ك × ص٢) ومعناه أن الطاقة تساوى كتلة المادة مضروبة فى مربع سرعة الضوء مقدرة بالسنتيمترات . ولم يكن توصل أينشتين الى هذا القانون ثمرة تجربة ومباحث أجريت فى المعامل ، فقد كان يتحدث عن شيء اعتبر عند علماء العصر تخريفا ، حتى لقد أذاع لفيف منهم بيانا رسميا قالوا فيه « ان الموقعين على هذه الرسالة يعتبرون أن اذاعة نظرية معرضة أشد التعرض للنقد ، أمر لا يتفق مع كرامة العلم الألمانى وانه لمن الهون استخدام جمعية العلماء والأطباء الألمان لتعزيز هذه المحاولة [1] » ومعذلك فقد كان هذا القانون الذى دار فى ذهن أينشتين عام ١٩٠٥ كنتيجة طبيعية لنظريته فى النسبية ، كان هذا الحساب فى تحول المادة الى طاقة هو الأساس الذى قامت عليه القنبلة الذرية بعد أربعين سنة ، وشهدت خرائب هيروشيما وأطلالها ، أن ما دار فى ذهن أينشتين عام ١٩٠٥ من أن تحطيم بضع ذرات من المادة يؤدى الى طاقة لا عهد للانسان بها من قبل ، لم يكن ذلك وهما بل كان يصور أمرا واقعا فى الوجود ، والا لما خطر على ذهن الانسان [2]

وهكذا تتوالى الظواهر أمام أعين الباحثين وتتكرر من أن جميع

(١) اساطين العلم الحديث ــ ص ٤٦

(٢) يقول الدكتور فؤاد صروف فى كتاب أساطين العلم أن أينشتين الذى جاء بهذا الكشف العبقرى لايصل الى حدمنسبقوهفى التفوق الرياضى ،ويعرف تاريخ العلم من هم أكثر قدرة منه وابداعا فى دنيا التجربة وانما تتجلى عظمة اينشتين الحقيقية التى رفعته الى القمة فى قوة خياله الوثاب التى قلب بها نظريات البشر الكونية رأسا على عقب .

الكشوف العلمية والاختراعات قد طافت كلها أول ما طافت فى عقل الانسان بعيدا عن أى تجربة أو ملاحظة ، وبدلا من أن يسعى المفكرون لجمع المزيد من هذه الملاحظات وضمها كلها الى مجموعة واحدة منسقة مطردة ، واستخلاص النتيجة الطبيعية من هذا الاطراد ، اذا بهم يعملون على تشتيت هـــذه الظواهر وردها الى علل متباينة ... فيحدثوننا مرة عن الصدفة هذه الكلمة الغامضة ، ومرة أخرى يتحدثون أن الأمر قد تم بطريقة خفية لا سبيـــل لتعليلها ، ومرات كثيرة يكتفون بتسجيل عجبهم ودهشهم دون أن يذهبوا الى ما وراء هذا العجب والدهش ، مع أن العلم لا يعنى شيئا ســوى ملاحظة اطراد ظواهر معينة ومحاولة الكشف عن سبب هذا الاطراد .

وأحسب أن من حقنا بعد هذا الاستعراض الذى قدمناه والذى ينتهى كله الى نتيجة واحدة أن نقرر « أن كل ما دار فى عقل الانســان على أنه موجــود فهو ، اما أنه كان موجـــودا فى عصر مضى والذاكرة هى التى تستعيده ، أو أنه كائن فى التو واللحظة والفكر الواعى هو الذى يعكسه ، أو أنه سيكون فى المستقبل والمخيلة هى التى تصوره ، ويكون الوجــود فى خيال الانسان لأى شىء من الأشياء هو أول مراحل وجوده بالفعل .

مستقبل البشرية

وقد يكون فى استطاعتنا على ضوء هذه القاعدة التى اطمأنت اليهــا نفوسنا ، أن نحدد مستقبل الانسانية أو الهدف الذى تتجه نحوه ، وهو ما سوف نختم به هذا الكتاب ، أما الآن فلنحاول أن نقول شيئا عن هذا الانسان ، وكيف ومم ينشأ .

مراجع خاصة بالفصل الرابع

٥٢ — مسائل فلسفية — كتاب مدرسى تأليف الأساتذة الدكتور توفيق الطويل وعبده فراج والدكتور زكى نجيب محمود .

٥٣ — معالم التحليل النفسانى — سيجموند فرويد ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى .

٥٤ — نيتشه — تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوى الطبعة الثالثة

٥٥ — تاريخ الأمم والملوك للطبرى . لابن جرير الطبرى — طبعة مصطفى محمد .

٥٦ — قصة العقاقير — للدكتور محمود سلامة — من سلسلة كتب اقرأ

٥٧ — وحدة المعرفة — للدكتور محمد كامل حسين .

٥٨ — الأحلام والرؤى — عبد العزيز جادو — من سلسلة كتب اقرأ .

٥٩ — الله — عباس محمود العقاد .

٦٠ — الله يتجلى فى عصر العلم — تأليف نخبة من العلماء الأمريكان — ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان .

٦١ — قصة العناصر — امبابى أحمد — (من سلسلة اقرأ) .

٦٢ — Religion. By. V. I. Lenin

مراجع سبقت الاشارة اليها

— قصة الحضارة — ول ديدرانت .

— الفلك العام — سبنسر جونز .

— استخدام الطاقة الذرية — اتوهان .

— بواتق وأنابيب — برنارد جانى .

— أساطين العلم الحديث — فؤاد صروف .

الفصل الخامس

الإنسان مم تكون، وكيف تكون؟

نظرية الخلق فى الأديان ـ الضوء كأساس للخلق لدى علماء المادة ـ القوانين الكهرومغناطيسية فالذرية ـ القوانين الكيمائية فالطبيعة ـ من المادة الجامدة الى الحياة ـ الحياة على صورة خلية واحدة ـ من الخلية الى الحيوانات الثديية ـ الحيوانات البرمائية ـ أثمة حلقة أو حلقات مفقودة ؟ ـ نظرية التطور فى الميزان ـ نشأة الانسان ـ الانسان النطفة ـ الإنسان العلقة ـ الانسان المضغة ـ الانسان السمكة ـ الانسان الضفدع ـ الطور السادس ـ الطفل بعد الولادة ـ تكون العين ـ الدورة الدموية ـ كريات الدم البيضاء ـ القلب ـ الجهاز العصبى ـ خلية النوع الانسانى ـ الانسان والحيوان ـ هل العقل هو المخ ؟ ـ سيادة العقل على المادة المعروفة ـ هذا هو الانسان ـ بين الذرة والنجم ـ فليختر كل انسان لنفسه .

نظرية الخلق فى الأديان

لم يكن هذا السؤال يثير أى صعوبة لدى الأقدمين للجواب عليه ، فالله الخالق قد خلق الانسان على هذه الصورة الكاملة التى هو عليها ، خلقه من نفسه كما يقول الهنود « حقا انى أنا هذا الخلق نفسه لأنى أخرجته من نفسى » [1] أو أنه مخلوق من تراب ونفحة الهية كما يقول العهد القديم لليهود « وأن الرب جبل الانسان ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة فصار الانسان نسمة حية » [2]

أو كما جاء فى القرآن بأبلغ عبارة « واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى

(١) قصة الحضارة ـ الجزء الثالث ـ ص ٣٤

(٢) العهد القديم ـ سفر التكوين ـ الفصل الثانى ـ ٨

فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون . » [1] والانسان فى كل هذه الأحوال كما ذكرنا من قبل فيض من الله ، أو مخلوق على صورة الله، أو هو خليفة الله ومستودع قدرته ، فليس فى الانسان شىء يستعصى على الفهم ، أو الادراك .

الانســـــان وكيف تـــكون

والأصل الترابى للانسان مسألة ملموسة ومحسوسة فهـو لا يكاد يموت حتى ينحل الى عناصره الأولى التى لا تختلف فى قليل أو كثير عن باقى عناصر الأرض الأخرى بحيث يصبح سمادا جيدا لنمو النباتات [2] .

ولا يختلف العلم الحديث عن العلم القديم فى هذا الجزء من تكوين الانسان ، فهو أحد منتجات المادة كالتراب ســواء بسواء ، أما الأقدمون فكانوا لا يقصرون بناء الانسان على التراب بل يضيفـون عنصر الروح باعتباره العنصر الأساسى . وقد رأينا فيما سبق كما سنرى الآن بتفصيل أكثر أن العلم الحديث قد عاد الى هــذه الثنائية ، وهو يقر بعجزه أمام عملية الفكر البشرى وتذوق الجمال ، والضمير ، وعدم استطاعة قوانين المادة أن تفسرها ، ولذلك فالرأى الراجح اليوم أن الانسان مؤلف من مادة وعقل . ومعنى ذلك هو استبدال كلمة العقل بالروح مع الاحتفاظ بالمسمى ، وهو هذا السر الغامض الذى ينطوى عليه الانسان .

---

(١) سورة الحجر آية ٢٨ ـ ٣٠

(٢) من الأحصاءات الطريفة عن جسم الانسان أن به من الكربون ما يكفى لعمل ٩ آلاف قلم رصاص ، ومن الفسفور ما يكفى لعمل ٢٠٠٠ رأس عـــود كبريت . وفى الانسان حديد وجير وبوتاسيوم وملح ومغنسيوم وسكر وكبريت، وهى كلها من المعادن التى تتألف منها تربة الأرض . The Human Machine

ولنتتبع الآن رحلة العلم الحديث وكيف انتهى به الأمر الى هـــذا التصور فى تكوين الانسان .

نظرية التطور

نظرية التطور التى تقوم على التغيير المستمر الحـــادث فى المادة ، وتطورها المطرد من حالة بسيطة الى حالة أكثر تعقيدا ، هى احدى المسلمات العلمية التى لا تلقى خلافا حول جوهرها الصحيح ، وان كانت النظرية الأولى كما قال بها دارون قد تعرضت لكثير من التحويرات والتصحيحات كما سنرى بعد قليل . وآخر الفروض العلمية التى قال بها أينشتين كما ذكرنا من قبل ، انه فى الأصل كان الضوء (النور) الذى يتألف من وحـــدات ضوئية هى (الفوتونات) .

ومن الضوء تكونت أول مظـــاهر الطـــاقة مؤلفـــة فى الأمواج الكهرومغناطيسية ، وكان قانون المادة السائد فى هذا الطور هو قانون الكهرومغناطيسيات .

وعملت قوة الاتحاد على جمع المتشابه واللا متشابه ، فكان البروتون والايلكترون وهما تركيبان أشد تعقيدا من مجرد الأمواج الكهرومغناطيسية ، وانتهى هــذا التعقيد الى تكوين الذرة Atom مكونا معها قانون الذرة لأن قانون أى شيء هو الشيء ذاته .

والذرة فى صـــورتها الأولى هى ذرة الأيدروجين [1] التى امتلأ بها الفراغ الكونى .

---

(١) تتألف ذرة الايدروجين من بروتون واحد وايلكترون واحد فهى اللبنة الأولى لبناء المادة فى صورتها المألوفة .

القوانين الكيمائية فالطبيعية

واستمرت عملية التطور فاتحدت الأشباه بين الذرات فكانت الجزئيات (Molecules) وبنشوء الجزئيات نشأت قوانين الكيمياء التى تحكم علاقة جزئيات المادة . واتحدت الجزئيات مكونة الأجسام وبوجود الأجسام وجدت القوانين الفيزيائية (الطبيعية) . [1] بهذه القوانين للمادة تألف الكون على صورته التى نعرفه بها الآن : سدما ، ومجرات ، ونجوما وشموسا ، وكواكب ، وأقمارا .

والرأى الراجح أن الأرض قد انفصلت هى وبقية الكواكب الأخرى عن الشمس ، ولذلك فقد بدأت سيرتها كأمها كرة ملتهبة من الغازات،ولكن هذه الغازات لم تلبث أن بردت بالتدريج فتكونت قشرة الأرض ، وتكونت السحب والأمطار التى بدأت تهطل على القشرة الأرضية ، فكانت المحيطات والبحار ، وبدأ تاريخ الأرض كما يصوره لنا علم الجيولوجيا أى طبقات الأرض عنصرا بعد عنصر ومعدنا اثر معدن .

من المادة الجامدة الى الحياة النامية

ما بقى العلم يتحدث عن المادة وقوانينها ، وكيف تطورت من الأدنى الى الأعلى ومن الأبسط الى المعقد ، فهو يمضى فى حديثه بخطوات ثابتة

---

(١) تتألف القوانين الطبيعية من ثلاثة قوانين اساسية :

أ ـ قانون الجاذبية الذى ينظم هذه الخاصة التى تعمل دائبة على جمع شتات المادة المتقاربة فى صعيد واحد .

ب ـ قانون التسخين الذاتى حيث ترتفع حرارة كل جسم غازى من تلقاء نفسه عندما يجبر على تقليل حجمه أو يضغط . وهذه الظاهرة عكسية أى أن الغاز يبرد كلما قل عنه الضغط وسمح له بالانتشار .

جـ ـ اذا تقلص أى جسم يلف حول نفسه بأن صغر حجمه ، فان سرعة دورانه تزداد .

وايمان عميق ، وهو قادر على أن يعزز كل قول بتجربة يجربها فى المعمل ، أو بمعادلة رياضية يصدع بها العقل البشرى ، أو بملاحظة ثابتة تسلم بها الحواس .

ولكن العلم عندما ينتقل من المادة الجامدة الى الحيـاة ، نراه يتعثر بعض الشيء ويفارقه ثباته ورباطة جأشه ، وينتابه القلق والاضطـراب والتخبط ، ويلوذ بالغموض والفروض التى لا دليل عليها .

لقد قطع العلم رحلته عبر ملايين الملايين من السنين متتبعا السدم حتى صارت شمسا وقمرا وماء وأرضا ، مطبقا قوانين ثابتة ومطردة لا شذوذ فيها ولا استثناء ، حتى اذا جاء أمام ظاهرة الحياة وجد ناموسا جـديدا يختلف كل الاختلاف عما سارت عليه أمور المادة حتى الآن . لقـد كانت المادة تتشكل وتتنوع ولكنها ظلت دائما ثابتة المقدار والشكل ، فذرات الايدروجين لا تنبت ذرات ايدروجين ، انها قد تتحد ببعضهـا مكونة جزئيات من الأيدروجين التى قد تتحد بجزئيات مادة أخرى موجودة من قبل ، ولكن حاصل الجمع يظل ثابتا .

أما بالنسبة للخلية ، فالخلية الواحدة لا تلبث آن تنقسم لتكون خليتين ، تنقسم كل منهما الى خليتين جديدتين وهكذا دواليك ، حتى ينمو الجسم الصغير فيكبر ... واذا الخلية الواحدة قد صارت ملايين الملايين ، وكل واحدة منها ذات شخصية خاصة بها ، وعلى خلاف مع الأصـل الذى جاءت منه . وهذا الكائن الحى الجديد لا يلبث بدوره أن يهيىء السبيل لخلق كائن جديد آخر ذى شخصية مستقلة .

وهكذا يواجه العلم أمام ظاهرة الحياة شيئا جد مختلف عن قوانين الكهرومغناطيسية والذرة وقوانين الكيمياء والطبيعة .

ان المادة الجامدة (التى كانت تبدو له ثابتة) قد أصبحت متحركة مرنة نامية تتغذى وتتنفس وتفقس وتلد . لماذا ؟ ومتى ؟ وكيف حصل هـذا التحول ؟ لا يستطيع العلم أن يرد على هذه الأسئلة ردا شلفيا ، ولذلك فهو يعترف أن هذه فجوة وثغرة لا بد من سدها ، ولكن العلم يؤمن بأن مقبل الأيام من شأنه أن يسد هذه الثغرة بعد أن يزداد الانسان علما ومعـرفة بخصائص المادة ونواميسها ، ويكتفى العلم فى الوقت الحاضر بأن يصوغ فرضا نظريا فى كيفية نشأة الحياة من مجموع الحقائق التى تجمعت لديه .

نظرية نشأة الحياة

يمهد العلم الطبيعى لنظرية فى نشأة الحياة ، بهـاتين الحقيقتين اللتين انتهى اليهما بتجاربه .

الأولى : أنه كلما ازداد التعقيد فى جسم مادى أصبح تركيبه قلقا ، فذرة الايدروجين مثلا لأنها بسيطـة التركيب (بروتون واحد وايلكترون واحد) فهى تظل ثابتة لا تقبل أى تغيير فليس فى تركيبها أى قلق . أما عندما تتعقد الذرة فتصبح مركبـة من عـديد مـن البروتونات والنيوترونات والايلكترونات ، كما هو الشأن فى ذرة اليورانيوم [1] ، فان تركيب الذرة يصبح قلقا ، والاشـعاع الذى يشـعه اليورانيوم والراديوم هو مظهر هذا القلق .

الثانية : اختصاص ذرة الكربون — لسبب خاص فى تركيبهـا — بالقدرة على الاتحاد مع غيرها من الذرات اتحادا واسـع

(١) ٩٢ بروتون

المدى الى أقصى حد ، ومن هنا كانت هذه الجزئيات الضخمة المعقدة والتى أصبحت نتيجة تعقيدها قلقة التركيب .

بهاتين الحقيقتين فى الذهن ، يمضى العلماء الطبيعيون لتفسير كيفية نشأة الحياة . فيقول العالم الروسى « أوبرمين » :

« فى المحيطات القديمة كان بها كميات من هدريت الكربون ذاب فى الماء فاتحد ببعضه وكون مركبات غاية فى التعقيد ، وقد ألفت المحاليل الغروية لهذه المركبات العضوية الكوزرفيت الذى يشبه مادة البروتوبلازم ومن هنا نشأت الحياة [1] .

أما العالم الامريكى لورنس هندرسون فيقول :

« مر على هذا الكوكب الأرضى دهور من الزمن السحيق لم تكن الظروف تسمح بقيام الحياة عليه .

ثم جاءت مرحلة بدأت الظروف تتطور بحيث تسمح بقيام هذا النظام من الطاقة الذى نطلق عليه اسم الحياة . وبالرغم من أن الفرصة التى كانت متاحة لخلق هذا النظام الجديد كانت جد ضئيلة ، فقد قضى الأمر ونشأت الحياة . ؟!؟

والظاهر أن بعض خصائص الماء غير العادية ، قد تضافرت مع قوى ذرة الكربون الاستثنائية ، وكل ذلك مضافا الى الحرارة ، وظروف من الاشعاع خاصة ، قد هيأ السبيل لهذه المؤامرة التى وفرت الظروف المناسبة لخلق الحياة .

ولا بد أن ظهور الحياة بدأ أول ما بدأ ، فى أحد مجارى الطين الدافىء ،

---

(١) تاريخ الأرض ـ تأليف جورج جامبو ترجمة محمد أبو شلباية

أو بين طيات زبد هذا الطين ورغاويه . وبدأت الحيـاة شيئا دقيقـا جدا متراكمة على بعضها ومتنوعة ، ولكن كل شيء حولها كان ينطق باستحالة التصور أن هذا الشيء الجديد سينتهى الى ما انتهت اليه الحياة اليوم ، بعد أن غطت الأرض بوشاحها ، ومن قبل ذلك زحمت المحيط الذى كان يعج بها [1] . »

وما ان يجتاز العلم الطبيعى هذه الصعوبة ، صعوبة تحـول المـادة الجامدة الى مادة حية أطلق عليها اسم البروتوبلازم [2] ونسب لها قوى وخصائص معينة ، حتى يتابع التطور من هذه الحياة فى أبسط صورها ، وهى الخلية الواحدة ، حتى يصل الى الحيوان الراقى فى خطى ثابتـة وتسلسل مطرد يأخذ شكل القوانين وارتباط النتائج بالأسباب . ولقـد عرفنا عددا من هذه القوانين حتى الآن ، ولكن بنشوء الحياة زادت هـذه القوانين قانونا جديدا ، هو قانون الحياة الذى يعتمد فى الدرجة الأولى على النمو والمرونة والتكيف والمقاومة ، كمبادىء أساسية لهذا القانون.

الحياة فى صورة الخلية الواحدة

وما دامت الحياة فى صورة الخلية الواحدة هى الأصل الذى نشـأ وينشأ منه الانسان ، فانه يتعين علينا دراستها بشيء من التفصيل .

يقول علماء الحياة : ان الأرض قد شهدت الخلية الأولى منذ حوالى ٢٠٠ مليون سنة ، ولسنا فى حاجة للرجوع عبر هذا الزمن الطويل لنشاهد

---

(١) شرنجتون ــ ص ٨٨ ــ قارن هذا التصور الذى يقول به العلم من قول القرآن « وجعلنا من الماء كل شيء حى » « وخلق الانسان من طين »

(٢) يطلق على مادة الخلية الهـلامية فى الوقت الحاضر السـيتوبلازم Cytoplasm ويقسم السيتوبلازم الى طبقتين احـداهما خارجية متصـلبة تعرف بالأكتوبلازم وطبقة داخلية أقل صلابة وتعرف بالاندوبلازم .

أحد هذه الكائنات المؤلفة من خلية واحدة ، فقد حفظت لنا الطبيعة هذه الصورة الأولى للخلايا ، أو بالأحرى هذه اللبنة التى تألفت منها الحياة ممثلة فى حيوان الاميب . ويعيش هذا الحيوان فى ذات البيئة التى يتصور العلم أن الحياة قد نشأت منها وهى الطين [1] . فلو أخذنا قطرة ماء من قاع بركة أو قناة راكدة ، فقد يكشف الفحص المجهرى عن وجـــود كائنات دقيقة ، وقد نجد من بين هذه الكائنات حيوانا لا يخرج عن كونه « كتلة لزجة ليس لها شكل » وذلك هو الأميب ، الحيوان ذو الخلية الواحدةالذى يعتبر تركيبه تركيبا نموذجيا للخلية .

ويصف لنا العالم الذائع الصيت الكسيس كاريل الخلية فى كتــابه « الانسان ذلك المجهول » بقوله : « انها قطرة من الهــلام (الجيلاتين) يحيط بها غشاء قابل للاختراق . ولقد أصبح فى الامكان التقــاط أفلام للخلايا وتكبيرها الى درجة تصبح أكبر من الإنســـان حين تعرض على الشاشة ، وعندئذ تكون جميع أعضائها مرتبة . وتسبح فى جسمها النواة nucleus وهى على شكل منطاد مرن الجدران يبدو مملوءا بهلامشفاف عديم الحركة ، وترى فى هذا الهلام نواتان تغيران شكلهما ببطء ، ولكن بلا توقف ، وتوجد حول النواة حركة عظيمة لذرات صغيرة وهذهالحركات تكون أكثر نشاطا بصفة خاصة حول عنقود من أكياس تتصل بالعضــو الذى يطلق عليه علماءالتشريحاسمجهاز غولجىأورنيوهوتتصلوظيفتهبتغذية الخلية ، كما توجد حبيبات صغيرة غير واضحة تكون نوعا من الدوامة فى هذه المنطقة ذاتها ، كما أن كريات أكبر لا تفتأ تشق طريقهــا متعرجا عبر الخلية حتى تصل الى أقصى أذرعها المتحركة الموقوتة . بيد ان الأعضــاء

---

(١) لعل الصورة التى يوجد عليها الأميب الآن ، هى التى أوحت للعلماء بهذه الصورة التى يتصورون بها نشأة الحياة .

الأكثر اعتبارا هى الشعيرات الطويلة والحبيبات البروتوبلازمية الدقيقة التى تشبه الثعابين ، والأكياس والحبيبات والشعريات تنزلق وترقص وتتماوج بشكل دائم فى المسافات الخالية من جسم الخلية . »

أرأيت هذا العالم الفسيح الذى تغص به الخلية من سوائل وأجهزة ونوايا ومناطيد وأكياس وشعيرات وحبيبات ودوامات ؟ بقى عليك أن تعرف أن وزن هذه الخلية قد يصل الى $\frac{١}{١٠٫٠٠٠٫٠٠٠}$ من الملليجرام وان كان قد يتضخم فى بعض الأحيان ويتعملق ليكون $\frac{١}{١٠٠٠}$ من المللیجرام.

أما اذا أردت أن نقرب لك موضوع صغر حجم هذه الخلايا أكثر من ذلك ، فباستطاعتنا أن نقول لك ان ١٦ ألف كرة دم حمراء حيث تؤلف كل منها خلية واحدة يمكن أن تتجمع على رأس دبوس [١] .

وهذا الذى نقوله عن حجم الخلايا انما ينطبق على خلايا الأنسجة التى تؤلف الكائن الحى النامى ، أما لو شئنا أن نهبط الى الجراثيم التى تتألف بدورها من خلية واحدة ، فان الأوزان والأحجام تهبط عن المقادير السابقة بضعة ألوف من المرات ، فاذا وصلنا الى الفيروس فالحجم والوزن يهبط مئات الألوف من المرات من جديد [٢] .

ومع ذلك فان هذه الخلية التى لا يعرف الانسان أين يقف صغرها ، وبأى الأرقام المتناهية فى الصغر يمكن أن يعبر الانسان عن حجمها ، يقول عنها شرنجتون ، العالم البيولوجى الكبير ان « سطحها (أى سطح الخلية)

---

(١) العناصر الطبيعية للشخصية The Physical Basis of Personality

(٢) الفيروس Virus هو النوع من الجرائيم دون الميكروبات ويعزى له التسبب فى بعض الأمراض كالانفلونزا والسرطان . وهذا الفيروس على ضآلته غير المتصورة لايزال يتألف من اربعين مليون ذرة من الكربون والايدروجين والأزوت والفسفور .

يغص ببضع مئات الملايين من جزئيات البروتين على شـــكل عصى وحزم وهى تنتفض بالتفاعلات الكيمائية [1] .

فهل يدهشنا بعد ذلك أن نعلم أن هذه الخلية كائن حى متكامل بكل خصائص الكائن الحى ؟ انها تتنفس أى تتفـاعل مع الهــــواء فتمتص الاكسجين (شهيقا) وتطرد ثانى أكسيد الكربون (زفيرا) . وهى تتغذى على المواد الحية الأخرى لتستمد منها الطاقة اللازمة للابقاء على نشاطها . وهى تصنع بروتينها الخاص من هذه المواد الحية التى تلتهمها ، ثم هى بعد ذلك تتخلص من الفضــلات التى لا تحتاجهـــا ، أى الطاقات التى لا تتناسب مع بنيانها ونظامها الخاص من الطاقة .

وأخيرا فهى تنمو عن طريق ايجاد وحدة أخرى مماثلة لها فى خصائص الحياة الأساسية والصفات الغالبة . وتوريث الخصائص والصفات الغالبة للمولود الجديد هو أحد مشاكل علم الحياة المستعصية .

عوامل الوراثة

وآخر ما يقوله العلم فى هذا الصدد ، أن من محتويات نواة الخليـــة أجساما مستطيلة أو عضوية ترى بوضوح فى ســـائل نواة الخلية عنـــدما توشك على الانقسام ، وقد أطلق على هذه الأجسام اسم الكروموزومات ، ويقولون انه يوجد بداخل هذه الكروموزومات ، كائنات أخرى غامضة تتناهى فى الدقة ، بحيث لم يكن من المستطاع رؤيتها حتى الآن ، وهذه الأجسام قد أطلق عليها اسم جينس (مورثات) وكل ما يعرف عنهـــا حتى الآن ، أنها الاتجاهات الوراثية للخلايا والانسان ، بمعنى أنها هى التى

---

(١) الانسان على طبيعته (ص ٧٨) Man on his nature

تحدد لون الشعر والجلد والعين والحالة العصبية والطول والقصر ومتانة البنية .... الخ

وعندما يحين موعد انقسام الخلية ، تكون الكروموزومات جماعتين بشكل قد يكون واضحا (وأحيانا لا يكون) ، وتتحرك هاتان الجماعتان متباعدتين احداهما عن الأخرى ، وفى اللحظة ذاتها تهتز الخلية بعنف وتقذف بمحتوياتها فى جميع الاتجاهات منقسمة الى قسمين ، وهذه الأقسام الجديدة أو بالأحرى الخلايا الأبناء تنسحب احداهما عن الأخرى ولكنها تظل مرتبطة ببعضها بواسطة شعيرات مطاطة وتتمدد هذه الشعيرات ثم لا تلبث أن تستسلم . وهكذا يكتسب عنصرا الجسم الجديدان ذاتهما الفردية ، لقد ولدت الحياة حياة جديدة لها شخصيتها وذاتيتها [1] .

من الخلية الى الحيوانات الثديية

تنقسم الخلايا وتتكاثر طبقا لقانون الحياة الذى وجد بوجود المادة الحية ، وسرعان ما أدى هذا الانقسام المستمر والتكاثر الى تنوع الكائنات وتخصصها ، وكان أول اختلاف فى تيار الحياة هو ذلك الذى نشأ بين النبات والحيوان .... فالخلايا النباتية تستمد طاقتها التى تحفظ عليها نشاطها ، وبالتالى حياتها ، من الشمس مباشرة بهذه الخاصية التى انفرد بها النبات وهى خاصة التمثيل الضوئى . أما الخلايا الحيوانية الأخرى فقد رأت أن تستمد طاقتها بالتهام تلك التى استمدت طاقتها من الشمس ، فكان النبات الذى يتغذى بالشمس ، والحيوان يتغذى بالشمس أيضا ولكن عن طريق التهام النبات الذى تغذى بالشمس من قبله .

وقصة تتبع النبات مذ كان خلايا مغمورة فى الماء حتى أصبح نباتات مائية ولكنها طافية على وجه الماء ثم نباتات نصف مائية الى النباتات التى

(١) الكسيس كاريل · الانسان ذلك المجهول ــ ص ٩٦

تكتفى بامتصاص الرطوبة من الأرض والجو على السواء وهى التى تغطى الآن سطح البسيطة فى تنوع لا يكاد ينتهى أو جمال لا يكاد يوصف أو حجم يذهل الانسان [1] ، تخرج عن سياق استعراضنا الحالى ، لأن الذى يعنينا هو القسم الحيوانى الآخر ، ذلك الذى يعتبرونه الأصل المباشر للانسان .

الأحياء المائية

بدأ التطور الحيوانى على صورة هذه الحيوانات الهلامية الشفافة التى لا تزال المحيطات تغص بها حتى الآن ويطلق عليها اسم الحيوانات الرخوة أو اللافقرية .

وتحورت بعض الحيوانات المائية الرخوة فأصبح لها قشور وغضاريف وعظام محورية تربط أجزاءها وتصبها فى قالب محدود فكانت الأسماك أول مراحل الحيوانات الراقية مما يطلق عليها اسم الحيوانات ذات الفقار أى التى لها هيكل عظمى .

وتعيش الأسماك فى أعماق المياه تستخلص بواسطة خياشيمها الأكسجين المذاب فى ماء البحار وفيما عدا الخياشيم فللسمكة باقى الأجهزة التى نراها فى أى حيوان فقرى [2] .

---

(١) توجد بعض الأشجار الضخمة فى كاليفورنيا تزن الواحدة منها الفطن.

(٢) للسمكة رأس وعينان وأنف وفم وفتحة اخراج (شرج) ، واربع زعانف اثنتان منها فى الصدر وزعنفتان بطنيتان ، ويمكن مقارنة هذه الزعانف الأربع بالاطراف الأربعة ، ولها جهاز تناسلى وجهاز هضمى (بلعوم فمرىء فمعدة، حيث تصب عصارات الهضم ومن المعدة الى الامعاء حتى تنتهى الى الشرج)

وللسمكة كبد ومرارة وبنكرياس ـ ولها دورة دموية تعتمد على قلب (مؤلف من ثلاثة تجاويف ، ولها شرايين واوردة ، ولها جهاز بولى يعتمد على كليتين وجهاز تناسلى يعتمد فى الانثى على مبيضين وعند الذكر على خصيتين وحلمة تناسلية بولية . (علم الأحياء)

وخرجت الحياة من البحر الذى لزمته طويلا الى البر لعديد من الأسباب والظروف الطارئة . فقد ينحسر الماء فجأة عن بعض الفجوات فى الشاطىء فتجد الأسماك نفسها فى العراء على اليابسة .. ويهلك هذا السمك الذى حيل بينه وبين الوسط الذى اعتاده ، ولكن بعضا من هذا السمك يجاهد حتى يصل الى الماء ، وقد تتكرر هذه العملية فيكون السمك الذى سبقت له المجاهدة للوصول الى الماء قد أصبح متمرنا على هذه العملية فينجو من الهلاك من جديد ، وتتكون عنده قدرة جديدة هى قدرة العيش بعض الوقت على اليابسة وبعض الوقت أو أكثر الوقت فى الماء . ومن هنا نشأت الحيوانات البرمائية أى تلك التى تمر فيها حياة الحيوان بمرحلتين — المرحلة الأولى يتنفس فيها الحيوان تنفسا خيشوميا فى الماء ، ثم يتنفس فى ثانيتهما تنفسا هوائيا على البر . ومن أظهر هذا الطرز من الحيوانات الضفدعة . وبينما كان فرع من الأسماك يتطور تحت ضغط الظروف أو الحاجة ليكون حيوانا برمائيا .. كان ثمة طراز آخر من السمك يتطور تحت حاجات أخرى وظروف لكى يؤلف فيما بعد طيور السماء .

فكانت هذه الأسماك الطيارة حيث تحورت زعانفها الأمامية ونمت نموا غير عادى الى ما يشبه الأجنحة بحيث أصبح بقدرتها أن تقفز قفزات عالية فى الهواء ثم تعود الى الماء ، وهى تفعل ذلك هربا من عدو على استعداد دائم لالتهامها ، ومن هذا الطراز من السمك الطيار نشأت الطيور التى لم تلبث أن اختارت أعالى الأشجار سكنا لها [١] .

على أن الفرع الأخير فرع الحيوانات البرمائية هو الذى يعنينا أن نواصل تتبع حياته ، لأنه الفرع الذى انتهى الى الانسان كما يقولون .

---

(١) هناك رأى آخر يقول ان الطيور نشأت من الزواحف الارضية ،والمسألة كلها لا تعدو أن تكون فروضا .

الزواحف

تطورت البرمائيات الى زواحف [1] تأقلمت نهائيا مع البر فاستقرت فيه كالسلحفاة وان ظل بعضها يحن الى الماء كالتمساح .

وقد ظلت الأغلبية الساحقة من هذه الزواحف أمينة على أصلها السمكى فى ايجاد نسلها عن طريق بيض تضعه فتدفنه فى الأرض أو فى الرمل ، فتتولى الأرض حضانة هذا البيض حتى يفقس ، ويخرج النبت الجديد مستعدا للحياة على الفور بمجرد خروجه من البيضة .

ومع ترقى الحياة تصبح الأم أكثر عناية ببيضها فلا تفكر فى التخلى عنه ومن هنا تولت الطيور حضانة بيضها حتى اذا فقس وجاءت الأفراخ الصغيرة تعهدتها بالعناية وتقديم الغذاء لها وتعليمها كيفية الطيران .

وعلى هذا الأسلوب من التطور والرقى ، نشأ من الزواحف أصناف جديدة من الحيوانات تحرص على حضانة بيضها ولا تتخلى عنه ، فتبقى البيضة فى داخل جسمها ولكنها تظل منفصلة انفصالا تاما عن جسم الأم فهو مجرد ملجأ ، ويتغذى الجنين من المواد الغذائية المكتنزة فى البيضة كأى حيوان مماثل . حتى اذا انتهت مدة الحضانة خرج المولود من البيضة الموجودة داخل الأم . ولا يكاد المولود يفارق جسد أمه حتى تنقطع صلتها به [2] .

الحيوانات الثديية

ولكن بالرغم من أن هذه الحيوانات قد أصبحت تحتضن وليدها داخل جسمها فهى ما تزال تنسل عن طريق البيض ، ولذلك فقد ذهب التطور الى

---

(١) تنقسم الزواحف الى أربع فصائل متميزة عن بعضها باختلافات عديدة وان جمعت بينها الصفات العامة، وهذه الأصناف الاربعة هى السلاحف والحيوانات الورلية والثعابين والتماسيح .

(٢) توجد بعض الضفادع والزواحف والافاعى تنسل بهذه الطريقة فيظن انها تلد كما تلد الحيوانات الثديية ولكن هناك فارقا كبيرا كما هو مبين بعاليه .

أبعد من ذلك فلم يعد رحم الأنثى مجرد ملجأ لاحتضان البيضة ، بل ان دم الأم يصبح هو المورد الغذائى للجنين ، فيصبح وكأنه قطعة منها يتفاعل معها وتتفاعل معه . فنشأ لديها جهاز لحضانة البيضة داخل جسدها (وهو الرحم) ولا يكاد الجنين يولد ،حتى تسعى الأنثى لتغذيته بغذاء تفرزه من أحد غددها ، فكان الثدى الذى يفرز اللبن ، وهكذا شهدت الأرض لأول مرة صنفا من الحيوانات جديدا لا ينفصل عن بيضه ، بل تغذى البويضة داخل جسد الأم التى تغذى المولود بلبنها .

وهذه هى الحيوانات الثديية أو كما يسميها البعض الحيوانات اللبونة أى التى ترضع وليدها لبنا ، وهى هذه الحيوانات الراقية التى تعيش حولنا سواء منها المستأنس أو غير المستأنس أى ابتداء من الأرنب والقطة والشاة والبقرة والكلب والحصان ، وانتهاء بالفيل والنمر والذئب والثعلب والأسد .... الخ .

القردة الراقية

وراح فرع من هذه الحيوانات الثديية يزداد رقيا أو بلغة العلم ، يتعقد أحد أعضائه وهو المخ ، فكانت الحيوانات الراقية العليا ، ممثلة فى صورة القردة العليا الثلاث ، وهى الأورانج تانج (انسان الغاب) والشمبانزى والغوريلا .

وما دمنا قد وصلنا الى القردة ، فانما هى قفزة واحدة (وما أبدع القرود فى القفز) لكى نصل الى الانسان . ولم يتردد العلم فى هذه القفزة فقفزها ، وقال المؤمنون بنظرية التطور الآلية ان الانسان من القرد .

أثمة حلقة أو حلقات مفقودة ؟

من الخلية الأولى حتى الشمبانزى أو انسان الغاب ، رأينا العلم كما لخصناه آنفا ينطلق كما انطلق من قبل من الذرة الى الكواكب ثابت الخطى

قوى اليقين ، حتى اذا وصل الى القرد وأراد أن يعبر منه الى الانسان ، تعثر من جديد كما تعثر من قبل ، وتلعثم وفأفأ وتزعزع يقينــه ، اذ يجد نفسه ازاء فجوة كتلك التى صادفها من قبل بين المادة الجامدة والحيــاة . حقا ان الفجوة بين الانسان والقرد ، أقل اتساعا وعمقا من الفجوة بين المادة الجامدة والحياة ، ومع ذلك فعلماء الحياة الأعلام الأمنــــاء على عملهم ، يستشعرون الكثير من الحرج للقفز من القرد الى الانسان ، بل انهم عندما يقررون أن الانسان من القرد لا يجعلون القرد هو الأصل المباشر أو الجد القريب ، بل يتحدثون عن حلقة أو حلقات لا تزال مفقودة بين القــــرد والانسان . فعلام هذا التهيب ولم هذا التردد والاحتياط ؟ لا يتصــور أحد أن منشأ هذا التردد هو التأثر بالمعتقدات الدينيــة ، أو الرغبــة فى المحافظة على كرامة الانسان ، وعدم مصادمة عواطف الجماهير ، فهؤلاء المترددون قوم قد أنكروا وجود الله والأديان جملة ، ولم يعودوا يؤمنون بغير الطبيعة والمادة أصلا للكون والحياة ، وانما نشأ هذا التردد والتهيب نتيجة أمانتهم العلمية وقواعدهم التى التزموها لتفسير نظرية التطور .

فهم يرتبون أنواع الحياة ترتيبا تصاعديا ابتداء من الخلية الواحــدة كما رأيت ، حتى يصلوا الى الحيوانات الراقية ، وهم يعرضــون علينــا درجات السلم درجة فدرجة ، بحيث لا تعلو درجة عن سابقتها الا بشىء ضئيل بحيث لا يملك الانسان وهو يرى هذا التدرج الا أن يؤمن بالفعل بتسلسل الأحياء بعضها من بعض ، ولكنهم عندما يصلون الى الانســان يجدون الفارق بين رأسه أو بالأحرى بين مخه ومخ أرقى الحيوانات وهى القردة العليا كبيرا جدا . أما بالنسبة لحيوانات أخرى تفوق القردة ضخامة فقد لا يكون لها مخ على الاطلاق أو مخ يوزن بالجرامات (١) . وبالنسبة

---

(١) يبلغ مخ الحوت الذى قد يزن مائة طن بضعة جرامات .

للقردة العليا ، فالغوريلا الذى يصل وزنه الى أربعمائة رطل ، فان مخه لا يزيد عن ٣٦٠ جرام ، بينما يزيد مخ الانسان ، الذى يزن فى المتوسط نصف هذا القدر ، على ١٣٦٠ جرام أى أربعة أضعاف حجم مخ أرقى قرد.

واذن فهناك فجوة بين مخ القرد ومخ الانسان . واذا تحدثنا عن الانسان فلسنا نعنى به الانسان المتحضر المتعلم المثقف .. وانما نعنى به أبسط صورة نتصورها عن الانسانية ممثلة فى بعض سكان الغابات فى افريقيا . فمخ أى انسان يتساوى فى الوزن وفى التعقيد مع مخ أى انسان آخر ، والفارق بين هذا المخ الانسانى وبين مخ أرقى حيوان فيه هذه الفجوة الضخمة ، ولما كان علماء التطور القدامى وعلى رأسهم دارون ، لا يؤمنون بأن الطبيعة تتطور بقفزات ، فالتطور عندهم عملية بطيئة ممعنة فى البطء ، وهى تدريجية تحتاج كل خطوة منها الى مئات الألوف من السنين، بل ملايين السنين ، ومن هنا فقد اضطروا للقول بضرورة وجود حلقة أو حلقات مفقودة ، تمثل التطور بين القردة والانسان ، وأن الانسان لا بد عاثر على هذه الحلقة أو الحلقات المفقودة ان آجلا أو عاجلا [1] .

ومع ذلك فحتى لو لم نعثر على هذه الحلقة أو الحلقات المفقودة فان اطراد نظرية التطور هذا الاطراد الثابت يجعلها أشبه بقانون فلا حرج أن يجزم العلم بانحدار الانسان من القرد .

من مخ القرد الى مخ الانسان

وقيل ان مخ القرود الراقية عندما ازداد تعقيدا ، فقد أدى هذا التعقيد

---

(١) ارتفعت الصيحة من حين لآخر كلما عثر على فك عظمى من عصور قديمة أو جمجمة من الجماجم انها تمثل هذه الحلقة المفقودة ، ولكن شيئا من ذلك لم يستقر بحيث يصبح حقيقة علمية ، ثم انتهى الامر بالكف عن كل حديث عن الحلقة المفقودة ، بعد أن أصبحت الداروينية الحديثة تقول بتطور الطبيعة على صورة طفرات .

الى نشوء خصائص جديدة وهو تقبل المخ للمعنويات ، ويقصد بالمعنويات تذوق الجمال والتمييز بين الخير والشر والقدرة على التعلم والتعـليم ، وعندما وصل المخ الى هذه الدرجة نشأ قانون الانسان الذى هو قانون أعلى درجة من قانون الحياة [١] .

من الانسان الى الله

ويمضى المؤمنون بالتطور الى أنه من الانسان سيخرج (السبرمان) اى الانسان المتفوق ، كما بشر بذلك نيتشه ، بل يذهب البعض الى أن الآلهة نفسها ستخرج من الانسانية ، كما خرجت الانسانية من الحيوانية[٢]

ونحن ممن يقولون ان الأمر لا يحتاج لملايين السنين لنشوء هـــذا الانسان المزعوم ، فالانسان الحالى والانسان فى كل زمان ينطوى على سر الاله ، ولكن لنتابع حديث العلم الطبيعى أولا .

نشاة الانسان

ينشأ الانسان مذ كان انسانا كأى حيوان آخر من بويضة يفرزها مبيض الأنثى الذى يوجد به حوالى ٣٠٠٠٠٠ بويضة تصل منها اربعمائة الى مرحلة النضج . وتتناهى هذه البويضة فى الصغر الى حـد أن عشرين مليون بويضة لا يزيد وزنها عن أوقية .

أما الحيوان المنوى اللازم لاخصاب البويضة فان حجمه لا يزيد على ١/٨٥٠٠ من البويضة . وقد قرب لنا عالم بيولوجى أمريكى وهو هـ . ج . مولر نسبة حجم الحيوان المنوى الى البويضة ، ونسبة الاثنين الى الأحجام المألوفة على الوجه التالى ، لو أنك جمعت بويضات جميع البشر البالغ

(١) وحدة المعرفة للدكتور محمد كامل حسين . ص ٦٢
(٢) محاورات رينان الفلسـفية ـ لعلى ادهم ـ ص ١٤١

عددهم (وقت كتابة العالم لكتابة) ٢ بليون ومائتى الف بويضة لما شغلت أكثر من ٥/٨ جالون ، أما نفس العدد من الحيوانات المنوية ، فان حجمها لا يزيد عن نصف قرص من الاسبرين [١] .

عمليـــة التلقيح :

وتبدأ البويضة رحلتها من مبيض الأنثى لتقابل الحيوان المنوى المنتظر لاخصابها فى وقت الحيض حيث ينفجر الكيس المشتمل على البويضة ، ثم تبرز البويضة فوق غشاء بوق فالوب فتنقلها الأهداب المتحركة للغشاء (السيليا) الى داخل الرحم . وفى هذه المرحلة تكون نواة البويضة قـد تعرضت لتغيير هام ، اذ تكون قد قذفت بنصف مادتها أو بعبارة أخرى ، بنصف كل كروموزوم ، وعندئذ يخترق الحيـوان المنوى (الذى يكون بدوره قد فقد نصف كروموزوماته) سطح البويضة ، ويتحد القسم الباقى من كروموزوماته بما بقى من كروموزومات البويضـة ، مكونين بذلك مخلوقا جـديدا مؤلفا من خليـة واحـدة ، طعمت فوق مخـاط المهبل . وليست هذه الخلية الجديدة سوى نقطة من الهلام كأى خليـة أخرى ، ومع ذلك فانها تختلف كل الاختلاف عن أبويها ، ان فيها صفات الأم وفيها بعض صفات الأب ، بل فيها كل الأمراض الوراثيـة للزوجين وأسلافهما . ومع ذلك فهى شىء مستقل الشخصيـة كل الاستقلال عن الأبوين .

الانسان الخلية

هذه الخلية الميكرسكوبية الأولى ، هى الانسان وقد ولد ، انسان بكل ماتحويه هذه الكلمة من معنى يتضمن تجربة الدهور السـابقة كلهـا ،

---

(١) الوراثة والسلالة والمجتمع ـ تأليف ل · س · دوبراهانسكى

ويلخص هذا الاستعراض الذى فصلناه من قبل ، ابتداء من الضوء الى أن كانت الأرض . ويمثل بالدرجة الأولى تطور الحياة منذ أكثر من مائتى مليون سنة .

هذه الخلية الأولى التى تكونت هى كتاب الطبيعة ، كتاب الحياة بكل ما خط فى هذا الكتاب من أقسام وأبواب وفصول وصفحات وسطور وكلمات وحروف . وحسبنا أن نتابع تطور هذه الخلية حتى تكون بشرا سويا ليتحقق لنا مصداق ذلك .

تطور الجنين أو ملحمة الطبيعة الكبرى

من الخلية الواحدة تبدأ الطبيعة ملحمتها الكبرى التى لا يمكن أن يوجد فى الطبيعة ما يفوقها ، ملحمة الحياة النامية الهادفة ، التى تعمل طبق خطة موضوعة لتحقيق غرض معين ، كان ولا يزال ، سرا مغلقا على البشر الا على سبيل الحدس والتخمين [1] .

ولا مجال للافاضة فى تتبع تطورات الجنين فى رحم الأم منذ يكون بويضة قد لقحت ، حتى يخرج من دنيا الظلام بشرا سويا ، وكتب الطب عامة ، وعلم الأجنة خاصة تغص بكل ما يذهل اللب ويحير الفؤاد ، وبحسبنا أن نعلم أن هذه الخلية الواحدة لا تلبث أن تنقسم الى خليتين متلاصقتين ، تنقسمان بدورهما الى أربع فثمان فست عشرة فاثنتين وثلاثين.

---

(١) أشار القرآن الكريم الى تطورات الجنين فى عديد من الآيات نجتزىء منها بما ورد فى سورة (المؤمنون)

« ولقد خلقنا الأنسان من سلالة من طين • ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين • ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » ١٢ ـ ١٤ .

وباستطاعة أى قارىء أن يلحظ انطباق ذلك على ما يقول به علم الأجنة مما أشرنا اليه .

وعند هذا القدر من الأنقسام ينتهى الدور الأول من أطوار الجنين الذى يؤلف من نفسه فى هذه المرحلة ، كرة مجوفة مملوءةبالماء من داخلهاومغمورة بالماء من الخارج ، فهو الحياة على صورة النطفة العائشة فى الماء .

وتستأنف عملية الانقسام نشاطها طورا بعد طور ومرحلة اثر أخرى ، فاذا الجنين تارة وقد أصبح تكوينه أكثر ما يكون شبها بالدودة (العلقة) ، وتارة أقرب شبها الى السمكة ، والذى يهمنا أن نشير اليه أن الجنين فى ختام الشهر الثانى يكون حجمه قد تضاعف ملايين الملايين من المرات ، لقد أصبح طول حجمه يناهز البوصة . وقد بدأ تخلق الإعضـــاء . وسائر الأجهزة ، وأصبح أقرب ما يكون فى التكوين الى الضفدعة . واذ نكون قــد وصلنــا الآن الى الشهر الثالث فقد أصبــح وزن الجنين أكثر من أوقية ، وطوله أكثر من ثلاث بوصات ، وكل الأعضاء والأجهزة والأنسجة موجودة ، حتى الأعضاء التناسلية والأذرع والأرجل والأظافر قد تكاملت وفى الشهر الرابع يهز الجنين الأم بحركاته الأولى التى تتزايد بعد ذلك فى اطراد .

فاذا كان الشهر السادس فقد أصبح طول الجنين ٣٠ سنتيمترا ووزنه ثلثى كيلو جرام . وبعد ٢٥٢ يوما أى فى أواخر الشهر التاسع يكمل نمو الجنين ويصبح مهيأ للخروج من الجنة التى كان يعيش فيها حيث يأتيه رزقه رغدا فى كل وقت وآن ، بدون جهد أو آلام ، ويقــذفه الرحم خارج الجسم ، انه لم يعد بعد الآن جنينا ، انه طفل الانسان ، ولما كان الطفل يحرم لأول مرة من المائع الذى كان يعيش فيه ، ويتغير المحيط من حوله ، ويصطدم بالهواء الجوى لأول مرة وهو ينفذ الى رئتيه فيصرخ الطفــل من الألم صرخة الحياة ، واعلانا عن بدء مرحلة جديدة من معــارك الحياة الظاهرة بعد انتهاء المعركة الباطنة بالانتصار .

وعندما يولد الجنين فان وزنه يكون فى العادة بين ٢ ٣/٤ و ٣ كيلو جرامات وطوله حوالى ٤٨ سنتيمترا . وقد حان الآن أن أذكرك ، أن هذا الحجم الضخم قد بدأ من هذه البويضة التى كانت تزن ١/٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ من الأوقية ، أى أنها تضاعفت ألوف الملايين من المرات . ولكى تعرف مدى هذه النسبة التى كانت خلايا الجنين تنمو بها وتتكاثر فلو فرضنا أن هذا النمو استمر بهذه النسبة عشرين سنة أخرى لأنتج حجما أضخم من كل المجموعة الشمسية أى جسما قطره ملايين الأميال [1] . ولو ظل يتكاثر بنفس النسبة بضع عشرات أخرى من السنين ، لزاد على المجرات حجما ، ولزحم الكون الذى نعرفه ، ولكن الحياة لا تمضى فى النمو على هذه الوتيرة ، فهى لا تلبث أن تقف بمجرد وصولها الى حد وصورة معينين .

بأى سحر أم بأى سر يعلو على السحر

والآن بأى سحر أم بأى سر يعلو على السحر ، انقسمت هذه الخلية الأولى لتكون ٢٦ مليون مليون خلية ، وكل خلية من هذه الخلايا تقوم بدور يختلف عن دور كل خلية أخرى ، وتتشكل تبعا لذلك تشكلا خاصا يمكنها من أداء دورها الخاص ، كيف أن هذه الخلية الأولى التى لا يستطيع الفحص الدقيق أن يفرق بينها وبين خلية السمكة الأولى أو الخلية الأولى لأى حيوان ، تبدأ عند مرحلة معينة فى سلم النمو فيتحول شكلها بحيث تصبح مثمنة أو نجمية أو خيطية أو مستديرة أو على شكل البسكويت أو المكعبات أو العصى أو العناكب أو على شكل القوس أو متفرعة كالشجرة .

بأى سحر أو بأى سر يعلو فوق السحر ، تفرز بعض هذه الخلايا

---

(١) بواتق وأنابيب ــ الدكتور أحمد زكى ــ ص ٢٤٤

أسمنتا لتربط ، أو سائلا ليتجول فيه بحرية ، أو تغير مادتهـــا لتصبح غضروفية ، أو جيرية لتكون عظاما ، أو تمعن فى الصلابة لتكون مينـــاء الأسنان ، ويتحول بعضها الى زجاج شــفاف ، والبعض يصبح معتمــا كالحجر ، بعضها لا لون له ونوع منها أحمر وآخر أسود ، خــلايا تغص بالتفاعلات الكيمائية الثائرة ، كما لو كانت مصانع ، وخلايا خامدة كما لو كانت ميتة . خلايا تمثل آلات الجر الميكانيكى ، وخلايا تقوم بدور الدعائم التى تدعم أى بنيان . البعض يصبح نظاما لاعطاء الاشارات الكهربائية ، والبعض جهاز للاسعاف والنجدة ، وما من خلية من ملايين الملايين هذه الا وتعد نفسها بالحجم المطلوب فى الوقت المحدد والمكان الواجب أن تكون فيه لأداء الوظيفة المقررة فى العضو الذى لن يستعمل الا بعد فترة معينة وفى ظروف مختلفة . انها تعمل فى الظلام لانتاج جهاز الأبصار الذى يعمل فى النور ، انها تعمل فى صمت جهاز السمع الذى يتأثر بالأمواج الصوتية ، انها خلايا عمياء لا تعرف فوقا ولا تحتا ومع ذلك فان خلية الأعصاب تعرف طريقها نحو خلية اللمس فى نهاية الأصبع لتتصل بها . ان كل شىء يبدو كما لو كانت كل خلية تنطوى على مبدأ يلهمها المعرفة اللازمة لتنفيذ تصميم معين على ما يقول شرنجتون .

أما كاريل فيقرب لنا صورة مايحدث فى بناء الجسم بأن يطلب منا أن نتخيل « طوبة سحرية واحدة تشرع فى بناء منزل بمفــردها ، فتخلق من نفسها قوالب أخرى من الطين بالألوف والملايين ، وهذه القوالب لا تنتظر رسومات المهندس المعمارى أو مجىء البنائين والفعلة ، ولكنهـــا ترص نفسها بنفسها ، صانعة الملاط ومكونة الجــدران ، ومتحولة الى أبواب ومنافذ ، وزجاج لهذه النوافذ ، وألواح للسقف ، وفحم للتدفئـــة وماء للمطبخ والحمام . وينمو العضو بوسائل أشبه بتلك التى تنسب للجنيات

فى القصص الخرافية التى تروى للأطفال ... انه يوجد بواسطة خلايا عالمة سلفا بالبناء الذى يجب أن تنسقه فى المستقبل فتصنع من المواد الموجودة فى بلازما الدم مواد البناء بل وتصنع العمال أنفسهم [1] .

تكوين العين

ولنعد من جديد الى شرنجتون ذلك العالم الطبيعى المادى الذى لا يؤمن بغير المادة ربا خالقا ، لننقل عنه أروع ما كتب عالم فى كيفية تكوين العين :

« من مخ الجنين ينشأ برعم صغير هو الذى سيتكون منه الجزء الأكبر من العين ، ومن الجلد الذى يغطى هذا البرعم ينشأ القسم الثانى ، وهكذا تتعاون خلايا المخ والجلد لتكوين كرة العين المقبلة .

وكرة العين ليست فى طبيعتها الا آلة تصوير صغيرة (اذا جاز أن نعكس التشبيه) وصغر آلة تصوير العين هو آية كمالها ودقتها والدقة التشريحية هنا ضرورية لامكان أداء وظيفة الابصار بأكثر من ضرورتها فى أى عضو آخر .

ان العين تكون فى الظلام ، ومع ذلك فكل شىء فيها يعد لاستقبال النور ، ويوم أن تتعرض للنور فان أشعته سوف تخترق عدسة أعدت لذلك فى المكان الذى يجب أن تكون فيه وبالشكل اللازم لتحقيق الغرض المطلوب وهو الابصار . فهى (أى العدسة) محدبة من الوجهين ، وهى معدة بمنتهى الدقة لجمع أشعة الضوء فى البعد الواجب عن لوح الخلايا الحساسة للصورة عند شبكية العين فى المؤخرة .

وقد صنعت هذه العدسة المحدبة الوجهين ، من خلايا الجلد ، ولكن بعد أن تحورت لتكون زجاجا شفافا ، وأعدت بحيث يكون بقدرتها أن

(١) الانسان ذلك المجهول ــ ص ١٣٤

تركز الضوء عبر بؤرتها ، هذا الضوء الذى لن تتعرض له العين الا بعد بضعة أشهر .

وأمام هذه العدسة يقوم حاجز على شكل قرص مستدير للضبط (القزحية) ، كما هو الشأن فى أى آلة تصوير أو ميكرسكوب ، وذلك ليضبط اتساع حزمة الضوء الواجبة لاتمام عملية الابصار ، فحيث يقل الضوء ، يجب أن تتسع هذه الحدقة لتسمح بمرور حزمة ضوئية أكبر ، اما اذا زاد الضوء واشتد فان حزمة صغيرة منه تكفى لأداء الغرض ، ومن هنا تضيق الحدقة .

وفى آلة التصوير أو المجهر يتم ضبط هذا القرص بواسطة المراقب أو العامل على الآلة ، أما فى العين البشرية فان ذلك يتم بطريقة آليةبحتة كأثر مباشر لشدة ضوء الشيء المراد رؤيته .

ولأمر ما شاءت الطبيعة أن تجعل هذه القزحية العينية ذات ألوان مختلفة تتدرج من الأسود الى الأزرق فالعسلى تبعا للون قزحية الأبوين.

وتقسم العدسة والقزحية حجرة العين الى نصفين ، أمامى وخلفى ، وكلاهما ملىء بسائل شفاف لا يعدو أن يكون ماء ، ولكنه محفوظ فى درجة ضغط معينة ليحفظ على كرة العين شكلها الذى يجب أن تكونفيه.

وتكمل الغرفة الأمامية بطبقة من الجلد التى تحولت بدورها الى زجاج شفاف لتكون نافذة للعين ، وهى ما نطلق عليها اسم القرنية ، وهذه القرنية خالية تماما من الأوعية الدموية حتى لا يلقى الدم ظله داخل العين فتحجب بعض عناصر الصورةالمنظورة . ويغطى هذا اللوح من الزجاج الشفاف الحى بطبقة من الدموع المائية التى تتميز بقوة كيمائية خاصة لقتل أى جرثومة يمكن أن تلهب العين أو تؤذيها .

واذا كان من خصائص جلد الانسان أن ينطوى على مظاهر الاحساس الأربعة من حرارة وبرودة وضغط وألم ، فان هـذه القطعـة من الجلد الشفاف التى تكون نافذة العين ليس فيها الا وجه واحـد من وجـوه الاحساس وذلك هو الاحساس بالألم فلمسها يحدث الألم لأنها يجب ألا تلمس بحال من الأحوال .

ويتجمع الجلد فوق هذه النافذة وتحتها مؤلفا أجفانا متحركة ، وهى جافة من الخارج كأى جلد عادى ، ولكنها رطبة من الداخل لكى يكون باستطاعتها دائما أن تنظف النافذة من ذرات الأتربة ، أو أى جسم غريب قد يقع عليها وذلك بامرار طبقة من الدموع المائية فوقها .

كل ذلك ونحن لم نصل بعد للبنـاء الرئيسى للعين الذى يقع فى مؤخرتها ، ونعنى به شبكية العين هذه اللوحة الحساسة للضوء ، والتى يسجل على صفحتها ملايين الملايين من الصور مـدى الحياة كلها ، بدون حاجة الى تغيير اللوح كل صباح أو مساء ، بل بدون تغيير على الاطـلاق مذ يبدأ الطفل عملية البصر الى أن يكون شيخا هرما قادرا على الابصار . ومع ذلك فهذه اللوحة الحساسة لا تنفك تقوم بعملها ليلا ونهـارا بغير انقطاع فتتلقى مختلف الصور من كل لون وطراز وتبرق بها الى المخ .

وتنظم هذه الآلة التصويرية بطريقة آليةأبعاد بؤرتها تبعا لبعدالصورة التى يهمها التقاطهـا ، فتارة تكون العدسـات أقوى أو أضعف حسب الحاجة ، فضلا عن أنها تحرك نفسها بطريقة تلقائية فى اتجاه المنظرالمطلوب رؤيته ، ومهما تكن السرعة التى يندفع بها الجسم المنظور فان أجهـزة العين تلاحقه لتقع الصورة دائما على أحسن نقطة للرؤية فى الشبكية .

وأخيرا فان آلة التصوير هذه تصمم نفسها كما لو كانت تعمل مقدما

على حفظ ذاتها ، فلو هددها أى خطر ففى أقل من جزء من الثانية تنطبق الأجفان على بعضها لتحمى نافذة العين الشفافة [1] .

وفى نفس الوقت الذى تكون فيه كرة العين آخذة فى التكوين ، فان أجزاء أخرى من المخ والجلد تكون منشغلة باعـــداد كأس العين الذى ستستقر فيه ، ولا يكاد البناءان يتكاملان حتى تنفصـــل كرة العين من الأصل الذى تكونت منه لتستقر فى كأسها البصرى الجديد ، وفى غضون بضعة أسابيع ينشأ فى قاع هذا الكأس البصرى حبـل مؤلف من ملايين الألياف العصبية التى تربط بين المخ والخلايا العصبية فى العين .

وينتشر على شبكية العين ١٣٧ مليون عنصر مستقل تعمل كلهـا لجعـل عملية الابصار ممكنة ، وتظل هذه العناصر والأعصاب التى تنقل المؤثرات المختلفة الى المخ تتركز وتتركز حتى يصبح عددها لا يتجـاوز المليون الا بقليل ، وما من عصب فى هذا المليـون الا ويعرف مكانه الى مجمـــع الأعصاب المناسب ، وهى هذه المحطات التى توصل كل منها الى محطـة أبعد منها ، والمخ فى حقيقته هو غابة كثيفة متشابكة من محطات التبـادل والخطوط الفرعية الذاهبة الى هنا وهناك .

وليست العين فى نهاية الأمر سوى حشد من هذه الخلايا الهلامية التى يتألف منها باقى أجزاء الجسم الأخرى ، ولكنها نظمت نفسها كما لو كانت تعمل متعاونة باتفاق مشترك ، على تنفيذ الخطة الموضوعة . حتى اذا تم تكوين العين ، فان هذه الخلايا التى ظلت تعمل وتنقسم وتتخصص ، تقف فجأة عند حد ما أنجزته فلا تزيد عليه ، وتقع فى سبات نسبى فلا تزيد أو تتكاثر أو تتغير .

وقد يتصور القارىء ذلك الذى وصفناه ضربا من الخيال الفج أو

---

(١) وهو ما يعبر عنه قول العامة الشائع من أن « العين عليها حارس »

القصص البارع ، ومع ذلك فان هذا الذى قلناه ، هو حق لا مرية فيه ، أنه الواقع العجيب الذى يحدث ابان تكوين أعضاء الانسان وأجهزته المختلفة [1] »

بناء الجسم

وليس هذا الذى ذكرناه من كيفية تكون العين ، الا ما يتكرر بنفس الدقة والأحكام والأعجاز لتكوين سائر أجزاء الجسم وأنسجته وعضلاته، هذه العضلات التى ليست فى حقيقتها الا (الموتورات) المحركة التى تمكن الانسان ليس فقط من تحريك أعضائه الداخلية أو الخارجية ، بل وتحريك أى شىء فى الخارج .

يقول شرنجتون ، اننا لو أخذنا قطاعا من أحد الألياف العضلية لكان معنى ذلك أننا نكون قد قطعنا ١٥٠ مليون جزىء من الجزيئات البروتينية، أى أنه فى كل قطاع من العضلات مساحته ملليمتر مربع يوجد خمسة أضعاف الجنس البشرى ، وقد اجتمعوا فى صعيد واحد ليشدوا فى اتجاه واحد، مستجيبين جميعا كرجل واحد للأمر الذى يصدر لهم بالشد . وهذا الأمر يصدر على شكل رسالة كهربية تسرى خلال عصب العضل وقد يكون منشأ هذه الرسالة كيمائيا ولكنها تتم بطريقة كهربية [2] .

وليس من برنامج هذا الكتاب بطبيعة الحال ، أن يتصدى لعلم التشريح أو وظائف الأعضاء ، ومع ذلك فليس باستطاعتنا وقد تعرضنا لكيفية بناء الجسم ، وكيف ينمو ويتطور ويحافظ على نفسه ، ألا نشير الى بعض الخصائص المعجزة للوسيطين اللذين يوحدان الجسم ، ويخلقان منه وحدة واحدة وأعنى بهما جهازى الدورة الدموية والجهاز العصبى .

---

(١) الانسان على طبيعته ـ ص ١١٤ Man on his Nature
(٢) المرجع السابق ـ ص ١١٠

رأينا فيما سبق أن الحياة قد نشـأت فى المـاء ولا يمكن تصور استمرارها بعيدا عن هذا الوسط الذى نشأت منه . وقد كان ماء البحـر على ملوحته لا يصل الى درجة ملوحته اليوم وفى هذا المـاء المالح عاشت عناصر الحياة الأولى ونمت وترعرعت وتكاثرت ، فكيف أصبح باستطاعة الحياة أن تواصل وجودها بعد أن خرجت من البحر وابتعدت عن الوسط الذى منه نشأت وعاشت فيه ؟

كان هذا السؤال هو أحد المعضلات التى جابهت علماء الحياة القائلين بانبعاث الحياة من الماء ، وسرعان ما قدم لهم دم الانسان جواب السؤال وحل المعضلة والاشكال . فليس هذا الدم سوى ماء البحر ، حمـله الانسان فى عروقه وشرايينه ، ليهيىء لكل خلية من خلايا جسده ، نفس الوسط الذى كانت مغمورة فيه عندما كانت تعيش فى البحر . وكان هذا ثمرة تطور بطىء كما هى العادة دائما فى نواميس الطبيعة ... فعنـدما لم تكن الحيوانات الرخوة تتألف الا من طبقة واحدة من الخلايا تسبح على شكل صفحة فى الماء ، لم يكن ثمة حاجة لنشوء أوعية دموية فى هـذه الحيوانات الرخوة ، فقد كان الماء يغمر كل خلية على حدة ، ولكن عندما تطورت هذه الحيوانات الى حيوانات أكثر تعقيدا ، تضاعفت طبقـات خلاياها وأصبح لها سمك وحجم يجعل من المتعذر ملامسة ماء البحر لكل خلية منها على حدة ، فقد نشأ نظام من الأنابيب فى هذه الأجسام الجديدة ، ومضخة عضلية وهى القلب لتزود كل الخلايا المدفونة داخل الجسم بدم مالح ، يكون بديلا عن ماء البحر الذى ألفته من قبل .

وهكذا نشأ القلب والأوعية الدموية التى تملأ الجسم كله لتغمر كل خلاياه بالسائل المائع الذى يذكر بماء البحر . وعندما خرجت الأحياء من

البحر الى البر نقلت معها هذا الجهاز الذى يصنع ماء البحر ، أى أن الحياة نقلت معها وسطها ، وبهذا الوسط عبرت الجبال والصحارى ومشت وطارت وغزت البر والجو ، وستغزو كواكب الفضاء فى الغد ناقلة معها هذا الوسط الذى خرجت منه ونعنى به الدم .. أو ماء البحر .

ولقد تغير ماء المحيط بزيادة الأملاح التى تصب فيه عاما بعد عام لملايين السنين ، ولكن الدم بتوازنه الديناميكى ، ظل ثابتا عند الحد الذى كان عليه ماء البحر عندما نقله معه .

ودم الانسان هو نسيج عضوى ، كأى نسيج من الأنسجة العضوية التى يتألف منها الجسم البشرى ، مع فارق واحد وهو أنه نسيج متحرك أما باقى الأنسجة الأخرى فثابتة فى اطار . ويتألف الدم من عناصر ثلاثة رئيسية :

١ — بلازما الدم

٢ — كريات الدم الحمراء

٣ — كرات الدم البيضاء

فأما بلازما الدم فهى سائل لزج وهى تلك التى تشبه ماء البحر ، ولكن تركيبها ليس بهذه البساطة بل انه يذهب الى أبعد من ذلك كثيرا من حيث التعقيد .

وهى تتألف فى الدرجة الأولى من محلول القواعد والأحماض والأملاح والبروتينات . وما من خلية من خلايا الجسم التى تبلغ ألوف الملايين ، الا وتجد غذاءها اللازم لحياتها فى بلازما الدم ، وكذلك المواد التى تزيد فى نشاطها أو تعوقه ، وتحتوى البلازما فوق ذلك فيما تحتويه على بروتين خاص يخلق خيوطا ليفية تثبت من تلقاء نفسها على جروح الأوعية الدموية

لتوقف نزيفها . أما كرات الدم الحمراء التى تتألف من ٢٥ الى ٣٠ ألف مليار كرة حمراء ، فهى تسبح فى بلازما الدم وهى ليست خلايا حية ولكنها عبارة عن أكياس دقيقة مملوءة بالهمجلوبين وهذا اللون الأحمر الذى تتميز به ، هو لون الحديد الموجود بها . وكرات الدم الحمراء هى وسيلة الدم لحمل الأكسجين الى جميع خلايا الجسم .

عملية التنفس ودورها

ولما كان الدم من ناحية أخرى يقوم بدور البالوعة الرئيسية التى تصب فيها جميع الفضلات التى تطلقها الأنسجة الحية واكسيد الكربون ، فان الدم السارى فى الجسد سرعان ما يتلوث بالتدريج لكثرة ما يزخر به من حامض الكربونيك وفضلات التغذية ، ولذلك يفقد لونه الأحمر القانى الذى خرج به من القلب ويصبح داكنا ، ولكن نبضات القلب لا تلبث أن تعيد هذا الدم المتلوث الى داخل شبكة من شعيرات الرئة الهائلة ، وفى هذه الشعيرات تتصل كل كرة حمراء باكسجين الجو الذى يكون قد نفذ الى الرئة من خلال عملية الشهيق ، وهذا الغاز بالتطبيق لقوانين الطبيعة الكيمائية ينفذ الى الدم فيستولى عليه همجلوبين الكرات الحمراء وفى الحال يهرب ثانى اكسيد الكربون بداخل الشعب ، ومن هناك يطرد الى الجو الخارجى بواسطة حركات الزفير . وكلما ازدادت سرعة التنفس ازداد نشاط المعادلات الكيمائية بين الهواء والدم . وهكذا يتنقى الدم من ثانى اكسيد الكربون ويشحن بالأكسجين بفضل كرات الدم الحمراء ، ولكنه يظل محملا بأحماض أخرى ليست سريعة التبخر كحمض الكربونيك ، وكذلك لا يزال يحتوى على فضلات تجدد الخلايا ، ولذلك فلا بد له من عملية تنقية أخرى ، وهذه تتولاها الكليتان أثناء مرور الدم

خلالهما ، اذ تفصلان مواد معينة من الدم وتطردها خارج الجسم فى البول، كما تنظم الكليتان كمية الأملاح اللازمة لبلازما الدم ، حتى يظل توترها الأسموزى مستمرا .

عملية التغذية

وهكذا تتعاون الرئتان والكليتان بأعظم درجة من الكفاية والنشاط لابقاء هذا الوسط السائل الحيوى للأنسجة فى الحالة التى يجب أن يكون عليها للمحافظة على دورة الحياة . على أنه مهما يكن دور الرئتين والكليتين أساسيا للمحافظة على الدم نقيا ، فان بقية أعضاء الجسم تسـاهم بدور لا يقل خطورة للمحـافظة على هـذا الكيان وابقائه فى حالة التكامل والتوازن .

فاذا كان الجسم مثلا فى حاجة الى الأكسجين فى الدرجة الأولى ، فهو لا يقل احتيـاجا للغـذاء الـذى لا يخـرج عن كونه وقودا يحترق فى الأكسجين لتزويد الجسم بما يحتاجه من حرارة وطاقة . ونحن نعرف قصة الأغذية سواء كانت لحما أو جبنا أو لبنا أو زيتا أو خبزا أو سـكرا ... ونعرف قصة هضمها بواسطة خليط من العصـارات المعـدية وافرازات البنكرياس والكبد ، حيث يحملهـا الدم بعد ذلك عن طريق بلازماه الى سائر خلايا الجسد كلها لتختار كل منها ما يوافقها من هذا الغذاء .

الكريات البيضاء

أما كرات الدم البيضاء التى **يبلغ عددها ٥٠ مليار كرة بيضاء** فهى على عكس كرات الدم الحمراء ، أجسام حيـة وهى تسبح بدورها فى بلازما الدم ، ولكنها تهرب منه أحيانا بالتسرب من خلال جدران الأوعية الشعرية الى الأنسجة ، وتزحف فوق سطح خلايا الأغشية المخاطية للأمعاء والغدد

وجميع الأعضاء . ذلك لأن دور هذه الخلايا هو أن تحافظ على الجسم من كل ما يهدده ، انها تمثل أحد قوانين الحياة فى المقاومة ، فالكائن الحى ينطوى على سر المحافظة على كيانه وقد ترك للعقل بمساعدة الأعضاء الخارجية مهمة مقاومة الأعداء الخارجية المنظورة ، أما الأعداء غيرالمنظورة التى يراها الانسان ممثلة فى هذه الجراثيم والميكروبات الفتاكة التى تهدد حياة الانسان ، فان كرات الدم البيضاء تقف لها بالمرصاد ، انها السلاح الحى الذى يعده الجسد لمقاومة كل دخيل يضر بسلامته . انها تهاجم المرض وتحيط بالميكروبات وتسرع الى سطح الجرح الذى يحدث فى الجلد ، أو فى أى عضو ، وعن طريق كريات بيضاء من نوع أكبر يعاد انشاء الأنسجة، ذلك أن هذه الكريات البيضاء لها القدرة على تحويل نفسها الى خلايا ثابتة ، ولا تلبث هذه الخلايا أن توجد أليافا واصلة تعمل على اصلاح الأنسجة التى أصيبت من أحد الجروح ، وذلك بعد أن تأكل وتهضم البكتريا التى كانت تسمم الجرح كما تأكل الخلايا التى ماتت بسبب الجرح ، انها كائنات حية تعمل مافيه مصلحتها فى الوقت الذى تعمل فيه بالتعاون مع باقى أجهزة الانسان للابقاء على كيانه ككل .

هذا هو الدم ذلك السائل السحرى أو المنطوى على سر يفوق السحر ، فهو يبنى الجسد وهو يغذيه وهو يخلصه من فضلاته وهو يدافع عنه ويحميه وهو يعيد بناءه وتركيبه .

القلب

ويؤدى الدم وظيفته بالمرور على كل الخلايا ، ومدها بالغذاء وأخذ فضلاتها بواسطة هذه المضخة العجيبة التى ترمز لكل ماهو جميل وجليل فى الانسان ونعنى بها القلب ، فالقلب مستودع الحياة والحكمة والالهام

والعواطف والمعرفة والفن [1] ، ولكنه بلغة العلم المادى لا يعدو أن يكون مضغة ، مضخة ماصة كابسة ، ومع ذلك فلا يكاد العلم يصف لنا هـذه المضخة ، حتى يتملكنا العجب بأكثر مما يتملكنا لو نصفه بمستودع الالهام والحكمة والعواطف ، لأن تشريح ووصف الدور الذى يؤديه القلب للابقاء على الحياة كلها ، يفوق كل تصور وادراك . ان القلب يمثل الحركة الدائمة ما بقى الانسان حيا ، فهو الذى يدق ويدق فى النـوم مثل مافى اليقظة ، فى المرض مثل مافى الصحة . وهـذه الدقة تعنى أن القلب ذلك الجهاز العجيب يقوم بوظيفته الكبرى للابقاء على حياة الانسان فيضخ الدم فى الشرايين ويستجلبه من الأوردة ، فلو عاش الانسان ستين عاما أو تسعين أو أكثر من ذلك أو أقل فان قلبه لا يتوقف عن الضخ دقيقة واحدة ، بل ولا لبضع ثوان .

ومعنى ذلك أن القلب اذا كان يضخ فى المتوسط ٧٠ ضخة أو دقة فى الدقيقة ، فان ما يضخه أو يدقه فى العام هو ٣٧ مليون دقة . فلو أن رجلا عاش الى السبعين من عمره فان ذلك يعنى أن قلبه قد دق أو بالأحرى قد ضخ الدم ٢٥٩٠ مليون مرة فى اتصال عجيب عبر هـذا الزمن الطويل ، فاذا علمت أن أى آلة لا تستطيع العمل بدون انقطاع الا لبضعة أيام على الأكثر ، ولابد دائما من تعهدها بالصيانة والاصلاح والرعاية ، استطعت أن تدرك أى اعجاز آلى يعنيه قلب الانسان .

والقلب يضخ فى الضخة الواحدة ستين سنتيمترا مكعبـا من الدم أى ما يملأ فنجـان شـاى فى كل دقة ، ومعنى ذلك أن يضخ ٣٠٠ لتر من الدم فى الساعة أى نحو ٨ آلاف لتر فى اليوم وهو ما يساوى ٨ أمتار

---

(١) يتحدث القرآن دائما عن القلب باعتباره مركز الوعى والادراك والفهم العميق ـ « أليست لهم قلوب يعقلون بها »

مكعبة (أو ما يساوى ١٥ طنا من الدم فى اليوم الواحد) لا يستهلك منها لنفسه الا شيئا يسيرا جدا ومع ذلك فان هذا القلب لا يزيد وزنه عن نصف رطل فى المتوسط ولا يزيد عرضه عن ٣٫٥ بوصة وطوله خمس بوصات وسمكه بوصتان ونصف .

فبأى سحر أو بأى سر يعلو على السحر ، تفعل هذه الكتلة الصغيرة هذه الأعمال الجبارة ، التى تعجز آلات فى حجم الجبال عن أن تقوم بها ؟

الجهاز العصبى

واذا كان القلب والدورة الدموية يوحدان الجسم ويربطانه برباط واحد بهذا الدم السائل ، فان الجهاز العصبى هو الوسيط الكهربى الذى يدعم هذه الوحدة ويصونها ، بما لا يقل فى الأهمية والخطر عن دور الدورة الدموية ، فالانسان يناضل فى سبيل بقائه عن طريق عقله ومخه وأعصابه ، بأكثر مما يفعل ذلك بجسمه . والجهاز العصبى يتألف من جهازين يكمل كل منهما الآخر ، أحدهما واع موجه تتمثل فيه الارادة الانسانية وأهم أجزائه المخ . والثانى لا شعورى آلى وذاتى الحركة يعمل على ضبط مختلف أعضاء الجسم ، وهو ما يسمى بالجهاز السمبتاوى .

الجهاز المركزى

ويتكون الجهاز الرئيسى أو المركزى من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل ، ويطلق على هذه الثلاثة اسم الدماغ الذى يحتل الجمجمة ويبلغ وزنه فى الانسان حوالى ثلاثة أرطال ، ثم النخاع الشوكى أو العمود الفقرى .

المخ

يقع المخ فى أعلا الدماغ ومقدمه ويشبه فى شكله نصف الكرة . وينقسم المخ الى قسمين ، أيمن وأيسر بكل منهما أربع قطع أو فصوص ،

واحد مقدمى ، وآخر جانبى من الخارج وثالث جانبى من الداخل ورابع مؤخرى . وتتكون مادة المخ من مادة ناعمة هشة تتألف من طبقتين :

١ — احداهما عليا سمراء اللون عمقها نحو ٤ ملليمترات وتسمى اللحاء ، وتكثر بها الخلايا العصبية والتلافيف والحفر التي يبلغ عمق احداها بوصة .

٢ — الطبقة الثانية داخلية بيضاء تكثر بها الألياف العصبية التى توصل خلايا اللحاء بعضها ببعض وتحتوى المادة المخية على ما يقال ، على أكثر من ١٢ر٠٠٠ مليون خلية وتتصل هذه الخلايا احداها **بالاخرى بواسطة ليف عصبى ٠ولكل ليف عدة فروع ، وتتصل الخلايا ببعضها عدة آلاف الملايين من** المرات بواسطة هذه الألياف . وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة والألياف غير المنظورة تعمل بدقة متناهية كما لو كانت خلية واحدة برغم تعقدها الذى لا يمكن تصوره .

والمخ هو المسيطر على المراكز السفلية والمسئول عن الأعمال العقلية العليا ومصدر الأعمال الارادية . فهو الذى يتسلم الرسائل الحسية من جميع أجزاء الجلد ، ومن أعضاء الحس ، وبهذه الطريقة تظل الأوساط العصبية على اتصال دائم بالعالم الخارجى . والمخ هو الذى يرسل الاشارات الحركية الى العضلات عن طريق الأعصاب المحركة (١) .

---

(١) اذا قورن المخ البشرى بالمخ الالكترونى ، فانه يوازى مخا يحوى على الاقل ١٥ ألف مليون أنبوبة الكترونية ٠٠ وقد أجرى هذه المقارنة الدكتور جوهانس شالريه عالم الأبحاث البيولوجية فى معهد كاليفورنيا التكنولوجى الذى يؤكد ان المخ البشرى يحتوى على ١٥٠٠٠ مليون خلية عصبية ، كل خلية منها تعمل بقوة واحد على ألف مليون من « الوات » ، ويعمل المخ كله بقوة تبلغ حوالى عشرة وات ٠

وعندما يؤدى المخ عمله ويولد تيارات كهربائية مباشرة ومتغيرة ، فانه يعمل بقوة تتراوح بين واحد على ألفين وواحد على ٢٠٠ ألف من الفولت ، بذبذبة تتراوح بين ٨ الى ١٤ سيكل فى الثانية ٠

وتسمى الألياف العصبية التى تحمل الرسائل من الحواس الى المخ ، أعصاب الحس أو الأعصاب المرسلة ، أما الألياف التى تنقل الرسائل منه الى العضلات فتسمى أعصاب الحركة أو الأعصاب المرجعة . وهناك ألياف أخرى توصل المراكز والخلايا العصبية بعضهـا ببعض وتسمى الروابط وتقدر سرعة التيار الذى يحمل الرسائل من المخ واليه عن طريق الأعصاب بنحو ثلاثين مترا فى الثانية الواحدة [١] .

مراكز الاحساس والحركة بالمخ

واللحاء أو قشرة المخ وسطحه ، هو مركز الأعمال الفكرية كما أسلفنا ، وقد توصل العلماء منذ أوائل القرن العشرين الى تحديد مناطق خاصة فى اللحاء يتحقق بها الادراك لمختلف الحواس ، وتنبعث منها الحركة الى سائر أنحاء الجسم . وقد قسمت مراكز المخ ومناطقه الى ثلاث :

(١) حسية (٢) حركية (٣) مشتركة .

فأما الحسية فتشمل مراكز السمع والبصر والذوق والشم والحس ، وأما الحركية فهى التى تصدر منها أعصاب الحركة الموصلة للأعضاء كاليد والرجل والوجه والعنق واللسان . ويدخل فى هذه مراكز للشعور بحركة الجسم . وأما المراكز المشتركة فهى التى تحتفظ بآثار المراكز السابقة وتنتفع بها فى الفكر والتخيل والتذكر .

ويقع مركز البصر فى مؤخر اللحاء من أسفل ، ويقابله مركز الذوق والشم الذى يقع فى مقدم اللحاء من أسفل وخلف مركز الذوق يقع مركز السمع ، ويقع فوق الأذن تقريبا ، وبين مركزى البصر والسمع مركز الكلمات المرئية والكلمات المسموعة ، كل بجانب المركز الذى يلائمه ، ومركز الأفكار السامية فى أعلى المقدم الى الأمام ، ويقع خلفه مركز

---

(١) فى علم النفس ص ٤٩

الكتابة فمركز الكلام . وفى الجهات الباقية من أعلى اللحاء وأواسطه تقع مراكز الحركة والأحساس العضلى ، والشعور بحركات الجسم ، على هذا الترتيب من الأمام الى الخلف . ويقـع مركز حركات الرأس الى الأمام ، وخلفه مركز حركات الرجل ، واليد والوجـه على الترتيب من أعلى الى أسفل . وتحت مركزى حركات الرأس والوجه ، يقع مركز حركاتاللسان والشفتين ، وهذه المراكز تقع فى كل من جانبى المخ ، ولكن مراكز الجانب الأيسر هى مراكز الحس والحركة للقسم الأيمن من الجسم وبالعكس .

وقد أمكن التوصل لمعرفة هذه المراكز عن طريق التجارب التى دلت على أن أى خلل يحصل لأحد هذه المراكز يستتبعه على الفور حـدوث شلل فى العضو المتصل به . وضربة شديدة على مركز الكلام مثلا ، تسبب تعقدا دمويا قد يمنع المريض عن الكلام حتى يذهب هذا التعقد . ومع عدم القدرة على الكلام يظل الشخص المصاب يسمع ويرى ويكتب ما يريد اذا لم تكن مراكز السمع أو البصر أو الكتابة قد أصيبت بأذى .

المخيـــخ

يقع المخيخ تحت المخ وفوق النخاع المستطيل وخلفه ، وفى أسـفل مؤخرة الجمجمة . ويتكون مثل المخ من طبقتين ، طبقـة سطحية سمراء اللون تكثر بها الخلايا ، وبها قليل من التلافيف ، وطبقة داخلية بيضـاء اللون وتكثر بها الألياف العصبية . وينقسم المخيخ الى ثلاثة فصوص ، واحد فى كل جانب والثالث فى الوسط ، وهو أصغر من الأولين ، ويسمى بالدودة .

ومهمـة المخيخ أن يقوم بمسـاعدة المخ بضبط العضـلات وتنظيم حركاتها ، كى تحفظ توازن الجسم ، فاذا حصل خلل فى المخيخ ، اضطربت حركات الشخص وسكناته وراح يتمايل تمايل الثمل .

ويؤدى المخيخ عمله بطريقة آلية بحتة ، ولا يتدخل المخ فى شئونه الا

عند الحركات الارادية الشعورية كتعليم المشى للطفل ، أو المشى على الحبل .

النخاع المستطيل

ثم يأتى النخاع المستطيل وهو فى الحقيقة امتداد للنخاع الشوكى ، بحيث يمكن اعتباره جزءاً منه ، ويملأ الجزء الوافع أمام المخيخ وتحته فى أسفل الجمجمة وتحت المخ . ويتكون على عكس المخ والمخيخ ، من مادة بيضاء اللون من الخارج وسمراء من الداخل ، ومعنى ذلك أن الخلايا العصبية تكثر بداخله أما الألياف فتكثر فى طبقته الخارجية .

ويقوم النخاع المستطيل بتنظيم الحركات الآلية الداخلية ، كالدورة الدموية ، وعملية التنفس ، والهضم ويساعد النخاع المستطيل العصب السمبتاوى فى القيام بوظيفته .

النخاع الشوكى

يملأ القناة الشوكية التى فى العمود الفقرى ، ويتألف من مادة تسمى النخاع الشوكى ، ومن الممكن اعتباره أغلظ عصب فى الجسم ، ويبلغ طوله نصف متر . ويتكون مثل النخاع المستطيل من مادة بيضاء سطحية ، وأخرى سمراء داخلية فخلاياه العصبية فى الداخل وأليافه فى الخارج ، الا أن المادة السمراء الداخلية تقل بالتدريج حتى تنعدم فى الثلث الأسفل.

وتخرج من كل من جانبى النخاع الشوكى أعصاب تذهب الى جميع أجزاء الجسم فتوصله بالمخ والحواس والعضلات ، ووظيفة النخاع الشوكى هى القيام بالأعمال المنعكسة مما سنتحدث عنه فى الفصل التالى .

الأعصاب

وتكون الأعصاب الجهاز الدائرى للجسم . والعصب مجموعة من الألياف العصبية المتفرعة من خلايا مختلفة وتنقسم الأعصاب الى ثلاثة أقسام وهى :

١ — أعصاب حس أو أعصاب مرسلة وهى التى تحمل الآثار من الحواس وباقى الجسم الى المراكز العصبية العليا أو السفلى.

٢ — أعصاب حركة أو أعصاب مرجعة ، وهى تنقل الرسائل من المراكز العصبية الى العضلات ، فتقوم هذه بعملها حسب اشارة المراكز العصبية .

٣ — أعصاب مشتركة أو وصلية ، وهى التى توصل المراكز العصبية بعضها ببعض ، أو تقوم مقام أعصاب الحس والحركة ، فقد تكون الرسالة التى تحملها رسالة من مركز احساس ، وقد تكون من مركز حركة .

وهذه الأعصاب كلها متصلة بالمجموعة المركزية أى الدماغ والنخاع الشوكى ، ولذلك فهى تنقسم الى قسمين : قسم دماغى ، وقسم شوكى . فأما الأعصاب الدماغية فيخرج بعضها من المخ والبعض الآخر من النخاع المستطيل ثم تذهب الى الحواس والعضلات . أما الأعصاب الشوكية فتخرج من النخاع الشوكى خلال ثقوب على جانبيه واقعة بين الفقرات . وهذه الأعصاب تذهب الى الجلد والحواس والعضلات ، ففروع الحس تذهب الى الجلد والحواس ، وفروع الحركة تذهب الى العضلات لتأمرها بالحركة عند الطلب .

ثانيا ـ الجهاز العصبى الآلى أو السمبتاوى

والى جوار الجهاز العصبى الرئيسى أو المركزى ، يقوم الجهاز العصبى الآلى وهو الذى يمكن كل عضو من أعضاء الجسم الداخلية من التعاون مع الجسم كله فى معاملاته مع العالم الخارجى .

ويتكون هذا الجهاز من عقد عصبية ممتدة على جانبى العمود الفقرى، وكل عقدة تتصل بما فوقها وبما تحتها من أعصاب بحيث تكون هذه العقد

والأعصاب ما يشبه حبلين معقدين ممتدين على جانبى العمود الفقرى ثم يلتقيان على مقربة من أسفل العمود الفقرى ويكونان حبلا واحدا أو سلسلة واحدة .

وتتصل الأعصاب الشوكية بهذه العقد بعد خروجها من النخاع الشوكى بقليل ، وترسل هذه العقد خيوطها وأليافها الى الأعضاء الباطنية كالقلب والرئتين والكبد والكليتين .

ويطلق على الأعصاب السمبتاوية أو الآلية لمناطق الرأس والحوض اسم (باراسمبتاوية) أما تلك الخاصة بالظهر فتسمى (السمبتاوية) .

ويتلقى كل عضو من أعضاء الجسم تأثيرين مختلفين من هذين النوعين من الأعصاب فى وقت واحد ، فالباراسمبتاوية تبطىء القلب فى حين أن السمبتاوية تزيد من سرعته ، والأولى تمدد حدقة العين بينما تسبب الأخيرة تقلصهما وهكذا . وتبعا لسيطرة أحد هذين الجهازين أو الآخر ، تكتسب المخلوقات الحية أمزجتها المختلفة . ودورة كل عضو خاضعة لتنظيم هذه الأعصاب ، فالأعصاب السمبتاوية تحدث ضيق الشرايين واصفرار الوجه ، كما يلاحظ عند الانفعال وعند الاصابة بأمراض معينة[1] .

سيطرة الجهاز العصبى على الجسم

بهذين الجهازين العصبيين المركزى والسمبتاوى ، يتحقق للانسان سيطرته الكاملة على جسده ، وذلك عن طريق الارادة . وسنرى فى الفصل التالى كيف أن ارادة الانسان لا تقف عند حد السيطرة على أجزاء الجسم الداخلية ، بل انها تصل الى حد السيطرة على كل ما يحيط بالانسان .

---

(١) اعتمدنا فى الدرجة الأولى فى وصف الجهاز العصبى على كتاب « فى علم النفس » للأساتذة حامد عبد القادر — ومحمد عطية الأبراشى — ومحمد مظهر سعيد .

ولكن أيكمل الانسان بالفعل ، لمجرد أنه أصبح جسما حيا قادرا على الحياة والحركة والنمو والتناسل ؟ لا ، انه لا يستحق بعـد أن يوصف بالكمال الانسانى ، ان كل هذا الذى قصصناه مهما يأخذ بلبك فهو لا يعدو أن يكون الطريقة التى يتكون بها أى حيـوان ثديى ، بل ان الحيوانات الثديية الأخرى تولد بجهاز عصبى أقوى من جهاز الطفل الانســانى ، الذى يحتاج الى بضعة أسابيع بعد الميلاد قبل أن تتحول أعماله وحركاته من أعمال آلية بحته ، الى حركات انفعالية ، وهى ما يولد عليهــا أى حيوان . ثم يحتاج الى بضعة شهور أخرى لتظهر عليه أول امارات التمييز، وبضعة شهور أخرى قبل أن يستطيع النطق أو الانتقـال من مكان الى مكان ، وهو ما يولد عليه أى حيوان .

فالانسان من حيث هو جسم حى ، ليس فيه ما يعلو على أى حيوان آخر من حيث الحركة والنشاط والعمل على حفظ الذات والنوع ، بل ان الحضارة الحديثة قد هبطت بجسم الانسان وفاعليته الى مستوى دون مستوى أى حيوان ، فبأى شىء يدرك الانسان كماله الانســانى الذى جعله سيدا لهذا الكون ؟ انه يدركه كما هو معروف ومشهور بعقله وقد حانت الساعة لنحاول التعرف على هذا العقل الانسانى ، أى شىء هو ، ما هى طبيعته ، وهل له مكان معين من جسم الانسان كما يتصور بعض الماديين ؟

ولن نستطيع أن ندرك شيئا من كنه العقل الانسانى الا اذا حاولنا أن نحدد بالضبط النقطة التى يفترق فيها الانسان عن الحيوان .

اين يفترق الانسان عن الحيوان ؟

كان أرسطو أول من حاول أن يحدد الفارق بين الانسان والحيوان

عن طريق تعريفه الخالد « الانسان حيوان ناطق » . واعتبر النطق دائما هو آية العقل الانسانى ، الذى يصل الى ذروته فى اختراع اللغات بكل ما تحويه من فقه وآداب وفنون وأشعار وعلوم ومعارف .

وعندنا ، أنه مهما يكن الرقى الذى وصلت اليه اللغات البشرية ، فيجب ألا يحجب ذلك عنا الحقيقة التى يقول بها التطوريون ، من أن النطق عند الانسان لم يكن يعدو فى بادىء الأمر مجرد اخراج الأصوات للتفاهم بين أفراد النوع ، كما هو الشأن بالنسبة للطفل حتى فى هذه الأيام . فاذا كان هذا هو مدلول النطق ، فمن العبث أن ننكر على الحيوانات أنها ناطقة . فالحيوانات تخرج من فمها أصواتا مختلفة تعبر بها عن أغراض مختلفة ، ومن الواضح أن كل نوع من الحيوانات يتفاهم مع بعضه .

وقد انتهى بعض علماء السلوك فى العصر الحديث الى القول بأن الحيوانات تتحدث فيما بينها ، بل وصل الأمر ببعضهم الى حد اعداد قاموس يحتوى على اثنين وثلاثين كلمة مختلفة يتفاهم بها الشمانزى [1]. وكأن الطبيعة تريد أن تكشف لنا عن أن النطق لا يخرج عن كونه عملية اخراج أصوات ، فكان الببغاء القادر على محاكاة بعض عبارات الانسان فينطق بها نطقا فصيحا مبينا . فالقول بأن الانسان ينفرد عن الحيوان بالنطق قول غير سديد . [2]

رب قائل يقول ليس المهم هو اخراج الأصوات حتى ولو كانت تقليدا

---

(١) الجانب الأنسانى عند الحيوان ص ١٥١ .

(٢) لم يشك الانسان فى العصور القديمة فى أى وقت من الاوقات فى أن الحيوانات تتكلم كما يتكلم الانسان ، وأن للحيوانات لغاتها الخاصة . وقد جاء فى القرآن الكريم عند الحديث عن سليمان ما يفيد أن النمل يتكلم « قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها » (سورة النمل آية ١٧ ــ ١٩) كما دار الحديث بين سليمان وبين الهدد .... الخ

كاملا لصوت الانسان وكلماته ، وانما المهم هو الادراك وهو مالا يتوافر لدى الحيوان ، فنحن عندما نصف الانسان بأنه حيوان ناطق فنحن نعنى الادراك خلف النطق .

ومرة أخرى لا يوجد لدينا أى دليل ينفى الأدراك بمعناه الواسع عند الحيوان ، بل ان الدليل يقوم على توافره عنده ، وأنه قابل للنمو والاتساع كما هو الشأن عند الانسان . ونحن نشاهد من حين لآخر بعض الحيوانات المدربة وهى تقوم بما يدهشنا بل ويذهلنا ، سواء فى ملاعب السيرك أو لدى بعض الأشخاص . وقد جاء فى كتاب الجانب الانسانى عند الحيوان حديث عن كلب فى الولايات المتحدة يسمى « تبى » كان محـلا لمباحث العلماء ، اذ يقوم بمائة وخمسين حركة مختلفة بناء على التعليمات الصادرة له ، فيحرس البقر ويجلب الحطب ويحمل الرسائل ويحضر بكرات الخيط أو الغليون حسب الطلب ، ويفرق بين ورقة الدولار والخمسة دولارات [١] كما تحدث الكتاب عن حصان مشـــهور « كليفر هانز » أشهر الخيول المتكلمة قاطبة والذى بهر العلماء فى قدرته على الجمع والطرح . [٢] . وقد كان من الجائز ألا أصـــدق أنا شخصيا أن يكون هنــاك حيوان يجمع ويطرح ، لو لم أشهد ذلك بنفسى حيث رأينا فى القاهرة فى أحد الملاعب التى وفدت عليها من الخارج (سيرك) ، فيلا كان يجمع ويطرح ويضرب بعض الأعداد الصغيرة ، وذلك عن طريق طرح السؤال عليه والاجابة عليه بالطرق بخرطومه بعدد حاصل الجمع أو الطرح . ويقول علماء النفس ان الحيوانات فى أمثال هذه الحالات انما تستجيب لاشـــارات وتلميحات تصدر من مدربها لكى تقوم بهذه الحركات ، وعندنا أن النتيجة واحدة

(١) الجانب الانسانى عند الحيوان ص ٧٩ ـ واسماء الكلاب السنمائية ، رن‌تن‌تن ، ولاسى أشهر من أن تعرف .

(٢) الجانب الانسانى عند الحيوان ص ٨٣

وهى أن لدى الحيوان ما يجعله يستجيب لهذه الاشـارة أو تلك بهذا التصرف أو ذاك ، وهذا هو الادراك .

وقد أثبت كثير من علماء السلوك الأفذاذ مثـل ثورندايك قدرة الحيوان على تعلم الكثير مما كان يظن استحالة أن يتعلمه الحيوان . وأى كتاب حديث لعلم النفس تراه مزدانا بصور بعض قرود الشمبانزى كالقرد (سلطان) الذى دربه العالم كوهلر واعتبر رمزا لما يمكن أن يحققه القرد من ذكاء [1] حيث يستطيع أن يحل بعض المشاكل التى تعرض له عن طريق الاستعانة ببعض الآلات التى وضعت فى متناول يده .

ومن هنا لا يمكن اعتبار الادراك فارقا من حيث الطبيعة بين الانسان والحيوان .

الفنون وتذوق الجمـال

ويحاول البعض أن يرى فى تذوق الانسـان للجمال ، العنصر الذى يميز الانسان عن الحيوان . ومرة أخرى لا يوجد لدينـا دليـل على أن الحيوان لا يتذوق الجمال بدوره ، أو لا يطـرب للموسيقى ، أو ينتشى بجمال الطبيعة . وفى بلادنا نرى كيف تستجيب الخيول للموسيقى فترقص رقصها المشهور ، ونحن نسمع صوت الكروان الذى يغرد فى الليـالى المقمرة ، بل ان الطيور كلها والعصافير تزقزق عند طلوع النهار كمـا لو كانت مبتهجة بجمال الصبح الرائع ، ونحن نعرف كيف يزهو الطاووس بذيله شعورا منه بجماله ، كما ان ذكور الطيور والحيواانات كلهـا بصفة عامة أجمل منظرا وريشا من الأناث ، والرأى مجمع على أن هذا التفوق فى الشكل هو سلاح الذكر لاغراء الأنثى ، ومعنى ذلك هو الاقرار بتذوق أنثى الحيوان للجمال .

---

(١) مبادىء علم النفس ـ يوسف مراد ـ ص ٣١١

وقيل لنا ان ادرار بعض البقر من اللبن قد زاد عندما صاحبت الموسيقى العملية من خلال الراديو . ومن المقطوع به أن احاطة المواشى بجو نظيف يساعد على تحسن صحتها وزيادة ادرارها .

الضمير والكبت

وهكذا تنهار بدورها فكرة انفراد الانسان بتذوق الجمال كحد فاصل بينه وبين الحيوان . ولذلك قيل ان الفارق الحقيقى هو فى قدرة الانسان على كبت بعض غرائزه ، وما يتمتع به الانسان من ضمير يأمره وينهاه ، وما استتبع ذلك من تدين الانسان وعبادته لله .

ومرة أخرى تؤدى بنا الملاحظة الى اسقاط هذا الفارق بين الانسان والحيوان ، فالحيوان المدرب يكبح شهواته من غير شك ، فهو لا يأكل وان وجد الطعام أمامه وكان جائعا ، مادام أن صاحبه لم يأذن له بتناوله ، وحيوان السيرك يعرف ما يجوز له عمله ومالا يجوز ، وأى حيوان مدرب يخشى طائلة العقاب الذى يحل به اذا هو قام ببعض الأعمال ، ويطمع فى نيل الجائزة اذا هو قام بأعمال أخرى . وخوف العقاب ورجاء الثواب هو ضمير العدد الأكبر من البشر ومظهر تدينهم الوحيد .

والحديث عن وفاء الكلاب أشهر من أن يعرف ، ووفاء الخيول لأصحابها وحزنها عليها مسألة مقررة بدورها ، وكثيرا ما يضحى كلب من أجل سيده ، أو حصان من أجل سيده كذلك . فليس صحيحا اذن أن الانسان قد اختص بالضمير ، بل ان الصحيح أن بعض البشر هم الذين قد يتجردون من كل ضمير ، أما الحيوانات فلا يمكن بحال أن تخلو من كل ضمير ، على الأقل الضمير الذى تفرضه الغرائز .

فلا النطق ولا اللغة ولا حب الجمال أو الضمير والتفريق بين الخير والشر بالأمور التى تفرق بين الانسان والحيوان ، ومن هنا قال الأقدمون

بأن الحيوانات تتعبد كالانسان [1] وقال علمـاء السلوك المعاصرون إنه لا فرق بين الانسان والحيوان فى أى وجه من الوجوه ولذلك أصبحوا يجربون على الحيوان ما يريدون تطبيقه على الانسان .

ولكـــــن

وحقا قد لا يكون هناك أى فارق بين الانسان والحيوان فى كل هذه الأمور التى ذكرناها ، ولكن ذلك لا يعنى بحال أن الانسان هو والحيوان سواء ، ذلك أن عنصر الخلاف انما يكمن فى الواقع فى هذا الجوهر الفذ ، جوهر الحرية ، فالانسان هو الكائن الوحيـــد الذى يتصف بالحرية حرية التصرف ، حرية الاختيار ، أما الحيوان أيا كان قدره وتدريبه فهو معدوم الحرية .

أنظر الى النملة كم هى مدهشة ورائعة ، انظر اليهـا وهى تعيش فى مدينة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى المدينة ، وهى تعيش فى مجتمع مثالى من الناحية الشيوعية البحتة « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » ومع ذلك فان هذا النمل بكل هذا الابداع والاعجاز لا يختلف فى قليل أو كثير عن أى ورقة شجرة تنمو بطريقة معينة وتتنفس بطريقـة معينة ، وتقوم بدور محكوم لا تستطيع عنه حولا . ان النملة كأى ذرة من الذرات محكومة بقانون ثابت، فالنملة اليوم كما كانت منذ عشرين مليون سنة وكما ستكون بعد ألف مليون سنة اذا لزم الأمر ، والطيــور تبنى عشها بنفس الطريقة ومن نفس المواد التى كانت تبنى عشها منها منذ ملايين السنين . ومن هنا يبدأ الفارق بين الانسان وبين سائر مافى الكون مــن

---

(١) تغص كتب السيرة النبوية بالحديث عن الغزالة ، والناقة والضب الذى آمن برسول الله وكلمه . وموضع الشاهد هنا أن البشر قد سلموا دائما بفكرة امكان تعبد الحيوان .

كائنات ، بينه وبين الشمس والقمر وبقية النجوم فهى كلها ثابتة على حالها مذ كانت على صورتها الحالية ، أما الانسان فهو المخلوق الوحيد فى هذا الكون الذى يأبى الا أن يغير شكله من يوم لآخر بل ومن ساعة لأخرى اذا لزم الأمر . أو لم تر الى هؤلاء الرجال الذين يلبسون فى الصباح زيا غير زى المساء ، وهؤلاء النسوة اللواتى قد يبدلن أزياءهن فى اليوم الواحد بضع مرات ؟ . فالانسان يأبى أن يستقر على حال ، ويعتبر ذلك جمودا لا يليق به . قارن بين الانسان حين كان يعيش بين أوراق الشجر ، وهذا الانسان الذى أصبح يعيش فى ناطحات السحاب ، بكل ما تحويه من مصاعد كهربائية وأنابيب للغاز والماء . قارن بين هذا الانسان الأول وهو يحاول أن يعبر بعض القنوات أو مجارى الماء فوق قطعة طافية من الخشب ، وبين هذا الانسان الذى يعبر الآن المحيطات فى هذه المدن العائمة ، التى تغص بالفنادق والمسارح والملاعب . قارن بين الانسان وهو يعدو على قدميه ، كأسرع وسيلة للمواصلات وبينه اليوم وهو يسابق الريح والصوت ويسعى للحاق بسرعة الضوء ، تعرف أين يكمن الفرق الحقيقى بين الانسان والحيوان ، فحيث كل مافى الكون من كائنات يلزم صورة معينة لايعدوها، الا تحت تأثير سبب خارجى ، نرى الانسان هو الكائن الوحيد الذى يتغير بدافع من داخله ، بقوة عاملة فى نفسه ، بما نسميه ارادته ، الارادة الحرة المختارة . وبهذه الارادة يبدع الانسان مالم يكن موجودا فى الطبيعة من قبل . هذه القدرة على الابداع والخلق هى مظهر العقل الأكبر .

ويقول البعض ان هذا العقل هو آخر تطورات المادة وصورها ، أى أنه جاء حين من الدهر لم يكن للانسان هذا العقل ، ولقد رأينا فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، كيف أن قدرة الانسان على الخلق والابتداع قد صاحبته مذ كان انسانا . لو لم يكن الانسان مزودا بهذه القدرة لما استطاع

أن يخترع الكلام ، واللغة والآلات والنار والزراعة ، فمحـال أن تتصور الانسان فى أى لحظة من تاريخ حياته ، غير خالق أو مبتكر ، والا لكان شأنه شأن أي حيوان آخر لايستطيع أنه يخرج على الصورة التى هو عليها من الضعف أو العجز أو القصور .

فوهم أن يتصور متصور أن عقولنا اليوم أكمل من عقول انسان ما قبل التاريخ ، أو أن عقولنا اليوم قاصرة بالنسبة لعقول من سيجيئون بعدنا ، فالعقل جوهر واحد لايقبل الزيادة أو النقص ، فاما أن يكون هناك عقل أو لايكون ، ولقد وجد العقل بكماله مذ كان الانسان انسانا .

الأقدمون والعقـــــل

والعقل عند الأقدمين لم يكن يؤلف مشكلة ، فهو أحد مظاهر الروح التى هى قبس من الله ، والعقل كالروح شىء يغاير المادة ، فهو لايتحيز فى مكان وهو يعلو على الزمان والمكان . ولقد بلغ من تكويم علماء المسلمين للعقل ، أن اماما عظيما كالغزالى ، لا يتردد فى نسبة حديث الى رسول الله فى تعظيم العقل ، مع أن علماء الحديث قد شكوا فى صحة نسبة هذا الحديث الى رسول الله ، يقول هذا الحديث « أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبـل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال الله وعزتي وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك . بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب .»

ويضيف الطبرانى فى روايته للحديث « بك أعرف وبك أحمد وبك أطاع »[1] .

(١) الأحياء للغزالى الجزء الأول ــ ص ٨٢ والحديث معدود لدى الفقهاء من الأحاديث الضعيفة ، وهو يروى بصيغة أخرى ليكون أكثر قبولا بابدال كلمة أول بلما ، بحيث يصبح نص الحديث «لما خلق الله العقل» . وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه « التراث اليونانى فى الحضارة الاسـلامية » أن بعض المستشرقين يرجعون هذا الحديث الى أصل أفلاطونى ــ ص ٢١٩

وأحسب أن ليس وراء ذلك تكريم للعقل البشرى ، ولا عجب أن كان ذلك موقف أئمة المسلمين ، فالقرآن الكريم من أوله الى آخره اشـادة بالعقل البشرى .

وجاءت النظريات المادية تحاول أن تهدم العقل كظـاهرة تختلف فى طبيعتها عن المادة ، وقد كان ذلك هو النتيجة الطبيعية لانكارهم الروح من قبل ، وأصبح الرأى أن المخ البشرى هو العقل ، والمخ هو هذه الكتلة المعروفة من المادة الحية ، والتى نجدها عند كل الحيوانات الراقية ، فهو أحد مظاهر تطور المادة الحية ، وقد راح يتعقد ويتعقد ، حتى اذا وصل الى درجة معينة من التعقد انبثق منه هذا العقل الانسانى الذى أصبح ينفرد بالقدرة على التفكير والابتداع والاختيار .

وعندهم أن عمليات الفكر والتصور والتذكر والتخيل والارادة ليست الا تفاعلات كيمائية أو كهربية من نوع ما . والتعلم هو عملية تسجيـل للمعارف التى يحصلها الانسان على خلايا المخ ، كما تسجل الأصـوات والصور على أشرطة التسجيل وأفلام السينما ، وما الاستذكار والفكـر الا اعادة هذه الانطباعات والتسجيلات المخزونة فى خلايا المخ وتلافيفه ، التى يربو عددها على ملايين الملايين من الوحدات .

ثبوت بطلان مادية الفكر

فاما أن عمليات التفكير هى لون من ألوان تفاعل المادة على أى صورة من الصور ، فهذا ما أثبت العلم التجريبى فساده وبطلانه ، ذلك أن كل تفاعل فى المادة معناه حدوث تغير فى طاقتها بالنقص أو الزيادة ، وقد أصبح لدى علماء السلوك المعاصرين أجهزة دقيقة وحساسة الى الحد الذى يجعلها قادرة على تسجيل حركة الكترون واحد ، وقد أمكن أن يسجل بهذه الآلات التغيرات التى تطرأ على المخ عندما يقوم الانسان بأى حركة مادية كتحريك

أصبع أو ثنى ورقة ، كما سجلت هذه الآلات كذلك التغير الذى يطرأ على المخ لدى حصول أى انفعال يطرأ على الانسان مهما يكن طفيفا ، الأمر الذى أثبت بطريقة جازمة أن جميع حركات الانسان وانفعالاته هى تفاعلات مادية بالفعل ، ولكنهم عندما حاولوا أن يقيسوا النشاط الفكرى بنفس الأسلوب ، لم تسجل الآلات أى تغير فى المخ مهما يكن التفكير عنيفا ، فلا حل المعضلات الرياضية ، ولا اطلاق الخيال على سجيته قد سجل أى قدر من الطاقة ، الأمر الذى جعل الكثير من العلماء ينبذون هذا الرأى الفطير من أن العقل ضرب من ضروب المادة كما سنرى بعد قليل . على أن بعض العلماء أصروا على الرأى القديم ، قائلين ان عجز الآلات الحالية عن تسجيل أى تغير فى الطاقة عند التفكير ، لا يعنى أن ذلك لن يكون فى قدرتنا فى المستقبل القريب أو البعيد ، عندما يتاح لنا صنع آلات أدق . وقد كان من الممكن أن تظل هذه الحجة قائمة الى ماشاء الله دون أن يستطيع الانسان دحضها ، فتعليق حل أى قضية على المستقبل يخرجها على التو من ميدان البحث ، ولكن من حسن الحظ أن العقل البشرى نفسه قد تولى الاجهاز على مادية الفكر بما لا يحتاج الأمر فى اثباته الى الآلات الموجودة حاليا أو التى يمكن أن توجد فى المستقبل .

وقد كان الفضل فى هذه الناحية للفيلسوف الفرنسى برجسون ، الذى كان من أوائل الذين تصدوا لدحض مادية الفكر عن طريق العمل والتجريب. فقد راح خلال عشرين سنة يلاحظ المصابين (بالأفزيا) ، أى بأمراض الذاكرة والكلام ، فخرج من ملاحظته بالحقائق القاطعة بأن العقل لا يمكن أن يكون عملية مادية على أى وجه من الوجوه ، وفى ذلك يقول « يتفق حيث يكون الفساد الدماغى خطيرا ، وحيث تكون الذاكرة اللفظية مصابة اصابة بليغة أحيانا ، أن ترجع فجأة الذاكرة التى بدا أنها فقدت فجأة . وذلك على أثر

تنبيه قوى بعض الشيء ، كانفعال مثلا . فهل كان يمكن ذلك لو أن الذكرى موضوعة فى المادة الدماغية التى فسدت أو تلفت ؟ الواقع أن الأمور تجرى كما لو كان الدماغ يفيد فى التذكير بالذكرى لا بالاحتفاظ بها » [1]

ومضى العلماء بعد برجسون فى هذا الطريق الذى سلكه ، الى أن جاء التطور الجراحى فى عمليات المخ فاذا بالحقيقة تتضح نهائيا من خلال التجربة ، فقد أجريت عمليات جراحية لبعض الأشخاص حيث استئصل فيها أجزاء هامة من أمخاخ بعض المرضى [2] ، فاذا بهم بعد هذا الاستئصال يذكرون مالم يكونوا يذكرون ، ويفكرون بخير مما كانوا يفكرون . فلو كانت خلايا المخ هى مخزن الذكريات لوجب أن تنقص الذاكرة بمقدار ما نقص من المادة المخية لا أن تزيد ، ولو أن الفكر تفاعلات كيمائية لوجب أن يضعف بانقاص المادة المتفاعلة لا أن يقوى .

واليوم يعتبر القول بأن المخ هو العقل مظهرا من مظاهر الجهل والسوقية العلمية والفجاجة ، والرأى العلمى المتفق عليه اليوم أن المخ هو الجهاز الذى يستخدمه العقل لمزاولة قدرته ، ولكن المخ لا يمكن أن يكون العقل نفسه ، انه مركز التوصيلات التلفونية (السنترال) الذى لا يمكن أن تتم مكالمة تلفونية الا عن طريقه ، ولكنه ليس المتكلم نفسه .

يقول ألكسيس كاريل « ماهو الفكر ، ذلك الكائن العجيب الذى يعيش فى أعماق ذاتنا دون أن يستهلك أى قدر قابل للقياس من النشاط الكيميائى ؟ هل يتصل بأشكال النشاط المعروفة ؟ ألا يمكن أن يكون هو منظم الكون ، وأنه بالرغم من تجاهل الأطباء له ، أهم من الضوء ، قطعا ؟

---

(١) الطاقة الروحية ص ٤٦
(٢) مدخل الى علم النفس الحديث ص ١٥٥

هل هو نتاج الخلايا العقلية ، كما ينتج البنكرياس الأنسولين والكبد الصفراء ؟ وهل يحتوى على نوع من النشـــاط يختلف عن ذلك الذى يدرسه الأطباء ؟ ويعبر عن نفسه بقوانين أخرى وتولده خلايا الغشـاء المخى ؟ **أم يجب اعتباره كائنا غير مادى يوجد خارج الفراغ والزمن خارج ابعاد العـــالم الكونى ، ويدخل فى مخنا بطريقة مجهولة لنا** ؟ [1] .

ان كتاب الكسيس كاريل كله هو رد على هذا السؤال بالايجاب ، فالعقل عنده شىء غامض مجهول ، ولكن الأمر المحقق عنده ، أن العقـل « أعظم قوة فى الوجود » .

ويقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه النفيس (وحدة المعرفة) :

« من المستحيل تفسير الذاكرة أو الحب أو الضمير على أنها نتيجـة تغييرات كيمائية أو فيزيائية فى المخ ، فهذه لا يمكن أن تبلغ من الدقة الى الحد الذى يكون فيه لكل فكرة أو احساس معنوى مادة كيمائية خاصة أو ضغط كهربى خاص . ثم انالأعمال العقلية العنيفة لم يصحبهـا زيادة فى استهلاك الأوكسجين ، مما يدل على أن العمليات العقلية ليست كيمائية. ومن المستحيل أن تتصور انشاء سفر جميل على أنه عمل كيمائى فيزيائى ، لذلك كان حتما على العلماء أن ينبذوا الرأى القائل بأن تركيب المخ هـو أصل وظيفة العقل [2] » .

---

(١) الانسان ذلك المجهول ص ١٤٧

(٢) على أن الدكتور محمد كامل حسينلايلبث أن يقرر أن علم الايلكترونات قد يفسر عمل الذاكرة فى المخ ولكنه يعود ليستدرك : « وأكرر هنا اننا لانقول بأن عمل المخ الكترونى خالص من نوع الشريط المسجل ، فاننا لانعلم كثيرا عن الأيلكترونات الخاصة بالمواد العضوية عامة وبمادة الخلايا العصبية خاصة » (ص ١٤٠)

وعندنا انه لا جديد فى تفسير الذاكرة تفسيرا آليا من اىنوع كان ، فان=

وأخيرا نختتم بقول شرنجتون ذلك الذى اقتبسنا منه كثيرا باعتباره من أئمة علماء الطبيعة الماديين :

« لقد أصبح بقدرة العلم الطبيعى أن يفسر الحيـاة باعتبارها تنفسا وحركة ونموا وتوالدا وتحليلا للأغذيةفىالأنسجة ...الخ ، ذلك أنهلا يوجد شىء من هذه الظواهر لا يقع تحت سلطان العلم ، انها كيمائيات وطبيعة . ولكن هذا الشىء الآخر المصاحب للحياة وهو الفكر فانه يهرب من دائرة العلم الطبيعى ويظل بعيدا عنه ، حتى لقد بدأ العلم الطبيعىيتجاهلهباعتباره شيئا يخرج عن دائرة بصره ، وبهذا نشأ فارق أساسى بين الحياة والعقل ، فالحياة موضوع للكيمياء والطبيعة ، أما العقل فيهرب منها ، بحيث يمكن تلخيص الانسان فى أنه يتألف من : طاقة وعقل » .

وعبثا نمضى فى نقل ما انتهى اليه جمهرة علماء الطبيعة الماديين ، وعلماء الحيـاة الذين أعلنوا افلاس قوانين المادة ونواميسها فى تفسـير العقـل الانسانى وما انتهوا اليه من أن العقـل الانسـانى ظاهرة تستعصى على الادراك .

وعلى أية حال فأيا كانت طبيعة العقل ، وهل هو أحد ظواهر المادة ، أم هو شىء يعلو عليها ، فالأمر الذى لم يعد عليه أى خلاف هو أن اتصاف الانسان بالعقل قد جعله أرقى مافى هذا الكون من كائنات ، وهـو أمين الطبيعة على تطورها . يقول جوليان هكسلى أحد غلاة الماديين :

« ان للانسان عقلا وشخصيةلا نظير لهما ، وهما من أرقى ما أنتجه

= الصعوبة ليست فى الذاكرة ،ولكنها فى المخيلة التى تبتدع شيئا جديدا لم يسبق له وجود فى الذاكرة ، والذى قلنا فى الفصل الرابع انه قد يكون تنبؤا بشىء سيكون فى المستقبل ، فأى دور يمكن ان تلعبه الايلكترونات فى ذلك ؟؟!

التطور حتى الآن . والانسان هو المثل الفذ للحياة وأمينها على كل تقدم فى المستقبل [١] .

أليس ذلك عوداً من الباب الخلفى لما قيل قديما من أن الانسان ظل الله على الأرض وخليفته ، وحامل أماناته ؟

انه الانسان (٢)

ليس الانسان اذن كما زعم الزاعمون من علماء القرون الثلاثةالماضية، ممن فتنوا بالمادة وآلية الطبيعة ، هو هذه الهباءة الهائمة فى هـذا الكون اللانهائى ، وانما هو حيث عرف نفسه منذ أقدم العصور مركزا للكون ومستودعا للعقل الخلاق الذى يعلو على الزمان والمكان .

أما أنه مركز هذا الكون فيؤيده بالدليل والبرهان أنه يقع فى الوسط تقريبـــا بين الذرة والنجم ، فلكى نبنى انســانا فنحن فى حاجـة الى ... ر ... ر ... ر ... ر ... ر .. ر .. ر ... ر ... ر١ ذرة ، ولكى نبنى نجما فنحن فى حاجة الى عدد من أجسام البشر يساوى هـذا الرقم تقريبا [٣] أو ١٠ ^٢٨^ . »

ولعل هذا التوسط فى الحجم بين الذرة والنجم ، هو ما يجعله أكثر قدرة على رؤية ما يعلوه وما يسفله ، ولم يكن الانسان متجنيا عندما جعل من نفسه أداة القياس وأعطى لنفسه الحق فى الحكم على الأشياء بالكبر والصغر . ولم يكن بمحض الصدفة أو بدون مغزى أن جعـل الانسان

---

(١) الأنسان فى العالم الحديث ص ٣٧

(٢) اقرأ بهذا العنوان الكتاب الرائع للاســـتاذ خالد محمد خالد « انه الانســـان »

(٣) الأنسان فى العالم الحديث ص ١٤٦

الفضيلة وسطا بين طرفين وأصبح خير الأمور عنده ما كان فى الوسط .

والكلمة الآن لكل انسان على حدة ان شاء نظر الى نفسه كذرة من التراب لا حول لها ولا طول ، وان شاء ارتفع بنفسه الى فوق النجوم بما أودع فيه من عقل خلاق وارادة نافذة ، وقد حان الوقت لندخل فى صميم نظريتنا وهى قدرة الارادة الانسانية على فعل ما تشاء فى هذا الكون .

مراجع خاصة بالفصل الخامس

٦٢ — تاريخ الأرض — جورج جامبو أستاذ الطبيعة بجامعة جورج واشنطون تعريب محمد أبو شلباية

٦٣ — علم الأحياء كتاب مدرسى

٦٤ — محاورات رينان الفلسفية للأستاذ على أدهم

٦٥ — الوراثة والسلالة والمجتمع — تأليف ل.س ودوبزهانسكى ترجمة عز الدين فراج

٦٦ — هذا الانسان — للدكتور حبيب صادر (من سلسلة كتب اقرأ)

٦٧ — فى علم النفس — تأليف الأساتذة حامد عبد القادر — محمد عطية الابراشى — محمد مظهر سعيد

٦٨ — الجانب الانسانى عند الحيوان ، تأليف فانس باكار ، ترجمة سعد غزال

٦٩ — الطاقة الروحية هنرى برجسون — ترجمة سامى الدروبى

٧٠ — الأحياء للغزالى

٧١ — التراث اليونانى للحضارة الاسلامية — الدكتور عبد الرحمن بدوى .

٧٢ — العلم والحياة — تأليف عز الدين فراج .

٧٣ — الصعود الى المريخ — الدكتور محمد جمال الدين الفندى

٧٤ — مدخل الى علم النفس الحديث — ا . ل . زانجويل ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .

٧٥ — The Physical Basis Of. Personality By V.H. Mottram.

٧٦ — The Human Machine By Sir Adolphe Abrahams.

٧٧ — Man on his Nature By Sir Charles Sherrington.

٧٨ — Beyond the Microscope By Kenneth M. Smith.

مراجع سبقت الاشارة اليها

— وحدة المعرفة للدكتور محمد كامل حسين

— مبادىء علم النفس — الدكتور يوسف مراد .

الفصل السادس

الإرادة الإنسانية

انطواء الانسان على الارادة الخالقة ـ انكار الارادة الانسانية ـ الجبر والاختيار ـ المسلمون الأوائل وكيف فهموا الارادة الانسانية ـ علماء السلوك ونفى الارادة الانسانية ـ أعمال الانسان الآلية والمنعكسة والارادية ـ الارادة تعمل من خلال الصور ـ شروط تحقق الهدف ـ الضرورة ـ الوحدة ـ الغاية تبرر الواسطة ـ الثبات أو التركيز ـ كيفية تحقق الارادة ـ نفاذ الارادة الانسانية احد قوانين الطبيعة ـ الأرقام القياسية فى الرياضة ولماذا تكسر دائما ـ المواهب ـ لاعبو السيرك ـ أتباع اليوجا ـ من ديموستين حتى بتهوفن ـ هيللين كيللر ـ عجزة يتحولون الى أبطال عالميين فى الرياضة ـ العقبات الاجتماعية لا تحول دون الوصول الى القمة ـ جوستنيان وتيودور ـ نابليون وجوزيفين ـ هتلر وايفا براون ـ كليمنت السابع ـ الأحوال التى لاتنفذ فيها ارادة الانسان ـ الاصطدام بالنواميس الطبيعية ـ أحوال القضاء والقدر ـ اصطدام الارادات البشرية ـ هل للجماعة ارادة أقوى من ارادة الفرد ؟ ـ تلخيص .

انتهينا فى الفصل السابق الى أن الانسان ، هو الكائن الوحيد فى الطبيعة المزود بقوى العقل وأن مظهر هذه القوة العقلية انما يتجلى فى الدرجة الأولى ، فى قدرة الانسان على الخلق والابداع اذ يوجد شيئا لم يكن موجودا من قبل ، وما كان ليوجد لو لم يوجده الانسان ، وما الفنون بموسيقاها وأغانيها والرسم والتصوير والنحت والشعر والقصص ، والعلوم والفلسفة بنظرياتها وفروضها وتجاربها ومحاولاتها ، والصناعات بآلاتها ومنتجاتها ، وطرق تنظيمها ، والاختراعات كلها الا آية هذا الخلق والابداع الذى انفرد به الانسان عن سائر الكائنات .

ولقد قلنا من قبل ونقول ثانية ، ان هذه القدرة على الخلق والابتكار هى النتيجة الحتمية لتمتع الانسان بحرية الاختيار ، ان شاء سار فى هذا الطريق أو ذاك ، ان شاء أقدم على عمل من الأعمال أو كف عنه ، هذه الحرية فى الاختيار هى ما يعبر عنها بالارادة .

واتصاف الانسان بالارادة مسألة مسلم بها من سائر البشر ، فما من انسان الا ويحدثك عما أراده ويريده من نفسه ، ومن أولاده وممن حوله ومن الأيام ومن الطبيعة ومن الله . اذا تحدث الانسان فبارادة يتحدث ، وبقدرته فى كل وقت وآن أن يصمت ، واذا تحرك فبارادته يتحرك ، لأن باستطاعته دائما أن يسكن ، واذا تعامل مع الناس فبارادته يتعامل ، بارادته يبيع ويشترى ويقترض ويقرض ويودع ويوصى ويهب ، ومهمة القانون فى كل زمان ومكان امضاء ارادة الانسان ، فاذا تعاقد مع آخر نفذ عقده ، اذا كان ذلك هو ما أراده الطرف الآخر كذلك . واذا قتل انسان آخر عامدا فنحن نعاقبه على ارادته ازهاق الروح ، أما اذا حدث ذلك عن غير عمد أو قصد ، فنحن لا نحاسبه الا عن اهماله بمعنى عدم استخدام ارادته فى الأخذ بأسباب الحيطة . وعندما يتعمد انسان أن يقتل آخر فيطلق عليه الرصاص أو يدس له السم ولكن الجريمة تخيب لأسباب خارجة عن ارادته ، فنحن نعاقبه على الشروع ، نعاقبه على ارادته الشر الذى اذا كان لم يتحقق فلأسباب خارجة عن هذه الارادة [١] .

فارادة الانسان باعتبارها أساس كل نشاط يصدر عن الانسان مسألة مقررة يجمع عليها البشر ويحسها كل انسان من نفسه ، ويشكو لانعدامها أو ضعفها فيه ، سواء بسبب داخلى أو سبب يأتى من الخارج . وما من

---

(١) مادة ٤٥ من قانون العقوبات

انسان الا ويتمرد فى وقت من الأوقات على ما يعتبره اهدارا لارادته ، وكم من الناس لاقوا حتفهم لا لشيء ، الا لرغبتهم فى الافصاح عن ارادتهم ، وكم من أناس يكفرون بالله وبالحق وبالفضائل كلها بل ويرتكبون أشنع الجرائم ، لا لشيء الا لأعمال ارادتهم والتحدى بهذه الارادة .

انكار الارادة الانسانية

وقد وجد دائما بين البشر ، سواء من آمن منهم بالله خالقا لهذا الكون متصرفا فيه ، أو الذين لا يعرفون غير الطبيعة الها خالقا ، من ينكرون أن يكون للانسان ارادة حرة مختارة ، فالله عند المؤمنين هو خالق كل شيء، وصانع كل شيء . وقد خط فى اللوح المحفوظ منذ الأزل أعمال العباد صغيرها وكبيرها ، خيرها وشرها . والقول بغير ذلك كفر وتجديف واشراك بالله . وقد انتهى علماء المادة والطبيعيون بصفة عامة ، الى مثل هذا القول . فكل شيء فى الطبيعة بما فى ذلك أعمال الانسان ، تتم بحتمية لا سبيل للفكاك منها ، وأصبح القول بحتمية التاريخ والعمل على أساس هذه الحتمية هو ما يدعو اليه كل معتنقى الشيوعية .

والحق أن هذه المشكلة التى صدعت العقل البشرى مذ كان الانسان انسانا ، ولا تزال تصدعه ، من المشكلات المستعصية على الحل فيما يبدو باعتبارها تتصل بسر الوجود الذى هو لغز الألغاز . فلا الفلسفة بكل حولها وطولها ، وكل الحرية فى التفكير التى منحتها لنفسها ، ولا العلم بكل ماوصل اليه من تقدم ، قد استطاع أن يمضى بنا خطوة واحدة نحو استجلاء هذا السر الرهيب . بل ان الأديان نفسها التى تحدثت عن طريق الوجدان والمشاعر لم تستطع بدورها أن تحسم هذه القضية ، بما لا يدع معها مجالا للمناقشة حتى من وجهة نظر التسليم المطلق . فالكتب السماوية كلها تتضمن من النصوص ما يوحى بهذه الفكرة أو تلك . فالانسان طبقا

لتعاليم هذه الكتب ، مدعو للقيام بأعمال معينة ومنهى عن القيام بأعمال معينة ، وهو موعود بالمكافأة اذا هو قام بالأعمال الأولى ، مهدد بالعقاب والعذاب اذا هو قام بالأعمال التى نهى عن فعلها . وذلك لا يستقيم ولا يمكن أن يكون مفهوما بحال من الأحوال ، الا على أساس أن يكون الانسان حرا مختارا فى كل ما يقول أو يفعل ، ان شاء آمن وان شاء كفر ، والقول بغير ذلك لا يجعل هناك أى معنى للعقاب أو الثواب ، أو التحدث عن الجنة لمن أحسن عملا والنار لمن أساء عملا ، فمن العبث ومما يتنافى مع العدل الذى لا يمكن الا أن يكون أخص خصائص الله ، أن يعاقب الانسان على عمل لم يقع بارادته ، وانما كان مفروضا عليه فرضا ولا يستطيع عنه حولا . وفى هذا المعنى يقول الامام الغزالى « واعلم أن من ظن أن الله تعالى قد أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمر ونهى ، ووعد وتوعد لغير قادر مختار ، فهو مختل المزاج يحتاج الى علاج »[1] .

النصوص التى تشير الى حرية الأنسان

على أن القول بحرية الانسان وارادته فيما يفعل ، لا يقف عند حد أنه يستنتج استنتاجا من كون الانسان مكلفا ، والتكليف والمسئولية لا يكونان الا حيث تتوافر الارادة الحرة ، ويفيض القرآن الكريم بعشرات من الآيات التى تبرز هذه الارادة الانسانية وتؤكد قيامها ، واقرأوا ان شئتم :

— وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (الكهف — ٢٩)

— ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . (الرعد — ١١)

---

(١) القضاء والقدر لعبد الكريم الخطيب ص ١٦٠ . وقد كان هذا هو رأى المعتزلة جميعا الذين أعلوا من شأن العقل فى القرن الثانى للهجرة .

— من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب . (الشورى — ٢٠)

— وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى — (النجم — ٣٩ — ٤١)

— لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت (البقرة — ٢٨٦)

— ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . (الاسراء — ١٥)

وهكذا تنهمر الآيات التى تتحدث عن ارادة الانسان ومشيئة الانسان ، وأنه مجزى بأعماله ان خيرا فخير وان شرا فشر بغير ظلم أو اجحاف ، « وما ربك بظلام للعبيد » .

ومن ناحية أخرى فقد حوى القرآن نصوصا تمسك بها القائلون بأن ليس للانسان ارادة فيما يفعل :

— وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين . (التكوير — ٢٩)

— ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها (الشمس ٧ ، ٨)

فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء (فاطر ٨)

— وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى . (الانفال ١٧)

— الله خالق كل شىء — (الزمر ٦٢)

ومن هنا افترق متكلمو المسلمين وفلاسفتهم أشد ما يكون الافتراق، واشتد الصراع بينهم ، وكل فريق منهم يكفر الآخر ويتهمه بالزيغ والزندقة والالحاد . وبحسب الانسان أن يطالع أحد الكتب التى تعرضت لهذه

الآراء المختلفة بالمناقشة والتمحيص ، ككتاب الفصل فى الملل والنحل لابن حزم أو الملل والنحل للشهرستانى ، لكى لا يتمالك الانسان أولا من الاعجاب لهذا المستوى الفكرى الرفيع الذى وصل اليه المجتمع الاسلامى فى ذلك الوقت ، وكيف استطاعوا أن يعالجوا هذه الأمور ، التى تبدو للكثيرين منا فى العصر الحديث شائكة ، بكل هذه الحرية وسعة الأفق .

أما الأمر الثانى الذى يخرج به الانسان من مطالعة هذه المناقشات والمساجلات ، فهو أن جميع من اشتركوا فيها ، لم يسلموا من الوقوع فى التناقض . فهذا ابن حزم نفسه وهو من الذين شنعوا وأغلظوا على كل من يقول بأن الانسان يخلق أعماله ، لا تلبث أن نراه يقرر حرية الانسان واختياره فيما يفعل « فان قيل فهو مختار لما يفعل قلنا نعم اختيارا صحيحا لا مجازا ، لأنه مريد ، لكونه منه محب له مؤثر على تركه ، وهذا معنى لفظة الاختيار على الحقيقة ، وليس مضطرا ولا مجبرا ولا مكروها » (١)

فلاسفة المسيحيين وعلماؤهم

ولا يظنن ظان أن هذا الخلاف فى طبيعة أعمال الانسان ومصدرها ، وقف على مفكرى المسلمين ، بل لقد ثار هذا النقاش لدى المسيحيين فى العصور الوسطى ، كما نراه لدى علماء اليهود وأحبارهم ولعل القول بأن أعمال الانسان هى كلها من عمل الله مباشرة ، قد وجد فى مالبرانش الفيلسوف الفرنسى (١٦٣٨ — ١٧١٥) أعظم نصير ومدافع بلغ به التطرف الى حد أن يقول : « لا توجد سوى قوة واحدة هى التى خلقت العالم وهى التى تدبره ، فاذا ما تخيلت يدى تدفع حجرا ، فليست يدى هى التى

(١) الفصل فى الملل والنحل ــ الجزء الثالث ــ ص ٥٣

دفعته ، بل دفعه الله ، واذا ما رميت سهما فليست يدى التى نزعت القوس بل الله ، بل اذا حركت ذراعى فليست ارادتى علة الحركة بل الله الذى يحرك ذراعى ويرسل ساقى ويفتح أجفانى ويطلق لسانى بالكلام . » [1]

رأينـــا الخـــاص

وأعيذ نفسى من أن أتصور أن بقدرتى أن أحـل هـذا الاشـكال المستعصى ، وهو على كل حال لا يمكن أن يحل عن طريق التمسك بهذا النص أو ذاك ، فقد رأينا مدى ما يمكن استخلاصه من معان متعارضة ، وعلى كل انسان أن يحل هذه القضية على ضوء ما يحسه من أمر نفسه .

فأحيانا يرى الانسان نفسه مسوقا للقيام بأعمال ينكرها ، ومع ذلك فهو يقدم عليها دون أن يكون بقدرته دفعها أو الامتناع عن عملها ، وهناك أمور أخرى يرى الانسان فيها نفسه يختار بين أمرين أو ثلاثة أمور أو أكثر أو أقل ، ثم يرجح أحد هذه الأمور ، يرى الانسان من نفسه أنه قد يتصرف اليوم فى أمر ، ثم يتصرف فى اليوم التالى فى نفس هذا الأمر تصرفا يغاير تصرفه بالأمس . يرى كل انسان من نفسه أنه يندم على بعض الأعمال ، ويجاهد نفسه على عدم الاقدام عليها ثانية فينجح أحيانا ويفشل أحيـانا أخرى ، فيحس بالسعادة اذا نجح ويعزو ذلك لقوة ارادته ، ويحـزن اذا فشل ، وينعى على نفسه ضعف الارادة .

واذا كان الله الخالق قد وضعنا موضع المسئولية ، وأرسل لنا الرسل وبعث لنا بالكتب التى تخاطب عقولنا ، وتستثير فينا وجداننا ، وتحـاول اقناعنا عن طريق المنطق والدليل العقلى والبرهان ، الى السـير فى طريق الخير وتجنب طريق الشر ، فمن العبث أن نضع أنفسنا دون ما أراد الله لنا من مكانة ، فننفى عن أنفسنا الارادة وبالتالى المسئولية ، ونرتكب الجرائم

---

(١) الواجب ـ جول سيمون ـ ترجمة محمد رمضان وطه حسين .

زاعمين أنها بكل مافيها من فظائع هى من عند الله ، ونؤذى أنفسنا والآخرين عن عمد ثم نزعم أن الله هو مصدر الايذاء .

الحق أن الطريق المفتوح أمام أى انسان مؤمن بالله أشـد الايمان وغارق فى التدين حتى الأذقان هو أن يمارس المسئولية التى عهد الله بهـا اليه ، معملا ارادته فى كل ما يعرض له من أمور ، مؤمنا أشد الايمان بأن ما وقع منه بارادته واختياره فهو من عمله وصنعه هو وعليه أن يتحمـل مسئوليته .

واذا كان هذا هو ما يجب أن يكون عليه موقف المؤمنين بالله ، فأولى به أن يكون هو موقف الذين لا يؤمنون بغير الطبيعة ، فالارادة الانسانية ليست سوى الطبيعة فعلى الانسان أن يعمل هذه الطبيعة طبقا لما يشـاء ويختـار .

علماء النفس السلوكيون والأرادة

واذا كان بعض المؤمنين بالله ينكرون أن يكون للانسان ارادة فيمـا يقول أو يفعل ، فهم فى نهاية الأمر لا ينكرون الارادة من أساسها وانمـا ينفونها عن الانسان ويثبتونها لله ، وهم بذلك لا يضعون حدا على قدرة الانسان مادام الذى يقوم بأفعاله هو الله .

ولكن هناك من الناحية الأخرى بعض علماء النفس المحدثين ، ممن أطلق على مدرستهم اسم المدرسة السلوكية ، ذلك أنهم يدرسون سلوك الحيوان ثم يطبقونه على الانسـان ، يقول أصحاب هـذه المدرسـة ان « الارادة الانسانية » هى نوع من لغو الكلام أو هى وهم لا حقيقة له ، ولا ضرورة لها لتفسير أعمال الانسان وتصرفاته ، وبالاستطاعة تحليـل أعمال الانسان بغير حاجة لاستعمال هذه القوة الغامضة التى لا تعرف لها مكانا فى جسم الانسان أو مستقرا .

فالكائن البشرى لا يعدو أن يكون آلة مهيأة بصفة خاصة لتحويل الطاقة من صورة لأخرى ، فنحن نستمد الطاقة من الطعام الذى نأكله ومن المنبهات التى تنبه أعضاء الحس لدينا ، كما اننا نطلق الطاقة فى كل ما نقوم به من أفعال .

والكائن الحى ينمو فى رحم أمه طبقا لقانون معلوم كما رأينا ، ثم يولد مجهزا بميول معينة ودوافع تنحدر اليه من طريق الوراثة عن أبويه والجنس البشرى بصفة عامة ، ومن شأن هذه الميول والدوافع والاستعدادات التى فطر عليها الانسان ، أن تجعله يستجيب لمنبهات أو مؤثرات تقع داخل جسمه أو خارجه ، فتؤثر هذه المنبهات على أعضاء الحس المنتشرة فى أنحاء الجسد وعلى سطحه ، للاحساس بكل صنوف المؤثرات من مرئيات ضوئية أو مسموعات صوتية أو مشمومات أو مطعومات أو ملموسات ، فلا يكاد يقع واحد من هذه المنبهات المختلفة حتى تنطلق طاقات أعضاء الحس الكائنة فيها فتنتقل عبر أعصاب الحس الى أن تصل الى الجهاز العصبى المركزى [1] . ويطلق السلوكيون على هذا الجهاز العصبى المركزى اسم « المعدلات العصبية » لأن الطاقة الاحساسية التى تصل اليه تتحول فى هذا المركز الى طاقة حركية وتعدل قوتها الى القدر المناسب لاحداث الحركة المطلوبة ، فاذا ماتم التحويل والتعديل انطلقت الطاقة الحركية عبر الأعصاب الحركية ، فتتحقق الاستجابة المطلوبة للمنبه الذى حدث . ويطلق على هذه العملية اسم القوس المنعكس ، وتتم أعمال الانسان اما بقوس منعكس بسيط أو بسلسلة من الأقواس المنعكسة .

---

(١) راجع ص ٢٠٥

ويلخص واطسون عقيدة السلوكيين فى العبارة المشهورة عندهم :

« اذا عرف المنبه أمكن التنبؤ بالاستجابة [1] » فليس هناك شيء اسمه ارادة انسانية وليس هناك فكر أو حرية أو اختيار وانما أعمال آلية بحتة تتم بقوة الانعكاس .

تجارب السلوكيين تثبت الارادة

وعندنا أن ليس هناك ما يؤكد انطواء الانسان على الارادة من هذا الذى انتهى اليه السلوكيون بعد التجارب المضنية والأعمال الباهرة التى يراها الانسان مشروحة فى كتبهم . ففى عالم الجماد والمادة ، يحدث المحرك دائما نفس الحركة فى الجسم المتحرك ، أما بالنسبة للانسان فالسلوكيون لا يمارون فى أن المحرك لا يحدث دائما نفس الأثر فى الانسان ، فقد يوجد المحرك فلا يتحرك الانسان ، واذا تحرك فقد تكون الحركة اقداما أو احجاما أى سلبية تارة وايجابية تارة أخرى ، وهكذا لا يصدق على الانسان ما يصدق على الجماد ، وهذا ما حدا بهم الى استعمال كلمة المنبه بدلا من كلمة المحرك ، تمييزا للمؤثر الذى يؤثر على الانسان من المؤثرات على غيره من الموجودات .

الفعل ورد الفعل

ومن ناحية أخرى فان قوانين المادة تقرر ان رد الفعل يكون دائما مساويا للفعل وفى الاتجاه المضاد له ، أما فى الكائن الحى فالتفاوت كبير جدا بين الطاقة التى يطلقها المنبه ، والطاقة التى تتم بها الاستجابة سواء من ناحية الكم أو النوع . فالطاقة الحاسة تتحول الى طاقة محركة تختلف معها فى الكم . ومن هنا فقد استعمل علماء النفس وعلى رأسهم السلوكيون كلمة الاستجابة تمييزا عن رد الفعل المستعمل فى الجمادات .

---

(١) ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية ـ الجزء الاول ـ ص ٤٣٧

ولقد رأينا أن الذى يقوم بعملية التحويل والتعديل هو الجهاز المركزى أو المعدلات العصبية ، ويكون السؤال الذى يجابهنا هو ، بأية قوة وعلى أى أساس تتم عملية التحويل والموازنة التى تختلف من انسان لانسان ، بل تختلف بالنسبة للانسان الواحد من لحظة لأخرى ؟ ان الســـلوكيين لا يكلفون أنفسهم عناء الجواب على هذا السؤال ، انهم يحلون المشكلة بتجاهلها واخراجها من ميدان البحث ، متعللين أحيانا بأن المستقبل كفيل بايجاد الجواب ، وواصفين أحيانا هذا الذى يجرى فى المعدلات العصبية بأنه قدرة الانسان على التكيف ، ففى الانسان قوة موروثة تجعله قادرا على التكيف مع البيئة المحيطة به ، وبهذه القوة تتم عمليــة التحــويل والتعديل فى المعدلات العصبية ؟؟ !

وهكذا نجد أنفسنا أمام كلمة جديدة للتعبير عن حقيقة ثابتــة وهى « القدرة على التكيف » ، ويكون من الأحجى أن نواصل استعمال الكلمة التى يفهمها كل انسان ويدركها كل انسان ألا وهى الارادة [1] ، الارادة الانسانية التى يحسها كل انسان من نفسه والتى نظمت المجتمعــات على أساسها وقامت القوانين لحمايتها ان كانت خيرة ، ولتردعها وتصدها اذا أســـاءت .

هل للانسان أعمال ارادية وأخرى غير ارادية ؟

عندما بدأ علم النفس الحديث يشق طريقه من خلال التجارب المعملية رؤى تقسيم أعمال الانسان الى ارادية وغير ارادية . وقسمت الأعمال غير الارادية بدورها الى أعمال آلية وأعمال منعكسة وأعمال غريزية .

(١) يقول الدكتور يوسف مراد فى كتابه « مبادىء علم النفس » لامندوحة لنا اذن عن مواجهة مشكلة الارادة ، ومهما حاولنا ان ننكر هذه المسألة باغراقها فى مياه المجهول فانها تعود لتطفو على سطح الماء » ٠ ص ٣٢٢

الأعمـــال الآلية

والأعمال الآلية هى هذه المجموعة من الأعمال التى تتم داخل الجسم لتؤدى سائر الأجهزة وظائفها اللازمة لسير الحياة والمحافظة على الجسد فى مجموعه فى حالة سليمة ، وذلك كحركة الدورة الدموية وعملية التنفس وحركة الرئتين وعملية الهضم وافرازات المعدة وتقلصاتها وافراز الغــدد الصماء وغير الصماء .

الأعمال المنعكسة

أما الأعمال المنعكسة فهى تلك التى تلى هذه الأعمـــال الآلية فى الأهمية حيث تهدف للمحافظة على عضــو بعينه ، وتحتــاج الى منبــه خارجى لانبعاثها ، ومثالها سحب اليد عند الشعور بالأذى ، واتساع حدقة العين وضيقها حسب شدة الضوء ، أو اغــلاق العين عنــد اقتراب جسم مفاجىء منها ، أو الاجفال عند سماع صوت مفاجىء أو عمليـــة العطس والتثاؤب ... الخ .

الأعمال الغريزية

والأعمال الغريزية ، هى مجموعة الأعمال التى تنبثق من القوة الحيوية الكامنة فى أفراد النوع كله ، بحيث لا يحتاج أى فرد من أفراد النوع الى تجربة سابقة أو تدريب من أى نوع كان للقيام بها . فهى بسـلوك للنوع وليست سلوكا خاصا بالفرد ، وهدفها المحافظة على بقاء الفرد كغــريزة الجوع والعطش والنوم ، واما المحافظة على النوع كله كالتناسل،وتوصف الغرائز بأنها عمياء أى أنها تتابع دون أن تدرك الغرض الذى تحققه [1] .

وهذا الوصف بالعمى فى تتابع أعمال الغريزة يصــدق بالأكثر على

---

(١) مبادىء علم النفس ـ الدكتور يوسف مراد ـ ص ٩١

ما يقع من الحيوانات حيث تأخذ الغريزة شكل الأعمال المنعكسة سواء بسـواء .

الأعمال الارادية

ثم يأتى بعد ذلك الأعمال الارادية ، وهى مظاهر النشاط الانسانى التى يختلف فيها كل انسان عن آخر ، ويختلف فيها الانسان مع نفسه من يوم لآخر ومن مسألة لأخرى .. وذلك تبعا لتغير ارادته ، وكنتيجة للأهداف التى يسعى لتحقيقها .

وعلماء النفس الذين ينكرون الارادة الانسانية ، يرون أن أعمال الانسان كلها من نوع واحد وهو الأعمال المنعكسة التى تتم آليا وتلقائيا ، ونحن نوافق على أن جميع أعمال الانسان لا يمكن الا أن تكون من طبيعة واحدة ونوع واحد ، ولكن من نوع الأعمال الارادية أى تلك التى يتحكم فيها الانسان بارادته ان شاء أجراها وان شاء منعها .

وحسبنا أن نحلل أى عمل ارادى لنرى أنه ينطبق على سائر نشاط الانسان . فنحن عندما تعرض لنا مشكلة تتطلب حلا ، وكل ما يعرض للانسان من منبهات ليس الا مشكلة تتطلب حلا ، فان العقل البشرى لا يمكن الا أن يتدخل دائما لفحص هذه المشكلة أو المنبه ، وتقرير أحسن الطرق للاستجابة اليه . فاذا تم اختيار الحل الملائم ، انعقد العزم على تنفيذه وبالتالى انطلقت الطاقات اللازمة للتنفيذ ، فكانت الاستجابة .

وما دام من المسلم به أن طبيعة الحياة وظروف البيئة ، كلاهما فى تغير دائم لا ينقطع ، فان الاستجابة لأى منبه لا يمكن أن تتكرر بتماثل تام فى حالتين حتى ولو تعاقبتا على التو ، وما دام الأمر كذلك فلا مناص من تداخل هذه المراكز التى يسمونها المعدلات العصبية ، والتى نسميها نحن العقل ، فى كل حالة لتقرير ما ينبغى أن تكون عليه الاستجابة . وكل مافى

الأمر انه اذا كانت المشكلات أو المنبهات التى تعرض للانسان من النوع المتشابه المطرد المستمر الذى لا يمكن تصور استمرار الحياة الا باطراده فان حل هذه المشاكل أو بالأحرى الاستجابة لها يتم بسرعة يخيل لنا معها أنها تحدث فى نفس الوقت الذى يحدث فيه المنبه ، كما أنها تتم بطريقة لا نكاد نلحظها أو نشعر مقدما بحدوثها ، والسبب فى ذلك أنها تحدث باطراد وثبات على نسق واحد ، ومن هنا لا يحس الانسان بها لأن الانسان لا يحس أو يشعر الا بما يطرأ عليه التغير من نوع ما .

أعمال ارادية تبدو كما لو كانت منعكسة

على أنه حتى هذه السرعة فى الاستجابة ، والاحساس بعدم وجود فترة للتروى والتفكير بين المنبه والاستجابة ، لا يمكن أن يكون فرقا بين الأعمال التى توصف بالمنعكسة والآلية وبين الأعمال الارادية . فان بعض الأعمال الارادية ، بل وأروع هذه الأعمال ، قد يتم فى أقل من ومض الخاطر. مثال ذلك عندما يلقى انسان نفسه فى النار أو الماء ، لانقاذ انسان يستغيث بمجرد رؤيته . أو الاندفاع فى ميدان القتال للتضحية بالنفس فداء لقائد أو علم البلاد ، فان هذه الأعمال لايمكن الادعاء بأنها آلية أو منعكسة فليس يقدم عليها الا نفر قليل من الأبطال أصحاب المروءة والشهامة والفدائية ، فهى أعمال ارادية ، ومع ذلك فهى تقع بغتة كأى عمل منعكس ، ولا يحس الانسان معها بترو أو بفكر من أى نوع كان ، ومع ذلك فلا جدال فى أن هذا العمل قد اجتاز كل مراحل العمل الارادى من فحص للمشكلة واختيار أنسب الحلول لمواجهتها ، وانعقاد العزم على تنفيذها .

أعمال منعكسة تتحول الى ارادية

واذا كانت الأعمال الارادية قد تأخذ شكل الأعمال المنعكسة ، فان الأعمال الآلية المنعكسة والغريزية وبصفة خاصة هذه الأعمال الأخيرة تأخذ صورة الأعمال الارادية البحتة .

فالصائم عن الطعام عبادة ، والمضرب عن الطعام احتجاجا على ظلم وقع له، والممتنع عن أنواع خاصة من الطعام حمية وصحة ، والممتنع عن الزواج والتناسل ترهبا ونسكا ، كل هؤلاء يمتنعون عن اشباع حاجات الجسد الأساسية بمطلق ارادتهم ، وهبطوا بهذه الحاجات الى أهداف ثانوية بالنسبة لأهداف أخرى معنوية اعتبروها جوهرية .

وعلى العكس من ذلك قد يشرب الانسان ويسرف فى الشراب بغير حاجة ، عندما يصبح الشرب هدفا فى حد ذاته ، وقد يأكل الانسان ويسرف فى الأكل حتى لو أضر به ذلك عندما تتجه ارادته الى الأكل لمجرد الأكل .

وهكذا نرى أن الانسان اليوم اذا أكل أو شرب ، فهو لا يفعل ذلك بطريقة آلية كما يفعلها أى حيوان ، بل يفعل ذلك لاتجاه ارادته نحو هذا الأكل أو الشرب بهذا الأسلوب وهذه الكيفية . وكذلك الشأن بالنسبة للأعمال المنعكسة لا تتم الا لأن ارادة الانسان تريدها فى كل مرة أن تتم على النحو الذى تمت به ، والا فباستطاعة الانسان أن يتدخل فيها بارادته فيقوم بها ولو لم توجد دواعيها ، أو لا يقوم بها حتى عند قيام دواعيها فباستطاعة أى انسان أن يسحب يده بسرعة بمجرد ملامسته أى جسم كما لو كان ساخنا مع انه لا يكون ساخنا ، وباستطاعته بتدريب خاص — كما يفعل بعض الناس ألا يسحب يده أو رجله عن حديد ساخن أو جسم مؤذى من أى نوع كان . وليس فينا من لا يقمع رغبته فى التثاؤب أو العطس فى بعض الظروف حرصا على بعض الأوضاع الاجتماعية والأدبية .

حتى اذا وصلنا للأعمال الآلية البحتة تلك التى تجرى داخل جسد الانسان على وجه رتيب ، وجدناها ، بدورها لا تمضى فى طريقها ورتابتها الا لأن الانسان يريدها كذلك ، فباستطاعة أى انسان أن يوقف تنفسه بمجرد اتجاه ارادته نحو ذلك ، وكثير من الناس يستطيعون بعد تدريب معين أن يوقفوا

تنفسهم الى مدد لا تكاد تصدق ، كما كان الشأن بالنسبة لغواصى اللؤلؤ فى القديم [1] .

وهناك بعض أشخاص يستطيعون التحكم حتى فى ضربات قلوبهم بالاسراع والابطاء ، بل ان بعض المتدربين روحيا ممن سنشير اليهم بعد قليل قد يوقف قلبه ، كما سنرى فى الفصل التالى ، وعن طريق ايحاء الانسان لنفسه أو ايحاء غيره له ، يصبح من المستطاع التحكم فى أى جزء من أجزاء الجسم واحداث كدمات فى الجسم عن طريق الدورة الدموية وحروق فى الجلد لمجرد توجيه الارادة لاحداثها [2] .

وهكذا نرى أن الأعمال التى يأتيها الانسان كلها انما تنبثق من ارادته وأنها تريدها على هذا النحو .

فسلطان الارادة الانسانية لا يحده حد ، وهو ليس أحد مظاهر الحياة أو ذروتها ، بل هو شىء يغاير الحياة ويعلو عليها ، بدليل أنه قد يتجه لازهاق الحياة واعدامها ، وصحيح أن الانسان يوجد فى هذه الحياة بغير ارادته، ولكن الصحيح أيضا أنه لا يواصل هذه الحياة الا بارادته ، مادام باستطاعته فى كل وقت وآن أن يقدم على ما يضع حدا لهذه الحياة .

فلا مناص من التسليم بأن الارادة شىء يعلو على الحياة نفسها ، ولا عجب فى ذلك فهى كما قدمنا أحد صور العقل الذى اضطر العلم الحديث بالتسليم أنه شىء يعلو على الحياة .

---

(١) جاء فى كتاب مهذب رحلة ابن بطوطة ـ الجزء الأول ـ ص ٢٢٠ :
« ويتفاوت غواصو اللؤلؤ فى الصبر تحت الماء ، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين » وقد علق ناشرو الكتاب على هذا القول بأنه « مبالغة »
وعندنا ان التعبير بالساعة فى القديم لم يكن يعنى الساعة التى نعرفها ذات الستين دقيقة ، وانما هو تعبير عن فترة زمنية طويلة طولا نسبيا .

(٢) من نافذة العقل ـ للدكتور نقولا فياض ـ ص ١٠

وقد حان الوقت لنتساءل كيف تنشأ الارادة وكيف تقوم بدورها ؟

الصـــــور الذهنية :

ما من شيء فى هذا الكون ، الا وله صورة معينة يقوم وجودها عـلى أساسه ، والا فعلى أى قاعدة تنمو بذرة أى نبات من النباتات مؤلفة هذا الشكل الخاص لعشرات الألوف من النباتات التى يتميز كل واحد منها عن الآخر بأوراقه وزهوره وثماره ؟ وعلى أى أساس تتطور خلية كل كائن حى ، لتنتهى الى هذه الأجناس والأنواع التى تغص بها الحياة ؟ كيف تتم عمليات النمو وتبلغ درجات معينة من النضج تقف عندها ، الا أن تكون هناك فى كل بذرة وفى كل خلية حية صورة كامنة فى سائر أجزائها ، فلا تكاد الفرصة تتاح لهذه البذرة أو هذه الخلية حتى تنطلق لتحقق هـذه الصورة الكاملة ؟

وليس من أهدافنا كما قلنا أكثر من مرة أن نخوض فى أبحاث فلسفية عن أصل الوجود ، وهل سبقت المادة الصورة أم الصـــورة المادة ، وهل للصور عالم مستقل كما يقول أفلاطون أم أن الصورة كما يقول أرسطو ممتزجة بالمادة وهو ما يقول به العلم الحديث .

حسبنا أن نلوذ بالواقع الذى يستطيع كل واحد منا أن يفهمه بتجاربه الخاصة وبهداية عقله : فكل ما يحيط بنـا من آلات وأدوات ومهمـات ومنشآت وحضارة انسانية سواء المادى منها أو المعنوى ، هو شيء من صنع الانسان ، قد بدأ كله صورا فى الذهن ، ثم خرج من الذهن ليتجسد فى الخارج رسوما على ورق أو نقشا على حجر أو حركة فى آلة ، أو نظاما يسير عليه البشر .

فالتصور فى الذهن اذن هو الأساس لوجـــود أى شيء من صنع

الانسان ، وهذه مسألة لا تحتاج الى برهان لأنها هى ما يجربه كل انسان بنفسه [1] .

ولما كانت ارادة الانسان هى التى تقوم بكل صنوف العمل ، وهى التى تصنع وتبدع فهى لا يمكن أن تحقق ذلك ، الا من واقع هذه الصور الذهنية التى يجب أن يكونها العقل تحت شرائط خاصة سنعرض لها عما قليل .

وهذه الشروط هى التى تميز بين الصور الذهنية التى تتعلق بها الارادة فتنفذ فى الخارج ، وبين هذه الصور الأخرى التى تتدفق الى الذهن من خلال حواس الانسان ، فكل حاسة تحمل صور المنبهات التى تتعرض لها ، صور سمعية وأخرى ضوئية ، وثالثة ذوقية ولمسية ، ... الخ وكل صورة من هذه الصور ، تثير فى الذهن صورا أخرى ترتبط بها فى الذاكرة بحكم التشابه ، والتضاد والتجاور .

وقد تتدخل المخيلة احدى ملكات العقل الانسانى لتركيب صورة جديدة من هذه الصور القديمة ، ولكن هذه الصور كلها مهما تكن درجة وضوحها فى الذهن ، فهى ليست سوى انعكاس لما وقع فى الخارج . فهى صور سلبية بطبيعتها ، وهى لا تتحول الى صور ايجابية حركية تكون

---

(١) يقول كارل ماركس : أن الشىء الذى يميز أقل مهندس معمارى كفاءة عن احسن النحل ، أن المهندس يرسم صورة الخلية فى ذهنه قبل أن يصوغ الانموذج لها بالشمع . فعملية العمل تنتهى بخلق شىء كان عند بدء العملية موجودا فى خيال العامل أى على صورة فكرية .

فالعامل لايحدث تغييرا فى الأشياء الطبيعية من حيث الشكل فحسب ،بل انه فى الوقت نفسه يحقق فى الطبيعة التى توجد منفصلة عن ذاته الغرض الذى وضعه نصب عينيه .

(رأس المال ــ ترجمة راشد البراوى ــ ص ١٣٥)

مصدرا للطاقات الفاعلة فى الخارج ، الا بعد أن يتم العقل عملياته فيفرغ من التفكير ويختار الهدف المنشود ويعقد العزم على وجوب تحقيقه ، فهنا وهنا فقط تنقلب الصور الحسية أو الطاقة الحسية كما يقول علماء النفس الفسيولوجيون ، الى طاقة حركية أو بالأحرى الى صورة حركية . والذين يتصورون أن ارادتهم قد خابت فلم تحقق ما أملوا فيه أو حلموا به يجب ألا يلوموا الا أنفسهم ، اذا وقفوا عند دائرة تمنى الغنى والشهرة والمجد والنصر والنجاح ، متمثلين صور ذلك كله فى عقولهم عن طريق هذه الصور السلبية ، دون أن يحولوها الى صور ايجابية حركية ديناميكية ، واذن لتحققت على الفور ولحصلوا على ما تمنوه وحلموا به بعد أن يتحول الى ارادة فاعلة .

فما هى هذه الشروط الواجبة لتحقق الارادة هدفها ؟ ، أو بالأحرى الشروط التى تحول الصور السلبية الى صور ايجابية ، والطاقةالاحساسية الى طاقة حركية تفعل فى الخارج ؟

الشروط اللازمة لتحقق الأرادة هدفها

أولا : ضرورة الهـــــــــدف :

لو أننا سألنا أى عالم من علماء الطبيعة والمادة ما الذى يحمل المادة على التطور فى هذا السبيل أو ذاك ، وما هو سر هـــذه النواميس التى تقولون انها تحكم المادة ، لأجابك على الفور هذا هو ما تقضى به الضرورة. فالضرورة هى القوة التى تعلو كل مافى هذا الكون ، وهى التى تسيره وتحكم عليه . والضرورة بهذا المعنى شىء غامض لايمكن للعقل البشرى أن يستوعبه ، ولكن من الحق أن نقرر أن ذلك هو الشأندائما كلما حاولنا أن نخوض فيما وراء الطبيعة ، باحثين خلف العــلل والأسباب الأولى . ولذلك فنحن نناى بأنفسنا عن هذه المباحث الغيبية ، متمسكين بمنهاجنا

الذى اخترناه لكتابنا هذا ، وهو أن نستقرىء دائما الواقع المحسوس الذى يحسه كل انسان من نفسه .

فمنذ أقدم العصور والبشر يفرقون بين صنفين من الأعمال التى قد تقع من الانسان ، فثمة أعمال ، كما ذكرنا من قبل ، يرى الانسان نفسه مضطرا لفعلها بقوة لا يستطيع دفعها سواء كانت من الداخل ، أو آتية من الخارج ، وأعمال أخرى يقدم عليها وهو قادر على عدم الاتيان بها . ولذلك ففى جميع المجتمعات ، يحاسب الانسان على ما يقع منه من أعمال على سبيل الرضا والاختيار ، ولا يعاقب على الأعمال التى تقع منه بالضرورة التى يجمع الكافة على أنها ضرورة . ومن المبادىء الأساسية التى تقابلنا فى كل عصر وزمان ومكان ، أن الضرورات تبيح المحظورات ، بمعنى أن الضرورة تسوغ للانسان فعل ما يعاقب على فعله لو ارتكبه فى غير ضرورة [١] .

وينص قانون العقوبات المصرى كأى قانون عقوبات آخر على انه «لا عقوبة على من ارتكب جريمة ألجأته الى ارتكابها ضرورة وقاية نفسه أو غيره من خطر جسيم على النفس على وشك الوقوع به أو غيره ، أو دفاعا عن نفسه وماله [٢] .

فهناك تسليم من البشر عامة أن ضرورة محافظة كل انسان على حياته تخوله عمل كل شىء للمحافظة على هذه الحياة ، ايمانا من الكافة أن الانسان فى هذه الأحوال يكون مدفوعا بقوة لا تغلب وهى قوة غريزة البقاء .

---

(١) جاء فى القرآن الكريم « فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا اثم عليه » .

(٢) مادة ٦١ من قانون العقوبات ومادة ٢٤٥ الخاصة بحق الدفاع الشرعى .

فالضرورة هى قوة تنبثق منها الطاقات كلها ، طاقات المادة والانسان على السواء .

وعلى هذا فان احساس أى انسان بضرورة أمر من الأمور ، من شأنه أن يولد فيه طاقة تدفعه لأعمال معينة استجابة لهذه الضرورة ، وكلما قوى الاحساس بالضرورة ، زادت الطاقة المنبثقة من هذا الاحساس . وعلى هذا الأساس يحقق البشر الأمور الضرورية لحياتهم ، بمقدار احساسهم بالضرورة بحيث يمكن القول أن هناك تناسبا طرديا بين ضرورة أى شيء للانسان وبين درجة تحققه .

أنظر الى موضوع الهواء ، ان البشر لا يستطيعون الاستغناء عن الهواء ولو للحظة واحدة ، فهو بالنسبة للانسان الضرورة رقم واحد ، ومن هنا فلن تجد انسانا لا يحصل على حاجته من الهواء بدون أى جهد أو مشقة ، فلا فقير هنا ولا غنى ، ولا قوى أو ضعيف ، كل انسان يأخذ حاجته من أكسير الحياة هذا بلا ثمن أو قيود من أى نوع ما ، ، بل وبلا جهد .

ويأتى الماء فى الدرجة الثانية من حيث ضرورته للأنسان ، فباستطاعة الانسان أن يصبر على الظمأ بضعة أيام . ومن هنا فقد بدأ البشر يختلفون فى حظهم من الشرب ونوع ما يشربون ، فهناك انسان اذا أحس بالظمـأ بادر بالشرب ، وآخر يختار أن يفرغ مما فى يده من عمل أولا ، وثالث يمتنع عن الشرب يوما أو يومين لسبب من الأسباب . ولكن النتيجة النهائية بالنسبة لكافة البشر أن كل من كان مقدرا له أن يحيا فلا بد من أن يحصل على الماء وهو يحصل عليه ، يستوى فى ذلك مرة أخرى الغنى والفقير ، والقوى والضعيف وساكن الغابة ونزيل القصور .

ثم يأتى الغذاء فى الدرجة التالية من سـلم الضرورات ، فباستطاعة

الانسان أن يظل على قيد الحياة بدون طعام لبضعة أسابيع ، ومن هنا بدأنا نرى التفاوت يزداد بين البشر بصورة تلفت النظر ، ولا عهد لنا بها فى موضوع الهواء والماء ، ذلك أن كل انسان بدأ يعمل ارادته فى القدر الذى يراه لازما لطعامه فى كل وجبة ، وعن نوع الأكل الذى يقوم بتحقيق الغرض ، وعن الوقت الذى ينقضى بين كل وجبة وأخرى . ولكن النتيجة النهائية هى أن كل انسان مقدر له أن يظل على قيد الحياة فهو يحصل على الغذاء الذى يبقيه حيا .

وهكذا تطرد القاعدة ، ما كان ضروريا للانسان يتحقق ومالا يراه ضروريا لا يتحقق الا بدرجة أهميته . وباستطاعتنا أن نفسر كل الخلافات التى نرى عليها البشر على ضوء هذه القاعدة . فالذين جعلوا ضرورة حياتهم هى الحد الأدنى للحياة فانهم يحصلون على هذا الحد ، أما الذين يرفعون حد الضرورة الى درجات عالية فهم يحققون ارادتهم بتحصيل هذه الدرجات العالية .

فالذين قد جعلوا ضرورة حياتهم الحصول على وجبة طعام فى اليوم ، يحصلون على الوجبة ، والذين جعلوا ضرورة حياتهم وجبتين فانهم يحصلون على الوجبتين ، والذين يأبون الا أن تكون الوجبات ثلاثا فانها تصبح بالنسبة لهم ثلاثا ، والذين يرون ضرورة توسط وجبة رابعة لتناول الشاى ، فانهم يحصلون على الوجبات الأربع .

وأقوام آخرون لم يعد الطعام والشراب وحدهما ضرورة حياتهم ، بل مدوا هذه الضرورة الى بيوت مجهزة بالماء والكهرباء والتلفون ، فانهم يحصلون على ما يريدون فحسب ، فاذا زادت الضرورة عندهم على هذا الحد فأصبحت لا تقنع بغير الثلاجة الكهربائية والسخان ، فانهم يحصلون

على هذه الأشياء . والذين يرون فى السيارة والتلفزيون ضرورة حياتهم فانهم يحصلون على السيارة والتلفزيون ، أما الذين يرون امكان المضى فى الحياة بغيرهما فانهم يمضون فى الحياة بلا تلفزيون أو سيارة .

فالمرجع النهائى هو للانسان ، ما الذى يعتبره ضروريا لحيـاته ومالا يعتبره كذلك ، وبمجرد الاحساس بضرورة هدف من الأهداف فانه لا يمكن الا أن يتحقق ، ذلك أن الارادة تتعلق به وما تعلقت به الارادة يتحقق .

ويكون الشرط الأول لتحقق الارادة أهدافها هو ضرورة هذا الهدف.

ثانيا ـ وحدة الهـــدف

الحق أن هذا الشرط ليس الا أحد نتائج الشرط الأول ، لأن ضرورة الهدف تجعله وحيدا ، والا فلو كان هناك هدف آخر أشد ضرورة لكان هو الذى تتعلق به الارادة . ولو تساوى هدفان فى درجة ضرورتهما بحيث لا سبيل لتقديم أحدهما على الآخر لما فعل الانسان هذا أو ذاك ، فالضرورة فى لحظة من اللحظات لا تكون الا لهدف واحد .

ولعل عدم ادراك الكثيرين لهذه الحقيقة ، هى التى تجعلهم يفشلون فى تحقيق أهداف يتصورون أنهم يريدونها ، وهم لا يعرفون حقيقـــة ما يريدون ، اذ تراهم يترددون بين عديد من الأهـــداف لا يستقرون على واحد منها ، فليس هناك ما يبطل الارادة أو يهبط بها الى درجة التلاشى أكثر من التردد . فالانســـان المتردد بين شتى الأهداف والأغراض قـــد لا يحقق شيئا على الاطلاق ، واذا هو حقق شيئا فلن يكون الا هذا الذى لا يتردد حياله ، وهو الحصول على الطعام والشراب .

هل تستطيع أن تعود الى بيتك اذا كنت خارجا عنـــه ، الا اذا أصبح هذا هو هدفك الوحيد ؟ . هل تستطيع أن تذهب كل يوم الى مقر عملك

الا أن يكون هذا هو هدفك الوحيد ؟ .. هل تستطيع أن ترفع يدك الا اذا وجهت اهتمامك الى هذه الحركة بحيث أصبحت هذه هى هدفك الوحيد فى هذه اللحظة ؟ ويخيل لبعض الناس أحيانا ، أنهم يقومون بعملين فى وقت واحد ، كأن يأكلوا ويقرأوا مثلا ، وليس ذلك الا وهما لأنهم فى الحقيقة لا يقومون الا بعمل واحد فى كل لحظة واحدة ، والذى يحدث أن ارادتهم تتجه تارة الى المطالعة فيقرأون بعض سطور ، ثم تتجه للطعام فيتناولون بعض الطعام ، فلو اندمج فى المطالعة لتوقف عن الأكل ، ولو اندمج فى الأكل لتوقف عن المطالعة ، فهو اذن يوجه ارادته بين العملين على التعاقب، تارة فى هذا الاتجاه وتارة فى الاتجاه الآخر ، وتكون النتيجة هى عدم احسان القراءة وعدم احسان الأكل معا ، لأن القراءة لا تحدث أثرها الحسن ، الا اذا أقبلت عليها بكل طاقتك ، والطعام لا يؤتى ثماره الشهية الا اذا أقبلت عليه بكليتك . وكذلك الشأن بالنسبة لكل ما يهدف اليه الانسان من أهداف . فالذين يسعون لتحقيق هدفين فى آن واحد يفشلون على التحقيق فى الوصول الى أى منهما .

تجزئة الهدف وترتيبه

ولما كان أى هدف يسعى الانسان لتحقيقه قد يكون فى حاجة الى عنصر الزمن كشرط أساسى لتحقيقه ، ولما كان الهدف من ناحية أخرى قد يكون مركبا ومؤلفا من عديد من العناصر التى يجب أن تتجمع وأن تتضافر ، ولما كان الانسان كما رأينا لا يستطيع أن يعمل شيئا صغر أو كبر الا اذا كان هو هدفه الأوحد من العمل ، فقد جرى الانسان على تجزئة أهدافه الكلية أو النهائية الى عديد من الأهداف القريبة أو الصغيرة ، ومع احتفاظه بوحدة الهدف كرابط بين هذا الحشد من الأهداف . فعندما يكون هدفنا هو صعود سلم البيت فنحن نجزىء هذا الهدف الى حشد من

الأهداف الصغيرة القريبة ، وهى صعود درجات السلم واحدة بعد أخرى. وتكون الرابطة بين هذه الأهداف هو الهدف النهائى وهو الصعود الى نهاية السلم .

وعندما يكون هدفنا فى الصباح ، الذهاب الى مقر العمل ، فان هذا الهدف يحلل الى عديد من الأهداف القريبة المتلاحقة التى تؤدى الى هذا الهدف النهائى ، كغسل الوجه وخلع ملابس النوم وارتداء ملابس الخروج وركوب (الأتوبيس) أو السيارة الخاصة . وكل من هذه الأهداف يمكن بدورها تقسيمها لامكان تحقيقها الى عديد من الأهداف الأقرب والأبسط وهكذا .

فأعمال الانسان كلها تتألف من سلسلة من تحقيق عديد من الأهداف ولكن يجب أن ترتبط كلها برباط وحدة الهدف النهائى الذى يشعر الانسان بضرورة تحقيقه . وكل الذين حققوا عظائم الأمور كما سنرى هم الذين وحدوا أهدافهم فى الحياة ، الى الحد الذى جعل الكثيرين يتخذون شعارا لهم « الغاية تبرر الواسطة » .

الغـــاية تبرر الواسطة

سيرى القارىء فى ختام هذا الكتاب ، أننا ممن لا يفرقون بين الغايات والوسائل ، وأنها يجب أن تقاس كلها بمقياس واحـد ، ولكن فرق بين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل . والغاية تبرر الواسطة هى احدى النتائج الحتمية لتوحيد الهدف ، ذلك أن الانسان اذا تردد فى استعمال احدى الوسائل التى تؤدى بالفعل الى تحقيق غايته ، ولكنها تصطـدم مع الدين أو العادات أو الأخلاق الكريمة ، فانه لن يحقق هـدفه الذى يسعى اليه ، ويكون هدفه الحقيقى فى هذه الحالة ، هو صيانة الشرف أو

الدين أو المحافظة على القانون . فالذين يريدون الحصول على المال ولا شيء غير المال ، هم فقط الذين يحصلون على المـال ، أما الذين يريدون الحصول على المال مع المحافظة على الشرف ، فهؤلاء لا يمكن أن يكون حظهم من المال كثيراً ، وفى ذلك يقول السيد المسيح « لا يستطيع أحـد أن يعبد ربين ، لأنه اما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويرذل الآخر ، لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال . [١] وفى هذا المعنى قول القرآن الكريم « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه [٢] . » فالانسان لا يمكن أن يعمل فى وقت واحد من أجل هدفين ، ولا مناص له من توحيد الهدف ، ومن هنا جاءت هذه القاعدة الكريهة «الغاية تبرر الواسطة» فكل من يستميت فى تحقيق هدف معين لا يمكن الا أن يضحى بما عداه من الأهداف . ففى الصراع حول الشهرة والجاه والسلطان والحظـوة لدى النساء والانتصار فى أى حرب ، لا يفوز الا الذى يطبق هذه القـاعدة . ولا تزال كلمات تشرشل فى الحرب العالمية الثانية تدوى فى آذاننا من أن انجلترا على استعداد أن تحالف الشيطان نفسه ، لكى تهزم المانيا . وبهذه الروح فازت انجلترا فى الحرب . ويدعو مكيافللى الأمير فى كتـابه ألا يعمـل وفق قواعد الفضيـلة « حتى لا يلقى الوبال ، ويجب على الأمير أن يفرق فى قوة وحزم بين المبادىء الأخلاقية ومطالب الحـكم ، أى بين الخاص والصالح العام ، وأن يكون مستعدا أن يعمل من أجـل الدولة ما يسمى شرا فى عـلاقة الأفراد بعضهم ببعض ... ومن واجب الأمير أن يقتل كل من ينازعونه عرشه ... وعليه أن يعلم أنه يستطيع أن يحصـل بالمكر والخداع أحيانا أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه بالقوة ... وعليه

(١) انجيل متى الاصحاح السادس ـ ٣٥
(٢) الأحزاب ـ ٤)

أن يكون مرائيا لأن الناس سذج منهمكون فى حياتهم الحاضرة ، الى حد يسهل خداعهم ... الخ [1]

ويتصايح الناس دائما ضد ميكيافللى ولكن هذا لا يمنع أن ما قال به ميكيافللى هو الذى اتبعه ويتبعه بالفعل كثير من الحكام فى كل زمان ومكان تطبيقا لقاعدة الغاية تبرر الواسطة . وما دام الانسان قد وضع نصب عينيه تحقيق هدف معين فلا مناص له اذا أراد أن يحققه من تضحية كل الأهداف والاعتبارات الأخرى ، ان كثيرين ممن يعدهم الناس ناجحين لم يحققوا هذا النجاح الا لأنهم كانوا أقدر من غيرهم على النكث بالعهد والتضحية بالأصدقاء ، بل والغدر أحيانا بالآباء والأبناء ، والوصول الى الهدف المطلوب اذا لزم الأمر على أجساد الضحايا.

ويخلص من هذا أنه بغض النظر عن خيرية الهدف أو شره ، فالشرط اللازم لتحقيق أى هدف هو توحيد هذا الهدف وجعله فوق بقية الأهداف، وتضحية باقى الأهداف من أجله .

ثالثا ــ التركيز على الهدف أى الأصرار

يترتب على الشرطين السابقين ، من ضرورة الهدف وتوحيده ، أن تظل صورته ماثلة فى الذهن لا تبرحه بحال من الأحوال ، الى أن يتحقق . ومعنى ذلك هو تجدد الشعور بضرورة الهدف الوحيد فى كل يوم بل فى كل ساعة وفى كل لحظة ، ويكون ذلك بمثابة اذكاء النار المشتعلة داخل النفس وبالتالى مضاعفة الطاقات التى تنبعث منها لتحقيق الهدف المطلوب. هذه العمليةهى ما نطلق عليها اسمالتركيز ، وما قد يسميها غيرنا الاصرار ، فاذا لم يتحقق هذا التركيز ، فان ذلك يؤدى الى اختفاء صورة الهدف من الذهن وبالتالى اخفاق الارادة فى تحقيق هدفها .

---

(١) قصة الحضارة ــ الجزء الرابع المجلد الخامس ــ ص ٦٧

ان الذى جعل هدفه من الحياة أن يكون مهندسا أو طبيبا أو عالما أو فنانا ، لا يمكن الا أن يجعل لذلك صورة فى ذهنه تكون مصـــدرا لكل نشاطه وبالتالى محور حياته ، فاذا حدث لأى سبب من الأسباب أن وهنت هذه الصورة أو ضعفت ، فسيترتب على ذلك اضطراب نشاط الانسان فى اتجاه الهدف فيتأخر عن تحقيقه ، أما اذا زالت الصـــورة من الذهن ، فمعنى ذلك ضياع كل أمل فى تحقيقها .

ان الذين يريدون تحقيق هدف من الأهداف الكبيرة يصبحـــون ويمسون يضحكون أو يبكون ، يأكلون ويشربون ، يتعاملون مع الناس أو لا يتعاملون ، على ضوء صورة الهدف المرسوم فى أذهانهم وهل يقربهم هذا العمل منه فيقدمون عليه أم يبعدهم عنه فيبتعدون عنه .

ويصف الناس أعمال عظماء الرجال والذين نجحوا فى تحقيق ارادتهم ، بالمثابرة أو شدة الاصرار ، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون الوصف الخارجى لأعمال هذا النفر (١) ، فليست المثابرة أو الاصرار الا ثبات هذه الصورة الذهنية فى رؤوس هذا النفر ، كما هو الشأن بالنسبة لأى انسان يريد هدفا من الأهداف .. فبمقدار ثبات هذه الصورة ونصاعتها فى الذهن يكون النشاط والعمل والمثابرة والاصرار الى أن يتم التحقيق .

وليس هناك ما يزيد الصورة الذهنية وضوحا ونصـــاعة الا زيادة التركيز عليها ، أى تعلق الارادة بها مجددا وثباتها عليها الى أن تتحقق .

وهكذا نرى أن هذه الشروط الثـلاثة التى ذكرناها لتحقق الارادة

---

(١) جاء فى كتاب أصول علم النفس ــ للدكتور احمــد عزت راجح ــ أن دراسة حياة العباقرة تشير الى عوامل أخرى غير الذكاء والمواهب الخاصة كان لها أثر بليغ فى عبقريتهم منهـــا :

١ ــ المثابرة ٢ ــ الطموح ٣ ــ الثقة بالنفس ٤ ــ الرغبـة فى التفوق ٥ ــ القدرة على التركيز الشديد ٦ ــ الصمود .

يؤدى كل منها للآخر ، فضرورة الهدف تجعله واحداً وضرورته ووحدته تجعله ثابتا فى الذهن لا يريم أو يتحول .

فاذا توفرت هذه الشروط الثلاثة ، تحققت ارادة الانسان ببلوغ الهدف المنشود ، أيا كان هذا الهدف . فما هى العلاقة بين ارادة الانسان الداخلية وبين تحقيق الأهداف فى الخارج ، أو بالأحرى كيف يتحقق الهدف ؟

الانسان والكون وحدة واحـــدة

لو أن الانسان أراد أن يقف ، فما الذى يحدث ؟ انه يتصور عمليـــة الوقوف فى ذهنه ، فاذا اتجهت ارادته للوقوف نتيجـــة لتحقق الشروط الثلاثة التى سبق ذكرها ، فان صورة الوقوف الذهنية تتحول الى صورة ديناميكية حركية ، فتنبعث منها الطاقة اللازمة لاتمـــام عمليـــة الوقوف . وكذلك الشأن اذا أراد الانسان أن يحرك يده أو ساقه أو يفرقع أصابعه . عند هذا القدر ويتصور الجمهرة العظمى من البشر فى الوقت الحاضر ، أن قوة الانسان تقف ، فلا سيطرة للانسان الا على أعضائه الداخليـــة أما الكون الخارجى فهو معزول عنه ومستقل . ومن حسن الحظ أن العلم الطبيعى الحديث قد بدأ يدحض هذه الفكرة ، فحدود الانسان لا تنتهى بنهاية جلده بل انها ممتدة الى ما بعد ذلك . والانسان أى انسان هـــو مصدر مستمر لاشعاع شتى صنوف الطاقات التى تؤثر فى كل ما يحيط به بصفة لا تنقطع . واذا كان قد أصبح فى مقدور الانســـان على ما أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية [1] أن يرسل بعض الأقمار الصنـــاعية التى تستطيع أن تسجل الأمواج المنطلقة من مجرد اشعال سيجارة على الأرض، ثم تعيد ارسال هذه التسجيلات الى الأرض ، لاكتشاف وتحليل أى مصدر

---

(١) الاهرام ١٩٦١/٧/١٧ .

للحرارة والأشتعال فى أى جزء من أجزاء العالم ، هو الذى أحدث هذه الأمواج ، فكم بالأحرى ينبغى لنـا أن تتصـور الأمواج التى يرسـلها الانسان فى هذا الكون بلا انقطاع . ومتى كان الانسـان أحد مصـادر الاشبعاع فهو لا يمكن الا أن يؤثر فى الكون بلا انقطـاع ويتأثر به فى نفس الوقت . ان أى ذرة فى هـذا الكون لا يمكن الا أن تكون مؤثرة ومتأثرة بكل مافى الكون من قوى ، انها فى حركة دائبة لا يمكن أن تكون مفهومة بأى حال من الأحوال الا على أساس تفاعلها المستمر مع ما يحيط بها ، فاذا كان هذا شأن الذرة أى ذرة فكم بالأحرى يكون الانسان ؟

فمن الوهم أن يتصور متصور أن طاقة الانسان المنبعثة من تصوراته الذهنية لا تعمل الا فى داخل جسده ، فالحقيقة أنها تعمل فى الكون كله بنفس الطريقة . ان الانسان مرتبط بهذا الكون بكل مافيـه من نجوم وشموس وأقمار بكل مافيه من جبـال ووديان وأنهار ، انه خلية فى هذا الوجود المتناغم الذى لا يمكن الا أن يكون وحدة واحدة ونسيجا متصلا.

حسب الانسان أن يحس بضرورة أمر من الأمور لحيـاته المادية أو المعنوية ، لكى يكون الكون كله جهازا واحدا تعمل فيه الارادة لتحقيق الهدف المطلوب عن طريق انطلاق الطاقة اللازمة لتحقيق هـذا الهدف ، فتؤثر على الهواء والماء والبيئة والمجتمع والأشخـاص والزمان والمكان، فاذا بالأمور كلها تصدع بهذه الارادة تحت تأثير الطاقة التى ولدتهـا . وعلى هذا النهج تندفع الحياة الانسانية لينفذ كل انسان ارادته باعتبـار ذلك أحد قوانين الطبيعة الأساسية .

نفاذ الارادة الأنسـانية

أنظر الى الطريق العام ، الى عشرات الألوف من البشر الذين يسرعون أو يهرولون أو يتلكأون ويصطدم بعضهم ببعض ، انهم جميعا يؤكدون لك

هذا الذى أقول من تحقيق كل انسان لهدفه وغايته ، ان الذى يقصد منهم الى الصلاة يصل الى المسجد ويحقق ارادته ، ومن يهرول لادراك حفـلة السينما أو المسرح يصل قبل الميعاد ليكون جالسـا فى كرسيه قبـل رفع الستار أو اطفاء الأنوار ، أو تجد أقواما يعودون الى بيوتهم ليحصلوا على قسطهم من الراحة ، أو يخرجون من بيوتهم الى عملهم فيصلون ، وهناك من خرج ليسرق فهو يسرق ، ومن خرج لينشل فهو ينشل ، ومن يهدف لمعاكسة الفتيات فهو يعاكسهن ... وهكذا يحقق كل انسان غايته القريبة وهدفه الذى قصد اليه من نشاطه المباشر .

تحقيق الغايات الأبعـــد

فاذا انتقلنا الى الأهداف الأبعد ، كالحصول على درجة عاليـــة أو الحصول على صفقة أو وظيفة أو مكانة مرموقة فى المجتمع أو تكوين أسرة ، فان هذه الأهداف لا يمكن الا أن تتحقق متى توفرت الشروط الثـلاثة ضرورة الهدف ووحدته وثباته . فالذين يريدون الزواج يتزوجون والذين يريدون حج بيت الله الحرام يحجون ، والذين يؤثرون السفر الى أوربا وزيارة باريس أو نيويورك يسافرون والذين يضـعون نصب أعينهم أن يحصلوا على الدكتوراه يحصلون عليها ومن يريدون تسلق جبل من الجبال يتسلقون أو الذهاب الى القطب لاستكشافه يذهبون .

ومن الناس من يجعل هدفه فى الحياة شرب الخمـــر فيصبح بحيث لا يرى الا مخمورا ، وتتحول حياته الى خمر بالليل والنهـار . والذين يجعلون هدفهم الافراط فى الطعـام يصلون فى ذلك الى صـور لا تكاد تصدق ، ففى تصورنا أن المعدة لها سعة معلومة ، ولكن هؤلاء يتجاوزون ذلك الى ما يقف الانســـان أمامه مذهولا حائرا ، على أن أطرف مافى الموضوع أن هؤلاء المنهومين أو (المفجوعين) تتحـقق لهم ارادتهم فى

الحصول دائما على كميات لا حد لها من الطعام سواء كانوا أغنياء أم فقراء ، ذلك أن الأمر يتحول الى قدرة تجتذب الناس لمشاهدتها وتهيئة الفرصة لذلك ، وهناك أشخاص يحترفون عشق النساء فترى النساء تتهافت عليهم كتهافت الذباب على قطعة من الحلوى ، مع أن هذا النفر قد لا يكون جميلا أو رشيقا أو فى ربيع العمر ، ذلك ان الأمر لا يتعلق بشيء من ذلك كله قدر ما يتعلق بالارادة ، فكم من شاب وسيم قوى لا يجد حظه فى النساء ، وما ذلك الا لانصراف ارادته الى تحقيق أغراض أخرى يراها أكثر حيوية بالنسبة له فى فترة شبابه . وما يصدق على الرجال يصدق على النساء فكم من امرأة عاطلة عن الجمال ومع ذلك توقع الرجال فى حبائلها بقوة ارادتها . وهناك أقوام يكرسون حياتهم للعلم والوقوف على حقائق الحياة ، فتتم على يدهم الفتوح والكشوف العلمية ، وأشخاص يتخصصون فى الخدمة العامة وهداية الآخرين فيتم على يدهم ما اعتبر دائما لونا من ألوان الاعجاز البشرى .

وأخيرا يصادفنا أشخاص جعلوا شغل حياتهم أن يجمعوا طوابع بريد أو صورا زيتية أو تحفا من أى نوع كان ، فينفقون فى ذلك الأموال التى لا يتصور انسان امكان اتفاقها على مثل هذه الأمور التافهة ، بل قد يتحملون من المشاق ويخوضون مغامرات للحصول على تحفة من هذهالتحف أو طابع من هذه الطوابع مما قد يصل الى حد تعريضهم للمخاظر ... وذلك كله تحقيقا لقانون نفاذ الارادة ، فلا مناص لهم من تحقيق ارادتهم .

وما من انسان يحقق هدفا من أهدافه فى أى ميدان من الميادين الا ويخبرك عن التوفيق الذى صاحبه والحظ الذى واتاه لتحقيق هذا الغرض أو ذاك ، حتى فى ميدان الجريمة قتلا كانت أو سرقة أو اغتصابا من أى نوع كان . وليس هذا الحظ والتوفيق فى حقيقته الا بتأثير ارادته فى العناصر

المحيطة به . وليس أدل على ذلك من أن هذا التوفيق أو الحظ لا يصادف الانسان فيما لا يتجه نحوه بارادته .

بطولات الرياضة والأرقام القياسية (١)

ولنجعل حديثنا بالأرقام والحقائق المجمع عليها حتى نرى مصداق هذا الذى تقول من نفاذ الارادة الانسانية فى كل ما تهدف الى تحقيقه من أهداف . والألعاب الأولمبية تهيىء لنا الميدان الذى نستطيع أن نقيس فيه ارادة الانسان بالأرقام والأوزان . فقد تطلع فريق من البشر فى كل زمان ومكان ، أن يصلوا الى التفوق على سائر العالمين فى احدى الألعاب الرياضية مسجلين أرقاما قياسية لم يسبقهم اليها انسان ، فأصبح لدينا أرقام قياسية لأقل ما يستطيع انسان أن يقطع فيه مائة متر أو عشرة أميال عدوا ، وأقل ما يستطيع أن يقطع فيه مائة متر أو أربعمائة متر سباحة على الصدر أو على الظهر وهكذا ... وما من مرة من المرات الا واعتبر الرقم القياسى الجديد الذى توصل اليه أحد الأبطال أمرا معجزا وفلتة من فلتات الطبيعة التى لا يمكن تكرارها . ويتشدق من يصفون أنفسهم بالعلم والخبرة الحديثة فى اثبات استحالة عدم التفوق على هذا الرقم القياسى الجديد أو ذاك .. فيحدثوننا عن أنسجة الجسم البشرى وعضلاته ومدى مرونتها التى لا يمكن أن تتعدى حدا معينا ومدى قدرتها على احتمال قدر معين من التوتر لا تتخطاه ، وعن سرعة الرياح وجاذبية الأرض ومئات من العناصر

---

(١) لاتقف الأرقام القياسية العالمية على الألعاب الرياضية بل ان هناك أرقاما لكل شىء يطوف بالذهن ، فهناك أرقام قياسية لكمية الأكل ، ولعدم النوم ، وللوقوف ، وللمشى ، وهناك ارقام قياسية للرقص أى أطول مدة يستطيع فيها راقصان أن يواصلا الرقص ليلا أو نهارا .. ومن الأرقام القياسية الرسمية العزف على البيانو ، حيث ظل عازف يعزف ٤٢٣ ساعة .
The human machine

التى من شأنها أن تحول بين الانسان وبين فعل أكثر من هذا الذى فعل . ومع ذلك فما من رقم قياسى وصف بهذا الوصف الا وتحطم خلال بضعة أسابيع من اعلانه ان لم يكن بضعة أيام ... وأحيانا لا يكاد يعلن ويطوحه البرق فى أربعة أرجاء المعمورة حتى يجىء النبأ بأنه قد كسر فى هذه البلدة أو تلك ، ذلك أنه يصبح هدفا محققا تتجه اليه الارادة الانسانية باعتباره أمرا فى حيز الامكان .

فحتى عام ١٩٣١ مثلا ، كان الرقم القياسى لقطع الميل عدوا هو أربع دقائق وعشر ثوان .

وفى عام ١٩٥٤ كان فى أمريكا وحدها خمسة عشر رجلا حطموا هذا الرقم . وفى عام ١٩٥٦ بلغ عدد محطمى الرقم ٢٣ شخصا . واليوم يوجد فى العالم على الأقل سبعة رجال نجحوا فى قطـع الميـل فى أقل من أربع دقائق [١] .

وبالنسبة لسباق المائة متر سجل أحد زنوج أمريكا الرقم القيـاسى لعدو المائة متر وهـو ٢ر١٠ ثانية وخـلال الأربع سنوات التالية كان الرياضيون فى امريكا واستراليا والمانيا قد نجحوا فى تحطيم هذا الرقم ، وفى عام ١٩٥٦ سجل زنجيان أمريكيان آخران فى الألعاب الأولمبية الرقم القياسى الجديد ١ر١٠ ثانية فاعتبر ذلك حدثا اهتز له عالم القوى ، ومع ذلك فقد فاجأ عداء ألمانى العالم من جديد فى دورة روما بقطعه المائة متر فى ١٠ ثوان فقط ، فاعتبر ذلك أعظم الأحداث الرياضية على الاطلاق [٢] .

ومن هذا القبيل أيضا موضوع الوثب العالى فقد كان الرقم القياسى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر هو ٥ أقدام و ٣ بوصات وكان

---

(١) The human machine – ص ١٦٦

(٢) جريدة الاهرام ١٩٦٠/٦/٢٧

ذلك يعتبر اعجازا بشريا ولم يكن أحد من خبراء الرياضـــة والمدربين الجهابذة يحلم بامكان أن يقفز الانسان الى ٥ أقدام و ٨ بوصات ولذلك فعندما استطاع انجليزى عام ١٨٧٦ أن يقفز ٦ أقدام لم يصدق المشاهدون من الخبراء أنفسهم وأعينهم [1] . واليوم يزيد الرقم القيـاسى على سبعة أقدام ببعض البوصة ، ولا شك أنه عند مطالعة هذه السطور قد يكون هذا الرقم قد حطم من جديد .

وعبثا نمضى فى تتبع الأرقام القياسية فى كل فروع الرياضة لكى نرى ما كان يعد فى وقت مضى اعجازا أصبح اليوم لا يؤهل لنصف بطولة [2] .

ولا يجرؤ الخبراء والفنيون أن يدعوا أن رياضيى العصر الحاضر أصح أجساما أو أقوى بنية من أبطال العهد الماضى ، ولذلك فهم يحاولون ارجاع أسباب التفوق الى اختراع أحذية أخف وزنا أو انشاء ميادين للعـــدو أجود من الميادين القديمة ، ومعرفة أكثر لعضلات الجسم وكيفية عملها مما لم يكن معروفا من قبل . وكل هذه فى نظرنا سخـافات وتراهات يتخبط فيها هؤلاء (الخبراء) لعدم رغبتهم فى الاعتراف بالحقيقـة المؤكدة ، وهى انطواء الانسان على سر عميق يتجلى فى ارادته لأن يحقق ما يريد .

ان الأرقام القياسية تتحطم وستظل لأن ارادة الانسان تتجه نحو تحطيم الرقم الجديد ، وما تهدف اليه الارادةالانسانية فلا يمكن الا أن يتحقق.[3]

---

(١) The human machine .

(٢) مازلت أذكر شخصيا كيف استطاع بطل مصرى فى حمل الأثقال عام ١٩٣٨ فى الألعاب الأولمبية وهو خضر التونى أن يهز العـــالم فى ذلك الوقت ويحظى بتهنئة شخصية من هتلر لاستطاعته حمل مجموعة من الأثقال ، لاتؤهل من يحملها اليوم للدخول فى أى مباراة محلية .

(٣) انظر كتاب «الهدف المنشود» للبطلة الرياضـــية العالمية « جالينـا زيبنيا » من مطبوعات الاتحاد السوفيتى ــ ترجمة حسين القبانى .

وليس هناك ما يظهرنا على اتجـــاه ارادة البعض لتحطيم الأرقام القياسية من هذه الجهود المضنية وصنوف الحـــرمان غير المعقولة التى يتحملها بصدر رحب هؤلاء الذين يتصــدون لتحطيم الأرقام القياسية ، لكى تتأكد لنا قوة ارادة هذا النفر التى تجعلهم يحتملون ما يكاد العقــل لا يتصوره ، من الضنى والعناء والجهد ، وليس ذلك الا مظهــر ارادتهم للفوز والانتصار [1] .

الموهبـــــة

واذا كان المران والتدريب كما رأينا وكما سنرى ، يستطيع أن يصل بالانسان العادى الى تحقيق أى هدف يريد ، فليس يعنى ذلك أن هــذا المران شرط أساسى لتحقيق هذا الهدف ، والطبيعة حريصة أشد الحرص على أن تلفت أنظارنا الى انطواء الانسان على قدرات لا حد لها يستطيع ممارستها بمجرد الارادة . وهذا هو دور الموهوبين فى الحياة أن يكشفوا لنا عن قدرة الانسان التى لا يحدها حد . فمن حين لآخر يظهر لنا أشخاص يحققون فى يسر وسهولة تثير العجب والدهشة ما كان يتصور خطـأ أنه يستحيل الوصول اليه ، أو أن الوصول اليه يتطلب قدرا غير متصور من بذل الجهود المضنية . ففى عالم الرياضة مثل مافى عالم الفن أو عالم العلم والمعرفة ، تقدم لنا الطبيعة نماذج من هؤلاء الذين نطلق عليهم اسم الموهوبين. ولقد رأينا كيف اجتمع أبطال العالم فى الألعاب الأولمبية الأخيرة التى عقدت فى روما عام ١٩٦٠ . وعلى رأس المسابقات يأتى الجرى للمسافة الكبيرة

---

(١) يجرى بطل العالم فى سباق الـ ٨٠٠ متر عشرة أميال فى كل يوم على سبيل التمرين . وبطل العشرة آلاف يجرى يوميا ١٥ ميلا على سبيل التمرين.
اما أبطال الماراثون فأحدهم يجرى يوميا ٢٤ ميلا والثانى أخذ على نفسه أن يقطع ٤٠٠٠ ميل فى كل عام على سبيل التدريب The human machine .

أو ما يسمى سباق (الماراتون) [1] وكان التنافس على أشده بين أبطال العالم الذين يشار اليهم بالبنان ممن أفنوا العمر فى التدريب والتمرين ، وحصلوا من قبل على عشرات الجوائز ولكن الذى فاز بالبطولة جندى جاءهم من الحبشة راح يجرى وسط سخرية الناس حافى القدمين ، لم يسبق له أن دخل فى سباق ، لم يحرز بطولة صغيرة أو كبيرة من قبل ، ومع ذلك فقد كان هو الذى فاز وتقدم على أبطال العالم بمسافة معجزة . ويحدث مثل ذلك فى شتى ميادين الحياة ، فى الشعر ، فى الأدب ، فى دنيا الاختراع . هؤلاء الموهوبون هم معالم الطريق ، الذين يقودون البشرية دائما نحو الأمام ولا يسمحون لها بالوقوف عند حد . ذلك أن الناس يتلقفون دائما هذه المستويات الجديدة التى حققها الموهوبون ، فيعملون على الوصول اليها من خلال التدريب والتمرين والعمل الشاق فيصلون فى النهاية الى تحقيق ماكان يتصور أنه اعجاز قد انفرد به شخص من الأشخاص .

وليس هناك هدف أو غاية مهمـا بدت معجـزة أو مستحيلة على الانسان ، لا يستطيع انسان أن يصل اليها عن طريق المران والتدريب ، ذلك أن المران فى حقيقته هو كما قلنا نوع من التركيز ، والتركيز على أى هدف يجعله الانسان ضرورة حياته لا يمكن الا أن يتحقق . وهذه حقيقة قد أثبتتها بما لا يدع مجالا للشك طائفتان من البشر .

أما الطائفة الأولى فتصل الى تحقيق ألوان من الكفاءات والمهـارات يذهل لها الانسان عن طريق التدريب المادى العضلى ، وتلك هى طائفـة البهلوانات ومدربو الحيوانات .

أما الطائفة الثانية فتدريباتها روحية بحت — وتلك هى طائفة اليوجا الهندية .

---

(١) يبلغ طول مسافة سباق (الماراتون) ٢٦ ميلا أو ٤٠ كيلومترا .

لاعبو السيرك او البهلوانات

لا نعرف لونا من ألوان القدرة على الاتيان بأعمال شاذة غير مألوفة قد يتصور الجمهرة الساحقة من الناس استحالة وقوعها ، لم يقدم عليها ويزاولها لاعبو السيرك ممن نسميهم البهلوانات (الأكروبات) ، بحيث أصبح الوقوف أو السير على الحبل أو السلك داخل السيرك لا يثير كبير اعجاب أو دهشة ، فعمد بعض اللاعبين الى أن يشدوا أسلاكهم بين قمم الجبال فوق الهاوية أو بين عمارتين من عمـــارات ناطحات السحاب فى نيويورك ، ثم يسيروا على السلك مهرولين أو مسرعين ، كمـا لو كانوا يسيرون على أعرض طريق وأثبته وقد لا يقنعون بالســير على الأقـدام فيستعملون دراجة ، ومنهم من أبى الا أن يجلس ويضع أمامه مائدة يكتب عليها أو يأكل ، وبلغ الأمر ببعض اللاعبين أن عقدوا المنافسات للبقاء على الحبل المشدود أطول مدة ممكنة فأصبح لذلك أرقام قياسية عالمية منهـا هذا الرقم الذى سجله لاعبان سويديان فى استكهولم عام ١٩٥٥ حيث استطاعا أن يصمدا فوق الحبل المشدود ٣٣ ساعة متصلة و ٦ دقائق [١] . ولو طلب من انسان عادى أن يظل واقفا على قدميه هذه المدة لما استطاع الى هذا سبيلا . أما هذان اللاعبان فقد قضيا هذه المدة فوق الحبـل المشدود .

ورأيت بهلوانا جعل ابهامه هى منطقة ارتكازه فى هذا الكون ، فقد قلب نفسه رأسا على عقب جاعلا ارتكازه على يديه الاثنتين ، ثم على يد واحدة ثم أصبع واحدة هى الابهـام ، وكان الارتكاز على فوهة زجاجة والزجاجة فوق قمة هرم من المكعبات الخشبية ، بحيث كادت قلوب الناس أن تنخلع والعيون تخرج من المحاجر لغرابة الذى يرون .

(١) The human machine

ومن اللاعبين من يقذف بنفسه من مائة قدم ليسقط فى حوض صغير من الماء تغشى سطحه نيران متقدة ، ومنهم من يوقف زوجته أو شريكته فى اللعب ملتصقة بلوحة خشبية ثم يروح يقذفها بعشرات من الخناجر التى تنغرس فى لوح من الخشب حول جسد المرأة وبمحاذاته ، ولو أن أحد الخناجر حاد عن طريقه مقدار شعرة واحدة ، اذن لنفذ فى جسدها على الفور فاتكا بها لقوة الصدمة .

وبين هؤلاء البهلوانات من يجعل ظهور الخيول أو الدراجات البخارية المندفعة حقلا لألعابه ، بل منهم من اتخذ أجنحة الطائرات المندفعة فى السماء مسرحا لهذه الألعاب .

وكم من الأشخاص الذين يشهدون هذه الألعاب قد يغمى عليهم لتصورهم أن اللاعب سيقع حتما ويقضى عليه ، بينما اللاعب فى الحقيقة يقوم بهذه الأعمال بالبساطة والسهولة التى نقوم نحن بها بأى عمل اعتدناه وألفناه كالمشى أو الكلام أو الكتابة . فنحن لا نحفظ توازننا اذ نسير بهذه الأرض التى نمشى فوقها لأنها عريضة أو ثابتة لا تهتز ، ولكن بالصورة المرتسمة فى أذهاننا ، بارادتنا التى تبعث الطاقة لكى تبقينا فى هذا الوضع من الوقوف أو الارتكاز . وحسب هذه الصورة المرتسمة فى أذهاننا أن تضطرب لأمر ما ، لكى نرى أنفسنا وقد وقعنا على الفور ولم تنفعنا الأرض التى نستند اليها ، أو اتساع الشارع الذى نسير فيه ، ولاعب السيرك الذى يزاول حركة معينة أيا كانت خطورتها قد تدرب عليها وتدرب باعتبار هذه الحركة هى ضرورة حياته ، لأنها مصدر رزقه ويجعل من اتقانها هدفه الوحيد فى الحياة ثم يروح يركز على صورتها ويركز فاذا به يحسنها ، واذا بالطاقة التى تنطلق من هذه الصورة الذهنية تبقيه فى

الهواء على أصبع ، أو على سلك أو فوق ظهر حصان جامح ، أو تجعل الخناجر المتدفقة فى الهواء لا يمكن أن تؤذى شريكته .

مروضو الوحوش

ويتصل بطائفة لاعبى السيرك ، مروضو الوحوش الضارية ، سواء كانت أسودا أو نمورا أو فيلة وفهودا ، حيث يحملون هذه الحيوانات الكاسرة على الاتيان بأعجب الأعمال وأدهشها ، وما ذلك الا بفضل التدريب المستمر المتواصل ، أو بالأحرى تركيز الارادة لحمل الحيوان على فعل ما يريد له المروض أن يفعله ، مهما بدا هذا الذى يفعله الحيوان غريبا وغير قابل للتصديق ، بل ومستحيل فى تصور الكثيرين [١] .

اتبـاع اليوجـا

واذا كان أبطال الرياضة لا يقفون عند رقم قياسى لأية لعبة من الألعاب لا يحطمونه كسبيل لاحراز الشهرة والمجد ، واذا كان لاعبو السيرك لا يقفون عند صورة معينة من الشذوذ فى الأوضاع لا يرغبون فى حذقها كسبيل لأكل لقمة العيش .

فان طرازا آخر من الناس لا يقصدون شهرة أو مجدا ولا يهدفون الى كسب مادى من أى نوع كان ، وانما تصوروا — ان خطأ أو صوابا — أنه لا انتصار لروحهم الا اذا أماتوا أجسادهم بأسلوب أو بآخر ، فاذا بهم يقومون بأعمال تفوق منتهى ما يمكن أن يؤمل فيه رياضى أو بهلوان أو مشعوذ .

---

(١) اقرأ كتاب «اصدقائى الوحوش» للمروض السوفييتى ـ بوريس ادر .

وليس هنا مجال الحديث عن مذهب اليوجا الهندى ، وكيف يعمل على اضعاف الجسد لحساب الروح وما هى أهدافه من ذلك [1] ، ولكنا نسجل ما يتصل بموضوعنا من استطاعة الانسان عن طريق توجيه ارادته الى صنع كل شىء وعمل كل شىء مما يتصور أغلبية البشر الساحقة استحالة امكانه. ولندع ول ديورانت يصفهم لنا فى كتابه قصة الحضارة :

« فعلى ضفاف الطرق وخلال الغابات فى الهند ترى هؤلاء اليوجيين لا يتحركون مستغرقين فى التفكير ، منهم الكهول ومنهم الشبان ، منهم الذى يضع خرقة بالية من القماش على كتفه ومنهم من لا يستره الا تراب الرماد قد طلى به جسده [2] ، منهم من يجلس القرفصاء وقد لفوا ساقا على ساق لا يتحركون الساعات الطوال وقد ركزوا أبصارهم فى أنوفهم أو سررهم (جمع سرة) يحدق بعضهم فى الشمس ساعات متواليات وأياما متعاقبة حتى يفقدون بصرهم رويدا رويدا ، وبعضهم يحيط نفسه بألسنة حامية من اللهب فى قيظ النهـــار ، وبعضهم يمشى على جمرات النـــار أو يضعون الجمرات على رؤوسهم ، وبعضهم يرقد عارى الجسد لمدة خمسة وثلاثين عاما فوق سرير من حراب الحديد ، والبعض يدحرج جسده آلاف الأميال حتى يصل الى مكان يحج اليه ، وبعضهم يصفدون أنفسهم بالأغلال فى جذوع الشجر أو يزجون بأنفسهم فى أقفاص مغلقة حتى يأتيهم الموت ، وبعضهم يدفنون أنفسهم فى الأرض حتى الأعناق ويظلون على هذا النحو

---

(١) انظر كتاب فلسفة اليوجا ـ ترجمة عريان يوسف سعد ·

(٢) أتيح لى ان اشهد بعينى رأسى فى بنارس هؤلاء الأشـــخاص الذين طلوا اجسادهم بالرماد ولم يكن الرماد الا بقايا أجساد الموتى المحترقة · (راجع كتاب أمة تبعث للمؤلف)

أعواما طوالا ، أو طول الحياة ، وبعضهم ينفذ سلكا خلال الأصداغ حتى يمر بين الصدغين فيستحيل عليهم فتح الفكين حاكمين بذلك على أنفسهم أن لا يتناولوا طول حياتهم الا سوائل ، وبعضهم يحتفظون بأيديهم منقبضة حتى تنفذ أظافرهم من ظهور أكفهم ، وبعضهم يرفع ذراعا أو ساقا حتى يذبل ويموت ، والكثيرون منهم يجلسون صامتين فى وضع واحد لبضعة أعوام يأكلون أوراق الشجر الذى يأتيهم به الناس .

ويقول لنا اليوجيون الذين يفعلون هذه الفعال أنه بواسطة اليوجا يستطيع الانسان أن يخدر أى جزء من أجزاء جسده بتركيز فكره فيه وبذلك يجعله تحت سلطانه ، فيمكن اذا أراد أن يختفى عن الأبصار ، أو أن يحول بين جسده وبين الحركة مهما كان الدافع اليها ، وأن يمر فى أى لحظة شاء من أى جزء شاء من أجزاء الأرض أو أن يحيا من العمر ما شاء أن يحيا أو أن يعرف الماضى والمستقبل كما يعرف أبعد النجوم . [1] »

وهذا الذى يفعله اليوجيون فى الهند ، قد وجد من يفعله فى كل بلاد الشرق بل والغرب ويفترق الناس بصدد الذين يقدمون على هذه الفعال ، فالبعض يعتبرهم من المتصوفين الواصلين والبعض يتصورهم مشعوذين

---

(١) قصة الحضارة الجزء الثالث ــ ص ٢٦٦

ويجب أن يضاف الى هذه الصور هؤلاء اندين يطلبون أن تأجج لهم نيران متقدة ثم يسيرون اليها فى هدوء وانشراح فتحرق أجسادهم دون أن يسمع لهم صوت أو أنين . ولقد أذهلت هذه الظاهرة كل من شاهدها وسجلتها كتب التاريخ ابتداء من تاريخ الاسكندر المقدونى (٣٢٦ ق.م) حتى تاريخ ابن بطوطة الذى كاد يغمى عليه لرؤية ثلاث نساء يقذفن بأنفسهن فى النار وهن يضحكن . لولا ان أقبل عليه اصحابه فابتعدوا به عن المنظر ورشوا على وجهه الماء ــ (مهذب ابن بطوطة ــ الجزء الثانى ص ٢٢)

دجالين (١) والذى يعنينا أن هذه الأعمال الشاذة التى يتصور الانسان استحالة اقدام الانسان عليها تتم بالفعل لمجرد اتجاه ارادته لاتيانها بحيث نستطيع أن نقرر على وجه القطع واليقين هذا الذى نقول به من أن ارادة الانسان فى فعل شىء لا بد أن تنفذ وأن ليس هناك حد لتقف عنده سواء فيما تفعله بالجسد أو بالعناصر الكونية كلها .

وقد بقى أن نسوق بعض صور من التاريخ والحاضر لنظهر كيف استطاعت الارادة أن تتغلب على العاهات الموزوثة والنقص الطبيعى فى الجسد ، بل كيف استطاعت أن تتغلب على مقاومة البيئة كلها أحيانا بحيث تفرض نفسها على الرغم من كل العوامل المعاكسة والمضادة .

تغلب ارادة الانسان على النقص الطبيعى :

ديموستين (٢)

ان أعظم خطيب خلده التاريخ قد ولد عييا ضعيف الجسد لا يقوى على الكلام ، ويقول فلوطرخس (بلوتارك) أنه كان يعمل للتغلب على مافيه من نقص طبيعى فكان يخاطب البحر وفمه مملوء بالحصباء ، أو

---

(١) نشرت مجلة آخر ساعة فى عددها الصادر فى ١٠ مايو سنة ١٩٦١ تحقيقا صحفيا لمراسلها فى حلب عن بعض اعمال يقوم بها نفر من الدراويش وقد صحب المراسل مصورا صحفيا انتقط عديدا من الصور التى نشرتها المجلة ويبين من الصور أن بعض الدراويش قد استطاع ان ينفذ أسياخا محماة من النار الى داخل بطنه دون ان يسيل منها دم أو يحرق لهم جلد أو يحسون بألم. وروى المراسل المذهول مما رأى قول شيخ هذه الطريقة فى تفسير هذا الذى يقع ان ليس فيه امر معجز وانما هو انعدام الذات بحيث تصل الروح الى السماء ويبقى الجسم رغم حركته الدائبة لا روح فيه ومهما ضربت فى جسد لا روح فيه فانه لايتأثر أو يتألم أو يشعر بشىء .

(٢) توجت أثينا ديموستين كأعظم خطيب أنجبته وشادت له التماثيل التى تعتبر أعظم ما أبدع الفن الاغريقى .

يخطب وهو يصعد فوق الجبل وكان يعيد خطبه مرارا ويتلوها على نفسه أمام المرآة ، واحتفر لنفسه كهفا يعيش فيه عدة شـهور لا يكاد يعلم به أحد ، وكان فى هذه الفترات يحلق نصف وجهه ويبقى على النصف الآخر حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من مأواه [١] .

وهكذا لم يكن النقص الطبيعى فى لسان ديموستين عائقـا فى سبيل ارادته بل كان هو نقطة الانطلاق التى بدأت منها الارادة عملها لاثبات هذا الذى نقول أن الارادة توصل الانسان الى كل ما يريد .

من هو ميروس الى بتهوفن

وليس هذا الذى فعله ديموستين حيث حـول النقص الطبيعى الى نقطة انطلاق ، بالأمر الفذ ولا هو بالغريب لا فى القديم أو الحديث ، ففى القديم سجل لنا التاريخ اسم هوميروس كأعظم من أنجب العـالم من الشعراء وقد كان كفيفا ، وفى دنيا العرب نبغ شاعر ينسب اليه أروع بيت من الشعر فى وصف الحرب مع أنه كان كفيفا وذلك هو بشار بن برد . وثمة شاعر آخر وفيلسوف يعتبر من أعظم ما أنجب العرب فى خضـارتهم وذلك هو أبو العلاء المعرى صاحب اللزوميات ورسالة الغفـران (التى يعتبرها الكثيرون الأصل الذى استمد منه دانتى الكوميديا الالهية)

ويعيش الآن بين ظهرانينا الدكتور طه حسين الكفيف البصر ، ومع ذلك فلم يحل ذلك بينه وبين أن يكون زعيم الأدب العـربى فى النصف الأول من القرن العشرين ، لما أحدثه من ثورة فى دراسة الشعر وما كونه من مدرسة ، وما كان له من محبين ومعجبين ليس فقط فى طول العـالم العربى وعرضه ، بل فى العالم الخارجى الذى قلده أعظم الشهادات العلمية وأرفعها . واذا كان العىّ لم يمنع انسـانا من أن يكون أعظم خطيب فى

---

(١) قصة الحضارة ـ الجزء الثانى من المجلد الثانى

التاريخ القديم ، والعمى لم يحل بين هوميروس أو أبى العلاء والخلود ، فان الصمم لم يحل بين بتهوفن وبين أن يبدع أروع سيمفونياته ، فقد أصيب بالصمم فلم يعد يسمع موسيقاه التى يؤلفها أو أصوات الفرقة التى يقودها ، حتى أصوات المصفقين له الذين كانوا يلهبون أكفهم بالتصفيق ، لم يكن يسمعهم الا اذا أداروا وجهه للناس ليرى بعينى رأسه كيف يكادون يجنون من فرط الاعجاب بموسيقاه التى لا يسمعها [1] ، والى أى حد قد أصاب من المجد والخلود .

هيلين كيللر

على أنه لا الذى فعله ديموستين فى القديم اذ تحول من عيى اللسان الى خطيب ، ولا ما فعله هوميروس أو أبو العلاء أو بتهوفن بالذى يقاس بهذا الذى فعلته أمريكية معاصرة والتى لم يقف رزء الطبيعة لها عند حد افقادها البصر بل وافقادها السمع أيضا ، وعاشت طفولتها الأولى صماء عمياء بكماء ، اذ لم يكن باستطاعتها أن تتكلم مادامت لا تتلقى شيئا ، ومع ذلك فقد استطاعت هيللين كيللر فى نهاية الأمر أن تكون زعيمة روحية للملايين تنشر الايمان واليقين بالله ، واستطاعت أن تكون معلمة ومدرسة ونورا يبعث الأمل الى قلوب الذين حرموا نعمة البصر وحاسة السمع ، فتكون قدوة لهم واماما يبرهن لهم على أن فقدان البصر بل والسمع قد يكون السبيل الى المجد ... ولا حد لما تستطيع طاقة الانسان ، حتى لو كان أصم أو أبكم أو أعمى ، أن تحققه .

واذا كان بتهوفن كما ذكرنا من قبل لم يستطع أن يسمع تصفيق مئات المعجبين به وكان مضطرا للالتفات لكى يرى بعينى رأسه ما عجزت أذناه عن حمله اليه ، فان هيللين كيللر التى لا بصر لها ولا سمع ، قد أجابت الذين

(١) الثقافة الموسيقية للصاغ صالح عبدون ـ ص ٢٣٤

سألوها كيف استطاعت أن تدرك تحية الألوف من المصـــفقين ، فأحنت رأسها ردا على تحيتهم ، قائلة انها شعرت بذلك عن طريق اهتزاز الأرض تحت قدميها [1] .

عجزة يصبحون أبطالا رياضيين

واذا كانت كل صنوف النقص الطبيعى والخلقى لم تحل بين انسان ما وبين الوصول الى أقصى درجات الشهرة والمجد والزعامةالأدبية أو الروحية فى العالم ، فقد بقى أن نسجل لك أيضا كيف أن العمى أو المرض بالشلل وقطع الأطراف لم يحل دون التفوق الرياضى والحصول على البطـولات العالمية .

فعن طريق التدريب أصبح باستطاعة المكفوفين مزاولة رياضة التجديف والجولف وبعض ألعاب القوى ، واستطاع فى الولايات المتحدة الأمريكية عداء من أحد ملاجىء العميان أن يقهر بطل العالم الأولمبى فى سباق المائة متر بعد تغمية عينى البطل الأولمبى [2] .

---

(١) ولدت هللين كيللر عام ١٨٨٠ وقبل ان تتم عامها الثانى فقدت بصرها وسمعها من خلال مرض أصيبت به وتقول عن نفسها : « خلال سنوات ست لم يكن لدى أى فكرة من أى نوع كان عن الطبيعة أو العقل أو الموت أو الله ... لقد كان شأنى شأن قطعة من الأرض الباردة غير الواعية » .

وفى بطء شديد وجهـــد مضن وألم عميق راحت تتعـــلم أســـماء الأشياء التى يمكن أن تلمسها ، فتعلمت كيف تتكلم وكيف تســمع عن طريق يدها ، ثم تعلمت كيف تقرأ وكيف تكتب على الورق او على الآلة الكـاتبة ثم دخلت جامعة رادكلف فدرست وحصلت على اجازاتها العلمية بحيث يمـــكن القول انه لايوجد فى أى عصر من عصور التاريخ امرأة وصلت الى ما وصــــلت اليه بحق .

وقد بلغ عمرها عند كتابة هذه السطور ٨١ سنة

My religion. By Helen Keller.

(٢) كان كل من المتبارين يجرى الى جوار حبـل مشدود تنزلق عليــه بسهولة حلقة معدنية اتصل بها منديل يمسك به العداء . ص ١٤٩

The human mechine

وردل Redl بطل النمسا فى لعب التنس الذى مثلها فى مباريات كأس ديفنز كان بذراع واحـدة . وتعقـد فى أوربا وأمريكا مسـابقات للاعبى الجولف من ذوى اليد الواحدة ، ومسابقات فى كرة السـلة لمبتورى الساقين الذين يجلسون على كراسى متحركة .

ولعل الشيء الذى يثير الدهشة أكثر من ذلك كله أن نعلم أن شخصا مبتور الساق قد استطاع أن يسجل فى الوثب العالى قفزة مقـدارها ٥ أقدام و ٧ بوصات (الرقم العالمى ٧ أقدام) وفى عام ١٩٢٨ استطاع رجل فقد ساقه فى الحرب العالمية الأولى أن يتسلق أعلى جبال أوربا Matterhorn[1]

وأخيرا فقد شهدت دورة روما للألعاب الأولمبية احدى هذه المعجزات البشرية وهى بطلة العالم فى سباق الـ ٤٠٠ متر ونعنى بها الزنجية الصغيرة ويلما رودولف والتى أحرزت لأمريكا ميداليتين ذهبيتين ، وكان يمكن أن تحرز لها ميدالية ثالثة لولا تقصير باقى زميلاتها .

وقد حان الوقت لنعرف أن ويلما رودلف قد ولدت طفلة هزيلة لا يزيد وزنها عن كيلو جرامين . وكان ترتيبها السابعة عشرة بعد ستة عشر طفلا سبقوها الى الحياة ، ولم يكن أبوها الذى ينوء بهذا الحمل سوى كاتب صغير يعمل فى أحد متاجر مدينة تنيس . ونظرا لضعف ويلما الشديد عند ولادتها فلم تبدأ حبوها الا فى العام الرابع من حياتها ، مع أن الأطفـال العاديين يبدأون المشى فى العام الأول — وأصيبت ويلما بالحمى القرمزية وبالتهاب رئوى مضاعف وظلت الطفلة بضعة أسابيع على وشك الموت ، ولكنها نجت أخيرا واستطاعت أن تسترد صحتها . ولكن ساقها اليسرى أصيبت بالشلل ، وكان لها أم ذات قلب كبير وارادة جبارة فقالت ان هذه

(١) The human machine ص ١٥٠

البنت يجب أن تمشى ، وحملتها الى أقرب مستشفى على بعد ٧٠ كيلو مترا ، فقالوا لها انها تحتاج الى تدليك ، قد يستمر بضع سنوات ، قبل أن يعرفوا اذا كان ثمة أمل فى أن تمشى ، وقررت الأم أن تقوم بعملية التدليك فى كل ليلة لمدة عامين ، كانت خلالهما تحملها كل أسبوع الى المستشفى قاطعة ١٤٠ كيلو فى الذهاب والأوبة .

وأخيرا لاح بعض الأمل اذ ظهر شىء من التحسن على الساق المشلولة فضوعف العلاج . وعلمت الأم أربعة من أبنائها ليسـاعدوها فى تدليك الساق المشلولة . وفى عام ١٩٤٦ استطاعت ويلما أن تحجل مسافات قصيرة بساق معوجة . وفى الثامنة من عمرها استطاعت أن تسير بطوق حـديدى فى ساقها ، ثم استبدل الطوق بفردة حـذاء عالية صنعت خصيصا لقدمها اليسرى وبدأت ويلما تسير الى مدرستها فى سـعادة وهى تعرج [1] . هذه هى الفتاة التى استطاعت فى العشرين من عمرها أن تكون بطلة العالم فى العدو وأن تنتخب بالاجماع كرياضية عام ١٩٦٠ للعـالم . جزاء وفاقا لارادة هذه الأم الزنجية التى رفضت أن تقهر أمام الشلل فقالت هذه البنت يجب أن تمشى فمشت ثم جرت ثم تفوقت على العالمين فى الجرى [2] .

تغلب الارادة على عقبات البيئة

واذا كانت العقبات الطبيعية الخلقية لم تستطع أن تحول بين الانسان وبين الوصول الى ما يريد رغم أنف النقص أو العجز ..

---

(١) المختار عدد يوليو سنة ١٩٦١

(٢) كان لهذه الحوادث وأمثالها الفضل فى لفت النظر الى انشاء معاهـد التدريب والتأهيل المهنى للعجزة حيث يهيأ كل من اصيب بعاهة لممارسة فنون او صناعات واكتساب مهارات جديدة تتفق ووضع الانسان الجديد .

ويظهر العجزة ألوانا من الخوارق والمعجزات فى هذه المعاهد حيث يزاولون اعمالا ماكانوا يتصورون أنهم قادرون عليها قبل أن يصابوا برزئهم .

فكذلك الشأن بالنسبة للبيئـــة فلم تستطع الظروف الاجتماعيـة ومقتضيات البيئة أن تحول بين انسان وبين وصوله الى الذروة التى أرادها لنفسه ، والتاريخ والحاضر من حولنا يغص بمئـات من الأمثلة والقصص ولذلك فحسبنا أن نشير لبعض هذه الأمثلة .

جوستنيان وتيودورة

يغص التاريخ بأسماء الملوك الذين ولدوا فى العز والجاه والسلطان وانتهوا الى التشريد والحرمان أو قطع رؤوسهم وسمل أعينهم كنتيجـة طبيعية لضعف ارادتهم [1] .

ويقف فى مقابل هؤلاء أشخاص من غمار الشعب وصلوا الى السلطان رافعين معهم نساءهم ليكن أباطرة وملكات ومن هؤلاء جوستنيان الذى يعتبر ألمع اسم سجله تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وقد ذهب جوستنيان فى عداد الخالدين من جراء مدونته التشريعية تلك التى ضمنها تراث البشرية القديم من التشريع ، فظلت ينبوعا ونبراسا للقوانين فى كل زمان ومكان . ولم يكن جوستنيان هذا الا ابن رجل فلاح فقير مغمور من بلدة ايللريا (صوفيا) عاصمة بلغاريا فى الوقت الحاضر ، وأما زوجتـه الامبراطورة تيودوره التى أجلسها معه على العرش تشـــاطره حـــكم الامبراطورية الرومانية الشرقية المقدسة ، فقد بدأت حياتها فتاة سيرك ثم احترفت البغاء فترة من الزمن قبل أن تصبح امبراطورة على أكبر كرسى مسيحى عرفه التاريخ [2] .

---

(١) يجمع المؤرخون على ان فقدان لويس السادس عشر لعرشه ورأسه معا انما يرجع الى تردده وضعف ارادته .

(٢) قصة الحضارة ــ ولديورانت ــ الجزء الأول من المجلد الرابع ــ ص٢١٤

نابليون وجوزفين

وتصادفنا نفس القصة على نطاق أوسع فى القرن التاسع عشر فى شخص نابليون ذلك الشاب الكورسيكى (نسبة لجزيرة كورسيكا) أى أنه لم يكن فرنسيا ومع ذلك فقد أصبح امبراطورا للفرنسيين ، وأصبح كذلك غداة الثورة الفرنسية ، التى أغرق فيها الشعب الفرنسى أرض فرنسا بالدماء ، وأطاح برأس الملك والملكة ، وكل من كان يمت الى الملكية بصلة، وأعلن الجمهورية وحقوق الانسان ، فاذا بارادة نابليون تتغلب على ذلك كله وتحمل هذا الشعب الثائر على المناداة به امبراطورا على أوربا كلها . ووضع نابليون التاج على رأسه بيده اشارة الى أنه هو الذى يهب نفسه التاج ، ثم وضعه على رأس زوجته جوزفين ، مناديا بها امبراطورة على فرنسا ثم جعل من أشقائه ملوكا على شرق أوربا وغربها .

هتلر وايفا براون

وفى عصرنا الحديث شهدنا أروع ما يمكن أن تصل اليه ارادة رجل وامرأة ، فأما الرجل فهتلر وأما المرأة فايفا براون زوجته أمام الله وأمام التاريخ .

بدأ هتلر حياته العامة جاويشا فى الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الأولى ، وقد كان من بين الجنود المسرحين الذين سرحوا عقب انتهاء الحرب فراحوا يتجولون فى شوارع برلين عاطلين لا يجدون عملا يعملونه ...

ولم يكن هتلر قد تلقى أى تعليم أكثر من هذا الذى يتلقاه عامة الشعب ، ومع ذلك فان هذا الجندى العاطل قرر وسط الفوضى التى غرقت فيها ألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى أن يكون هو منقذها من

الفوضى ، أن يكون هو الذى يمزق معاهدات الصلح التى جللتها بالعار ، أن يكون هو الرجل الذى ينتقم ويثأر لها ، وأخيرا أن يكون الرجل الذى يبوئها سيادة العالمين .

وشق هتلر طريقه وسط المانيا العسكرية ، ألمانيا التى كانت تغص بعشرات من القواد العسكريين العالميين من أمثال ماكنزن ولودندورف وهندنبرج ... ومع ذلك فان هذا الجاويش قد وصل الى زعامتها .

وحقق هتلر كل الذى أراد أن يحققه ، فأصبح زعيما لألمانيا ورئيسا لها ومزق معاهدات الصلح ، وجعل ألمانيا أقوى دولة فى أوربا ، ولو لم يخالف هتلر القواعد التى رسمها لنفسه فى كتاب كفاحى ، لما هزم ، ومع ذلك فسيظل اسم هتلر رمزا لأعظم قصة من قصص الارادة الانسانية وايمان الانسان بنفسه .

والى جوار هتلر قامت امرأة لم يعرف العالم من أمرها شيئا الا بعد موته ، وبينما كانت ارادة هتلر أن يكون سيد العالم ، كانت ارادتها هى أن يكون هتلر زوجها ، وفشل هتلر فى أن يكون سيد العالم ، ولكن ايفا براون فازت بأمنيتها فلم تمت الا بعد أن تزوجها هتلر واتحدت به فى موتها من دون العالمين .

كليمنت السابع

وأخيرا لا أريد أن أختتم هذه النماذج المختارة ، دون أن أشير لشخصية جاءت الى هذه الحياة ، موصومة بأشنع ما اعتاد المجتمع فى القديم أن يصم به انسان ، وهو أن يكون ثمرة اتصال غير شرعى فيلقب بابن الزنا ، وتظل هذه اللعنة تصاحبه حيث ذهب وأنى سار . ومع ذلك فان هذه الوصمة لم تحل بين جويلو دى مديتشى ، الذى لم يكن الا ابنا

غير شرعى رزق به الرجل الظريف جوليانو دى مديتشى من عشيقته فيورتا ، وبين أن يتوج بابا على المسيحية كلها باسم كليمنت السابع ويجلس على عرش بطرس الرسول ، ولعل أطرف مافى الموضوع أن تعرف انه قد وصل الى هذا المركز بانتخاب حر واجماع كرادلة المجمع المقدس على انتخابه بابا خلفا لادريان عام ١٥٢٣ (١) .

تحقق ارادة الانسان

وهكذا يثبت الواقع أنه لا العقبات الطبيعية ، أو الاجتماعية ، بالتى تحول بين الانسان ، أى انسان ، وبين أن ينفذ ارادته متى أدرك من نفسه أن ارادته بالذات هى القوة الحاسمة فى هذا الوجود . واذا كان هذا الذى نقوله هو أحد قوانين الطبيعة ، فانه كأى قانون آخر فى الطبيعة لا يمكن الا أن ترد عليه بعض الاستثناءات ، وقد حان الوقت لنبحث هـذه الاستثناءات .

الأحوال الاستثنائية التى لاتنفذ فيها ارادة الانسان :

باستطاعتنا أن نلخص الاستثناءات التى لا تنفذ فيها ارادة الانسان فى ثلاث أحوال :

١ — الاصطدام مع سنن الطبيعة .

٢ — حالة القضاء والقدر .

٣ — اصطدام ارادة الانسان بالانسان .

والحالتان الأوليان هما اللتان يمكن أن يعتبرا بحق من الحالات التى لا يعمل فيها القانون أما الحالة الأخيرة فعدم العمل فيها نسبى أى أن القانون يعمل فيها لحساب شخص دون الشخص الآخر .

---

(١) قصة الحضارة ـ الجزء الرابع ـ المجلد الخامس ـ ص ١٨٣

أولا الاصطدام مع سنن الطبيعة :

لا يمكن بطبيعة الحال أن تتصور امكان تحقق ارادة الانسان ، اذا اصطدمت مع سنن الطبيعة وقوانينها الأساسية . فالطبيعة مثلا تقوم على الحركة وكل مافى الكون متحـرك ، وهى تقـوم على التغير والتفاعل المستمرين ، فلو أراد الانسان أن يوقف حركة الطبيعة كأن يتجه بارادته الى ايقاف سير الشمس أو القمر أو الأرض فلن يكون باستطاعته تحقيق ذلك ، لأنه مهما تصورنا قوة الانسان مطلقة ، فهى فى نهاية الأمر مستمدة من الطبيعة وهى جزء من كل ، وليس بقدرة الجزء أن يسيطر على قوانين الكل ، فالارادة البشرية وهى تعمل بالذات من خلال نواميس الطبيعـة ، لا يمكن أن تأخذ كل قوتها الا حيث تعمـل فى دائرة هـــذه القوانين والنواميس .

على أن هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال أن يضع الانسان أى قيد على فكره أو خياله بدعوى أن هذا الأمر أو ذاك مما لا يتفق مع نواميس الطبيعة ، فنحن لا نعرف هذه النواميس على سبيل القطع واليقين وما يبدو لنا اليوم أحد نواميس الطبيعة يتضح لنا فيما بعد أنه لم يكن كذلك الا فى تصورنا كما رأينا ، وعلى ذلك فيجب على الانسان أن يرســل ارادته حيث تريد أن تنطلق ، حتى ولو كان يظن أن ما تريد أن تنطلق اليـــه مستحيل ، فقد لا يكون مستحيلا الا فى توهم البعض .

واذا كنا نقول أن أحد شروط نفاذ الارادة الانسانية هو أن لا تتصادم مع القوانين الأساسية للطبيعة فليس ذلك الا لنفسر بعض الأحـوال التى لا تنفذ فيها الارادة الانسانية مع توفر شروط نفاذها الثلاثة .

ثانيا ـ قوة القضاء والقدر :

واذا كان اصطدام الانسان بارادته الخاصة مع نواميس الطبيعة ، من

شأنه أن يحول دون تحقق هذه الارادة فان النواميس الطبيعية من ناحية أخرى ، قد تدهم الانسان ابان نشاطها الهادف لتحقيق غاياتها الكلية ، فاذا بها تقعد الانسان عن الحركة حيث يريد أن يتحرك ، أو تصيبه بالمرض وشتى الحوادث ، وهو أحوج ما يكون الى الصحة والعافية ، وأخيرا قد تخترم حياته كلها حيث يريد لها أن تطول . هذه الحوادث وأمثالها مما قد يقع للانسان ، قد تواضع البشر على تسميتها بقوة القضاء والقدر مظهر ارادة الله ومشيئته . وقال الماديون والطبيعيون بل هى الصدفة التى تخبط خبط عشواء بلا هدف أو غاية مقصودة ، وسرعان ما أثبت العلم ، أن ما ظنه البعض صدفة تسير على غير هدى انما يعمل بقوانين ثابتة ومطردة كأى قانون آخر يعمل فى هذا الكون ، وعلى هذا الأساس نشأت قوانين الاحتمالات التى أصبحت تحكم ما كنا نتصور أنه يحدث بالصدفة .

وهكذا عدنا الى القول القديم الثابت من أن القضاء والقدر هما مظهر قانون يعمل كأى قانون آخر لغاية محددة وهدف مرسوم .

على أننا كما قلنا فى البند السابق ، أن الانسان لا يجب أن يضع قيدا على ارادته خوفا من أن يصطدم بالقوانين والنواميس الطبيعية فقد يتضح فى نهاية الأمر أن ما كان يتصور أنه قانون من قوانين الطبيعة ليس قانونا على الاطلاق ، فكذلك نقول هنا أنه يجب على كل انسان أن يسقط قوة القضاء والقدر من حسابه فلا يقيم لها وزنا ، ولا يجعلها تحد من نشاطه أو تعرقل ارادته . ومن حسن الحظ أن هذا هو ما اتبعه الناس بالفعل .

فلم يوقف الموت الذى قد يفاجىء الانسان فى أى لحظة انسانا ما عن العمل والجهاد والكدح والبناء والتعمير ورسم الخطط القريبة بل والبعيدة لعشرات ومئات السنين .

ولم تحل مخاطر الطريق بين الانسان وأن يجوب القفار ، ولم تحل مخاطر البحار عن أن يخوض الانسان البحار عندما كانت سفينته تعمل بالشراع . ولم تحل الآفات الزراعية بين الفلاح وبين أن يزرع أرضه فى أى عام من الأعوام . ولم تحل كوارث البراكين والزلازل من قيام دول من أعظم الدول على هذه الأرض التى تنكب بهذه الكوارث من حين لآخر كاليابان .

ولم تحل الحروب المدمرة أو الطواعين والأوبئة والمجاعات بين الانسان وأن يكافح فى ثبات لانشاء دول وانشاء حضارات .

ذلك أن الانسان أدرك أن مافى الكون من قوة تدهمه وتدهم مشروعاته ليست هى القانون الأعم الأغلب ، بل هى الاستثناء وهى تؤلف كسرا صغيرا بالنسبة للعدد الكبير الذى تطرد فيه الحوادث على نسق القوانين التى يعرفها ويألفها .

ولما كان الانسان قد خلق ليحيا وينمو ويترعرع ويعمل ملكاته التى جهزته بها الطبيعة ، فقد راح ينظم حياته ومجتمعه ومستقبله على أساس القوانين المطردة لا الاحتمالية وعلى القاعدة العامة لا الاستثنائية ، مسقطا بذلك من حسابه هذه الأحوال الطارئة التى تتوقف فيها القوانين عن العمل : والتى تنحرف فيها الحوادث عن المألوف والمعتاد مما أسماه القضاء والقدر .

واسقاط القضاء والقدر من حساب الانسان كعامل فعال فى حياته هو ضرورة واجبة على الانسان وحق له فى ذات الوقت ، فالعقل البشرى لا يعرف الا ما يسير على نهج محدد وبسنن واضحة ، لقد أعد وجهز بحيث يربط الأسباب بالنتائج والمعلولات بالعلل مستخلصا ذلك من اطراد

الحوادث على وجه متشابه . ولا سبيل لحياة الانسان فى هذا الكون الا على أساس هذه القوانين المطردة الثابتة . أما هذه القوى الأخرى التى لا تزال مجهولة ، قوة القضاء والقدر التى قد توقف القوانين المألوفة عن العمل ، والتى لا يعرف الانسان متى تقع ولا أين وكيف تقع ، فمن المحال على العقل البشرى أن يدخلها فى حسابه مادامت تشذ عن الحساب المألوف، وقد لا يكون لها حساب من نوع يستطيع أن يحذقه الانسان .

ويكون الشأن بالنسبة لهذا الاستثناء هو ما قلناه بالنسبة للاستثناء الأول ، وهو أننا انما نذكره على سبيل التعليل والتفسير للأحوال التى قد لا تتحقق فيها ارادة الانسان على الرغم من استكمال شرائطها . ولكن ذلك لا يعنى بحال ، أن يتوقف الانسان عن اعمال ارادته فى أى لحظة من اللحظات ، أو أى شأن من الشئون ، خوفا من الاصطدام بالقضاء والقدر ، فقد يكون اعمال الارادة فى هذا الأمر هو عين مايريده القضاء والقدر .

ثالثا ـ اصطدام الارادات الانسانية :

بقيت الحالة الثالثة وهى التى يتوقف فيها قانون نفاذ الارادة الانسانية توقفا نسبيا ، بمعنى نفاذه لشخص على حساب عدم نفاذه لشخص آخر . فما هو الرأى اذا تعلقت ارادة انسان بهدف قد تعلقت به ارادة انسان آخر ؟ لا مناص هنا من اصطدام الارادات ومن هنا كان الصراع الذى نراه بين البشر وكل ما جر اليه من متاعب وآلام وشرور وفساد فى الأرض . فعندما يتصارع اثنان أو أكثر للحصول على بطولة رياضية محلية كانت أو اقليمية أو دولية ، فلا مناص من فوز انسان واحد بهذه البطولة أو الجائزة وانهزام انسان آخر أو آخرين ، ولا يحدث ذلك فى ميدان الرياضة فحسب ، بل يتعداه الى سائر ميادين الحياة ، حيث المنافسة والصراع على أشده فى دنيا المال والجمال والسلطان ، فينتصر أشخاص وينهزم عديدون

يتجرعون غصص الفشل وخيبة الأمل التى قد يستتبعها الفقر أو العار أو فقدان الحرية والكرامة أو الحياة من أساسها كما هو الشأن فى المعـارك الحربيـة .

وعندنا أن الهزيمة لا تعنى شيئا سوى نقص شرط من شروط الارادة عند المنهزمين وكمالها عند الفـائزين ، وليس أدل على ذلك من أن بعض المنهزمين ، لا يكادون يهزمون حتى ينسحبوا من الميدان على الفور والى الأبد ، فيبرهنوا بذلك على نقصان شرط من شروط الارادة وهو « ثبات الهدف » وهناك بعض المنهزمين يجعلون من هزيمتهم حافزا جديدا لشحذ عزيمتهم لمعاودة الكرة ثانية وثالثة ورابعة ، فيتحقق شرط ثبات الهدف فلا يمكن الا أن ينتصروا فى النهاية على من يكونون دونهم استكمالا لشرائط الارادة .

وهكذا قد يخيل لنا أن قانون نفاذ الارادة لا يتحقق عند اصطـدام ارادتين بشريتين ، ولكن الذى يحدث أنه يتحقق دائما بالنسبة لمن يستكمل شرائط الارادة ضد الذى لم يستكمل شرائطها .

هل للجماعة ارادة أقوى من ارادة الفرد ؟

بقى علينا لكى نختم بحثنا عن الارادة أن نتساءل هل هناك ما يسمى ارادة جماعية تتفوق على الارادة الفردية ، أو بمعنى آخر هل ارادة العشرة أقوى من ارادة الفرد ، وهل ارادة الألف أقوى من ارادة المائة والجواب على ذلك بالنفى .

فالارادة كما قلنا من قبل هى أحد مظاهر العقل الانسـانى الذى هو بعض هذا السر الذى يقوم به الوجود والعقل الانسانى . والارادة الانسانية لا يمكن أن تكون شيئا قابلا للتجزئة وبالتالى للزيادة أو النقص ، ان الأم عندما تنجب طفلها فهى لا تقتسم الحياة بكل مظاهرها بينها وبينه وانما هى

تنقل اليه الحياة بكل أسرارها وما تنطوى عليه من طاقات ، والانسان الذى يولد له ألف طفل أو مليون طفل فان سر الايجاد الذى ينطوى عليه لا ينقص بمقدار ذرة نتيجة لما ولد ... ان السر يظل هو السر بكل قوته وكماله .

ان جميع شجيرات القطن فى الدنيا لا تنطوى على سر النمو والتكاثر بأكثر مما تنطوى عليه بذرة واحدة ، وليس فى كل شجيرات القطـن فى العالم ارادة فى النمو تزيد عما فى داخل بذرة واحدة من بذور القطن فالسر واحدا لا يتجزأ وهو اما أن يكون أو لا يكون .

وكل انسان ينطوى على هذا السر الذى يمثل حصيلة ما اتتهت اليه الطبيعة من قوى وطاقات ولن تزيد هذه الحصيلة باجتماع مائة رجل أو ألف أو مليون ، فمحصلة القوى واحدة فى الجميع .

والثابت أن الجماعة اذا لم يكن لها قائد فانها لا يمكن أن تكون لهـا ارادة موحدة وبالتالى لا يمكن أن تفعل شيئا قليلا أو كثيرا ... ان ملايين الناس بغير قائد يوحد اتجاهها وينظم قواها نحو هدف واحد لا تساوى شيئا ، وعلى هذه الوتيرة هزمت شعوب ودحرت جيوش لأن قلوبها لم تكن مجتمعة على قلب رجل واحد أو بالأحرى لأنه لم يكن لها قائد يوحد هدفها ويطلق طاقاتها فى اتجاه واحد .

وعلى العكس تحولت شعوب وجماعات تحت تأثير رجل واحد من لجة اليأس والخور الى ذروة القوة أو الشجاعة .

وما أكثر الرجال كما سترى فى الفصل القادم الذين تحدوا باراداتهم وايمانهم شعوبهم وجماعاتهم فهزمت الجماعة وانتصر الفرد وتحول الجميع من مقاومته وحربه الى الوقوف وراءه وتحت لوائه .

فالارادة فردية وهى شىء لا يجمع ولكنه شىء يستثار فى كل نفس على

حدة ، وما يفعله القائد أو الزعيم هو أن يدل كل انســان على مافى نفسه من طاقة ليسخرها .

ومن الأمور المسلم بها ان الطاقات الانســانية كالايمان والشجاعة والارادة تسرى كالعدوى من انسان لآخر . والحقيقة أن هذا التشبيه انما يقال على سبيل التجوز فالارادة لا تنتقل والعقل لا ينتقــل والشــجاعة لا تنتقل فكل هذه صفات وقوى كامنة فى كل نفس على حدة واستقلال وانما الذى يحدث ان الانسان بمجرد أن يرى أمامه رجلا شجاعا تتحرك فى نفسه صورة الشجاعة فيصبح شجاعا ، أو يرى أمامه انســانا جبــانا فتتكون فى نفسه صورة الجبن فيصبح جبانا ... ويرى الايمان فيصبح مؤمنا بقوة من داخله ، ويرى الانسان المريد فتتحرك ارادته .

وهذه هى رسالة القادة والزعماء والأنبياء والمرسلين أن يحملوا الناس على اكتشاف مافى نفوسهم من طاقة واقتدار فيريدون ويحققــون الذى يريدون .

ولذلك فهو وهم تردى فيه الكثيرون أخيرا من وضع الفرد فى مواجهة الجماعة والتحدث عن ارادة الفرد ، وارادة الجماعة وعن قوة هذه الأخيرة وضعف الأولى ، وهو كله خلط وعدم فهم فما من جماعة تفوز على جماعة أخرى أو على فرد الا بقوة فرد واحد تكون ارادته هى الأقوى ، فيجرى الحديث عن الجماعة وارادة الجماعة والحقيقة ان الذى ينفــذ هو ارادة انسان فرد واحد فى نهاية الأمر .

وما من فرد الا ويحكم أى جماعة رغم ارادتها مالم يتصدى فرد آخر يكون أقوى ارادة منه لتخليصها منه ... فعنــــدما تتحدث عن الارادة البشرية فهى كل لا يتجزأ وهذا الكل متوفر لدى كل انسان والفارق بين انسان وآخر ينحصر فى أن انسانا يعرف مدى قدرته فيستعملها ، وآخــر لا يعرف مداها فيقف عند الحد الذى يتصــور انه منتهى قوته وسنزيد

الأمر شرحا فى الفصل القادم ... عندما نرى كيف يستطيع انسان فرد أن يغير مصير أمة بل مصير البشرية كلها .

تلخيص :

واذا كان حديثنا عن الارادة قد طال واستفاض ، فقد يكون من الخير أن نلخص كل ما ذكرناه من حقائق فى هذا الفصل فى السطور القليلة التالية :

أولا — باستطاعة كل انسان أن يحقق أى هدف يتصوره فى ذهنه ، اذا توفرت فى هذا الهدف الشروط الثلاثة الآتية :

١ — ضرورة الهدف
٢ — وحدة الهدف
٣ — التركيز على الهدف

ثانيا — على أن هناك استثناءات ترد على هذه القاعدة وهى بدورها تتلخص فى ثلاثة :

١ — اصطدام ارادة الانسان بالنواميس الطبيعية
٢ — اصطدام النواميس الطبيعية بالانسان
٣ — اصطدام ارادة الانسان بارادة انسان آخر

ثالثا — ليس يعنى عدم نفاذ الارادة الانسانية فى هذه الأحوال الثلاث ، أن يتوقف الانسان عن أعمال ارادته ، خوفا من أن يصطدم بالنواميس الطبيعية أو بارادة غيره من البشر ، فهو لا يعرف على وجه اليقين والقطع أن أمرا من الأمور هو من نواميس الطبيعة ، كما لا يعرف متى وأين يجىء القضاء والقدر ، ولا كيف يقع . وأخيرا من الخير للانسان أن يعمل على تنسيق ارادته مع الآخرين والتوافق معهم ، ليضمن نفاذ ارادته .

مراجع خاصة بالفصل السادس

٧٧ — القضاء والقدر لعبد الكريم الخطيب

٧٨ — مهذب رحلة ابن بطوطة أشرف على تهذيبه أحمد العوامرى ومحمد أحمد جاد المولى

٧٩ — من نافذة العقل — للدكتور نقولا فياض (سلسلة اقرأ)

٨٠ — رأس المال — كارل ماركس ترجمة الدكتور راشد البراوى

٨١ — فلسفة اليوجا — لعريان سعد

٨٢ — الثقافة الموسيقية للصاغ صالح عبدون

٨٣ — الفصل فى الملل والنحل — لابن حزم

٨٤ — الواجب — لجول سيمون

٨٥ — قانون العقوبات المصرى

٨٦ — الهدف المنشود — لبطلة العالم الرياضية « جالينا زيبنيا » من مطبوعات الاتحاد السوفييتى

٨٧ — أصدقائى الوحوش — لبوريس أدر (من مطبوعات الاتحاد السوفييتى)

٨٨ — My Religion - By Helen Keller

٨٩ — The Human Machine By Sir Adolphe Abrahams.

مراجع سبقت الاشارة اليها

— ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية . أشرف على تأليفه ج.ب جليفورد . وأشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد .

— مبادىء علم النفس — الدكتور يوسف مراد

الفصل السابع

الإيمـــان

الايمان صورة من صور الارادة ـ عصر الشك ـ يسوع الناصرى ـ محمد ابن عبـــد الله ـ جان دارك ـ مارتن لوثر ـ كولمبس ـ لينين ـ غاندى ـ مصطفى كامل ـ معجزات الشفاء فى موسم الحج بمكة ـ راى الكسيس كاريل فى معجزات الشفاء ـ العلاج الحديث بالتأثير والأيحاء ـ المسمرية ـ التنويم المغنطيسى ـ فرويد والتحليل النفسى ـ المرض كصـورة ذهنية ـ كيف تتكون العقيدة ـ الضرورة ـ الوحـدة ـ الثبات والتركيز ـ الأحـوال التى لاينفذ فيها الايمان .

لو كان فى قلب أحدكم ذرة من ايمان ثم قال للجبل تحرك لتحرك .

يسوع الناصرى

عبدى كن ربانيا تقول للشيء كن فيكون

حديث قدسى

الأيمان من صور الأرادة

رأينا فى الفصل السابق أن الانسان لا يكاد يريد حتى تتحقق ارادته ، متى استوفت هذه الارادة شرائطها . وتتحقق الارادة بواسطة الطاقة التى تبعثها الصور الايجابية الحركية المرتسمة فى الذهن ، والتى ينعقد عليها عزم الانسان واصراره أو بالأحرى تركيزه . والارادة فى الأصل تتجــه نحو تحقيق أغراض وأهداف مادية ، يراها الانسان ضرورية لتحقيق كيــانه المادى ، من طعام وشراب ومسكن وزوجة وولد ومال وجاه وسلطان . ولكن الارادة قد تتجه أحيانا نحو تحقيق بعض المعانى والأفكار التى ليس لهــا

وجود مادى يلمس باليد أو يدرك بحاسة من الحواس ، ولكنهـــا تجد طريقها بوسيلة ما الى الذهن ، فتصبح لها صورة واضحة المعالم يتعلق بها الانسان ، وتصبح محور حياته . هذا المظهر من مظـاهر الارادة هو ما نطلق عليه فى الاصطلاح ، كلمة « الايمان »

والانسان المؤمن كالانسان المريد تصبح له قوة وفاعلية لتحقيق هذا الذى يؤمن به ويعتقده من المعانى والأفكار ، فيخرجها من حيز التصور الى دنيا التطبيق والواقع صورا محسوسة أو ملموسة أو مبادىء يعتنقها الكافة ، أو نظما تطبق ، أو أهدافا تحقق ، أو انتصارات تحرز .

ولما كانت الطاقة الانسانية التى يمكن أن تنطلق من الانسان ، كمـا رأينا فى موضوع الارادة ، لا حد لها أو نهاية ، فان تولد هذه القوى فى موضوع الايمان أبين وأظهر كما سنرى .

الايمان فى القديم

ولم يكن موضوع الايمان فى القديم (على خلاف موضوع الارادة) يثير أى جدل حول مفهومه وطبيعته ، أو حول مدى القوة التى يمكن أن يزود بها الانسان . فما دام الانسان — فى تصور القدامى كما قلنا أكثر من مرة — قادرا على أن يتصل بقوى الكون الظاهرة أو الباطنة ، فليس هناك ما يستحيل على الانسان أن يحققه بفضل هذه القوى . ومن هنـا كان المؤمنون اذ يرون المعجزات تقع من الأنبياء والرسل والقديسين وأولياء الله الصالحين ، أو من السحرة وحلفاء الجن والشياطين ، لا يدهشهم هذا الذى يرون فلا يكذبون أنفسهم ولا يتشككون بحال فى حقيقة ما رأوا أو سمعوا ، فالأمر عندهم طبيعى وسائغ ومألوف . ولم يكن الذين تنقل اليهم أخبار هذه الكرامات أو المعجزات بأقل تصـديقا لها ممن رأوها ،

فالله قادر على فعل كل شيء ، وما دام قد تم التسليم بأن شخصا ما هو رسول من رب العالمين ،فأى غرابة فى أن يشق البحر بعصاه أو أن يحول ماء النيل الى دم أو أن يغمر أرض مصر بالضفادع أو الجراد أو القمل [1] أو أى غرابة فى أن ينشق له القمر أو ينبع الماء من بين أصابعه الشريفة أو يحن له الجذع أو تكلمه الحيوانات ؟ أى غرابة فى أن يكون بقدرة أى قديس أو ولى من أولياء الله الصالحين أن يمشى على الماء أو يخوض النار ؟

عصر الشك

ثم جاء عصر المادة والشك ، الشك فى كل ما يقال أو يروى ولو أجمعت عليه الناس كافة ، الشك فيما لا يمكن أن يراه أى انسان بعينه اذا أراد رؤيته ، أو أن يلمسه بيده اذا أراد لمسه ،، فهذا فقط هو السبيل الى العلم . فاذا قالت الأناجيل مثلا ، ان عيسى أحيا الموتى فذلك لا يعدو أن يكون خرافة فلم ير المتشكك شخصيا انسانا يقوم من الموت . واذن فقد أصبح من المتعين اسقاط هذه الأخبار التى لا تزيد عن أن تكون بعض حكايات العجائز التى تروى للأطفال [2] .

أن كل مافى الكون يسير وفق قواعد وسنن لا تتحول أو تتبدل ، فطبيعة النار الأحراق فهى لا يمكن الا أن تحرق وأن تحرق على الدوام

---

(١) الأشارة هنا لمعجزات موسى فى مصر مما يسمى « بالضربات العشر »

(٢) ومع ذلك فقد نشرت الصحف فى صباح السبت ١٩٦١/١١/٩ نبأ حملته شركات الأنباء تحت عنوان « مؤتمر لأحياء الموتى فى الاتحاد السوفيتى» وقد جاء فى هذا النبأ المذكور أن مؤتمرا قد انعقد فى موسكو يوم الخميس ١٩٦١/١١/٧ للبحث فى الوسائل الفنية الخاصة باعادة الحياة الى الموتى، وقالت وكالة تاس السوفيتية ، أن هذا المؤتمر قد حضره حوالى ٥٠٠ عالم من مختلف أنحاء الاتحاد السوفييتى ودول الكتلة الشرقية الأخرى ٠ وأضافت تاس أن عددا يتراوح بين ٢٣٦ و ٤٥٦ من المرضى الكبار قد أعيدوا الى الحياة خلال العامين الماضيين بعد أن أعلن الأطباء وفاتهم رسميا ٠

فاذا قيل لنا ان ابراهيم قد ألقى فى النار فلم يمسسه سوء فان العقل يجب أن ينكر ذلك لأنه مستحيل . هذا هو منطق العلم الحديث وليس عندنا ما يمنع أن نساير العلم الحديث على منطقه ، وسنرى كيف أننا من خلال هذا العلم الحديث ومنطقه سننتهى الى اثبات ظاهرة الايمان [1]

يسوع الناصرى

لنسقط من تاريخ المسيح وتلامذته كل ما ينسب اليه واليهم من معجزات وعجائب ، لنقل انه لم يحى الموتى ولم يبرىء الأكمه والأعمى ولم يمش على الماء ولم ينتهر البحر الهائج فسكن على الفور ، لنتصور يسوع الناصرى مجرد انسان عادى كباقى الناس جاء يدعو للحب والسلام والسكينة ومن ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر . فلن يلبث العلم أن يجابه بمشكلة لا قبل له على حلها ، والا فليقل لنا العلم بأى قوى وبأى سلطان استحوذ هذا الشاب البسيط الساذج ، الذى جاء يقول كلاما يناقض طبيعة البشر ومفهوم الحياة من أنها كفاح ، على أفئدة الملايين من البشر فى حياته وبعد مماته ، وأصبح صاحب عقيدة ودعوة قدر لها أن تصبح الدين الرسمى للأمبراطورية الرومانية ، وكانت السبب الرئيسى فى انهيار حضارة وقيام نوع جديد من الحياة ؟

---

(١) الرأى عند جمهرة علماء المسلمين العصريين أن معجزة سيدنا محمد الكبرى هى معجزة عقلية بحتة تتجلى فى اعجاز القرآن الذى تحدى العرب ببلاغته ، ويتحدى الزمن فى ثباته وأثره المتجدد فى نفوس معتنقيه ، وقد عزز هذا النظر ما رواه القرآن عما دار بين المشركين وبين رسول الله من أحاديث حول موضوع المعجزات فى الآيات الآتية « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه • قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا • (الاسراء ٩٠ - ٩٤)

بأية قوة وبأى سلطان استطاع تلامذة المسيح وهم ما بين صياد ونجار وفلاح ، أن يتحدوا عصرهم ، أن يتحدوا الحكام والأمراء والقياصرة والأباطرة والحكماء والفلاسفة ، أن يتحدوا القوة الغاشمة والتقاليد والنظم السائدة ؟ بأية قوة أو بأى سلطان لم يفروا من الموت على الصليب، أو حرقا ، أو تمزيقا بين أنياب السباع ، وكيف حدث أن تحول هذا المصير المحتوم لكل من يعتنق المسيحية الى السر الأكبر فى انتشارها ؟ أين ذهبت غريزة البقاء ، أين ذهب الجبن والخوف الذى هو من طبيعة العبيد وقد كانوا من معتنقى المسيحية ؟ لقد تلاشى كل ذلك وذاب أمام نيران الايمان بالمسيح وتلامذته ، فأى دليل أعظم من ذلك على أن الايمان يزود الانسان بقوة تعلو على قوانين الحياة العادية ؟

واليوم يربو عدد المسيحيين فى العالم على ٦٠٠ مليون من البشر ، تدق بينهم الأجراس كل صباح ومساء ، وتوقد بأيديهم ملايين الشموع تمجيدا للسيد المسيح وتلامذته ، ويحدث ذلك فى أرقى المجتمعات ، وليس فى المجتمعات التى لاتزال متخلفة كما قد يظن ، يحدث فى انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، بل وفى روسيا السوفيتية نفسها ، التى تدين رسميا بوجوب القضاء على الأديان ، ومع ذلك فقد عادت بعد أربعين سنة من الدعاية الشيوعية ضد الأديان ، تسمح للكنائس والمساجد أن تغص بالمصلين [1] .

---

(١) ارسل الأتحاد السوفييتى وفدا من القساوسة لحضور المؤتمر الثالث للمجمع الدولى للكنائس المنعقد فى نيودلهى وقد ذكر الأسقف « نيكوديم » رئيس الوفد السوفييتى فى المؤتمر أن عدد رعايا كنيسته يبلغ تعدادهم ٥٠ مليونا وأنه يمثل عشرين ألف منطقة وأربعين ديرا و ٧٣ مطرانية .

(شركات الأنباء ـ ومجلة لايف الأمريكية عدد أول يناير سنة ١٩٦٢ .

وما يقال عن يسوع الناصرى يقال عن محمد بن عبد الله ، فبأية قوة وبأى سر استطاع هذا العربى الأمى الذى نشأ يتيما من الأبوين ، والذى تولت ارضاعه وتنشئته بدوية من رعاة الغنم ، والذى كان مجتمعه يعيش على هامش المدنية والحضارة ، وبلغ من غلظ أكباد هؤلاء العرب ، أن كانوا يئدون بناتهم أى يدفنونهن أحياء ، ومع ذلك فقد جاء محمد الذى عاش فى هذه البيئة بأروع رسالة تفيض بالرحمة ، وتدعو للتوحيد والتآخى بين البشر ، فالله واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، منزه عن التشبيه والحلول والتجسيد . والبشر جميعا قد ولدوا أحرارا متساوين ليتآخوا ويتعاونوا ويتحابوا واقرأوا ان شئتم « انما المؤمنون أخوة » ، أو استوعبوا قول الرسول « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

واذا كانت المسيحية قد احتاجت لأربعة قرون لتصبح الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية ، فان الاسلام لم يحتج لغير نصف قرن ليؤلف دولة تمتد من المحيط الى المحيط ، وفى خلال قرن واحد من الزمان بلغ عدد معتنقيه مائة مليون نسمة ، أصبحت لهم حضارة تلخصت فيها كل الحضارات السابقة عليها بكل علومها وصناعاتها وفنونها ، ثم سمت هذه الحضارات كلها بالأساس الروحى والانسانى الذى كان دعامتها الكبرى. وفى العالم اليوم ٤٠٠ مليون من البشر أو يزيد تنبض قلوبهم بهذا الدين القويم ، ويتخذون منه الأداة والسبيل لاعادة حياتهم الى الطريق السوى ، ملايين من البشر يرون فى القرآن نور عيونهم وشفاء صدورهم وصخرة نجاتهم ومعقد رجائهم .

ويؤذن المؤذن فى طول الدنيا وعرضها خمس مرات فى كل يوم شاهدا

بأن الله واحد وأن محمدا عبده ورسوله . ولقد شهد التاريخ أكثر من مرة كيف انتصر الايمان بهذه الدعوة انتصارا باهرا ، فبقوة هذا الايمان انتصر صلاح الدين على أوروبا مجتمعة فى الحروب الصليبية ، وبقوة هذا الايمان انتصر قطز وبيبرس على موجة التتار التى اكتسحت كل من فى طريقها من أواسط آسيا حتى حدود مصر ، وبقوة هذا الايمان استطاع محمد الفاتح أن يستولى على القسطنطينية بما يشبه المعجزة العسكرية التى لم يسبقه اليها انسان .

ويمتلىء تاريخ البشرية بأمثال هذه النماذج ، التى استطاعت على مر العصور أن تغير مجرى التاريخ وأن تطبع الأمم والشعوب بطابعها ، كبوذا وكنفشيوس ومارتن لوثر ، ذلك القس الألمانى الصغير الذى تحدى البابوية وهى فى ذروة قوتها وطغيانها ، فزلزل العالم المسيحى زلزالا ، وأصبح علما على طائفة البروتستنت الذين جددوا شباب المسيحية [1] .

ما هو التعليل والتفسير ؟

فبأى سر استطاع هؤلاء الأشخاص دون غيرهم ، أن يحدثوا كل هذا الذين أحدثوا ، وما زالوا يحدثون ؟ بأية قوة نجا مارتن لوثر من براثن البابا ووجد له حماة وأنصارا ، حيث لم يستطع الملوك أن يجدوا لهم معينا أو نصيرا اذا ما غضبت عليهم البابوية ؟ كيف استطاع مارتن لوثر أن يظل يقاوم البابوية أعواما ثم لا يكون فى العالم المسيحى كله من يغتال حياته على الأقل تقربا الى الله ؟

---

(١) مارتن لوثر قس المانى كان أول من اجترأ فى التاريخ على تحدى البابا وذلك فى عام ١٥٥٧ عندما أرسل البابا لجنة الى ألمانيا لبيع صكوك الغفران التى تهب ملكوت السماء لمن يشتريها . وكان ذلك تقليدا متبعا ومقدسا ككل ما يتصل بالكنيسة الكاثوليكية ، فقام مارتن لوثر وأعلن بطلان هذه الصكوك، مدللا على بطلانها بخمس وتسعين حجة من الكتاب المقدس Religious Leaders. (صور حية للزعماء الدينيين ص ١٥٣) .

لماذا شذ بوذا دون غيره من ملوك العــالمين ، فآثر على العز والجـاه والسلطان ، والزوجة والولد حياة التشرد والتسول ، وصنوف العذاب التى عرض لها نفسه مما لم يسمع به انســان ، وبأية قوة وبأى ســلطان يصبح بوذا الها معبودا لدى مئات الملايين فى آسيا ، بل ويدين بدينه مئات من جهابذة العلماء والحكماء فى أوربا وأمريكا نفسها ؟

لماذا اختص هذا النفر بهذه القوة غير العادية التى مكنتهم من فعــل الذى فعلوا على خلاف كل مألوف ومعروف ؟ يجيب السلوكيون ردا على هذا التساؤل ، بأن بوذا وعيسى ومحمد كانوا يتمتعون بقوة الشخصية ؛ وكانت لديهم القدرة على الايحاء ، فاذا أضفنا الى ذلك استعداد الجماهير للاستهواء لم يعد فى الأمر سر ولا ما يستعصى على التفسير . وعندنا أن ذلك الذى قد يقول به أو بمثله السلوكيون ، ليس شيئا أكثر من تفســير الماء بعد الجهد بالماء ، اذ ما هى قوة الشخصية ولماذا يختص بها انســان دون انسان ، وما هى القدرة على الايحاء ، ولماذا استهوى هـــذا النفر الجماهير فى حياتهم وبعد موتهم دون غيرهم من العالمين ، ولماذا لم تفلح قوة الاستهواء هذه فى نقض هذا الذى دعوا اليه بعد موتهم وانقضــاء أجيال على دعواتهم ؟ ان علم السلوك لا يعنيه أن يعلل وبحسبه أن يصف ما يراه ويقرره ، وما دام الأمر لا يعدو أن يكون تقريرا لما يجرى ويقع فمن حقنا أن نقول للسلوكيين ، ان هذا الذى تسمونه قوة شخصية وقدرة على الايحاء واستعداد الجمــاهير للاستهواء هو ما سمته البشرية بكل بساطة « ايمانا » ، وليس هناك أى مبرر للعدول عن استعمال كلمة صقلت على مر الأجيال وأصبح مفهومها واضحا لكل انسان ، الى كلمات جديدة باهتة لا تفسر الظاهرة فى كثير أو قليل بأكثر مما تفسرها به الكلمة الخالدة « الايمان » .

وهناك تفسير آخر قد تسمعه من المؤمنين بالمادية الجدلية وزميلتها المادية التاريخية ، فهم يقولون لنا أن الزعيم أو البطل ثمرة بيئته ، هو حصيلة التفاعل البشرى فى مجتمعه الذى نشأ فيه ، وهم يقولون لنا من ناحية أخرى ، ابحثوا دائما خلف العوامل الاقتصادية تجدوا تفسير كل ما ترغبون فى تفسيره ، ان العنصر الأساسى فى كل تطور تاريخى اجتماعى انما يرجع الى تغير وسائل الانتاج ، [1] فكل تغير فى وسائل الانتاج يتبعه على الفور تغير فى النظم الاجتماعية ، ولست أعرف كيف يستطيع هذان العنصران — من أن البطل وليد بيئته ، ومن أن تغير عناصر الانتاج خلف كل تطور اجتماعى — أن يفسرا ما أحدثه بوذا أو عيسى أو محمد فى حياة الانسان واسقاط حضارات ، وبناء حضارات جديدة ؟ أى تغير فى وسائل الانتاج قد حدث فى فلسطين فأدى الى ظهور السيد المسيح ، أو أى تغير فى وسائل الانتاج قد حدث فى مكة فأدى الى ظهور سيدنا محمد ، وما هى تلك العوامل التى كانت تتفاعل فى فلسطين اليهودية لتخرج المسيح الذى قوض الامبراطورية الرومانية ؟

وأى عوامل تلك التى كانت تتفاعل فى صحراء العرب لتخرج سيدنا محمدا الذى طبع الدنيا بطابعه ؟

الحق أنه لو كان المسيح أو محمد قد خرج فى أثينا القديمة أو روما أو الاسكندرية ، لربما صح هذا الذى يقال من أن البطل هو ثمرة تفاعل معين فى البيئة ، أما وعيسى لم يكن ، كما رأينا ، الا قرويا لم يدخل المدارس ولم يتعلم الفلسفة بل جاءت دعوته كلها حربا على الأديان المتبعة

---

(١) التاريخ الرسمى للحزب انشيوعى الروسى ـ ص ١٩٠
History of the C.P.S.U.(B)

والفلسفة الشائعة ، والتقاليد المستقرة ، أما ومحمد بن عبد الله لم يكن بدوره الا راعى غنم فى صباه ولاحظ له من تعليم ، بل لاحظ لبيئته كلها من العلم الذى كان شائعا فى هاتيك الأيام ، فان كل حديث عن أن عيسى ومحمدا وبوذا هم ثمرة بيئتهم ، وثمرة التفاعل الذى كان يجرى فى مجتمعهم ، وكل حديث بالأكثر ، عن تغير وسائل الانتاج باعتبارها العنصر الأساسى والحاسم خلف كل تطور تاريخى لا يعدو أن يكون مجرد أقوال تساق بغير دليل أو برهان ، ان صلحت لتفسير بعض ظواهر التاريخ الثانوية ، فهى لا يمكن أن تفسر بحال تطورات التاريخ الأساسية ، من قيام الدول والحضارات وسقوطها .

جان دارك

واذا كان الحديث عن الرسل وغيرهم من أصحاب الرسالات العالمية يعتبر دائما على سبيل الاستثناء الذى قد لا يقبل القياس ، فما هو الرأى فى الحالات الأخرى الأكثر عددا ، والتى وان كانت أقل شأنا الا أنها ليست أيسر على التفسير أو التعليل ، من حيث التحدث عن قوة الشخصية ، أو عوامل البيئة ووسائل الانتاج . ما هو الرأى فى هذه الفتاة القروية الفرنسية « جان دارك » التى ولدت عام ١٤١١ ؟ أى شأن لجان دارك القروية الساذجة الجاهلة الضعيفة — بقيادة الجيوش وتحرير الوطن وتتويج الملك ؟ الحق أن أباها لم يعدو الصواب عندما أوسع ابنته ضربا وركلا ، عندما زعمت له أن ملاك الرب قد اتصل بها وخاطبها وطلب منها أن تذهب لولى عهد فرنسا الداعر ، وأن تطلب منه أن يعهد اليها بقيادة جيش فرنسا لتنتقم من الانجليز ، وترفع الحصار عن مدينة أورليان ، وتتوجه ملكا على فرنسا . ومع ذلك فقد كان هذا هو الذى حدث على ما يروى لنا التاريخ ، وتم على الصورة التى قالت بها الفتاة .

أى قوة شخصية كانت جان دارك القروية تتمتع بها ، أى قدرة على الايحاء كانت تتمتع بها هذه العذراء ، وأى تغير فى وسائل الانتاج ، هذا الذى أنتج هذه الثورة على كل مألوف ومعروف ؟ بأى قوة استطاعت هذه الفتاة الشابة أن تؤثر الموت بعد ذلك على المحرقة ، لكى لا تتنكر لايمانها من أن ملاك الرب وليس الشيطان هو الذى خاطبها وأوحى بها ؟

بأى قوة استطاعت هذه الفتاة أن تقول لجلادها ، أسرع باشعال النيران فقد أديت رسالتى ، وأنا أريد أن أعود لأبى فى السماء ؟

خريستوف كولمبس

لماذا كان خريستوف كولمبس من دون العالمين هو الذى يتحدى أبناء عصره بهذه الفكرة الجنونية ، وهى أنه من الممكن الوصول الى الشرق ، عن طريق السير نحو الغرب ؟ استنادا الى أن الأرض كروية ، ألا يكذب الحس ، الحس المجرد هذه الدعوى ؟ ألا يستطيع كل ذى عينين أن يتأكد بنفسه أن الأرض مسطحة ومنبسطة ، أو لا تشهد تجارب البشر منذ أقدم العصور على أنه لا يمكن الذهاب الى الشرق الا عن طريق السير فى اتجاه الشرق ؟ أما عن القول بأن بعض الأغريق قد قالوا بكروية الأرض وهو ما تشبث به كولمبس ، فكم للأغريق من أساطير وخرافات وخزعبلات ليست هذه الا احداها . وهكذا احتشدت فى وجه كولمبس الأدلة العقلية والنقلية على فساد تصوره ، ولكن كولمبس آمن بهذا الذى يقول ، فما كان لقوة على ظهر الأرض أن تصرفه عن هذا الايمان . وهكذا راح عشرين سنة يتردد على أبواب الملوك والأمراء عارضا عليهم مشروعه ، وهو الذهاب الى الشرق عن طريق السير فى اتجاه الغرب . وعبثا سخروا منه وصدوه عن أبوابهم ، عبثا أصبح يوصف بالجنون ، فقد ظل يدعو دعواه . ونحن نعرف اليوم كيف انتصر فى نهاية الأمر فأبحرت سفنه الثلاث

التى وضعها ملك اسبانيا تحت تصرفه عام ١٤٩٢ ، وكيف راحت تضرب غربا فى المحيط قاصدة الهند ، وكيف أوشك بحارة هذه السفن أن يفتكوا به ، لولا أن تداركه الله فى اللحظة الأخيرة ، فاذا بهم يرون اليابسة . وخر كولمبس ساجدا لله العلى القدير الذى أوصله الى الهند وجزرها الشرقية عن طريق السير غربا . ومات كولمبسَ وهو لا يدرى أنه قـد جاء للعـالم القديم بقارتين جديدتين ، ذلك أن الذى كان مستوليا على عقله وذهنه ، هو الوصول الى الهند عن طريق السير غربا ، فلما أن رأى أرضا فقد كان يستحيل فى تصوره أن تكون هذه الأرض شيئا غير جزر الهند الشرقية .

لينـــين

واذا كانت هذه الأمثلة التى سقناها قد تحتاج منا الرجوع الى الوراء بضعة قرون لنقلب فى صحائف التاريخ منقبين دارسين ، وأيا كان حكمنا على الأشخاص والحوادث فلا يمكن أن يكون دقيقا ، أو يحظى بموافقة الكثيرين ، فهناك من شك فى وجود المسيح واعتبر موضوعه أسـطورة قديمة ، وهناك من قال بأن جان دارك شخصية خرافية لا وجود لهـا ، وهى لا تعدو أن تكون أسطورة من الأسـاطير ، ولذلك فلندع التاريخ البعيد ولنسرع الى التاريخ الحديث بل والمعاصر الذى عشناه وتابعناه يوما بعد يوم ولا يزال أثره ممتدا حتى هذه اللحظات .

ما هو الرأى فى لينين زعيم البلشفية فى روسـيا ، ؟ انه لا يعدو أن يكون شابا كملايين الشباب الروس ، ولكنـــه انفرد عنهم بايمانه بهذه الدعوة التى نادى بها كارل ماركس ، من أن المجتمع الرأسمالى فى طريقه الى الانهيار نتيجة حتمية التاريخ ، لكى يعقبه النظام الاشتراكى ، ولكى يتحقق المجتمع الاشتراكى فيجب أن يمهد له العمال بما يسمى ديكتاتورية العمال . لم يكن لينين وحده من آمن بالماركسية ، بل لقد سبقه اليهـا

كثيرون ولكن منذ اللحظة الأولى سلم له الجميع بأنه أكثرهم استيعابا لهذه الماركسية . وكان ايمان لينين يمكن أن يلخص فى كلمة واحدة « الثورة » ثورة جارفة تسحق القيصرية والرجعية والرأسمالية فى غير شفقة أو رحمة . نجد هذه الدعوة عند لينين فى أول كتاب ألفه وهو بعد لا يزال شابا « أصدقاء الشعب وكيف يحاربون الاشتراكيين » وكان ذلك عام ١٨٩٤ وفى هذا الكتاب والقيصرية لا تزال فى عنفوانها ، نرى لينين يرسم الطريق أمام مواطنيه فى وجوب القيام بهذه الثورة الجارفة التى قام بها بعد هذا التاريخ بنيف وعشرين سنة . (١)

ثورة فبراير ١٩١٧

وقامت فى روسيا ثورة بالفعل فى فبراير عام ١٩١٧ نتيجة الظروف الطبيعية والاجتماعية والسياسية التى كانت تحتم قيامها ، فقد كانت هزائم روسيا العسكرية فى الحرب العالمية الأولى من الفداحة بحيث تحمل أى شعب فى الدنيا على الثورة ، وكان الفساد قد وصل فى القيصرية الى حد لاتستطيع فيه أن تدفع عن نفسها أى هزة تتعرض لها ، ولذلك فلم يحتج الأمر لأكثر من خمسة أيام لكى تتحول فيها روسيا من ملكية مطلقة الى جمهورية ديموقراطية . وقد تم هذا دون أن يراق كثير دم ، أو يحتاج الأمر الى ضروب بشعة من العنف . وكان لينين عندما قامت الثورة خارج روسيا فعاد اليها بعد شهر من قيامها (٣ أبريل ١٩١٧) عاد يدعو الى ضرورة تحويل هذه الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية تقيم ديكتاتورية العمال . وعبثا قال له أساتذة الماركسية من أمثال بلخانوف ، وقال له زملاؤه واخوانه من أعضاء حزبه : ان روسيا ليست مهيأة بعد لمثل هذه الثورة ،

(١) التاريخ الرسمى للحزب الشيوعى الروسى — ص ٨٩
History of the C.P.S.U. (B)

أو لم يقل ماركس نبى الشيوعية ، أن الثورة الشيوعية لايمكن أن تقوم الا فى أكثر البلاد تطورا فى النظام الرأسمالى كانجلترا أو ألمانيا ، أما روسيا فقد كانت أكثر دول أوربا تخلفا ، وكانت لا تزال بعد فى دور الاقطاع ؟

عبثا قالوا للينين ان حتمية التاريخ تقول بأنه محال أن يتحول المجتمع الاقطاعى الاشتراكى بدون أن يمر على مرحلة الرأسمالية . عبثا قالوا للينين أن أغلبية الروس هم من الفلاحين الذين قال عنهم ماركس انهم أعداء طبيعيون للاشتراكية لأنهم يتمسكون بالملكية فهم حلفاء للرجعية . عبثا قالوا للينين أن ماركس نبى الشيوعية قال بأنه لايمكن تحقيق الشيوعية فى بلد واحد ، ولابد من الانتظار حتى يمكن قيام الشيوعية فى العالم كله فى وقت واحد . [1] عبثا قالوا للينين ذلك كله وأكثر منه ، لقد كان ايمان لينين بوجوب القيام بالثورة الاشتراكية لا يتزعزع ، فراح يدعو للعمل من أجل هذه الثورة وقيام ديكتاتورية العمال على الفور . وكان لينين فى هذه الدعوة يقف وحده « ان لينين يقف وحده خارج الثورة ، أما نحن فماضون فى طريقنا » [2] ونحن نعلم اليوم انه لم تمض سوى ستة أشهر فقط بعد عودة لينين الى روسيا حتى كان لينين يقود ثورة اكتوبر الاشتراكية، وينشىء بالفعل ديكتاتورية العمال . وقامت الحرب الأهلية فى روسيا وزحفت الجيوش الأجنبية من الشمال والشرق والغرب والجنوب لتقضى على هذه الثورة الخطيرة ، وتخضبت أرض روسيا بالدماء كما لم يحدث فى كل تاريخها ، وأغلقت المصانع أبوابها ليستطيع العمال أن يحاربوا ، وانحل النظام الاقتصادى وهددت المجاعة الشعب الروسى ، وتصور كل انسان أن

---

(١) الفصل السابع من التاريخ الرسمى للحزب الشيوعى ـ ص ٢٨٠ وما بعدها ، والفصل الختامى ص ٧٣٥

(٢) من أقوال بلخانوف ـ المرجع السابق ـ ص ٢٨٨

حركة لينين لابد أن تنهار . ولكن لينين وقف وسط هذه الزوابع كالطود حتى كان النصر الذى نعرف . فبأى قوة استطاع لينين أن يحكم روسيا فى هذه الفترة العصيبة ، كيف لم يقتلع وقد كانت الدنيا كلها والظـروف السيئة داخل روسيا تقف ضده ؟ كيف صبر الشعب الروسى على هـذه المحن التى انصبت عليه اثر أربع سنوات من العذاب والحرمان خـلال الحرب العالمية الأولى ؟ تلك هى احدى معجزات الايمان المعاصر ، ايمان لينين بالثورة الجارفة الدامية ، الثورة التى لا تبقى ولا تذر .

واليوم اذ تقف روسيا كأكبر قوة فى العالم أو على الأقل احدى القوتين الكبيرتين فى العالم ، وهى تتهيأ للوصول الى القمر ، قد اتخذ الروس من لينين نبيا أو قديسا ، فجعلوا له كما قلنا قبرا يحجون اليه ، وترى صوره فى كل مكان محاطة بالتبجيل والقداسة كما ترفع صور المسيح ، ويلتمس كل متكلم فى الاشتراكية بعض كلمات مما قال لينين أو فعل ، ليبرهن على أنه ماض على الطريق المستقيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه . وأصبحت الماركسية لا يمكن الا أن تقرن باسم لينين فيقـال الماركسية اللينينية .

غانـدى

على أنه اذا كان لينين قد آمن بأن لا سبيل لتحـرر الشعوب الا من خلال الثورة والعنف ، فلا يتصورن متصور أن انتصاره يعنى سلامة ايمانه أو مذهبه . انه يعنى شيئا واحدا ، وهو صدق نظريتنا فى أن الانسـان يحقق دائما ايمانه متى استوفى هذا الايمان شرائطه ، مما سنتحدث عنـه فى ختام هذا الفصل . أما بالنسبة لصدق النظرية ووجوب العنف والثورة لتحقيق الحرية ، فقد أثبت مؤمن آخر من طراز أعلى وأسمى من الناحيـة الانسانية ، أنها مجرد فلسفة مادية أوربيـة . لقد حرر غاندى أربعمائة

مليون من البشر من ربقة الاستعباد دون أن يأمر أتباعه باطلاق رصاصة واحدة ، بل ودون أن يخرج من فمه غير كلمات الحب والوفاء والرحمة والتسامح . ويجب أن نذكر أن الاستعباد الذى كان الهنود يعيشون فيه ، شىء يعلو على كل وصف ، والبطش الذى كانوا يتعرضون له كلما فكروا فى الثورة أو التمرد ، مما يحمر له وجه التاريخ خزيا وعارا . وهو تعبير تشرشل نفسه فى مذكراته التى نشرها على العالمين . وحسبك أن تعلم أن الأمر قد وصل الى حد ربط بعض زعمـــاء ثورة عام ١٨٥٧ فى فوهات المدافع ثم اطلاقها بعد ذلك فتمزقت أجسادهم بددا فى الهواء . هذا هو العدو وهذا مدى جبروته فى معاملة الشعب الهندى ، فضلا عن اذلاله اياه واحتقاره ، مما لا محل للافاضة فيه . هذا هو العدو الذى تصدى غاندى لمحاربته وانتزاع حرية الشعب الهندى منه .

لقد نادى المسيح كما رأينا بالحب والتسامح مع الأعداء ومن قبله دعا بوذا الى مثل هذه الدعوة . وفى روسيا حمل لواءها تولستوى الذى وصف بأنه نبى القرن التاسع عشر [1] ، وقد اعتبرت هذه الدعوات مجرد كلمات شعرية لا تتصل بحقيقة الحياة والواقع ، واذا جاز أن يترنم بها بوذا أو المسيح منذ عشرات القرون الماضية ، فان العصر الحديث يعتبر كل حديث عن الحب والتسامح ضربا من ضروب الخبل . وقد كان هذا الضرب من الخبل هو الذى اختاره غاندى سلاحا له فى كفاحه . وجاء بتفسير جديد ربما لم يقل به انسان من قبل ، وهو أن يكف عن مطالبـــة خصمه بما يحرجه ، اذا وقع هذا الخصم فى ورطة ، فعندما قامت الحرب العالمية الأولى وكان غاندى قد بدأ كفاحه ضد الانجليز ، أوقف حركته ودعا الى معاونة

(١) قيـــل أن غاندى كان أحـــد الذين تأثروا بتولســتوى بالذات (تولستوى ــ محمود الخفيف ص ٣٧٠) .

الانجليز ، وتطوع هو فى الصليب الأحمر ، وفعل مثل هذا فى الحرب العالمية الثانية . فلا يكاد الانجليز يخلصـــون من الضيق الذى يعانونه ، حتى يستأنف كفاحه . ولم يكن هذا الكفـاح يزيد عن مجرد عصيـان مدنى رمزى ، بعدم الخضوع لقوانين المستعمر ، كاستخراج الملح من البحر وهو الأمر الممنوع . وينقض الانجليز بكل بطشـــهم وقساوتهم على جموع الهنود المسالمة ، فيقول غاندى لأتباعه ، اذا ضربوكم فاحتملوا الضرب واذا آذوكم فاحتملوا الايذاء فى صبر ، واياكم أن ترفعوا على الانجليز يدا ، بل اياكم أن تسبوهم أو تسمعوهم قوارص الكلم ، وانكم لتخطئون أشد الخطأ لو انكم جعلتم الكراهية لعدوكم تملأ قلوبكم . بهذا الأسلوب كان غاندى يعلم تلامذته وأتباعه فسخر منه الساخرون ، وغضب عليـــه من الهنود أنفسهم الغاضبون . وكأن أحد الانجليز أراد أن يلقن غاندى درسا فى سخافة مذهبه ، فانتهز فرصة تجمع بعض حشود من الشعب المسالم فى بلدة « أمرتســار » وكان ذلك يوم (١٥ ابريل عام ١٩١٩) فصب على المجتمعين نيران المدافع الرشاشة ، ثم أراد امعـانا فى الارهاب وليشفى غاندى وأتباعه على ما يظهر من ايمانهم بالحب ، فأمر الطائرات أن تقذف المجتمعين بقنابلها كذلك . وصعق العالم من هول الكارثة ، وتصور كل انسان فى العالم أن غاندى لا يمكن الا أن يشتد به الغضب ، فاذا الذى حدث يزيده ايمانا على ايمان بمبدئه ، فيقول لمواطنيه عن « الجنرال دير » الذى قام بهذه المذبحة ، كيف تكرهون رجلا مريضا بعقله ؟ أما بالنسبة للخسائر فى الأرواح فان أى معركة حربية لا يمكن الا أن يسقط فيهـا مئات وألوف من الخسائر والضحايا ، وهـؤلاء الذين ماتوا قد ماتوا فى سبيل دعوتنا ، فليس هناك سبب يدعو لكل هـــذا الحزن والشجن ، خصوصا ونحن نموت فى معركة الحياة نفسها . اننا سوف نكسب معركتنا

لا بمقدار ما نقتل من خصومنا ، ولكن بمقدار ما نقتل فى نفوسهم الرغبة فى القتل » [1] وازداد غاندى ايمانا بدعوة الحب وعدم العنف ، فراح يقول « ان دعوتى لعدم العنف لا يمكن الا أن تنتصر فى النهاية فليس هناك عدو مهما كانت قوته ، أو وحشيته يستطيع أن يقاوم نيران الحب » .

ومن خلال الحب انتصر غاندى حيث فشل هتلر الذى لم تغن عنه جيوشه وجحافله وطائراته ودباباته ، وفشلت اليابان بكل قوتها وجبروتها. لقد كان هدف اليابان وألمانيا الرئيسى ، أن يصفيا الامبراطورية الانجليزية ويقطعا أوصالها ، والتهام أكثر ما يستطيعان التهامه من هذه الامبراطورية العجوز ، فأخفقت ألمانيا فى حربين متتاليتين وأخفقت اليابان ، ولكن غاندى صاحب المعزة والمغزل اليدوى ، الذى كان أعظم أسلحته ، أن يصوم عن الطعام ، هو الذى نجح فى تحقيق هذا الهدف ، فقد كان تحرير الهند معناه تصفية الامبراطورية الانجليزية بلا جدال أو شبهة .

وتقف الهند اليوم بعد أن حصلت على استقلالها عام ١٩٤٧ ، كدولة عظمى تعمل من أجل السلام العالمى فى الوقت الذى تبنى فيه نهضتها من خلال النظم الديمقراطية ، والحرية الشاملة ، بعيدا عن الثورات والفتن والانقلابات والدعوات الى الحقد والكراهية ، ذلك أن روح المهاتما غاندى لا تزال ترفرف عليها ، روح هذا الانسان الذى استطاع بفضل ايمانه بالانسانية والحب والسلام ، أن يحرر الهند وآسيا ويغير بذلك مجرى التاريخ ، بل وأن يبعث من جديد للبشرية كلها تعاليم بوذا وعيسى ومحمد الداعية للحب والصفاء والسلام ، وكراهية العنف والقتل والحقد

---

(١) صور حية لقادة الأديان ــ ص ٢٩٠ وما بعدها. Religious Leaders P. 290
انظر أيضا للمؤلف « أمة تبعث »

والكراهية ، وأن يعيد لمئات الملايين من البشر الايمان بأن فى الانسان من القوى الروحية ما يزرى بكل ما عرف الانسان أو يمكن أن يعرف من القوى المادية .

امثلة أخرى من الأيمان

وعبثا نمضى فى سرد الأمثلة والشواهد من تاريخنا الحديث ، ومع ذلك فمن الحق علينا وقد ذكرنا بعض الأمثلة من هنا وهناك ، أن نشير لبعض الأمثلة من واقعنا المحلى والتى تؤلف بدورها نماذج باهرة لما يمكن أن يفعله الايمان ويحققه . (١)

مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨)

فهذا شاب مصرى صغير من شباب مصر فى القرن الماضى ولد قبيل الاحتلال الانجليزى بقليل ، وكان مقدرا له أن يزلزل الأرض تحت أقدام هذا الاحتلال فى الوقت الذى تصور فيه أنه قضى على كل مقاومة للمصريين

---

(١) قد تكون التجربة التى مرت بى فى شبابى المبكر والتى اشتهرت باسم « مشروع القرش » نموذجا متواضعا لما يمكن أن يحدثه الأيمان من أثر. فقد آمنت فى عام ١٩٣٠ ، بأنه لا استقلال لمصر مالم يتحقق استقلالها الاقتصادى اولا . ففكرت فى انشاء مصانع شعبية تكون مملوكة للشعب ، وذلك عن طريق جمع قرش من كل مصرى فتتجمع من هذه القروش الوف من الجنيهات تشاد بها بعض المصانع . ولامجال هناك للحديث عن السخرية والمحاربة التى قوبلت بها هذه الفكرة التى لم يسمع بها انسان من قبل وهى أن تنشأ المصانع عن طريق التبرعات ثم لاتكون مملوكة لشركة أو للدولة وكان السخط بالاكثر ينصب على كون الداعى لهذه الفكرة مجرد طالب لم يبلغ بعد سن الرشد ، ومع ذلك فيوجد فى العباسية فى الوقت الحاضر مصنع القرش لغزل الصوف (الطرابيش سابقا) ، آية على ما يمكن لطالب صغير أن يحدثه ونفر من زملائه الآخرين بقوة الايمان . (راجع كتاب ايمانى ـ للمؤلف) .

لمدة قرن من الزمان على أقل تقدير . ولم يكن هذا الشاب الا مصطفى كامل الذى فتح عينيه فى شبابه المبكر على جحافل الانجليز تطأ أرض مصر وتدنسها ، فآلى على نفسه من دون المصريين جميعا (الذين كانوا قد ترددوا فى مهاوى اليأس) أن يكون هو النافخ فى الصور ، فقال كلمته المدوية « لا معنى لليأس مع الحياة ، ولا معنى للحياة مع اليأس . وأريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة » [1] ولم يكد يتخرج نهائيا من

---

(١) كان لى شرف المساهمة ونفر من أخوانى فى عام ١٩٣٣ ، فى تأسيس حركة مصر الفتاة التى استلهمت ايمان مصطفى كامل فى بعث مصر الفتاة من مصر الهرمة ، وقد كان بياننا الأول الذى أذعناه فى ذلك التاريخ يبدأ بتسجيل ايماننا الذى صغناه فى العبارات الآتية « مصر التى علمت الانسانية وأضاءت على العالمين ، مصر التى رفعت لواء الأديان جميعا وأعلت كلمة الله والأسلام ، مصر مركز العالم وزعيمة الشرق ، بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن ، بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهزم ، لن تموت ابدا بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم وتاجا للشرق وزعيمة للاسلام « وليس هنا المجال لوصف السخرية التى قوبلت بها نداءات حركتنا ، ولا كيف قال بعض الرسميين عندما طالع برنامجنا أنها رواية تمثيلية فقد كان التحدث عن مجد مصر وعظمتها فى تلك الأوقات التى كان الانجليز يسيطرون فيها على كل شىء ويخمدون الأنفاس ويتقاسمون مع الأجانب ثروات البلاد ، يعتبر لونا من ألوان العبث ، وكذلك لا أحب أن أسهب فى وصف صنوف الاضطهادات التى تعرضنا لها من سجون واعتقالات ومحاكمات ، حتى أصبح من المقطوع به أننا لابد وأن ننتهى على أعواد المشانق أو ضربا بالرصاص ، أو تعذيبا فى غيابات السجون، وبقاؤنا أحياء بعد كل هذا الذى مر بنا ، وما تمتلىء به مصر هذه الأيام من دعوة وعمل فى سبيل المجد والقيادة العالمية ، يؤلف بدوره صورة من صور الايمان التى يكون من الظلم للتاريخ أن لايشار اليها وأن لايشار لبعض نفر اضطلعوا بعبء هذا الايمان منذ اللحظة الاولى لميلاده منهم من لاقى ربه كالشهيد مصطفى الوكيل ، ومنهم من أسأل الله أن يطيل فى عمرهم ، كابراهيم شكرى ، وكمال سعد واسماعيل عامر وفخرى أسعد وابراهيم الزيادى وغيرهم ممن لايتسع المجال لذكر اسمائهم .

الجامعة الفرنسية التى تعلم فيها عام ١٨٩٥ حتى راح يدعو فى كل مكان الى وجوب جلاء الانجليز عن مصر ، وينفخ الثقة فى قلوب المصريين بأنفسهم وقدرتهم على الكفاح السلمى من أجل تحرير بلادهم . وسخر به الساخرون كما هو العهد دائما بكل صاحب رسالة وايمان ، واستصغر الحكام الانجليز شأنه تصورا منهم أنه ينفخ فى الهواء وأن كلامه لا يعدو أن يكون صرخة فى واد ، فتركوه يروح ويجىء ويكتب ويخطب آمنين مطمئنين أنه لا يمكن أن يكون مصدر خطر على الأسد البريطانى فى مصر.
ثم كانت سقطة ، سقطة واحدة ارتكبها كرومر كبير الانجليز فى مصر هاتيك الأيام ، فقد انتهز فرصة موت جندى بريطانى فى بلدة دنشواى لكى يعطى للمصريين درسا لا ينسونه فى البطش الانجليزى ، فكان أن شنق بضع نفر من الفلاحين بطريقة غير انسانية أمام أولادهم وذويهم بعد أن جلدوا . وهو حادث يحدث أضعافه أضعافه هذه الأيام فلا يثير فى الناس أى اندهاش أو استنكار ، فما قيمة خمسة أو ستة يقتلون لاقرار الأمن واستتباب النظام . ولكن مصطفى كامل وجد فى هذا الحادث فرصته الفريدة ، فراح يجوب أوربا منددا بانجلترا ، معلنا للناس عن همجيتها بقلمه ولسانه ، وهنا حدثت المعجزة ، لأن ما حدث لا يمكن تفسيره الا أنه معجزة ، فقد اهتز وجدان العالم الذى لم يكن يتأثر للمذابح التى كانت تجرى هنا وهناك حيث كان الاستعمار لا يزال فى أوج قوته وعنفوانه ، تأثر ضمير العالم ووجدانه لهذا الذى حدث فى دنشواى تحت تأثير ايمان مصطفى كامل الذى كان يغمس القلم اذا كتب فى مداد قلبه ، فأعلنت انجلترا أسفها لهذا الذى حدث فى دنشواى ، واستنكرت فعل رجلها الكبير كرومر وعزلته من منصبه عقابا له على هذه السقطة التى ارتكبها ، وجاءت

الساعة التى خرج فيها كرومر من مصر مذءوما مدحوراً مشيعا باللعنات، سقط صريع شاب مؤمن ببلاده ومواطنيه وحقهم فى الحرية والعـــدل والكرامة . وقصة مصطفى كامل بعد ذلك معروفة ومشهورة كيف أنشأ الحزب الوطنى الذى حمل شعلة الوطنية ، وكان المفجر لقوى مصر الشعبية التى انفجرت أعظم انفجار وأروعه عام ١٩١٩

الايمان وتحقيق المعجزات المادية والكونية

سيقول الكثيرون من الماديين والطبيعيين الذين يطالعون هذا الفصل أن أحدا لا يمارى فى أن العقيدة والايمان يزودان الانســـان المؤمن بقوة غير عادية تمكنه من تحقيق بعض الأعمال الباهرة فى الحياة الاجتماعية . ولقد رأينا من قبل أن علم السلوك يعترف بما يسميه قوة الشخصيـــة ، والقدرة على الايحـــاء الى آخر ما أشرنا له من قبـــل . وأصحاب المادية الجدلية والحتمية التاريخية يسلمون بدورهم بمهمة الزعيم والقائد باعتباره مزودا بقوات غير عادية يستطيع أن يؤثر بها على البيئة والمجتمع معـــا . واذن فقد لا يكون فى هذا الذى سقناه فيما مضى ما يخالف القوانين المادية المقررة ، ولذلك فنحن نريد أن نذهب الى أبعـــد من ذلك فندرس بعض الظواهر غير الاجتماعية حيث يكون بقدرة الايمان أن يحدث ما يعـــد معجزات مادية وخوارق تستعصى على التفسير العلمى وتخرج على النسق المألوف . وسنختار لدراستنا مجالا لا يستطيع العلم انكاره أو تجاهله لأنه فى صميم عمله وتخصصه وأعنى بذلك ، العلاج أو الشفاء الاعجـــازى ، حيث يجرى شفاء الناس من بعض الأمراض التى أعلن الأطباء يأسهم من شفائها ، بما يشبه المعجزات التى كانت تقع على يد المسيح والتى يحلو للعلم المادى أن يكذبها .

بلـــدة لورد

فثمة بلد تسمى لورد يهرع اليهـا الكاثوليك وغيرهم من المؤمنين بالمعجزات ليتلقوا الشفاء من العذراء [1] بالاستحمام فى نبع الشفاء الذى أشارت بحفره على القروية الصغيرة برنادوت ، وليصلوا فى الكنيسةالكبرى التى أنشئت تخليدا لهذا الحدث العظيم . ويبلغ عدد من يحجون الى لورد سنويا ما يتراوح بين المليون والمليونين ، التماسا للشفاء والبركة . ويشفى عدد كبير جدا من أمراضهم ، ولكن الأمر الذى بدأ يحير العلماء ، أن بعض حالات الشفاء تصل حدًّا يجعلها توصف بالمعجزة اذ يحار العلم فى تفسيرها أو تعليلها . وقد سجلت الكنيسة الكاثوليكية فى القرن التاسع عشر ٥٢ حالة شفاء معجز ، ويسجل مجلس لورد الطبى الآن خمسين حالة معجزة فى كل سنة ، وهى الحالات التى يعجز الأطباء والعلماء عن تفسيرها تفسيرا

---

(١) تقع بلدة لورد فى ســـفح جبـــال البرانس فى الأراضى الفرنسية ولايتجاوز عدد سكانها ١٥ ألف نسمة • وقد بدأت شهرتها عام ١٨٥٨ حيث قالت فتاة فلاحة صغيرة تدعى برنادوت أن العذراء تجلت لها فى مكان ما من الوادى وقالت لها « اشربى من هذا النبع واستحمى فيه » وكان المكان الـــذى أشارت الفتاة على وجود النبع عنده ، يستحيل وجود الماء فيه على أى صورة من الصور • وما فتئت الفتاة تقول ان العذراء قد تجلت لها مرة ثانية وثالثة وهى لاتفتأ تدعوها للشرب من النبع • وقد جزع أهل الفتاة من دعوى صغيرتهم ،خوفا من أن يكون قد أصابها مس من الشيطان ، ولم ترض الكنيسة من ناحيتها عن ما أعتبرته هذيانا وتجديفا ، فطلبت من السلطة معاقبة الفتاة ، ولقد سجنت الفتاة وعذبت ولكن خبرها بدأ يتسرب للفلاحين الذين بدأوا يؤمنون بدعواها • وأخيرا بدأ فريق من المؤمنين بالفتاة يحفرون حيث قالت أن العذراء أشارت الى وجود النبع ، فاذا هم بعد قليل ، يعثرون على الماء فعلا ،فاعتبر ذلك آية ظهور العذراء لبرنادوت ، فأطلق على النبع اسم نبع الشفاء وأقيمت الى جواره كنيسة من أعظم كنائس اوروبا •

(دائرة المعارف الانجليزية ، ودائرة المعارف الامريكية)

علميا ، فالأعضاء الميتة تعود الى الحياة ، والأنسجة المتقيحة تصح فى ومضة عين ، وحالات من السرطان والسل تختفى غير تاركة أى أثر من الآثار .[1]

وعلى جدران كنيسة لورد علقت عكاكيز الذين كانوا مشلولين وشفوا فى لورد ، كما علقت مخلفات كثيرين من المرضى الذين تركوها كذكرى لحدوث المعجزة ، وكقربان منهم للعذراء التى شفتهم من أمراضهم .

جماعة العلم المسيحى Christian Science

وقد ظن فى بعض الأوقات أن الايمان بالمعجزات والخوارق وامكان حدوثها فى العصر الحديث ، هو أمر خاص بالكنيسة الكاثوليكية والكاثوليك ، أما البروتستنت الذين قامت دعوتهم على أساس تطهير المسيحية من الخرافات ، فانهم لن يسمحوا بانتشار الحديث عن الشفاء المعجز فى صفوفهم ، فجاءت جماعة العلم المسيحى ، لتثبت أن المعجزات حقيقة مؤكدة وأن سلطان العلم مهما تطاول وتعالى فلن يستطيع أن يقضى على حقيقة مقررة يشهد بها الألوف والملايين .

أنشأت دعوة العلم المسيحى سيدة أمريكية تدعى مارى بيكر ايدى . ولدت عام ١٨٢١ فى بلدة « باو » من مقاطعة نيوهامبشير فى الولايات المتحدة الامريكية . وكانت مارى فى طفولتها والجزء الأكبر من حياتها ضعيفة ضامرة عصبية المزاج ، وتقول هى عن نفسها ، أنها عندما بلغت السادسة والأربعين كانت مجرد حطام بشرى يعيش لغير غاية أو هدف الا أن تكون رمزا على الفشل التام فى الحياة . ثم حدث بعد ذلك أن سقطت على الأرض فأصيب عمودها الفقرى اصابة خطرة أعجزتها وألزمتها

(١) الانسان ذلك المجهول ـ ألكسيس كاريل ـ ص ١٨٠

الفراش ، وقرر الأطباء أنه لا يوجد ثمة أمل فى شفائها وأنها ستقضى ما بقى من عمرها نائمة على ظهرها . تقول مارى : وفى ذات يوم طلبت نسخة من الكتاب المقدس وفتحت احدى صفحاته اتفاقا فاذا بهذه الكلمات تطالعنى « قال المسيح للمشلول ابتهج يا بنى مغفورة لك خطاياك ، قم واحمل سريرك واذهب الى بيتك ، فقام ونهض الى بيته » فأحسست كأن هذه الكلمات تقال لى ، وشعرت بقوة عجيبة تسرى فى جسدى جعلتنى أقوم من الفراش وأسير كأنى لم أكن عاجزة قط فآليت على نفسى أن أنشر هذا الايمان . الذى ملأ قلبى وشفانى »[1]

وبدأت مارى بيكر ايدى تدعو الناس الى دعوتها فألفت كتابا يعتبر انجيل هذه الدعوة أسمته « العلم والصحة » . والفكرة الرئيسية فى الكتاب تقوم على أن الانسان مؤلف من عنصرين الجسم والروح . والجسم لا يمكن الا أن يكون خادما للروح وصادعا بأمرها ، فاذا مرض الجسم فمن الممكن أن يتم شفاؤه بقوة الروح بغير حاجة الى علاج مادى ، أى بغير حاجة الى أدوية أو عقاقير من أى نوع كان فضلا عن اجراء أى جراحة وبحسب الانسان المؤمن ، أن يتلو بعض آيات من الانجيل أو أن يتلوها عليه بعض المؤمنين بالانجيل ، لكى يشفى على الفور ، فينهض المقعد ويذهب السل والسرطان ، وينتهى أى ألم[2] وأنا على يقين من أن كثيرين ممن يطالعون هذا الكلام سيبتسمون ويتخيلون أننى أتصيد الأدلة وأتحدث عن العوام الذين لا يخلو منهم مجتمع من المجتمعات ، وقد بقى أن يعرف من لم يكن يعرف ، أن هذه الجماعة التى أتحدث عنها والتى

(١) صو حية لقادة الاديان ص ٢٦٩ ومابعدها
(٢) صور حية لقادة الأديان ـ ص ٢٦٩

تدعو بهذه الدعوة من أقوى الجماعات المسيحية فى انجلترا والولايات المتحدة بصفة خاصة ، وأن اتباع هذا المذهب قد استطاعوا عام ١٩٠٢ آن يجمعوا مبلغ مليونى دولار أى ما قد يزيد فى الوقت الحاضر عن عشرين مليونا من الدولارات وذلك لانشاء الكنيسة الأم فى مدينة بوسطن ، ثم توالى بعد ذلك انشاء الكنائس الخاصة بهذه الطائفة والتى أتيح لى زيارة بعضها فى انجلترا (١) وتصدر فى كل عام مئات الكتب والمجلات والنشرات التى تعلن عن ايمان هذه الجماعة ، وتتضمن أنباء معجزات الشفاء التى حدثت والتى يرويها أصحابها ويقدمون الأدلة على صحتها . بل انه يصدر فى أمريكا صحيفة يومية من أكثر الصحف فى الولايات المتحدة أهمية وتلك هى صحيفة (الكرستيانسايتسمونيتور Christian Science Monitor ويتوج ذلك كله جامعة من أكبر الجامعات الأمريكية .

معجزات الشفاء فى موسم الحج الأسلامى

واذا كانت بعض حالات الشفاء الاعجازى التى تتم فى لورد والتى لا تتجاوز الخمسين حالة كل سنة ، وبعض حالات الشفاء الاعجازى التى يعلن عنها ويروج لها دعاة العلم المسيحى ، تحير العلماء والأطباء ، فانى أوكد أنه لو درس ما يحدث فى مكة أثناء موسم الحج ، بنفس الأسلوب العلمى الذى يتم به دراسة هذه الأحوال فى بلدة لورد ، فسوف يجد العلم ما يحمله نهائيا على التسليم بأن كل ما يقول به من قوانين وقواعد فى علم

---

(١) حدث أن مرضت أثناء وجودى فى انجلترا عام ١٩٥٥ فسألت صاحب البيت الذى أقيم فيه عن طبيب لأذهب اليه ، فأجابنى بأنه هو شخصيا لايتعامل مع الأطباء العاديين لأنه من جماعة « العلم المسيحى » وهكذا أتيح لى لأول مرة أن أعرف كل شىء عن هذه الجماعة وكتبها وكنائسها المنتشرة فى أنحاء لندن ، وتغص بمئات الألوف من اتباع هذه الطائفة .

الصحة والعدوى يتلاشى ويذوب أمام حرارة العقيدة والايمان .[1]

ان ما يحدث فى مكة أثناء موسم الحج ، شيء لا يستطيع العلم الا أن يسلم بعجزه عن تفسيره ، فقد لا نجد مكانا آخر فى طول الدنيا وعرضها ، يختلط فيه الحابل بالنابل والمرضى بالأصحاء كما يحدث فى مكة فى ذلك الوقت . هناك يحتشد مئات الألوف من آسيا وافريقيا حاملين معهم كل مافى هاتين القـارتين من أمراض وأوبئة ، وضعف وعجز وشيخـوخة . وتتحقق كل شروط العدوى والسبيل الميسر لانتقال الميكروبات بطريقـة نموذجية ، فالأجساد عارية تقريبا والزحام على أشـده فتمتزج الأنفاس وتحتك الجلود بل ويمتزج اللعـاب باللعـاب فى بعض المواطن كالحجر الأسود ، اذ تحتم السنة لثمه وتقبيله ، فيعمد الكثيرون الى لعقه لعقـا زيادة فى التبرك . وكان من شأن ذلك كله أن يجعل انتشار الأوبئة فى مكة خلال موسم الحج ضربة لازب ، ولكن الذى يحدث أنه يعلن فى كل عام عن نظافة الحج ، ولا يموت سوى عدد يعد على الأصابع أكثرهم من فرط

---

(١) أن الحادث الذى سيظل ماثلا فى ذهنى كنموذج رائع لمعجزات الشفاء بقوة العقيدة فى مكة ، هو الخاص بوالدة صديقى وأخى الاسـتاذ ابراهيم شكرى ، فقد مرضت بقلبها عام ١٩٤٠ مرضا ألزمهـا الفراش طويلا وحظر عليها الأطباء أن تقوم بأى حركة خوفا على حياتها ، فلما طال عليهـا المرض وحالتها تزداد سوءا ، قررت أن تحج ايمانا منها أنها لن تشفى الا اذا حجت. وقد اعتبر كبير الاطباء الذى كان يعالجها أن سفرها يعنى الحكم عليها بالاعدام ولكن السيدة الجليلة أصرت على تحقيق مشيئتها، فسافرت الى الحجاز محمولة، وقد كنت أرافقها فى السفينة وكان مشـهد مؤلما رؤيتها وهى ينزل بها من السفينة فى عرض البحر محمولة . وان هو الا بعض الوقت بعد ذهابها الى مكة حتى كانت تطوف حول الكعبة فوق كرسى متحرك ، ثم استردت صحتها كاملة ، وأصبحت تطوف حول الكعبة سيرا على اقدامها . وقد مضى الآن على هذا الحادث عشرون سنة ، لم يحدث أن شكت السيدة الفاضلة بقلبها أبدا ، وقد يكون من الطريف وان كان خارجا عن الموضوع أن الطبيب الذى قال ما قال قد توفاه الله منذ زمن بعيد رغم ما كان يتمتع به من صحة وقوة .

الشيخوخة وتحقيقا لأمنية تمنوها وهو أن يموتوا فى الأراضى المقدسة ليدفنوا بها . ويشفى الكثيرون بطريقة معجزة ، وما أكثر ما سمعت الحجاج يحدثون عن أمراضهم التى شفيت بمجرد شربهم من ماء زمزم مصداقا لقول الرسول الكريم « ماء زمزم لما شرب له » أى بحسب النية والاعتقاد .

الشفاء المعجز فى كل مكان يقدسه الناس

وهذا الذى يحدث فى موسم الحج فى مكة بالنسبة للمسلمين ، ويحدث فى لورد بالنسبة للكاثوليك ، يحدث مثله للهنود المؤمنين فى مدينة بنارس. وتنفرد بنارس من دون الأماكن الأخرى فى العالمين ، بحرق أجساد الموتى وقذف بقاياهم فى ماء الكنج المقدس ، ولكن القديسين لا يحرقون بل تلقى جثثهم كما هى فى النهر المقدس ، كما يلقى بأجساد الأبقار النافقة فى ماء النهر كذلك ، وفى هذا الماء الذى وصفته لك يستحم المؤمنون ويغسل المؤمنون ملابسهم ويشرب المؤمنون ، دون أن يصابوا بأى أذى بل على العكس ، يحصل الكثيرون بفضل ايمانهم وعقيدتهم على الشفاء بمجرد ذهابهم الى بنارس والاستحمام فى النهر المقدس الطاهر .

وليست عمليات الشفاء المعجز وقفا على هذه المزارات الكبرى ، بل انها قد تحدث فى مولد أى قديس أو ولى من أولياء الصالحين . وغنى عن البيان أن ذلك كله فى طريق الزوال لانتشار روح العلم الذى يقول للناس أن ذلك ليس الا من ضروب الجهل وأن ليس سوى العقاقير والتحليل النفسى الذى يشفى الناس من كل داء .

راى الكسيس كاريل

وقد بقى الآن لكى لا يوصف ماذكرته لك من قبل أنه محض تخرصات كما يحلو دائما للمؤمنين بالمادة أن يصفوا كل الذى يقال لهم فى هذا السبيل أن أنقل اليك فى هذا الموضوع رأى رجل لا يمكن أن يجردوه من صفته

العلمية البحتة وقد كان من أوائل الحاصلين على جائزة نوبل العلميـــة وأعنى به ألكسيس كاريل الذى يقول : « فى جميع البلاد والأزمان آمن الناس بوجود معجزات وبشفاء المرضى سريعا فى أماكن الحج وفى معابد معينة . بيد أن قوة العلم الدافعة ابان القرن التاسع عشر جعلت مثل هذا الايمان يختفى تماما . ولقد كان المعترف به بصفة عامة أن هذه المعجزات لم تحدث فحسب ، بل انها مستحيلة الحدوث ، فكما أن توافق علم الحرارة الديناميكى يجعل الحركة المستمرة مستحيلة ، فان قوانين السيكولوجية تعارض المعجزات . ذلك هو موقف علم النفس والأطبـــاء ، ومع ذلك فبالنظر الى الحقائق التى لوحظت خلال الخمسين عاما الأخيرة ، فلن يكون بالامكان الاصرار على هذا الموقف ، فان أكثر حالات الشفاء الاعجازى أهمية هى تلك التى سجلها المركز الطبى لبلدة لورد .

أما فكرتنا الحالية عن تأثير الصلاة على الأمراض الباثولوجية ، فقائمة على ملاحظة المرضى الذين شفوا فورا من الأمراض المتخلفة مثل ســل البريتون والخراجات الباردة والتهاب العظام والجروح العفنة وسل الأنسجة والسرطان ... الخ وتختلف عملية الشفاء من انسان لآخر . وغالبا ما يشعر المريض بألم حاد يعقبه على الفور احساس مفاجىء بالشــفاء ، ففى ثوان معدودة أو دقائق معدودة أو على الأكثر ساعات ، تلتئم الجروح وتختفى الأعراض الباثولوجية (المرضية) ويسترد المريض شهيته . وقــد تختفى الاضطرابات الوظيفية أحيانا قبل أن تصلح الجروح التشريحية .

وقد تستمر التشوهات الهيكلية الناتجة عن مرض بوت أو الغــدد السرطانية يومين أو ثلاثة أيام بعد شـــفاء الفروع الرئيسية . وتتصف المعجزة الرئيسية بسرعة متناهية فى أعمال الاصلاح العضوى . بيــد أن الشرط الذى لا مفر منه لحصول الظاهرة هو الصلاة . الا أنه لا توجد

ضرورة تدعو المريض للصلاة بنفسه أو أن يكون على درجة من الايمان الدينى ، وانما يكفى أن يصلى أحد الموجودين حوله . ان لكل هذه الحقائق مغزى عظيما ، فانها تدل على حقيقة علاقات معينة ذات طبيعة ما تزال غير معروفة بين العمليات السيكولوجية والعضوية ، وتبرهن على الأهمية الواضحة للنشاط الروحى الذى أهمل علماء الصحةوالأطباء والمربونورجال الاجتماع دراستها اهمالا يكاد يكون تاما ، انها تفتح للانسان عالما جديدا [1] »

المسمرية ترغم العلم على الاعتراف بالعلاج عن طريق الايحاء

وقد كان باستطاعة العلم المادى أن يواصل تجاهله لكل الذى ذكرناه لولا أن رجلا ، أو بالأحرى طبيبا نمسويا ، قد اقتحم معقل ذلك العلم وفرض عليه أن يدرس هذه الظواهر فرضا . ولقد وصف هذا الرجل فى أيامه بأنه نصاب ودجال ، ولكن العصر الحديث قد رد اليه اعتباره كمؤسس لعلم التنويم المغناطيسى الذى يقرب الينا تأثير العقيدة والايمان ويدخلها فى الاطار العلمى . ومسمر أو (فريدريك أنطون مسمر) طبيب نمسوى أصدر فى عام ١٧٦٦ كتابا سماه « تأثير الكواكب » وقد تحدث فى هذا الكتاب عما كان يعتبر فى ذلك الوقت حقيقة مقررة من تأثير النجوم والكواكب على بنى البشر ، فقال بأن هذه الكواكب والنجوم تنطوى على مبدأ معين أو قوة ، وهذه القوة تسرى فى الكائنات كلها وتؤثر فيها كالمغناطيسية والكهرباء ، وراح يسرد فى كتابه تجاربه التى قام بها حيث استطاع أن يشفى الكثيرين من أمراضهم عن طريق استعمال هذه القوة المغناطيسية ، وذلك بامرار قضيب ممغنط على أجسامهم أو بالربت بهذا القضيب عليهم . واستخلص من ذلك فكرة التنويم المغناطيسى كما نعرفها

(١) الانسان ذلك المجهول ــ ص ١٨٠

بشكلها الحالى . وضمن كتابه طرقا مختلفة لاستعمال المغناطيس فى علاج بعض الأمراض [1] .

ثم حدث أن توصل مسمر الى شفاء بعض أعيان المجر من ألم قديم فى العنق ، وأعاد البصر الى وصيفة الامبراطورة مارى تريزة ، فاستطارت شهرته . ولما قرر السفر الى باريس كانت شهرته قد سبقته اليها .

وفى باريس قبيل قيام الثورة الفرنسية ، وابان حكم لويس السادس عشر ومارى انطوانيت ، سجل مسمر هذه الصفحة العجيبة ، والحوادث المذهلة التى جعلت باريس تلتهب اعجابا به . ولعل من سوء حظ مسمر أن كان الملك والملكة على رأس المعجبين به ، وأن قامت الثورة الفرنسية وصبت غضبها على كل من كان يلوذ بالملكية ، وهكذا اضطر مسمر أن يفر من فرنسا وأن يعود الى فينا وطنه الأصلى ، ولكن الحكومة النمسوية خافت من هذا الرجل الذى جاء من فرنسا والذى أحدث بها ما أحدث ، أن يكون هو أحد عوامل الثورة فسجنته حينا من الزمان ، ولما أفرج عنه كان قد بلغ من العمر عتيا فمات فى زوايا النسيان . وكان طبيعيا أن يتهم مسمر بعد قيام الثورة الفرنسية أنه كان دجالا ومشعوذا ، ولكن المباحث الحديثة قد إنتهت كما قدمنا الى اعتباره مؤسس فن التنويم المغناطيسى أو علم التنويم المغناطيسى . كان مسمر يستعمل بادىء ذى بدء حجر المغناطيس لاحداث الشفاء ، وكان يودع أحد القضبان هذه القوة المغناطيسية ، ولم تلبث تجاربه أن انتهت به الى اكتشاف أن السر فى الحقيقة لا يكمن فى القضيب المغناطيسى ولكنه يكمن فى اليد التى تحمل المغناطيس ، ولذلك فقد عدل فى نظريته وقال بالمغناطيسية الحيوانية ، أى أن بالانسان كالمعادن

---

(١) التنويم والتحليل ـ مجلة علم النفس ـ اكتوبر عام ١٩٤٨ الأستاذ كمال الدسوقى .

قوة مغناطيسية يستطيع أن يستخدمها وأن ينقلها وأن يودعها ما يشاء من أجسام . وعلى هذا الأساس فلما تكاثر عليه المرضى أودع أحد القضبان قوة مغناطيسية تكفى لعلاج من ٣٠ الى ١٠٠ مريض فى آن واحد ، فكان المرضى يشعرون بالسائل الشافى ينتقل من القضيب الى أجسادهم فيخفف من آلامهم . ثم رأى مسمر أن لا ضرورة لاستعمال القضيب فان مجرد لمسه لكتف المريض ، أو مجرد وضعه يده بلطف والمرور بها من الكتف الى الذراع يكفى لشفاء المريض . ثم رأى مسمر أن اللمس نفسه ليس ضروريا لاحداث الشفاء وبحسبه أن يريد نقل السائل الشافى من نفسه الى العليل لكى ينتقل ، فكان يقول : الى الوراء أيها الألم فيزول الألم على الفور تماما كما كان السحرة يفعلون فى عصور الدجل والشعوذة . ثم خرج مسمر الى الفضاء ، الى الحدائق والمتنزهات العامة والغابات والبرك والبحيرات ، فكان يمغنطها بسياله العجيب ، وكانت الجماهير تغطس فى المياه أو تتمدد على العشب أو تسلق الأشجار التى مغنطها فتتأرجح بين أغصانها فى انتظار ساعة الشفاء ، الذى كان من حظ بعضهم بطبيعة الحال .

وكان عامة الشعب الذين لا يقوون على دفع أتعابه يقفون على باب بيته فى مونمارتر منذ الفجر المبكر فى انتظار خروجه ليسعدوا بلمسة من أطراف ثوبه فقد كانت كافية فى بعض الأحيان للشفاء . وقال مسمر بعد ذلك بأن الآلات الموسيقية اذا تمغنطت فانها تحقق الشفاء كذلك عن طريق النغمات المنبعثة منها ، فأصبحت الحفلات الموسيقية تقام أحيانا تحت اشرافه حيث يشهدها القاصى والدانى [1] .

وقد اعتبرت حكومة لويس السادس عشر أن مسمر أصبح ثروة

---

(١) من نافذة العقل ـ الدكتور نقولا فياض ـ ص ٢١ .

وطنية قد يؤدى موته الى فقدان البلاد هذا السر العظيم فعرضت عليه مبالغ طائلة لكى يفضى اليها بهذا السر حتى لا يضيع بوفاته ، ولكن مسمر لم يعد يأبه بالمال فقد حصل منه فوق ما يريد ولذلك فقد طلب أن يكون الثمن هو اعتراف المجمع العلمى الفرنسى بالمسمرية كحقيقة علمية ثابتة ، باعتبارها وسيلة من وسائل علاج الأمراض . ولكن المجمع العلمى الفرنسى رفض أن يعترف بالمسمرية كوسيلة للعلاج ، على الرغم من النتائج الايجابية التى لا تنكر ، فما دام أن مسمر يعزو علة الشفاء الى نفسه ، فان ذلك من شأنه أن يجعل ما يقوم به ، أقرب الى السحر والشعوذة منه الى الوسائل العلمية التى يجب أن يكون بقدرة أى انسان أن يحذقها متى توفر على دراستها . وهكذا لم يظفر مسمر بتحقيق بغيته من اعتراف المجمع العلمى بمسمريته ، ثم كان قيام الثورة الفرنسية العامل الأكبر فى اصابة المسمرية بنكسة كادت تعفى على كل آثارها .

المسمرية خارج فرنسا

غير أن النتائج المحققة التى حققتها المسمرية لم يكن من المعقول ألا تلفت أنظار الباحثين خارج فرنسا وخاصة فى انجلترا . وقد قام فى انجلترا عدد من كبار أطبائها يعلنون أنهم قد حصلوا على نتائج ايجابية من العلاج بالمسمرية ، ونقل بعض الأطباء الانجليز المسمرية الى الهند فنجحت فيها نجاحا منقطع النظير وصل الى حد انشاء مستشفى خاص فى مدينة كالكوتا ، أنشأته الحكومة الانجليزية نفسها ليتولى العلاج فيه بالمسمرية أحد مشاهير الأطباء ، فكان المرضى يتزاحمون للدخول فى هذه المستشفى . وكانت العمليات الجراحية التى تجرى فى هذا المستشفى لا يحس المرضى فيها بأى ألم فقد كانوا يخدرون بالمسمرية أى مغناطيسيا قبل اجراء العملية . والحق أنه لو لم يتم اكتشاف الأثير والكلوروفورم فى منتصف

القرن التاسع عشر ، لكان التخدير عن طريق التنويم المغناطيسى هـــو السبيل الوحيد فى الوقت الحاضر لاجراء عمليات بدون ألم [1] وهناك من يفضل حتى الآن التخدير بطريقــة التنويم المغناطيسى على التخـدير بالكلوروفورم ، لولا أنه قد يصعب تنويم الكثير من المرضى .

التنويم المغناطيسى

لم تأخذ المسمرية هذا الاسم المشهور ، ونعنى به التنويم المغناطيسى الا على يد « جيمس بريد » الطبيب الانجليزى فى مدينة منشستر ..لقد ظلت المسمرية رغم النتائج التى كان يحرزها كثير من الأطباء ، تعتبر أقرب الى الدجل والشعوذة ، فقد كانت تستند فى الدرجة الأولى على قوة خاصة فى الطبيب المعالج ، فجاء جيمس بريد يجرد المسمرية من هذه الخاصية ؛ وينفى عنها فكرة السائل المغناطيسى الذى قيل أنه السر فيهــا ، وأرجع الظاهرة المسمرية الى علل فسيولوجية وأخرى سيكلوجية ، فهى من الناحية الفسيولوجية احـدى حالات النوم أو الغيبــوبة Trance ، وهى من الناحية السيكولوجية تقوم على تأثير الايحاء فى النفس . ونشر بريد كتابه الرئيسى عام ١٨٤٣ تحت عنوان « علم التنويم العصبى » وهــكذا بدأ استعمال هذه العبارة الشائعة « التنويم المغناطيسى — Hypnotism » ، وبالرغم أن بريد كما قدمنا قد نفى وجود عنصر مغناطيسى فى الموضـــوع فقد ظلت كلمة المغناطيسى تلحق الظاهرة اشارة الى مسمر الذى كان أول من قال بهذا السيال الانسانى المغناطيسى . وقد اعتبر بريد أو بالأحــرى اعتبر هو نفسه مؤسس هذا العلم . وسنرى بعد قليل كيف أن الظاهرة ستعود من جديد لتتحرر من فكرة النوم التى فرضها عليها جيمس بريد .

---

(١) التنويم والتحليل ـ مجلة علم النفس ـ الاستاذ كمال دسوقى .

التنويم المغناطيسى فى الحياة العامة

لم يقف استعمال التنويم المغناطيسى على العلاج الطبى ، بل لقد تعدى استخدامه هذه الدائرة الى تحقيق أغراض أخرى بعضها مشروع وبعضها غير مشروع . فقد استعمله البعض كوسيلة للاعتداء على فتاة أو امرأة . وقد دار التساؤل أمام القضاء وفى كتب الفقه عما اذا كان مواقعة أنثى وهى واقعة تحت تأثير التنويم المغناطيسى ، يعتبر مواقعة قد تمت بالرضا أو بالاكراه ؟ وكذلك اذا أقدم شخص على تنويم آخر ثم طلب منه أن يقتل شخصا ما ، فأيهما يكون القاتل ، هل الذى قتل تحت تأثير التنويم ، أم أن المنوم هو القاتل فى مثل هذه الحالة . ، فقضت الأحكام فى فرنسا وغيرها من الدول الأوربية التى انتشر فيها التنويم المغناطيسى ، أن من يقتل وهو نائم مغناطيسيا يكون منعدم الأرادة ، فهو مجرد أداة تتصرف بغير وعى أو ادراك [1] ، وأن القاتل الحقيقى فى هـذه الحالة ، هو الشخص الذى قام بتنويمه . وأن الأنثى التى تواقع أثناء تنويمها يكون ذلك بمثابةالاعتداء بالأكراه . وقد انتقلت هذه المباحث القضائية الى مصر كما هى العادة ، فسجل قضاؤنا الجنائى اعترافه بالتنويم المغناطيسى كحقيقة علمية وذلك فى قضية الجناية رقم ٥٠٤ لسنة ١٩١٣ حيث قضت محكمة الجنايات التى كانت مشكلة من ثلاثة من المستشارين أحدهما انجليزى ، بالسجن سبع سنوات على أحد الأطباء لأنه نوم فتاة تنويما مغناطيسيا ثم اعتـدى على عفافها ، وطلب منها اذا استيقظت وسئلت عما حدث لها أن تجيب ، بأن الجن هم الذين أحدثوا بها ما حدث . ولقد اضطرت النيابة وهى تحقق

---

(١) الاحكام العامة فى قانون العقوبات السعيد مصطفى السعيد ص ٤٥٧ . وانظر أحكام القضاء الفرنسى فى هذا الصـدد فى كتاب التنويم المغناطيسى للدكتور محمد رشدى

هذه القضية أن تستعين بمنوم مغناطيسى ، لمعرفة الحقيقة وكذلك كان الحال أمام محكمة الجنايات ، التى استعانت بأحد الأطباء ليجرى أمامها عملية تنويم الفتاة ، وقد تم ذلك فى حضرة الطبيب الشرعى وتحققت المحكمة بالفعل من حقيقة التنويم حيث كانت الفتاة تشك بالأبرة حتى يسيل دمها دون أن تحس أو تخلج لها عضلة [1] .

كيفية عمل التنويم المغناطيسى

يقول الدكتور محمد رشـــدى فى كتابه « التنويم المغناطيسى » أن للتنويم المغناطيسى عدة طرق ذات أهميـــة من الناحية العلمية ، وقاعدتها الأساسية هى الاعتقاد بالنوم ممن يكون فيه استعداد له مع وجوب اجتهاد المنوم فى أن يجعل المستعد للنوم غير مفكر فى شىء غير اعتقاده بالنوم ، وأن يكون المنوم نفسه مصمما من قبل على فكرة مخصوصة ثابتة لا عدة أفكار . ثم راح يذكر فى كتابه الطرق المختلفة لعملية التنويم وكيف أن بعض المدارس تستخدم نوعا من المرايا لاحداث النوم ، والبعض يصـــل الى التنويم من خلال التحديق الى عين من يراد انامته ، ولكنى رأيت أن أنقل ما كتب فى هذا الصدد بدائرة المعارف الانجليزية باعتبارها شديدة التحفظ فى كل مالا يتفق والعلم المقرر . وقد جاء فى الدائرة المذكورة تحت عنوان كلمة تنويم مغناطيسى Hypnotism ما يلى :

---

(١) طالع القضية بكل تفاصيلها ونص محضر جلسة محكمة الجنايات التى نظرت القضية فى كتاب التنويم المغناطيسى للدكتور محمد رشـــدى حكيمباشى محافظة مصر فى ذلك الوقت وهو الذى قام بعملية تنويم الفتاة فى تحقيق النيابة وأمام محكمة الجنايات وقد جاء فى حيثيات حكم محكمة الجنايات مايلى : وحيث أنه لتحقيق عدم الرضـــا قررت المحكمـــة تنويم المجنى عليهـــا المذكورة تنويما مغناطيسيا لمعرفة درجة تعطل ارادتها وانعدام رضاها . وحيث انه قد ثبت للمحكمة من اختبار المجنى عليها بعد تنويمها ، انها كانت وقت الجريمة عليها معدومة الآرادة ، لذلك حكمت المحكمة .. الخ

« يجلس الانسان المراد تنويمه على كرسى فى حالة استرخاء وسلبية فى العقل ، ثم يقف الطبيب ويرفع يده أو أصابعه الوسطى على بعد وارتفاع معين من عين المريض الذى يطلب منه أن يركز نظرته على الأصابع ، ثم يقول له الطبيب كلمات ايحائية تعمل على اغلاق العينين واثقال الأجفان واقتراب النوم . واذا تكررت العملية فانها تصبح سهلة بحيث يستجاب فيها بمجرد الأمر بكلمة واحدة . وتنتهى عملية النوم بايحاء اليقظة للنائم . وللتنويم المغناطيسى حالات ثلاث :

الحالة الأولى التنويم الخفيف جدا — ولا يعدو أن يكون مجرد ارتخاء relaxation مصحوب بحالة سلبية كاملة ، فلا يستطاع فتح العينين أو مقاومة بعض الأوامر البسيطة التى تتصل بالعضلات الاختيارية — وفى هذه المرحلة يكون النائم مدركا لكل ما يحيط به .

الحالة الثانية — وهى مرحلة أبعد مما سبق فتصبح ظاهرة النوم أعمق ، وان كان النائم يظل ذاكرا لما حدث أثناء النوم .

الحالة الثالثة — أما فى هذه الحالة الثالثة فان النائم ينسى كل ما سمع أو قيل له أو حدث أثناء النوم وينصاع النائم فى هذه المرحلة لكل أوامر المنوم أو أغلبها على الأقل .

وفترة ما بعد التنويم هى التى تظهر مدى أثره العميق وكيف يقوم الشخص الذى نوم بأعمال لا يدرى الدافع عليها ولكنه يأتيها مع ذلك . كما أنه من الممكن احداث الشلل ، أو تشنجات أو تقلصات فى أى عضلة من العضلات أو فى الأمعاء كما يمكن احداث الشلل ، أو جعل الحواس أكثر حدة ، كما يمكن ازالة الاحساس بالألم بل وازالة الاحساس من أساسه ، كما يمكن حمل الشخص الذى نوم على أن يهلوس بعد استيقاظه بصنوف شتى من الهلوسات . » انتهى ما جاء بدائرة المعارف الانجليزية .

ونريد قبل أن ننتقل الى مرحلة جديدة من مراحل البحث ، أن نسجل كيف أن عملية التنويم تتلخص فى وجوب الاعتقاد فى نفس النائم والمنوم ، وكيف أنها عملية تركيز للانتباه من ناحيـــة الشخص الذى سينام الى أنه سينام بالفعل وذلك عن طريق الايحاء ، وهى عملية تركيز واصرار من ناحية الشخص المنوم أن يؤثر على الشخص الذى سينام[1] . ننتقل بعدذلك لنرى كيف أن موضوع النوم الذى أدخله بريد على هذه الظـاهرة لم يلبث أن اكتشف أنه ليس لازما ولا ضرورة له لاحداث الأثر المطلوب .

من التنويم الى الايحاء فى اليقظة الى التحليل النفسى

أصبح التنويم المغناطيسى فى النصف الثانى من القرن التاسـع عشر العـلاج الطبى المعترف به للأمراض العصبيـة بصفة خاصـــة ، وأقيمت المستشفيات التى تعالج بالتنويم المغناطيسى والتى لم تلبث أن تحولت الى مدارس علمية تختلف فىمناهجها وأساليبها ولكنها تلتقىكلها عند الاعتراف بالتنويم المغناطيسى كسبيل أو حد لعـــلاج أمراض الهستريا وغيرها من الأمراض العصبية . الى أن جاء سيجموند فرويد وهو طبيب نمســاوى

(١) اتيح لى شخصيا خلال شبابى المبكر أن أقوم ببعض تجارب مباشرة فى موضـــوع التنويم المغناطيسى فقد طلبت من أحد المنومين المحترفين أن يأذن لى فى تنويم وسيطه فأذن ، فاستطعت أن أنومه بالفعل ، ثم رحت أسألهعنالساعة بعد أن أدير عقاربها فكان يجيب الاجابة الصحيحة دائما ، كما رحت أختبرهفى عدد أعواد الكبريت الموجودة داخل العلبة بعد أن نغير فيها ونبدل ، فكان يجيب على الفور الاجابة الصحيحة . وفى كل المناسبات التى حضرت فيها عملية تنويم مغناطيسى فقد كان الذى يحدث دائما هو قدرة الوسيط على معرفة ما يوجد فى محافظ النقود من أوراق مالية وكان باستطاعة الكثيرينمن الوسطاء أنيقرؤا الارقام المثبتة على أوراق النقد ، وأن يميزوا الصـور وهل هى لذكر أو انثى ، ويطالعوا ما كتب على بطاقات الزيارة أو البطاقة الشخصية . كل ذلك والوسيط مغمض العينين بطبيعة الحال . وغنى عن البيان أن عمليـات انتنويم تذهب الى أكثر من ذلك بكثير ولكنى انما اتحدث عما شاهدته أنا شخصيا .

استهوته طريقة العلاج الجديدة عن طريق التنويم المغناطيسى فاتصل بكبار المشتغلين به وخاصة بالعالم الفرنسى الكبير شاركو Charcot . وعندما بدأ فى ممارسة العلاج بالتنويم المغناطيسى فى فينا مع زميل له يسمى «جوزيف كاريير» سمع من هذا الأخير أنه قد لاحظ أن مرضاه يستفيدون جدا من العلاج بالتنويم المغناطيسى عندما يهيىء لهم فرصة التحدث عن ذكرياتهم الماضية أثناء النوم ، وقد سميت هذه الطريقة بالتفريغ [1] ، فراح فرويد يستعملها فازداد اقتناعا بها . ولكنه على مر الوقت اكتشف أن بعض مرضاه يستعصى عليه تنويمهم فبدأ يعدل عن التنويم ويجرب معهم الايحاء بما يريد أن يوحى لهم به وهم فى حالة اليقظة ، ويطلب منهم تذكر الحوادث والتجارب الشخصية الماضية . وبعد قليل اكتشف فرويد عيوب هذه الطريقة أيضا ، فقد وجد أنه لا يستطيع فى كل الأحوال أن يحمل مرضاه على تذكر الحوادث والتجارب الشخصية الماضية التى سببت مرضهم . فرأى فرويد أن يعدل عن هذه الطريقة أيضا ، وبدأ فقط يطلب من مرضاه أن يطلقوا لأفكارهم العنان بدون قيد أو شرط دون أن يحاولوا اخفاء شىء عنه مهما كان تافها أو معيبا أو مخجلا . هكذا نشأ فن التحليل النفسى الذى أنزل التنويم المغناطيسى عن عرشه كأسلوب شائع فى العلاج كما كان الشأن خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، والذى أثبت من ناحية أخرى أن اضافة النوم الذى قال به جيمس بريد لامكان الايحاء ، ليس ضروريا . وتغص الآن أوربا والولايات المتحدة الامريكية بعشرات الألوف من عيادات التحليل النفسى ، ويقصدها الملايين التماسا للعلاج مما يعانونه من شتى صنوف الأمراض المادية والمعنوية ، كالخجل والشعور بالتفاهة والضعف

---

(١) معالم التحليل النفسى لسيجموندفرويد ـ ترجمة عثمان نجاتى ـ ص ١٨

والارهاق وبعض الأمراض العصبية الأخرى . ويشفى الكثيرون مما يعانون بعد بضع جلسات يقضونها مع الطبيب النفسى الذى يؤكد لهم أن مجرد معرفتهم لهذا الأمر أو ذاك سيكون سبب شفائهم المحقق . والسر فى الشفاء هنا هو بذاته السر فى شفاء الذين آمنوا بقدرة مسمر على شفائهم أو قدرة التنويم المغناطيسى على شفائهم ، أو قدرة أى انســان أو مكان معين على تحقيق هذا الشفاء فالأمر يرتد دائما الى الاعتقاد ولا زيادة . وليس آدل على صحة ما نقول من أن مدارس التحليل النفسى التى بدأت واحــدة على يد سيجموند فرويد ، سرعان ما انقسمت وتعددت فأصبحت مدارس مختلفة فيما بينها فمدرسة « أدلر » غير مدرسة « يونج » غير مدرسة « فرويد » ، من حيث السبب الذى يعتبر هو الأساس فيما يشعر به المريض من متاعب[1]. فدل ذلك على أن القول بأن هذا السبب أو ذاك هو سبب العلة الحقيقى ، وأنه لا يكاد يعرف حتى يتحقق الشفاء ، ليس فى حقيقته الا استخدام هذه الظاهرة المعروفة المقررة ، ظاهرة الايمان والاعتقاد ، فحيث يوجد الاعتقاد بأن أسلوبا معينا أو طبيبا معينا ، يحقق الشفاء فان عملية الشفاء تتم ، وحيث لا اعتقاد فلا شفاء ، وهكذا لا نفتأ ندور فى نفس الدائرة القديمــة دائرة الاعتقاد ، ويكون كل الذى يفعله العلم أن يتشدق بكلمات جديدة ، وأن يستغل ايمان الناس بكل ما يقال عنه أنه علم ، لكى يمارس أعمال من يحلو للعلم أن يسميهم دجالين ومشعوذين .

المرض والشفاء صورة ذهنية .

ونصل أخيرا الى ما اضطر العــلم المادى أن يعترف به من أن المرض والشفاء ليس فى حقيقته الا تصورا ذهنيا ، وأن الأسباب المادية التى كان

(١) يرى فرويد أن الغريزة الجنسية هى محور ما يمكن أن يشكو منه أى انسان ، ولكن أدلر يرى أن العلة هى فى الشعور بالنقص ، بينما يرى يونج أن العلة هى فى مشاكل الانسان التى لم تحل .

يتصور أنها تحدث المرض قد ثبت بالتجربة المحسوسة أنها ليست كذلك .

فقد انتهى الباحثون فى مستشفى مونرو بالولايات المتحدة الأمريكية الى أن الأمراض والعلل ليست فى الأعم والأغلب الا أوهاما نشأت فى عقول المرضى ثم عبثت بأجسامهم فأحسوها صداعا فى الرأس أو آلاما فى الرقبة أو قرحا فى المعدة . وقد توصل خبراء المستشفى المذكور الى هذه النتيجة بعد أبحاث دامت ١٥ سنة وضعوا على آثارها قائمة بنسبة المرض الذى ينشأ عن طريق الوهم والانفعالات العاطفية ، واليك هذه النسبة المئوية فى مختلف الأمراض : —

المرض	النسبة المئوية
الشعور بالارهاق	٩٠٪
الشكوى من الغازات	٩٠٪
الشكوى من الصداع	٨٠٪
الآلام فى الرقبة	٧٥٪
عسر الهضم	٧٠٪
آلام القرحة	٥٠٪
آلام المرارة	٥٠٪
التهابات جلدية	٣٠٪[١]

تجارب خاصة بقرحة المعدة

ونقل الدكتور يوسف مراد فى كتابه مبادىء علم النفس كيف أن بعض علماء الطب الباحثين قد أجروا تجارب خاصة بقرحة المعدة فاختاروا اثنين وخمسين مريضا بالقرحة فى المعدة ثم قسموهم الى مجموعتين : « احداهما مكونة من ٣٢ مريضا عولجوا علاجا نفسيا مدة سبعة أسابيع ، وكان العلاج

(١) صفحة جريدة الأهرام العلمية ــ ملحق العدد الصادر يوم ١٤/٤/١٩٦١

يتم بطريقة جمعية بواسطة جلسات يومية يتحدث فيها الطبيب الى المرضى عن طبيعة الصراع النفسى وأسباب التوتر والقلق ، كما كان يدربهم على ضبط النفس ، وزم الشهوات وكيفية الحد من شدة الانفعالات بوسائل الايحاء الذاتى . أما المجموعة الثانية فقد عولج أفرادها علاجا جسميا فقط أى بالأدوية والعقاقير مدة ستة أسابيع . وفى نهاية الأسبوع الثالث شفى ٣١ مريضا من ٣٢ مريضـا من المجمـوعة الأولى من مرضهم ، واستمر الشفاء مدة طويلة بعد انتهاء العلاج . وقد لوحظت عشر حالات مدة ثلاث سنوات بدون معاودة المرض . أما أفراد المجموعة الثانية فقد شفوا جميعا من أعراضهم المرضية بفعل الأدوية ونظام الأكل الخاص ، غير أن هذه الأعراض ظهرت من جديد فى ١٨ منهم بعد أسبوعين فقط من انتهاء العلاج والعودة الى نظام الأكل العادى » .

ويقول الدكتور يوسف مراد تعليقا على هذه التجربة أنها تقيم الدليل القاطع على أثر العلاج النفسى لا فى الشفاء من قرحات المعدة فحسب ، بل وفى الوقاية منها ومنع عودة الأعراض العضوية من جديد . ومن أهم الأمراض التى ترجع الى حالة نفسية : قرحة المعدة وقرحة الأمعاء وارتفاع ضغط الدم والربو وفقدان الشهية للطعام وبعض حالات الاسـهال والامساك ومرض العيون (الجلوكوما) أو الماء الأزرق ثم مجموعة من الأمراض الخاصة بالقلب والجهاز البولى والجهاز التناسلى [1] .

التعب ليس الا حالة نفسية

ونصل الآن الى ذروة ما وصلت اليه تجارب علم النفس التطبيقى ، من أن التعب الذى كان يتصور الى عهد قريب جدا أنه يحدث نتيجـة عوامل فسيولوجية وكميائية بحتة ، كتغير فى نسب الأكسـجين وثانى

(١) مبادىء علم النفس العام ـ الدكتور يوسف مراد ـ ص ١٣٣

أوكسيد الكربون ، أو تجمع بعض المواد المتخلفة فى الدم بكثرة معينة مما يحدث نوعا من التسمم الى آخر هذه الأبحاث ، فقد أثبتت التجارب التى أجريت على عشرات الألوف من العمال فى المصانع والمكاتب ، أن التعب فى حقيقته ليس الا مسألة نفسية بحتة ، فاذا تصور الانسان أنه سيتعب فسوف يتعب واذا تصور أنه لن يتعب فلا يتعب بالفعل . فقد جىء بعمال قيل لهم أن زيادة الضجيج من شأنها أن تؤثر على أعصابهم فتقلل من انتاجهم ، فبدأ انتاجهم يتناقص بالفعل كلما زاد الضجيج من حولهم وأسرع اليهم التعب . وجىء بعمال أفهموا أن لا تأثير من الضجيج وزيادته على انتاجهم أو فى حلول التعب بهم ، بل على العكس قد تؤدى زيادة الضجيج الى زيادة فى الانتاج . فكانت النتيجة أن التعب لم يتطرق الى هؤلاء العمال مهما اشتدت الضوضاء من حولهم ولم يكن لها أدنى تأثير على انتاجهم . وجرت مباحث بنفس الأسلوب حول ساعات العمل فجىء بعمال أفهموا أن التعب لا بد أن يحل بهم بعد ساعات معينة من العمل فلم تكن هذه الساعات تقترب من نهايتها حتى كانت كل أعراض التعب الفسيولوجية تظهر على هؤلاء العمال . أما العمال الذين أفهموا أن بقدرة الانسان أن يعمل عملا متواصلا وشجعوا بأنواع مختلفة من المغريات ، فقد مضى هؤلاء العمال فى العمل دون أن يحسوا بأى تعب أو كلل لمدد لا تكاد تصدق . وقد انتهت تجارب علم النفس الصناعى الى النتائج الآتية :

١ — يبدو أن أغلب العمل يمكن أداؤه دون توقف الى أمد غير محدود .

٢ — الأمل فى تحديد رقم قياسى فسيولوجى للتعب لم يتحقق حتى الآن .

٣ — التعب فى جوهره عرض نفسى ومشكلة من مشاكل التوافق أو الروح المعنوية . [١]

الاعتقاد هو التفسير لكل هذه الظواهر

وهكذا يصادفنا الاعتقاد حيثما ذهبنا وأنى اتجهنا ، باعتباره الأساس لكل نشاط انسانى . فاذا تصور الانسان التعب تعب على الفور واذا تصور المرض مرض ، وعلى العكس اذا تصور الشفاء شفى واذا تصور القوة أصبح قويا .

ولكن مجرد التصور بمعنى مرور الصور فى الذهن أو التماعها فيه ، لا يكفى لايجاد الايمان الخلاق الذى يحدث المعجزات والأمور الجسام مما فصلناه فيما سبق ، بل لا بد من توافر بضعة شروط لكى يكون الايمان ايمانا حقا . ولعل القارىء لا يزال يذكر ما قلناه فى موضوع الارادة من أنه يرتسم فى الذهن نوعان من الصور ، صور سلبية حسية هى انعكاس لما يحدث فى داخل جسم الانسان أو خارجه مما تنقله الحواس الى الذهن ، وصور ايجابية حركية تتحول بفعل الارادة الى قوة ديناميكية تنطلق منها الطاقة المحركة فى داخل الجسم وخارجه . ولقد قلنا أنه لكى تتحول أى صورة ذهنية من صورة سلبية الى أخرى ايجابية فلا بد من توفر ثلاثة شروط الضرورة والوحدة والتركيز ، وهى نفسها ما يلزم توفرها فى الايمان والعقيدة .

الضرورة

ما من مؤمن أو معتقد بعقيدة أنتجت آثارها الا ونرى هذا الايمان أو موضوع العقيدة ، يصبح عنده ضرورة تعلو على الحياة نفسها فهو

---

(١) ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية ـ المجلد الثانى ـ ص ٦٩٦ وانظر أيضا كتاب الدراسة المثلى لنوع الإنسان ـ ص ١٨١ ـ ١٨٤

مستعد للتضحية بالحياة فى سبيل ما يعتقد ، وبمقدار ما يتوفر هذا الشعور فى نفس أى انسان ، بقدر ما يحقق موضـــوع ايمانه . وباستطاعتنا أن نستعرض كل صحائف التاريخ على ضوء هـذا المقيـاس سواء بالنسبة للأفراد أو الجماعات والأمم ، لنراه مفتاح كل نجاح وكل اعجاز ، فسادت شعوب وجماعات عندما استرخصت الموت فى سبيل عقيدتها وحاقت بها الهزيمة والدمار عندما تعلقت بأذيال الحياة ورخصت عليهـا عقيدتهـا . فاحساس المؤمن بضرورة ما يعتقده لكيانه الروحى قبل المـادى هو أول شروط الايمان الفعال .

وحدة موضوع الايمان

ويأتى بعد هذا الشرط الأول الشرطان الباقيان بل هما كما قلنـا فى موضوع الارادة نتيجة لازمة وحتمية لهذا الشرط الأول ، فكون موضوع العقيدة هو ضرورة حياة المؤمن تجعله هو الموضوع الوحيد الذى يشغل ذهنه ويحتل كل نشاطه وتصوره ، اذا تحرك المؤمن فمن أجل عقيـدته وعلى أساسها ، واذا قام أو قعد أو نام أو استيقظ أو أحب أو كره ، أو حارب أو سالم فالهدف من وراء كل حركة وكل تصرف وكل كلمة بل كل نفس ، هو موضوع العقيدة وهذا ما نسميه وحدة موضوع العقيدة .

ويترتب على موضوع وحدة العقيدة ، الاعتقاد بكل النتائج والتفريعات التى تنشأ من موضوع العقيدة الرئيسى . فالايمان بالمسيح مثـــلا على القاعدة المسيحية يستتبع الايمان بكل ما فعله من معجزات والايمان بتلامذته وما فعلوه من بعد ، والايمان بما يفعله القديسون والقديسات وما يقع من معجزات فى بلدة لورد ، وما يقول به جماعة العـلم المسيحى من امكان الشفاء فى الوقت الحاضر بمجرد الايمان بالمسيح . ذلك ان الايمان جوهر واحد غير قابل للتجزئة ، فلو دب الشك الى أحد أجزاء موضـوعه زال

الايمان من أساسه . والايمان بسيدنا محمد رسـولا من رب العالمين ، يستلزم الايمان بكل ما جاء به من مبادىء وتعاليم ، كالايمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والجنة والبعث والحساب . فلو قال انسان انه يؤمن بمحمد ولكنه لا يؤمن بعيسى أو موسى أو لا يؤمن ببعض تعاليم الاسلام ، أو أنه لن يكون هناك بعث أو جنة أو نار ، فان هذا الشخص لا يكون مؤمنا ايمانا حقا بالاسلام ، ومن هنا لا يستطيع أن يفعل ما فعله المسلمون الأول الذين فتحوا الدنيا كلها وهم فئة قليلة العدد بقوة هذا الايمان . ولعل هذا هو ما يفسر لنا السر فى تدهور المسلمين والمسيحيين معا فى العصور الحديثة حيث بدأت تطاردهم المذاهب المادية ، والتى أصبح معتنقوها هم الذين تتوفر فيهم صفات الايمان من حيث الاحساس بضرورة موضوع الايمان ووحدته فى نفوسهم ، فى الوقت الذى فقد فيه المؤمنون بالأديان هذه الوحدة ، فأصبحوا على ما يقولون يؤمنون ببعض الكتاب ولا يؤمنون ببعضه الآخر ، ويؤمنون ببعض مظاهر الدين ولا يؤمنون بالبعض الآخر . وما يقال عن المعتقدات الدينية من ضرورة وحدة الموضوع، يقال عن أى موضوع يمكن أن يكون محلا للعقيدة والايمان . فالذى يؤمن بالحرية مثلا يجب أن يؤمن بها فى كل تطبيقاتها ونتائجها ، أما اذا آمن بالحرية فى ناحية وكفر بها فى ناحية أخرى ، كأن تصور الحرية لفريق من البشر دون فريق ، أو تصورها لشعب دون شعب ، أو تصورها لازمة فى بعض الأوقات غير لازمة فى وقت آخر فقد انهار الايمان بالحرية من أساسه لأنه لا يمكن الا أن يكون جوهرا واحدا غير قابل للتجزئة . وكذلك الشأن بالنسبة لكل المعانى الأخرى كالايمان بالكرامة البشرية أو الحق أو العدل أو الحب والتسامح ، فيجب أن يشمل الايمان بهذه المعانى كل تطبيقاتها على العدو مثل الصديق ، والا انهار الايمان بها من أساسها طبقا لقاعدة وحدة الايمان وعدم قابليته للتجزئة .

الثبات أو التركيز

أما الشرط الثالث الذى تتم به فاعلية الايمان ولا تتم الا به ، فهو التركيز الدائم على صورة موضوع الايمان الذهنية ، بحيث تزداد فى كل وقت لمعانا ووضوحا واشراقا فى الذهن ، وهذه هى النتيجة الطبيعية للتركيز . فلو أن صورة موضوع الايمان اهتزت فلم تعد ثابتة واضحة ، أو لو أن الضباب غشيها لسبب من الأسباب ، ولو أنه طرأ عليها ما أطفأ لمعانها ، لكان ذلك هو دليل عدم التركيز عليها . وليس هناك ما يحول بين المؤمن وبين التركيز على موضوع ايمانه سوى الشك . فالشك هو السم وهو الميكروب الذى يقتل الايمان ، انه ما يقابل التردد فى موضوع الارادة ، فكما تنعدم الارادة حيث يقف الانسان حائرا مترددا ، فكذلك ينعدم الايمان عندما تنفذ الى النفس سموم الشك أو عقاربه .

وباستطاعتنا كما قلنا عند التحدث عن شروط الضرورة ، أن تتخذ أى شرط من الشروط باعتباره مفتاحا لحل كل مشاكل التاريخ سواء كان تاريخ أى فرد أو جماعة ، وسنرى أن الشك لا يكاد يصل الى أحد عناصر العقيدة حتى تفقد العقيدة كل فاعليتها ، ويكون الانتقال من حال الى حال ، من النصر الى الهزيمة أو العكس بالعكس .

الايمان والطاقة الانسانية

فاذا تحققت الشروط الثلاثة للعقيدة والايمان ، فقد تحولت الصورة المرتسمة فى الذهن الى طاقة انسانية لا حد لها أو نهاية الا أن تحقق صورة الايمان فى الخارج ، ويتحول الكون الخارجى كله ، كما قلنا فى موضوع الارادة الى جهاز واحد يحقق موضوع الارادة ، ومعزف واحد ليعزف عليه المؤمن ما يشاء من ألحان .

غير أنه لا مناص لنا كذلك من أن نستدرك هنـــا ما استدركناه فى موضوع الارادة ، من أن هناك أحوالا ثلاثة لا يحقق فيها الانسان موضوع عقيدته كما لا يحقق موضوع ارادته وهذه الاستثناءات هى :

١ — الاصطدام مع النواميس الطبيعية ، فلو تصورنا أن انســانا راح يعتقد ما يضاد النواميس الطبيعية فمحــال أن يكون قادرا على تحقيق ايمانه ، لأن الطاقة الانسانية وهى جزء من هذه النواميس لا يمكن أن يكون لديها من القوة ما تتغلب به على النواميس التى هى الكل .

٢ — عندما تصطدم النواميس نفسها أثناء ممارستها لنشاطها بعقيــدة الانسان أو ارادته وهو ما أسميناه « القضاء والقدر »

٣ — عندما تصطدم عقيدة انسان بعقيدة انسان آخر ، اذ لا بد أن ينتصر فى هذه الحالة أكثر الاثنين تحقيقا لشرائط الايمان ، فاذا تصــورنا أن كليهما قد حقق شرائط الايمان ، فيكون الأمر بينهمــا على التعــادل .

ولقد أفضنا فى شرح هذه الاستثناءات فى باب الارادة فليرجع اليهــا القارىء [1] .

لايضعن انسان قيدا على عقيدته أو ايمانه

على اننا لا نستطيع الا أن نكرر ما سبق أن قلناه فى موضوع الارادة ، وهو أن لا يضع الانسان أى قيد على موضوع ايمانه خوفا من أن يصطدم مع النواميس الطبيعية أو خوفا من أن يدهمه القضاء والقـــدر ، فنحن لا نعرف ماهى هذه النواميس الطبيعية ، وما الذى يتفق معها أو لا يتفق .

(١) انظر صفحة ٢٨٠ من هذا الكتاب .

فقد رأينا أن ما تصوره أقوام أنه من النواميس الطبيعية قد اتضح أنه ليس كذلك ، وقد رأينا كيف أن النظريات وما يسمونه حقائق علمية يتغير بتغير العصور ، وعلى ذلك فلا حد لما يمكن أن يعتقده الانسان بالنسبة للطبيعة ، فهى كلها بين يديه ورهن مشيئته ، وطوع أمره .

وربما كان القيد الوحيد الذى ينبغى على الانسان أن يضعه على ارادته ومشيئته ، كما ينبغى عليه أن يبرىء منه ايمانه وعقيدته ، هو أن يجعل التسلط على الناس أو التحكم فيهم ، أو استغلالهم موضوعا لعقيدته وايمانه أو محلا لارادته ، فللناس جميعا ارادة كارادته ، وقدرة على الايمان كقدرته ، فلو أنه غافلهم فى لحظة من اللحظات واستعلى عليهم أو أساء اليهم ، فلا مناص من أن يخرج من الناس من يقوى عليه ويحاسبه ، وحتى لو لم يحدث ذلك فلن يستمتع مثل هذا الشخص بلحظة واحدة من السعادة ويظل نهب المخاوف والهواجس دون أن يعرف للراحة معنى لأن عقائد الناس فيه وارادتهم فى دفعه عنهم لن تفتأ تطارده وتسمم حياته ولا يمكن الا أن تقضى عليه فى النهاية . هذا هو القيد الوحيد الذى يجب على كل انسان يريد السعادة أن يضعه على نفسه ، لكى ينعم بها وفيما عدا ذلك ، فليس على الانسان من حرج أن يؤمن بما يعن له أن يؤمن به وهو على ثقة ، أنه لا بد محقق ايمانه ، حتى لو كان هذا الايمان يصور له أنه قادر على أن يخوض النار فلا يحترق ، أو يمشى على الماء فلا يغرق ، أو ينتقل فى طرفة عين من مشرق الدنيا لمغربها بدون صاروخ أو طائرة . وأنا أعرف أن جمهرة من يطالعون الآن هذه السطور سوف يبتسمون لما يتصورونه منى شطحا أو اغراقا فى المبالغة ، وأنا أبادر فأقول لهم أنا مثلكم لا أتصور الا أنه من يخوض النار فلا بد من أن يحرق ، ومن يمشى على الماء بغير الوسائل المادية المألوفة فلا بد أن يغرق ومن يحاول أن يطير فى

الهواء بغير طائرة فلا بد من أن يندق عنقه ، ولكن لا لأن ذلك حق أو لأن قوانين الطبيعة تقضى به ، ولكن لأننا جميعا فقدنا الايمان بامكان ذلك بل وامتلأت رؤوسنا منذ الطفولة باستحالته . وما دام هذا تصورنا فلا عجب أن أصبحت أمثال هذه الأمور مستحيلة بالفعل ، فالاستحالة هى من عمل الانسان . ويوم أن يوجد الانسان الذى لا يستكثر على نفسه أن يطير بغير طائرة ، الذى لا يستكثر على نفسه أن لا تضره النار اذا خاضها ، أو أن يضره السم اذا تناوله ، فسيكون له كل ذلك ، ولقد حققه فى كل زمان ومكان الأنبياء والرسل والقديسون وأولياء الله الصالحون والمتصوفون . ويحققه أتباع اليوجا من الهنود كما رأينا فى الفصل السابق ، وقد دعانا اليه السيد المسيح دعوة صريحة عندما يقول لنا : « لو كان فى قلب أحدكم ذرة من ايمان وقال للجبل تحرك لتحرك »

وأكده لنا رسول الله الكريم وهو يتلو علينا الحديث القدسى « عبدى كن ربانيا تقول للشىء كن فيكون » .

مراجع خاصة بالفصل السابع

٩٠ ـ مجلة علم النفس المجلد الرابع العدد الثانى مقال للاستاذ كمال دسوقى التنويم والتحليل

٩١ ـ الأحكام العامة فى قانون العقوبات ـ الدكتور السعيد مصطفى السعيد.

٩٢ ـ التنويم المغناطيسى وغرائبه ـ تأليف الدكتور محمد رشدى حكيمباشى محافظة القاهرة

٩٣ ـ الدراسة المثلى لنوع الانسان ـ ستيوارت تشيز ـ ترجمة محمود ابراهيم الدسوقى

٩٤ ـ ايمانى ـ احمد حسين

٩٥ –Living Biographies of Religious Leaders By Henry Thomas and Dana Lee Thomas.

٩٦ –The Great Religions of the Modern World. Edited by Edward J. Jurji.

٩٧ –History of the Communist Party of The Soviet Union. Bolsheviks.

٩٨ –The Discovery of India. By Jowaharlal Nehru.

مراجع سبقت الإشارة إليها ·

ـ القرآن الكريم

ـ الكتاب المقدس

ـ دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى

ـ أمة تبعث ـ احمد حسين

ـ الانسان ذلك المجهول ـ الكسيس كاريل ـ ترجمة شفيق اسعد فريد

ـ من نافذة العقل الدكتور نقولا فياض

ـ ذكرياتى عن جزيرة العرب ـ أحمد حسين

ـ معالم التحليل النفسى ـ سيجموند فرويد ـ ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى

ـ مبادىء علم النفس العام ـ الدكتور يوسف مراد

ـ ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية ـ ج · ب · جيلفورد استاذ علم النفس فى جامعة كاليفورنيا وأشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد

The Encyclopedia Britannica.

The Encyclopedia Americana.

الفصل الثامن

بعض تطبيقات لقوة الإيمان

١ ـ **ظاهرة الدعاء** ـ ثبات الظاهرة فى كل العصور ـ الدعاء ثمرة التجربة ـ ليست كل الدعوات مقبولة ـ المتدينون وكيف يفسرون استجابة الدعاء ـ الطبيعيون والقول بعدم جدوى الدعاء ـ الصدفة والدعاء ـ الدعوات التى لا تستجاب ـ هل يناقض الدعاء قوانين الطبيعة ؟ ـ مفعول الكلمة ـ آداب الدعاء كما حددها الغزالى ـ شروط الدعاء كما يقول بها عالم مسيحى .

٢ ـ **السحر** ـ قدم الاعتقاد بالسحر ـ تلازمه والعقيدة الدينية ـ السحر فى الكتب السماوية ـ كيف سحر الرسول ـ تعلم فقهاء المسلمين السحر ـ ابن خلدون والسحر ـ السحر فى أوروبا فى العصور الوسطى ـ السحر فى العصور الحديثة ـ موضوعات السحر الرئيسية ـ الجمع بين المتحابين ـ التفريق بينهما ـ الاضرار والقتل بواسطة السحر ـ الايحاء كتفسير علمى للسحر ـ التركيز ضرورة نجاح اى عملية سحرية .

٣ ـ **تحضير الأرواح** ـ أرواح الموتى وأشباحهم ـ الأديان العالمية والروح ـ العلم المادى وانكار الروح ـ علم الأرواح الحديث ـ متى وكيف نشأ ـ عملية تحضير الأرواح ـ حجرة التحضير الحديثة ـ الساحر هودينى يحارب تحضير الأرواح ـ شطحات المشتغلين بعلم تحضير الأرواح ـ الطاقة الأنسانية كتفسير للظاهرة ـ عنصر التركيز وضرورته .

تطبيقات

انتهينا فى الفصلين السابقين الى التقرير بأن تحول الصورة من حسية سلبية الى صورة حركية ايجابية فى الذهن ، انما يتم بقوة الارادة أو العقيدة التى يخلقها الاحساس بضرورة الموضوع الواحد ودوام التركيز عليه ، فينبثق من ذلك قوة ديناميكية أو ما نسميه نحن طاقة انسانية ، كفيلة بأن تحقق الصور الذهنية فى الخارج مادية كانت أو معنوية .

واذا كنا قد تحدثنا عن العقيدة فى ذروتها العليا ، وأشرنا الى بعض القمم الانسانية التى أثرت على البشرية فى مجموعها بايمانها بالله كالرسل والأنبياء ، والى بعض الزعماء والقادة ممن أثروا على حياة شعوبهم ومجتمعاتهم ، فقد تحدثنا كذلك عن هؤلاء المرضى الذين يشفون بطريقة معجزة لمحض اعتقادهم وايمانهم بأن هذا الشىء أو ذاك سيحقق لهم الشفاء . الأمر الذى دل على أن قوة الاعتقاد ظاهرة انسانية عامة شاملة ، كائنة فى كل نفس ، وتفعل فعلها فى كل وقت وآن . ونتحدث فى هذا الفصل والفصل التالى ، عن بعض مظاهر العقيدة وقوتها ، كما يمارسها الناس فى حياتهم اليومية العادية ، كالحسد والحقد والحب والبغض ، والدعاء والصلاة ، أو بالتأثير على الناس عن بعد بواسطة السحر ، أو ما يسمى فى العصر الحديث بتحضير الأرواح .

وسنرى كيف أن هذا النشاط النفسى هو فى نهايته ليس الا تطبيقا لظاهرة العقيدة والايمان . وقد كان التسليم بحقيقة هذه الظواهر ، من الأمور التى لا تثير أى جدل أو شك فقد أجمعت عليها الشعوب بأنبيائها ورسلها وعلمائها ومفكريها . أما فى عصرنا الحديث فقد أصبح أبسط مظاهر الاتصاف بالعلم والتحضر هو أن يصف الانسان كل هذه الظواهر بأنها محض أوهام وخرافات . فالتحدث عن امكان الاصابة بالعين مثلا ، أو عن جدوى الدعاء ، أو تأثير السحر ، قول لا يليق بالانسان المثقف ناهيك بالانسان العالم . ومع ذلك فقد رأينا وسوف نرى كيف يرجع العلم متسللا الى كل هذه الظواهر الانسانية الثابتة تحت أسماء جديدة كالتنويم المغناطيسى ، أو القدرة على الايحاء .

ولنبدأ الآن بدراسة ظاهرة الدعاء وهى أعم هذه المعتقدات وأشملها من قديم الزمان حتى اليوم .

الدعاء والصلاة بمعنى واحد [١] ، وهو تعظيم محل الدعاء واظهار الاحترام والتسليم له ، تمهيدا للابتهال اليه بالسؤال والرغبة فيما عنده من الخير العميم . والدعاء هو مظهر الايمان وآيته فحيثما آمن الانسان بقوى خفية تسيطر على قدره فقد توجه لها بالسؤال والدعاء . وحيث ينتفى الايمان فلا يكون دعاء ، ومن هنا فقد اعتبر الدعاء لب العبادة ومخها وجوهرها ، فجاء فى الحديث الشريف « الدعاء مخ العبادة » [٢] . والحق أن العبادة لم تكن فى أى صورة من صورها الا الطريقة التى يدعو بها الانسان هذه القوة الخفية لتأتى الى نجدته وتخلصه مما يعانيه من كرب ومشقة أو تحقق له ما يرجو من خير وسعادة .

ولقد تطور أسلوب الدعاء بتطور العقيدة وارتقاء النظرة التى ينظر بها الانسان الى القوة الخالقة . فعندما كان الانسان ينظر لهذه القوة الخفية نظرة خوف ورعب مستمرين ، فقد كان جوهر الدعاء والصلاة هو دفع الأذى الذى يمكن أن تسببه هذه القوة وشراء رضاها عن طريق تقديم الهدايا التى كانت تسمى قرابين وضحايا . وكان الاعتقاد فى هذه المرحلة أن القوة الخفية فى حاجة لهذه الأطعمة والأشربة لسد غائلة جوعها ، كما أن تقديم العطور والزهور لادخال السرور عليها . وكانت القرابين والضحايا

---

(١) جاء فى المصباح المنير ــ دعوت الله أدعوه دعاء ابتهلت اليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ــ والصلاة فى اللغة الدعاء لقوله تعالى وصل عليهم أى ادع لهم ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى أى دعاء ، ثم سمى بها هذه الأفعال المشهورة لاشتمالها على الدعاء .

(٢) رواه الترمذى ، وفى رواية أخرى « الدعاء هو العبادة » رواه الترمذى وأبو داوود (التاج الجامع للأصول الجزء الخامس)

تحرق فى بادىء الأمر فيكون تلاشيها الظاهر هو الدليل على أن القــوة الخفية قد استهلكت القربان أو الضحية بالفعل . [1]

ثم بدأ الانسان يدرك أن من بين هذه القوى الخفية ، قوة رحيمة تعمل على خير الانسان واسعاده ، وأنها ليست فى حاجة مباشرة لهذه القرابين فهى فى غنى عنها ، وانما المقصود بهذه القرابين أن ينتفع بها المحتاجون من بنى البشر فيجب أن توزع عليهم . [2]

وتطورت العقيدة أيضا ، فلم يعد شرطا لازما أن يقدم الانسان قرابينه وضحاياه مقدما كشرط لازم لامكان الاستجـابة ، ذلك أن الله الرحيم يستجيب لعباده بغير ضرورة لشىء من ذلك وقت الدعاء فقد يكون الانسان عاجزا أو معدما ، واذن فما عليه الا أن يدعو الله متعهدا أن يتصدق ممـا يفىء الله به عليه . ومن هنا قامت فكرة النذور ، وهى تعهد الانسان اذا حقق له الله هذا الشىء أو ذاك أن يتصدق بكذا وكيت للفقــراء ، أو أن يبنى مدرسة أو مستشفى الى آخر ذلك .

وأخيرا انتهت العقيدة الى الصورة الكاملة للألوهية ، فالله لا يمكن الا أن يستجيب بدون قيد أو شرط من قرابين تقدم أولا أو مؤخرا ، فانه

---

(١) أشار القرآن الكريم لفكرة حرق الضحايا والقرابين فى قوله « الذين قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرســول حتى يأتينا بقربان تأكله النـــار » (آل عمران ــ ١٨٣)

(٢) يرجع الفضل فى تهذيب العقــائد البشرية الى القرآن الكريم حيث كشف للناس عن حقيقة المقصود من القرابين والضحايا اذ جاء فى سورة الحج « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون • لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (الحج ــ ٣٦ ، ٣٧) •

أكرم على عباده من أن يعاق استجابته على ثمن يؤدى الا مجرد الايمان به وبرحمته ، وفى ذلك يقول القرآن « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ».

بهذه الأساليب الثلاثة ، تقديم القرابين مقدما ، والوفاء بالنذر مؤخرا، والدعاء المجرد لله بغير قرابين أو نذور ، رفع البشر أكفهم بالضراعة الى القوى الخفية فى كل زمان ومكان متوسلين فى حرارة وقوة ، أن تدفع عنهم المخاطر التى تحدق بهم ، وتحقق لهم الآمال التى تعتلج فى صدورهم . وكلما ازدادت حرارة الانسان فى الدعاء كلما زاد فى رفع يديه الى السماء فى حركة لا شعورية فكأنهما هوائى الراديو أو التلفزيون ، الذى يزيد الانسان فى طولهما كلما أراد ارسالا أو استقبالا أحسن .

البشرية تدعو فى كل مكان فى الوقت الحاضر

ولا يزال الدعاء أسلوبا يستخدمه مئات الملايين من البشر لا فى آسيا أو افريقيا أو امريكا اللاتينية باعتبار أن هذه من المجتمعات المتخلفة ، ولكن فى أوربا وأمريكا الشمالية ، تشهد بذلك الشموع المضاءة بالليل والنهار فى هذه الكنائس والتى يقدمها المؤمنون على سبيل القرابين أو الوفاء بالنذر ، وتشهد بذلك أيضا صناديق النذور التى لم تشك فى أى يوم من الأيام افلاسا أو ضيقا حتى فى أحلك الأزمات [١] ، وتشهد بذلك الصلوات الرسمية الجماعية التى كان الحلفاء يدعون لاقامتها ابان الحرب الماضية ليهيىء لهم الله النصر ، وما يقام الآن فى أوربا وأمريكا من صلوات عامة ، من أجل تجنيب البشرية أهوال الحرب والمحافظة على السلام .

ويقرر علماء النفس والاجتماع فى العصر الحديث ، أن اقامة هذه الصلوات والابتهالات الجماعية تحدث أثرا طيبا فى نفوس المصلين اذ

---

(١) بلغ ايراد صندوق النذور الخاص بالسيد البدوى عام ١٩٦١ ثلاثين ألفا من الجنيهات (جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٦٢/١/٢٩) .

ترفع معنويتهم ، وتوحى اليهم بوجوب الاستمرار فى كفاحهم . والجيوش الحديثة كلها أصبحت مزودة برجال الدين من شتى المذاهب بعد أن ثبت بالتجربة الأثر الطيب الذى يحدثه وجودهم بين الجنود .

الدعاء ثمرة التجربة

وغنى عن البيان أن البشر ما كانوا ليجمعوا هذا الاجماع على الدعاء ، كأسلوب لقضاء الحاجات وتحقيق الأهداف والأغراض ، الا بعد أن ثبت لهم بالتجربة على مر العصور جدوى الدعاء وفائدته ، فان من خصائص الكائن الحى بصفة عامة أن يكف عن أى نشاط لا يعود عليه بأى فائدة ، وقد أثبت علماء السلوك المعاصرون ، أن الحيوانات نفسها تكف عن أى نشاط لا تراه محققا لأهدافها ، مما أطلق عليه اسم التعلم من خلال « المحاولة والخطأ » . فمن المحال أن تتصور الانسان دون الحيوان يظل على مر العصور يرفع أكفه بالضراعة الى السماء ، مع أن ذلك لا يحقق له أى منفعة . ومن المحال أن تتصور الانسان ينزل عن قوته وقوت عياله من أجل اجراء عديم الجدوى له ولأولاده .

والحق أن الدعاء كان دائما ذا جدوى وفائدة للانسان فى حالتى الاجابة وعدم الاجابة على السواء ، وحالة الاستجابة لا تحتاج بطبيعة الحال الى شرح فى جدواها ، أما الجدوى فى عدم الاستجابة فقد كانت تتجلى فى محاولة الانسان بحث الأسباب التى حالت دون تحقيق الاجابة ، وأن ذلك قد يكون للذنوب والمعاصى التى يغرق فيها الانسان ، فيعمل على اصلاح شأنه قبل معاودة الدعاء .

ليست كل الدعوات مقبولة

واذا كان الماديون يقولون بأنه لا جدوى من الدعاء كما سنشرح رأيهم بالتفصيل بعد قليل ، فان المؤمنين أنفسهم قد سبقوهم لادراك أن

الدعاء لا يستجاب فى كل الأحوال ، وأنه لكى يقبل الدعاء فلا بد من توفر شروط معينة ، اذا لم تتوفر فلن يقبل الدعاء . وقد رأينا أن أول هـذه الشروط فيما سبق هو تقديم القرابين من خلال طقوس معينة ، وكان اللوم يقع على الكاهن فى حالة عدم تحقق الدعاء ، لأنه لم يحسن القيام بهذه الطقوس . وبعد أن لم تعد القرابين والطقوس شرطا لازما لامكان الدعاء فقد وضعت شروط جديدة أجملها الامام الغزالى فى الشروط الآتية والتى أطلق عليها اسم آداب الدعاء [1] :

آداب الـــدعاء

أولا — أن يترصد المؤمن لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل .

ثانيا — أن يغتنم الأحوال الشريفة كزحف الصفوف ، وعند نزول الغيث ، وعند اقامة الصلوات ، ووقت السحر ، ووقت صـفاء القلب وخلاصه وفراغه من المشوشات .

ثالثا — استقبال القبلة — ويرفع يديه بحيث يرى بياض ابطيه . (روى أنس أنه صلى الله عليـه وسلم كان يرفع يديه حتى يرى بياض ابطيه فى الدعاء)

رابعا — خفوت الصوت بين المخافتة والجهر (ولا تجهر بصـلاتك ولا تخافت بها — ادعوا ربكم تضرعا وخفية)

خامسا — أن لا يتكلف السجع فى الدعاء فان حال الداعى ينبغى أن يكون حال تضرع والتكلف لا يناسبه .

---

(١) احياء علوم الدين للأمام أبى حامد الغزالى ـ الجزء الثالث .

سادسا — التضرع والخشوع والرغبة والرهبة .

سابعا — أن يحزم الدعاء ويوقن بالاجابة ويصدق رجاءه فيه . (لا يقل أحدكم اذا دعا الله اللهم اغفرلى أن شئت ، ليعزم المسألة فانه لا مكره له .. ادعوا وأنتم موقنون بالاجابة واعلموا أن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل)

ثامنا — أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا . (قال ابن مسعود كان عليه‌السلام اذا دعا دعا ثلاثا ، واذا سأل سأل ثلاثا . — يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ويقول دعوت فلم يستجب فاذا دعوت فاسأل الله كثيرا فانك تدعو كريما)

تاسعا — أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل .

عاشرا — الأدب الباطنى وهو الأصل فى الاجابة ، أى التوبة ورد المظالم ، والاقبال على الله عز وجل بكل الهمة فذلك هو السبب القريب فى الاجابة .

شروط الدعاء كما يقول بها عالم مسيحى

واذا كان الامام الغزالى قد لخص ما يراه لازما لتحقيق الدعاء عند المسلمين ، فقد جاء فى أحد الكتب الأوربية الحديثة ، ما يمكن اعتباره شروط استجابة الدعاء كما يراها العالم المسيحى . (١)

أولا — الوثوق والايمان بأن المصلى يمكن أن ينشىء بالفكر ما يريد تحقيقه .

ثانيا — تحديد الرغبة تماما فى العقل أثناء الصلاة .

ثالثا — جعل الرغبة موجودة فى الفكر حتى تأتى الاستجابة للهدف .

---

(١) العالم غير المنظور للأستاذ عبد الجليل راضى — ص ٢٠٩

رابعا - وجوب أن تكون الصلاة حازمة وموجبة أكثر منها سـالبة أو استجـداء ، كمـا يجب أن يترك لله الوقت للاجابة فى الوقت المناسب . انتهى .

وهذا التطابق العجيب فى جوهر الشروط اللازمة لتحقيق الدعاء من رجلين يمثل كل منهما دينا يختلف عن دين الآخر ، وتباعد بينهما القرون ، ويعيش أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب ، هو الدليل على أنهما يتحدثان عن قانون ثابت وناموس مقرر بالفعل .

وقبل أن نحلل هذه الشروط لاستجابة الدعاء لنستخلص منها قاعدة عامة ، نرى أن نناقش أولا ما يتصور المتدينون أنه الطريقة التى تتم بهـا الاستجابة ، وما يقول به الماديون من انكار كل تأثير للدعاء .

كيف يفسر المتدينون الطريقة التى يتحقق بها الدعاء ؟

يعتقد جميع المتدينين على السواء أيا كان دينهم الذى يعتنقونه ، أن استجابة الدعاء تتم عن طريق اصـــدار الله أوامره فى كل حالة على حدة باجابة هـــذا الدعاء أو عـدم اجابته . ومنـــاط البحث بالنســـبة للمتـــدينين يجب أن ينحصر فى الكيفيـة التى يجـــرى بهـــا الله مشيئته أهى تتم بطريقة عشوائية ، أم أن كل شيء يتم من خلال القوانين والنواميس (ولن تجد لسنة الله تبديلا) ؟ ان تصور الله هو الذى يجيب الدعاء بطريقة مباشرة أى بقوة صادرة منه فى كل حالة ، كان يستقيم من غير شك ويصبح هو التفسير الوحيد لاستجـابة الدعوات ، لو كان الله الحق كما تؤمن به هو الذى يدعى فى جميع الأحـوال والأزمان . ولكن المشاهد والملاحظ أن الدعاء قلما يتجه الى الله مباشرة ، بل هـو يتجه فى الأعم والأغلب نحو الأولياء الصالحين ، أو القديسين عنـد المسيحيين .

وهؤلاء الأولياء والقديسون يختلفون من دين الى دين ومن قطر الى قطر بل من مدينة الى أخرى وربما من حى الى حى . فالذين يسكنون فى طنطا مثلا يتجهون بدعائهم الى السيدالبدوى ، والذين فى قنا يتجهون بدعائهم لسيدى عبد الرحيم القناوى ، وسكان القاهرة للسيدة زينب «أم العواجز» أو لسيدنا الحسين ، أو الامام الشافعى وهكذا . وفى العـراق يتجهون بالدعاء الى سيدى عبد القـادر الجيلانى . ولا يختلف المسيحيـون عن المسلمين فى هذا الشأن فلكل قوم فى بلد قديسهم ورسولهم الأثير عندهم الذى يتجه الدعاء اليه ، فمن العدرا (العذراء) الى مارى جرجس الى مار شمعون ، ومن سانت بول (بولس) الى سـانت مارك (مرقص) . رب قائل يقول (وهو ما يقال بالفعل) أن هؤلاء جميعا من أولياء الله وأحبائه والدعاء اليهم ليس فى حقيقته الا توسيطا لهم عند الله ليستجيب . وليس من برنامجنا مناقشة هذه القضية للحكم بصوابها أو خطئها [1] ذلك لأنه يغنينا عن هذا البحث كله أن من يعتبرهم المؤمنون جميعا وثنيين يعبدون آلهة زائفة ليس لها من الأمر شيء ، كانوا بدورهم يتجهون بالدعاء الى هذه الآلهة الزائفة : آمون وايزيس وزيوس وجوبيتر ، وأحيانا العجل أو البقرة أو التمساح والقطة ، الى آخر هذه المعبودات التى ما أنزل الله بها من سلطان . وقد كانت الدعوات تستجاب من غير شك بنفس النسبة ، فالبشر يدعون دائما من أقدم العصور . فالدعاء اذن ظاهرة انسانية مارسها الانسان دائما لتحقيق أغراضه ، التى كانت تتحقق بالفعل فى كثـير من الأحيان أيا كانت الجهة التى يتجه اليها بالدعاء . فيجب صرف النظر عن هذا الأسلوب الذى يتصور المتدينون أن الدعاء يستجاب به .

---

(١) انظر للمؤلف ـ شرح الدعوة الوهابية التى تعتبر الـدعاء لغير الله شركا وكفرا فى كتاب « مشاهداتى فى جزيرة العرب » .

ومن الناحية الأخرى يستدل الماديون من تعدد الجهات التى يتوجه اليها بالدعاء ، على زيف التصور أن الدعاء يمكن أن يكون له أى قيمة أو أثر فى مجريات الأمور ، الا أن يكون مجرد أثر نفسانى بحت ، اذ يزود بعض الأشخاص براحة نفسية أو يعطيهم الأمل الضرورى لرفع الروح المعنوية . وكثير من المؤمنين أنفسهم فى هذا العصر الحديث لا يرون فى الدعاء شيئاً أكثر من ذلك فأصبحوا يستنكفون الدعاء ، ويصفونه بأنه مظهر من مظاهر الضعف والعجز وقلة الحيلة .

ويسوق الماديون ومن لف لفهم من المتدينين الذين تأثروا بتعاليمهم ، ثلاث حجج لتدعيم وجهة نظرهم .

أولا — أن لا شىء فى الوجود يجرى على غير القوانين والسنن المقررة ومن العبث أن يتصور متصور أنه يستطيع ببضع كلمات تخرج من فمه أن يغير من هذه القوانين أو أن يعدل آثارها المحتومة . ويتقابل المؤمنون بالقضاء والقدر مع هذا المعنى بقولهم أن كل شىء قد خط فى اللوح المحفوظ فهو واقع لا محالة ولن يغيره دعاء من أى نوع كان . [1]

ثانيا — أن القول بأن الملاحظة والمشاهدة التى يجربها كل انسان من نفسه تثبت استجابة كثير من الدعوات ، فان الملاحظة والمشاهدة كذلك تثبت عدم تحقق الكثير من الدعوات وربما كانت الدعوات التى لا تستجاب أضعاف أضعاف ما يستجاب منها ، وان كان الناس قد اعتادوا أن يتحدثوا عما أجيب دون مالم يجب .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين مادة « دعاء »

ثالثا — أن الأمور التى يظن أنها تحققت بقـوة الدعاء ، هى أمور عادية بحتة مما يتحقق مثلها بغير دعاء

رابعا — فى الحالات القليلة والنادرة التى يبدو فيها كما لو كان الدعاء قد استجيب لتحقيق أمر غير عادى أو مألوف ، فالأمر هنا لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب الصدفة التى لا حد لما يمكن أن تفعله.

والحق أن مناقشة بسيطة لهذه الحجج تجعلها تتداعى على الفور ، أو على الأقل تفقد أهميتها التى يتصور البعض أنها تنطوى عليها . ولنبدأ فى مناقشتها بترتيبها العكسى .

ماهى الصدفة ؟

فأما القول بأن الأعمال التى تقع على خلاف المألوف نتيجة دعاء فهى لا تعدو أن تكون صدفة ، فهو مجرد قول يساق لتغطية العجز عن التعليل والتفسير ، وصدق ديمقريطس هذا العبقرى الأغريقى الذى سبق العصر الحديث باكتشاف عالم الذرة منـذ خمس وعشرين قرنا مضت اذ يقول « لا يوجد فى الطبيعة شىء اسمه صدفة ، بل الصدفة خرافة اخترعت لتبرير جهلنا . » (١)

ان الصدفة ، حتى لو سلمنا بوجـودها ، يجب أن تنحصر فى الأمور التى تصادف الانسان من حيث لا يحتسب ، كأن يحفر انسان لبناء بيت مثلا فيكتشف بعض الآثار ، أو يتفجر فى أرضـه البترول . قد يكون باستطاعتنا أن نسمى مثل ذلك صدفة ، أما أن يخرج انسان من بيته وهو فى غاية الضيق لحاجته لعشرين جنيها يدفعها أجرا لعملية جراحيـة ، أو مصروفات لمدرسة أولاده ، ولما كان لا يعرف من أين يجىء بالمبلغ فيدعو الله أن يجعل له من هذا الهم مخرجا ، فاذا به يصادف فى الطريق من يقول

---

(١) قصة الحضارة ـ الجزء الثانى ، المجلد الثانى ـ ص ٢٠٢

له أنه كان مدينا له أو لوالده من قبله ، بعشرين جنيها . فمن التعسف هنا التحدث عن الصدفة ، لأن العلاقة جد واضحة بين المشكلة المراد حلها والحل الذى تم بالفعل .

كما لا مجال للتحدث عن الصدفة بحال من الأحوال فى حالة انسان تحدق النيران به من كل جانب ، أو يوشك أن يغرق فى الماء ولا منجد أو مغيث ، أو أن يقع فى مأزق لا مهرب منه بحال من الأحوال ، فيتوسل الانسان لهذه الجهة أو تلك بالدعاء الحار ، فان هو الا بعض الوقت حتى تقدر له النجاة من حيث لا يحتسب . [1] فى مثل هذه الظروف وأمثالها يكون من التعسف ، ومما لا يتفق والبحث العلمى ، ابعاد كل تصور يقول بوجود علاقة بين الدعاء وبين النجاة .

استجابة الدعاء فى الأحوال العادية والمألوفة

ننتقل الآن الى الحجة التى تقول ان الأمور التى يدعى من أجلها وتتحقق هى فى الأعم والأغلب من الأمور العادية التى كان محتوما أن تتم بغير حاجة الى الدعاء ، وليس أدل على ذلك من أنها تتحقق فى كل وقت وآن لأناس لا يدعون ، بل ويكفرون بالدعاء من أساسه . والحق أنه لم يكن هناك أى معنى للقول بوجود أى علاقة بين تحقق أمور مألوفة وبين

(١) يعرف كل انسان عاش فى مصر فى الفترة التى أعقبت حريق مدينة القاهرة عام ١٩٥٢ ، أن مصيرى كان معروفا ومقررا وهو حبل المشنقة . وكانت أجهزة الدولة الادارية والقضائية تتعاون كلها لتحقيق هذا الهدف . ولم يكن لدى فى ذلك الوقت ما ألوذ به فى سجنى الا الدعاء المستمر المتواصل لله العلى القدير أن ينقذنى من هذا المصير ، الذى لم يكن يرهبنى فيه الموت بقدر ما كان يؤلمنى منه مرارة الظلم . وقامت الثورة ثورة ٢٣ يوليو كما هو معروف ومشهور ، فكان فى قيامها استجابة لدعائى بالنجاة ، بل وتحقيق لما سجنت من أجله وهو الدعوة الى الاشتراكية الانسانية ، والعدالة والحق . (انظر للمؤلف) فى ظلال المشنقة ــ و « قضية التحريض على حرق مدينة القاهرة ».

الدعاء ، لو أن الأمور المألوفة فى هذه الدنيا تسير على نسق مطرد بحيث يمكن دائما الجزم والقطع بأنها لا بد واقعة ؟ أكل صغير لا بد أن يكبر وكل مريض لا بد أن يصح وكل غائب لا بد أن يعود وكل طالب يذاكر لا بد أن ينجح ، وكل زارع يعمل ويجد لا بد أن يحصد ؟ لو أن الأمور كانت تسير بهذه الحتمية لصح القول أن لا جدوى من الدعاء بل لما وجدت ظاهرة الدعاء أصلا ولكنا نعرف أن القضاء والقدر ذلك الذى نجهل متى يجىء ولا كيف يجىء ، القضاء والقدر الذى يغير كل ما كنا نرجوه أو تتمناه أو نعمل على تحقيقه بالذات يقف لنا بالمرصاد لاحباط أبسط أعمالنا . فالتحدث اذن عن حتمية حدوث ما يحدث بدعاء أو غير دعاء ، مسألة لا يمكن اقامة الدليل عليها ، وكون انسان يحقق أمرا ما بغير دعاء لا ينهض دليلا على أن شخصا آخر دعا ، كان يستطيع أن يحقق ما حقق بغير دعاء . وهكذا لا يمكن قطع الصلة بين الدعاء واستجابة الدعاء حتى فى الأمور العادية والمألوفة .

بالنسبة للدعوات غير المستجابة

ولننتقل الآن الى الحجة التى قيلت لاهدار كل قيمة للدعاء ، من أنه الى جوار كل دعوة يتصور أنها قد استجيبت بفضل الدعاء ، فهناك عشر دعوات لم تستجب ان لم تكن أكثر من ذلك بكثير . وعندنا أن ليس فى هذا الرأى غناء من أى نوع كان ، فان تحقق أى ظاهرة طبيعية ، لا يمكن أن يتم الا اذا توفرت كل الشروط اللازمة لتحققها ، ويكفى أن لا يتوفر ظرف واحد من الظروف الواجبة لكى لا تتحقق أى ظاهرة من ظواهر المادة . فالماء مثلا يغلى عند درجة مائة ، ويقضى القانون الطبيعى أن يغلى كل ماء عند هذه الدرجة ، ولكن ذلك مشروط بأن يكون الضغط الجوى

عاديا ، فلو تغير الضغط الجوى بالزيادة أو النقص ، فان الماء لا يغلى عند درجة المائة .

فلكى توصف أى ظاهرة بالاخفـــاق يجب التأكد أولا من أن كل الشروط اللازمة لتحققها قد استوفيت .

ولقد رأينا أن المؤمنين أنفسهم يدركون أن ليس كل دعاء مستجاب ، وأن شروطا للدعاء المستجاب قد وضعت وقننت ، وعلى رأس هـــذه الشروط كما رأينا هو الاعتقاد بمفعول الدعاء ، وعدم تطرق أى شك فى أنه سيتحقق بالفعل . واحساس الانسان بالذنب وأنه غارق فى المعاصى فلن يستجاب له ، قد يكون بذاته سببا فى عدم تحقيق الدعاء لهدفه . يقول ابن خلدون : « أجمعت الأمم على أن الدعاء مظنة الاجابة ، وأجمعوا على أن الدعاء اللسانى الخالى من الطلب النفسانى ، قليل العمل عديم الأثر »[1] فالذى يريد أن يتحدث عن الدعوات التى لم تستجب يجب أولا أن يكون قد غاص فى نفس الداعى ، ليرى أكانت دعوته من طرف اللسان أم كانت بالروح كلها ، وهل كان اليقين كاملا فى الاستجابة ، أم أن الشــك كان يراود الداعى ؟ وما نحسب أن أى انسان يستطيع أن يقوم بمثل هــذا البحث ، فان الأمر قد يختلط حتى على الانسان نفسه فلا يعرف أهو مؤمن حقيقة أم غارق فى الشك دون أن يعلم . ولذلك فليس فى التلويح بالدعوات التى لم تستجب ما يصلح بصفة عامة للدلالة على شىء .

قوانين الطبيعة ونواميسها

ونصل الآن الى الحجة الأولى التى تساق من الماديين وبعض المؤمنين بالذات على عدم جدوى الدعاء من أن الطبيعة تسير على سنن ونواميس ،

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ــ مادة « دعاء » .

أو أن الأمور كلها قد خطت فى اللوح المحفوظ فلا سبيل لتغييرها أو نقضها . فأما أن الطبيعة تعمل من خلال النواميس فتلك حقيقة تؤمن بها وندعو لها فى هذا الكتاب . ونحن نقول ان الدعاء عندما يستخدم لتحقيق غايات الانسان وأغراضه ، فان ذلك هو مظهر وجود قانون معين لحكم هذه العلاقة بين ما تجيش به نفس الانسان وما يقع تنفيذا لذلك فى الخارج . وقد رأينا كيف أن علماء النفس يسلمون أنه قد يكون للدعاء قيمة ايحائية من حيث كونه قد يدفع الانسان الى مضاعفة الجهد لتحقيق ما يدعو من أجل تحقيقه . كما أن الدعاء يحدد للانسان بطريقة صارمة الأهداف التى يسعى اليها ، وحسب الانسان أن يطالع أحد أدعية الرسول المأثورة ليرى الى أى حد يمكن اعتبار الأدعية برنامجا كاملا لتنظيم حياة الانسان ومعرفة الاطار الذى يتحرك فيه اذ يقول « اللهم انى أعوذ بك من العجز ، والكسل ، والجبن ، والبخل ، والهرم ، ومن علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع [١] » ومن المحقق أن كل انسان يدعو لتحقيق أمر من الأمور فانه يضاعف جهده لتحقيق هذا الأمر اذ أنه يزداد ثقة بالنفس وبالنجاح . وليس هناك من يمارى فى ما تمنحه الثقة بالنفس ، والثقة فى النجاح من شحذ لقوى الانسان .

مفعول الكلمة

بقى التهوين من شأن الكلمة تخرج من فم الانسان ، والجزم بأنها لا يمكن أن تكون شيئا ذا بال فى الوجود ، وعندنا أن أمثال هذا القول من اهدار القول والكلام وما يمكن أن يؤثر به فى الكون بطريقة مادية قد حان الوقت لكى يعاد النظر فيه ، على ضوء الحقائق التى تتكشف لنا يوما بعد يوم فى ميدان العلم المادى البحت .

---

(١) رواه الخمسه الا البخارى ـ التاج الجامع للاصول .

لقد أحس البشر فى القديم بما فى الكلمة من قدرة غير عادية فجعلوها تحوى سر الوجود كله ، مما نرى أثره واضحا فى انجيل يوحنا حيث يبدأ بالعبارة الخالدة الآتية « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » (١)

ولا خلاف بين علماء الاجتماع على القوة الكامنة فى بعض الكلمات ، وكيف فعلت فى النفوس فعل السحر ، وحملت البشر فى كل زمان ومكان على التضحية بالحياة كلها من أجل هذه الكلمات ، ككلمة الوطن أو الحرية أو الديمقراطية أو الشيوعية ، هذه الكلمات التى حلت محل كلمات سبقتها وكان لها نفس الأثر ككلمات الله أو العرض أو الشرف أو الكرامة . ويسجل التاريخ فيما سجل كيف أن كلمة تتلفظ بها امرأة فى ظرف من الظروف تكون سببا فى اشعال حرب ضروس . (٢)

فالكلمة ليست فى حقيقتها الا شحنة مكدسة من المعانى التى تتفاعل مع كل نفس وتترك فيها أثرا محددا واضحا ، فتدفع النفوس الى الثورة أو الى الاستسلام ، أو الاقدام أو الاحجام .

وهى من الناحية العلمية البحتة ، ناحية العلم المادى الذى لا يعترف الا بالكم والمقدار ، ليست سوى شحنة من الطاقة ، أو عديد من الأمواج التى تسير عبر الفضاء فتقرع الآذان ، ولكنها لا تنتهى عند حد سماعها بهذا الشخص أو ذاك ، بل تظل منطلقة عبر الأثير الى مالا نهاية . فعندما يتصور المتصورون أن لا قيمة للكلام يخرج من فم الانسان ، هو قول ليس من العلم فى شىء فالكلمة أى كلمة هى قوة فاعلة فى هذا الوجود

---

(١) أنظر كتاب « فى البدء كان الكلمة » للاستاذ خالد محمد خالد .

(٢) كحرب البسوس فى الجاهلية ـ أو كلمة « واسلاماه » فى العصر الاسلامى

الذى يتأثر بها بشتى صنوف المؤثرات ، وخاصة عندما تكون مستندة الى ارادة حديدية ، أو عقيدة قوية .

وهكذا تنهار كل حجج المنكرين أن يكون للدعاء أى قيمة أو أثر فى الوجود .

الطاقة الانسانية خير تفسير لظاهرة الدعاء

وقد حان الوقت لنتساءل ماهو اذن تفسير الظاهرة فى رأينا وبأى قوة يتحقق الدعاء عندما يتحقق ؟

وأحسب أن القارىء قد أصبح يدرك تفسيرنا للموضوع على ضوء ما قلناه فى الفصل السابق فما دام الدعاء لونا من ألوان العقيدة فهو يتحقق بذات القوة التى تحقق أى عقيدة وهى الضرورة والوحدة والتركيز .

وقد أشار القرآن اشارة صريحة وواضحة الى عنصر الضرورة فى الدعاء المستجاب فى أكثر من آية « أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » (١)

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين »

« قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم انتم تشركون » (٢)

وفى الحديث الشريف « دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين» (٣)

---

(١) سورة النمل ــ ٦٢

(٢) سورة الانعام ــ ٦٣ ، ٦٤

(٣) رواه الترمذى ــ التاج الجامع للاصول .

وغنى عن البيان أن المظلوم يدعو من قلب مكلوم يفيض بالقهر والأعنات الذى حل به فيدعو بالروح كلها . وهكذا نجد الاشارة الصريحة الى أن عنصر الضرورة من شأنه أن يعطى للدعاء كل قوته .

ثم يأتى باقى الشروط ولقد رأيناها واضحة بكل جلاء فيما أسماه الغزالى آداب الدعاء ، وما اعتبره العالم المسيحى الآخر شرط اجابة الدعاء وهو التركيز الذى عبروا عنه بالتكرار واليقين والحزم فى الطلب والصبر والتربص . فاذا توفرت هذه الشروط الثلاثة ، انفجرت الطاقة الانسانية التى تقول بها وفعلت الذى تفعله فى كل أمر آمن به الانسان ، أو عقد عليه عزمه وجعله محور حياته .

وعلى الضد من ذلك اذا انعدم أحد هذه الشروط كأن لم يكن ما يدعو به الانسان ضروريا لحياته أو دعا بعديد من الأشياء والمطالب غير المحددة، أو لم يركز التركيز الكافى على موضوع الدعاء فمن الطبيعى جدا أن لا يستجاب الدعاء .

ويجب أن لا ننسى ما أشرنا له فى الفصلين السابقين من الاستثناءات ، حيث تتعارض الدعوة مع أحد النواميس الطبيعية ، أو مع ما حكم به القضاء والقدر ، أو مع ارادة انسان آخر أو عقيدته أو دعائه .

وهكذا ينحل لغز الدعاء الذى حار البشر فى تفسيره حتى الآن ومتى يجاب ومتى لايجاب وبأى قوة يجاب . وأن مرد الأمر كله للأنسان وما أودعه الله فيه (أو الطبيعة ان شئت) من قوة خلاقة قادرة على أن تبعث منه الطاقة اللازمة لتحقيق كل مايريده لنفسه ، أو يعتقد بوجوده ، أو يدعو لتحقيقه .

الســـحر

« ومن شر النفاثات فى العقـد . ومن شر حاسد اذا حسد »

الاعتقاد فى السحر عند المؤمنين فرع من ايمانهم بالله ، والدين والسحر وجهان لحقيقة واحدة لا يمكن الا أن يوجدا معا أو يزولا معا ، طبقا لما قلناه من قبل عن وحدة موضوع الايمان وعدم قابليته للتجزئة . ذلك أنه مذ وجد الانسان نفسه على ظهر هذا الكوكب الأرضى ، فقد استوقفه مافى الكون من ثنائية ظاهرة وازدواج وتضاد بين القوى المادية والمعنـوية . فالنور يقابله الظلام والحياة يقف لها الموت بالمرصـاد ، والحب يقابله البغض ، والمد يعقبه الجزر ، والحـركة تنتهى الى سكون وهـكذا . لم يستطع الانسان ازاء هذا التناقض الا أن يتصور سيادة قوتين متعارضتين فى هذا الكون ، فتخيل آلهة للخير وأخرى للشر ، وحتى بعد أن اتجـه الانسان صوب التوحيد فقد وجد الخير ممثلا فى اله النور ، والشر ممثلا فى اله الظلمة . وكان تصور الانسـان أن لا مناص من استمرار الشر الى جوار الخير أبدا ، ولكنه لم يلبث أن تصور أن الغلبة لايمكن أن تكون فى النهاية الا للخير ، فانتصرت ايزيس على ست اله الشر ، وأصبح من المقرر أن أهورا مزدا اله الخير والنور لن يلبث بعـد قدر من السنين أن ينتصر على أهريمن اله الشر ، كما تقضى بذلك تعاليم زرادشت الفارسية [١] .

وجاءت الأديان السماوية ، فوحدت الاله ، ونزهته عن فعل الشر ولذلك فقد أصبح الشر ينسب الى أحد مخلوقات الله التى عصته ، فمد لهـا فى

(١) الله ـ لعباس محمود العقاد .

الحبل وأبقاها لتكون امتحانا للبشر أيهم يكفر بالله ويتبع هذا العاصى ، وأيهم يكفر بالشيطان اللعين ويزداد ايمانا بالله . (١)

وهكذا ظلت القوى الفاعلة فى الكون حتى فى الأديان السماوية تقوم على ثنائية ولكنها مؤقتة ، أى حتى يوم القيامة . وحتى ذلك اليوم فالله وهو الخير المطلق يتبعه عباده المؤمنون من الملائكة والبشر ، حيث يقف الشيطان للآخرين بالمرصاد مستعينا بجنوده من الشياطين والجن والعفاريت غير المؤمنين . وحمل الكهنة لواء الدين والدعوة الى صراط الله المستقيم ، بينما وقف السحرة من بنى الانسان فى الجانب المقابل ، يعبدون الشيطان ويستعينون به فى قضاء أغراضهم الشريرة والمؤذية . هذه هى عقيدة أى مؤمن ، ومن هنا قلنا أنه حيث يوجد الدين فلا مناص من وجود السحر . بل ان الدين قد بدأ كله سحرا كاملا فى أول مراحله ، عندما كانت العقيدة تتلخص فى استرضاء قوى الشر ، ولذلك فقد كانت نشأة الساحر القادر على الاتصال بقوى الشر ، سابقة على نشأة الكاهن رسول الهة الخير . (٢) وليس أدل على ذلك من أن الأديان القديمة كلها كانت سحرا محضا ، أى رقى وتعاويذ لابعاد قوى الشر والسيطرة عليها . فهذا كتاب الموتى وهو الكتاب المقدس عند قدماء المصريين ، عبارة عن مجموعة من الطلاسم والتعاويذ ، وكذلك كتب الفيدا الهندية ، وسائر كتب الأديان القديمة

---

(١) «ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا أبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك الا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين • قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين• قال أنظرنى الى يوم يبعثون . قال انك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين • قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين • (الاعراف ١٢ ــ ١٨)

(٢) يعتبر السحر بصفة عامة هو فن الفنون الذى نشأت منه الأديان وباقى العلوم والمعارف انظر كلمة magic فى دائرة المعارف البريطانية • وقصة الحضارة ــ الجزء الأول المجلد الاول ص ١١٧

فهى لا تتضمن شيئا سوى الطلاسم والكلمات والحركات السحرية . ثم بدأت الأديان تتخلص بالتدريج من هذا الطابع السحرى فاستقل الدين بميدانه فى عالم النور ، وظل للسحر سلطانه فى دنيا الظلام ، دنيا العفاريت والشياطين والأرواح الشريرة . وما من مجتمع من المجتمعات القديمة أيا كان الشوط الذى قطعه فى الحضارة والمدنية ، الا وكان السحر ومزاولته احدى الحقائق المقررة . ففى مصر القديمة وفينيقيا وبابل وآشور والفرس والرومان والهند والصين ، كان للسحر صولته وجولته ، وقد حاول بعض الكتاب الأوربيون أن يبرىء الأغريق مما تصوره وصمة تلحق بهم ، فزعم أن الأغريق لم يؤمنوا بالسحر ، ولكن أى قارىء لأدب الأغريق أو فلسفتهم يعلم أن كل صفحة من هذه الصفحات تنطق بايمان الأغريق كغيرهم من الشعوب بالسحر ، وحسبنا أن نشير الى الألياذة أو الى كتب هزيود أو هيرودتس أبو التاريخ وأكسينوفون ، حيث نراها كلها غاصة بالتكهنات العجيبة والهواتف التى تخرج من باطن الأرض بل ان أفلاطون نفسه وأوريبدس قد أشارا الى الرقى والتعاويذ والأشربة التى تولد العشق والهيام ، ويحاول أفلاطون أن يفسر السحر تفسيرا طبيعيا ، فيقول عن العرافة عن طريق الكشف على الكبد ، أن الكبد هو بمثابة المرآة التى تنعكس عليها أفكار المرء وصورة النفس .

ولقد ذكرنا من قبل كيف أن سقراط قد بدأ حياته الفلسفية لما قالته الكاهنة فى دلفى من أنه أحكم الناس . وذكر زيللر وهو من أعمق وأدق من كتب فى الفلسفة اليونانية ، أن امبيدوقليس كان يعتقد فى نفسه القدرة على السحر فقد ذكر فى كتاباته أن لديه القوة على اثارة العواصف ، واستنزال المطر من السماء أو حبسه واستدعاء الميت من الحياة الثانية. (١)

(١) فنون السحر للأستاذ أحمد الشنتناوى ـ ص ١٧ وانظر أيضا قصة الحضارة الجزء الاول المجلد الثانى ص ٣٥٤

السحر فى الكتب السماوية

حتى اذا وصلنا الى الكتب السماوية وجدناها كلها تتحدث عن السحر بطريقة ايجابية ، كحقيقة واقعة مقررة ومتعارف عليها . فالتوراة تحدثنا عن سحرة مصر وتصديهم لموسى وكيف راحوا يفعلون مثل فعله « فصنع كذلك سحرة مصر بسحرهم فتصلب قلب فرعون ولم يسمع لهما كما قال الرب . » (١)

واتهم عيسى بالسحر كتفسير لاستطاعته اخراج الشياطين من أجساد البشر . (٢) واتهم العرب سيدنا محمد بأنه ساحر أو كاهن ممن يزاولون السحر . (٣) وقص القرآن فى قصص موسى كل ما روته التوراة من قبل عن سحرة مصر ونضالهم ضد موسى . ثم تحدث القرآن حديثا صريحا عن السحر وأحد المصادر لتعلمه ، وحذر الناس من الوقوع فى هذه الغواية ، « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله » (٤)

سحر رسول الله

بل ان السيرة النبوية لتحدثنا على طريق القطع واليقين ، أن سيدنا محمدا نفسه قد وقع تحت طائلة السحر فترة من الزمن ، اذ استطاع يهودى من بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم أن يسحر رسول الله فكان

(١) سفر الخروج آية ١٣ الكتاب المقدس
(٢) انجيل متى الأصحاح التاسع ـ ٣٥
(٣) ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون (سورة الزخرف ـ ٣٠) « ان هذا الا سحر يؤثر » سورة المدثر
(٤) سورة البقرة ـ ١٠٢

يخيل له أنه يفعل الشيء مع أنه لم يفعله ، الى أن اكتشف الرسول عمل السحر الذى عمل له فأمر به أن يدفن وعافاه الله من هذا العارض الذى ألم به . [1]

علماء المسلمين والسحر

وعلى الرغم من أن الاسلام كبقية الأديان السماوية يعتبر السحر رجسا من عمل الشيطان ويعاقب الساحر فى بعض الحالات بالاعدام ، [2] على أساس أنه كافر اذ يتوجه بطقوسه وتعاويذه للكواكب أو للشيطان ، فان روح العلم التى تملكت المسلمين ابان نهضتهم جعلت جماعة من علمائهم الأفذاذ من أمثال الكندى وثابت ابن قرة وفخر الدين الرازى وأبو معشر جعفر بن محمد البلخى يؤلفون كتبا فى السحر أو يفردون له فصولا فى كتبهم . وقد اتفق المحققون على أن تعلم السحر غير قبيح ولا

---

(١) عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت « سحر رسول الله يهودى من بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله (صلعم) يخيل اليه أنه يفعل الشيء ومايفعله حتى اذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا رسول الله (صلعم) ثم دعا ثم دعا ثم قال ياعائشة ان الله استفتانى فيما استفتيه فيه (أى أجاب دعائى) جاءنى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى . فقال الذى عند رأسى للذى عند رجلى ، أو الذى عند رجلى للذى عند رأسى ، ماوجع الرجل قال مطبوب (أى مسحور) قال من طبه قال لبيد بن الأعصم قال فى أى شيء قال فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر (أى وعاء طلع النخل) قال فأين هو قال فى بئر ذى أروان . قالت فأتاها رسول (صلعم) فى أناس من صحبه ثم قال ياعائشة والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها طلع الشياطين فقلت يارسول الله أفلا احرقته قال لا أما أنا فقد عافانى الله وكرهت أن أثير على الناس شرا فأمرت فدفنت . (رواه الشيخان ـ كتاب التاج الجامع للاصول)

(٢) روى الترمذى والحاكم وصححه عن جندب عن النبى (صلعم) « حد الساحر ضربه بالسيف » وقال الشافعى لايقتل الا اذا عمل فى سحره مايبلغ به الكفر والا فلا ـ وهذا كله مالم يقتل بسحره فيقتل بلا خلاف ـ التاج الجامع للأصول جزء ٣ ص ٣١

محظور ، يقول ابن خلدون فى مقدمته « لأن العلم شريف فى ذاته لعموم قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ولأن السحر اذا لم يكن يعلم لما أمكن التفريق بينه وبين المعجز ، على أن اجتنابه أقرب الى السلامة .

ومضى بن خلدون يقول « وكانت هـذه العلوم فى أهـل بابل من السريانيين والكلدانيين وفى أهل مصر من القبط وغيرهم . ثم ظهـر فى المشرق جابر بن حيان كبير السحرة فى هـذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها ووضع فيهـا التآليف . ثم جاء بن أحمـد المجريطى امام أهل الأندلس فى التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها فى كتابه الذى سماه غاية الحكيم ولم يكتب أحد فى هذا العلم غيره [1]

واذا كان بن خلدون لم يكتب كتابا خاصـا عن السحر ولا تعرض لطقوسه أو طلاسمه ، فانى أشهد أنه كتب عنه فى مقدمته شرحا وتعليـلا له ، مما يكاد ينطبق كل المطابقة على نظرية الطاقة الانسانية التى تقول بها واليك بعض هذا الذى قال :

« والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتى شرحها ، فأولهـا الموثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذى تسميه الفلاسفة السحر . والثانى بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول . والثالث يعمـل بتأثير القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة صورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلهـا الى الحس بين الرائين

(١) يوجد كتاب غاية الحكيم فى دار الكتب مخطوطا بحـالة جيدة تحت نمرة ٢٣٦ فن حروف وأسماء

بقوة نفسه المؤثرة فيه ؛ فينظر الراءون كأنها فى الخارج وليس هناك شيء من ذلك ، كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك ، ويسمى هذا عند الفلاسفة بالشعوذة أو الشعبذة . هذا تفصيل مراتبه وهذه الخاصة تكون فى الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها ، وانما تخرج الى الفعل بالرياضة» ثم يمضى ابن خلدون مفصلا هذه المراتب الثلاث مسجلا مشاهداته الشخصية .[1]

السحر فى اوروبا فى العصور الوسطى

قلنا فى بداية حديثنا أن الايمان بالسحر هو الوجه الثانى للايمان بالله ، ولذلك فلا عجب أن غرقت أوروبا فى العصور الوسطى فى الايمان بالسحر ، فقد كانت غارقة حتى الأذقان فى تدينها المسيحى القائم على العجائب والمعجزات وتجارب الشيطان ، وعلى ذلك فقد راج السحر فى هذه الفترة مالم يرج مثله فى أى يوم من الأيام ، على الرغم مما كان ينتظر السحرة من عقاب أليم . وكان اعتقاد القوم السائد فى هذه الأيام أن سحرة أوروبا جميعا يعقدون المؤتمرات الجامعة من حين لآخر فوق قمم الجبال العالية أو فى الغابات والأحراش الموحشة ، وكانوا يستحضرون فى هذه المؤتمرات الجن والشياطين لتشاركهم فى أعمالهم ، وتجد فى كتب السحر التى يعود تاريخ تأليفها الى العصور الوسطى رسوما تمثل السحرة وهم يستعدون لهذه الاجتماعات فاذا حان أو آن الذهاب اليها ، امتطى بعضهم عصى المكانس ، والبعض الآخر اتخذ صورة حيوانية أو شيطانية ، وكان الاجتماع يتم عادة فى جنح الظلام ، وكان الشيطان يتولى أحيانا رئاسة

(١) يحدثنا ابن خلدون ايضا فى مقدمته عن مشاهداته الشخصية فيقول « وشاهدنا ايضا من المنتحلين للسحر وعمله من يشير الى كساء أو جلد ويتكلم عليه فى سره فاذا هو مقطوع متخرق أو يشير الى بطن الغنم فى مراعيها بالبعج فاذا أمعاؤها ساقطة من بطونها الى الأرض » .

هذه الاجتماعات متخذا صورة غراب أو قطة أو قرد وهـــو يجلس على عرشه يتقبل فروض الولاء والطاعة من عبيده المخلصين . وتقول هـذه الكتب أيضا أن الشيطان كثيرا ما يولم الولائم فى مثل هـذه الاجتماعات فيجلس كل ساحر الى المائدة والى جانبه شيطان من الشياطين . ولم تكن اللحوم التى تقدم سوى الجيف ، وأجساد الذين شنقوا ، وقلوب الأطفال الذين لم يعمدوا ، وغير ذلك من لحوم الحيوانات القذرة التى لم يتعود الانسان على أكلها [1] . وأحسب أن ليس هناك ما يصور لنا الجو القاتم الذى كانت تعيش فيه أوروبا فى العصور الوسطى من هذه الأحاديث عن السحرة بهذه الصورة المرعبة التى كانت تجعلهم اذا أمسـكوا بساحر أو ساحرة عذبوها عذابا لا يتصوره العقل من حيث البشاعة .

وتطالعنا هذه الصور لحياة السحرة فى الأدب المنحدر من هـذه العصور ، فكثير من روايات شكسبير تصور لنا هـذه المجامع الشيطانية ولعل صورة السحرة فى مكبث خير تصوير لعقيدة القوم فى السحرة فى تلك الأيام . ولن نجد عالما فى أى فرع من فروع العلم فى العصور الوسطى وبعد ذلك فى عصر النهضة لا يؤمن بالسحر كعلاج لبعض الأمراض ، أو لتحقيق مختلف الغايات وفى كتاب شرنجتون « الانسان على طبيعتـه » فصل كامل عن معتقدات علماء القرن السادس عشر فى السحر لا يستثنى من ذلك فرنل الذى يريد شرنجتون أن يعتبره بمثـابة مؤسس الطب العصرى بمعناه الحديث ، فقد نقل عنه قوله « لقـد رأيت بعينى رأسى أوراقا عليها بعض الكتابة تربط حول عنق المريض فيشفى الجسد كله فى ليلة واحدة ، ولقد رأيت حمى تختفى بعد النطق بكلمات ترتل » [2] .

(١) فنون السحر للأستاذ احمد الشنتناوى ـ ص ٨٥

(٢) الانسان على طبيعته ص ٤٥ Man on his nature

ولما كان السحر كما قدمنا يستند فى تأثيره الى قوة الشيطان ، فقد حورب السحرة بما لم يحاربوا به فى أى يوم من الأيام من حيث القسوة ، ونحن نعرف الآن أن كثيرات ممن عذبن على أنهن ساحرات لم يكن فى الواقع الا مرضى ببعض الأمراض الهستيرية العصبية التى كشف عنها العلم الحديث [1] . وكان المتهم بالسحر يعذب أثناء التحقيق بواسطة كلابات مزودة بأشواك حديدية تطبق على جسد الساحر أو عنقه لتمزقه تمزيقا كما كانت أقدامه توضع فى النار المحرقة ، وكان تمزيق الجسد بالسياط من أخف أنواع التعذيب ، حتى اذا حان وقت التخلص من الساحرة شدت على سلم خشبى شدا محكما ثم قذف بها الى النار . ولعله يبين من هذا العرض أن السحر كان أحد الحقائق الثابتة والمقررة التى لا تحتمل أى شك أو جدل ، وكيف كان القوم يعتبرون السحرة قادرين على ايذاء المجتمع أشد الأذى لأن قوتهم الشيطانية لا يحدها حد .

السحر فى العصور الحديثة

ولما كان العصر الحديث هو عصر تداعى الايمان بالأنبياء والرسل والأديان كلها ، فقد كان من الطبيعى جدا أن يفقد السحر سلطانه . ولما كانت المسألة كلها كما نقول تدور حول العقيدة وما يعتقده الانسان ، فقد حل الايمان بالعلم الحديث محل السحر ، وحل الأطباء محل السحرة ، وأصبح العلماء وحدهم هم القادرون على الاتيان بالمعجزات داخل معاملهم، العلماء اليوم هم القادرون على احياء الموتى واشفاء المرضى واسماع الصم، وابصار العمى ، وتخريب العالم ، أو غمره بالأوبئة والجراثيم . وأصبح حتما علينا أن نصدق أى خبر يقال لنا باسم العلم والا كنا متأخرين

---

(١) من نافذة العقل .

رجعيين ، وأصبح الايمان بالعلم هو الدين الذى يفرض على المؤمنين به التسليم والتصديق . ولكن العلم المادى البحت الذى ينكر وجود قوى خفية تغاير القوى المادية المألوفة ، لم يستطع بكل غزواته وانتصاراته ودعاياته أن يشفى النفوس من ايمانها بهذه القوى المجهولة القادرة على فعل ما لا يتصور رجل العلم امكان حدوثه طبقا لقوانين المادة المعروفة ، فلا يزال السحر والاعتقاد فيه ومشتقاته كالاصابة بالعين يحتل نفوس السواد الأعظم من البشر ولا نعنى بالبشر سكان آسيا وافريقيا الذين قد يوصفون بالتخلف ، وانما نعنى بالبشر من يعيشون فى مجتمعات أوروبا وامريكا ، يشهد بذلك أنواع التعاويذ التى يحملها الكثيرون من أبناء هذه الشعوب على صورة صليب يعلقونه لمنع العين ، أو حدوة حصان تثبت على باب البيت ، أو فردة حذاء تعلق فى السيارة أو رجل أرنب يحملها الطيار معه فى طائرته استجلابا للحظ وهكذا . ولا تزال عملية صنع صورة من الورق أو الشمع لتخرق بالدبوس أو الابرة ثم يقذف بها بعد ذلك فى النار رمزا لحرق العدو أو الحاسد لدفع كيده وأذاه ، تمارس فى أرقى المجتمعات .

وغنى عن البيان أن ذلك يفسر على أنه من رواسب الماضى ، وقد أصبح يمارس خفية وعلى استحياء وسط العوام والجهال . وذلك حق من غير شك لأن هذه الأعمال السحرية لا تلبس لبوس العلم الذى لا يوجد اليوم انسان لا يؤمن به . ولذلك فقد لبس السحر لباس العلم وطلع علينا من جديد كما سنرى بعد قليل باسم تحضير الأرواح ، فليس تحضير الأرواح الذى هو شغل بعض العلماء لا السوقة ، الا السحر فى صورة جديدة ، فبدلا من التحدث عن الجن والشياطين لا بأس من التحدث عن الأرواح الخيرة والشريرة وما تستطيع أن تقوم به هذه الأرواح مما يخالف كل مألوف ومعهود . وهكذا تطل علينا الظاهرة من جديد كأقوى ما أطلت

فى يوم من الأيام ظاهرة الاعتقاد بأن هناك قوى خفية يستطيع الانسان عن طريقها أن يقوم بالعجائب والمعجزات ، فيرى ويسمع عن بعد ويؤثر على الآخرين بما يريد من شتى صنوف المؤثرات الخيرة أو الشريرة . وهـذا الالحاح على هذه الفكرة ، والتمسك بها فى كل زمان ومكان يحتم علينا أن نكف عن استسخافنا لكل هذه التصورات واعتبارها مجرد أوهام ، وأن نحاول الكشف عن هذه القوة التى يحس بها الناس على صور مختلفة .

جوهر أعمال السحر

والحق أن ليس هناك ما يستعصى على التفسير فى جوهر النشـاط الرئيسى لعملية السحر ، فقد كان هذا النشاط يتلخص فى الدرجة الأولى فى أعمال ثلاثة :

١ — ممارسة العلاج لتحقيق الشفاء

٢ — ايقاع الأذى بالخصوم والأعداء

٣ — محاولة الجمع بين بعض الأشخاص عن طريق الحب ، والتفريق بينهم عن طريق البغض .

وليس فى هذه الأعمال كلها ، مالا يمارسه الكثيرون الآن باسم العلم دون أن يكون نجاحهم فيها أكثر من نجاح الساحر أو فشلهم فيها أقل من فشل الساحر . ولنبدأ بموضوع العلاج .

علاج السحر للأمراض

عندما كان الاعتقاد السائد أن المرض هو نتيجة حلول أرواح شريرة فى جسد الانسان فقد كان طبيعيا أن يكون الساحر هو القادر على علاج المرض باعتباره الرجل الذى يتسلط على عالم الخفاء ، وكان العـلاج السحرى يمارس من خلال شتى صنوف الطقوس ، من الرقص واطلاق البخور

ودق الطبول ، والنطق بالرقى والتعاويذ . والمحقق أن السواد الأعظم أو على الأقل الأغلبية كانت تشفى وتصح والا لما لجأت الى الساحر واعتقدت فى قدرته . وقد أصبح العلم الحديث يرى أن تفسير ذلك سهل وميسور فقد كان الساحر يقوم بعملية ايحائية ، وكان الايحاء يأتى بالثمرة المرجوة فقد كان الاعتقاد بالسحر قويا . لم يكن الاعتقاد قاصرا على الساحر فى قوة سحره بل كان قويا كذلك فى نفس ملتمس السحر . وهكذا كانت تتجمع القوتان لاحداث الأثر فلا يمكن الا أن يحدث . وفى ذلك يقول الدكتور يوسف مراد فى كتابه شفاء النفس « وعامل الشفاء فى معظم الحالات التى كان يعتقد أنها ناشئة عن تأثير الجن والشياطين هو بلا شك يعرف اليوم بالايحاء وكان نجاح العلاج يتوقف غالبا على قابلية المريض للايحاء . ومما هو جدير بالملاحظة أن كثيرا من حالات الشفاء العجيبة التى يرويها القدامى كانت خاصة بأعراض هستيرية . ومن المعلوم أن مثل هذه الأعراض لا تصيب الا الأشخاص الذين يتأثرون بسرعة بكل ما يوحى اليهم كما أنهم يتأثرون بكل ما يوحون به الى أنفسهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فلا عجب أن يزيد الايحاء ما سبق أن أحدثه ايحاء سابق . والواقع أن عامل الايحاء موجود دائما فى كل محاولة علاج سواء كانت جسمانية أو نفسية فقد اعتبر بعضهم الايحاء الطريقة المثلى لمعالجة الأمراض النفسية . وطرق الايحاء متعددة نذكر منها التنويم المغناطيسى وما يسمى بتحضير الأرواح وحفلات الزار وما اليها من الاجراءات التى تحرك المخيلة وتثير الدهشة . [1]

---

(١) مجلة علم النفس ـ المجلد السادس عدد ١ ـ « السحر فى ضوء علم النفس ․

ايقاع الاذى الذى يصل الى حد القتل

واذا كان القيام بعملية العلاج هى عمل الساحر الرئيسى ، فقد كان من الأعمال التى تلى ذلك فى الأهمية قدرة الساحر على ايصال الأذى حيث يطلب منه أن يوصله ، ويصل الأذى الى ذروته عندما يطلب من الساحر أن يقتل . وقد كان لعملية القتل عن طريق السحر أسلوب عام اتبع فى كل زمان ومكان ، وذلك عن طريق عمل نموذج للشخص المراد قتله كتمثال من الشمع أو الطين ، ثم وخزه بالأبر والدبابيس وحرقه بعد ذلك بالنار . وهذا الأسلوب هو ما يسميه فريزر ، كبير الدارسين لظاهرة السحر فى الأمم والشعوب ، السحر عن طريق التقليد . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الأسلوب هو الذى يصادفنا أينما واجهنا السحر والساحرون ، ففى بابل القديمة كانت الدمى والتماثيل تصنع من الشمع أو الدهن أو الطين ثم تذبح أو تدفن أو تكبل بالسلاسل والأغلال ، ليقع مثل ذلك على الشخص المقصود . ونرى مثل هذا الأسلوب متبعا فى مصر القديمة ، الى حد اتخاذه وسيلة للتآمر على رمسيس الثالث ، الأمر الذى جعل التاريخ يحفظ لنا تفصيلا كاملا عن هذا الموضوع ، فقد هرب بعض أفراد من الحاشية تماثيل سحرية الى القصر ، بقصد قتل رمسيس الثالث ، وضبطت الجريمة وجرت المحاكمة للذين حاولوا قتل رمسيس بواسطة السحر [١] . وقد يكون من الطريف جدا أن تعلم أن مثل ذلك قد حدث فى فرنسا فى القرن السادس عشر ، اذ تقدمت كاترين دى مديتشى ملكة فرنسا فى ذلك الوقت بشكوى للنائب العام تتهم بعض الأشخاص بأنهم حاولوا قتل شارل التاسع عن طريق السحر ، حيث عثر على تمثال مصغر للملك وهو مطعون بدبوس.

وكذلك شكت الملكة الياصابات ملكة انجلترا ، التى يوصف عصرها

(١) تاريخ مصر القديمة ـ بريستد ص ٣٣٦

بالعصر الذهبى ، مثل هذه الشكوى وفزعت أشد الفزع ، عندما علمت بنبأ العثور على صورة شمعية تمثلها فى حجرة نومها بأحد القصور الخاصة بها [1] وقد بلغ الأمر فى العصور الوسطى ، من فرط فزع الناس من الموت عن هذا السبيل ، أن العثور على عروسة فى حوزة أى امرأة ، كان قد يكفى لاحراقها باعتبارها ساحرة .

ونحن نعلم أن عادة عمل عروسة من الورق وخرقها بالدبابيس ثم احراقها بعد ذلك ، لا تزال شائعة فى ريف مصر ، باعتبارها الوسيلة الوحيدة لدفع أذى العين ، وما يمكن أن يجره الحسد على الانسان [2] .

الجمع بين المتحابين ، والتفريق بينهم

أما المظهر الثالث للنشاط السحرى فى كل عصر وزمان ومكان ، فهو السعى لحمل انسان أو انسانة لحب طرف آخر يسعى وراء هذا الحب ؛ ولذلك يصادفنا فى كل المجتمعات قديمها وحاضرها « رحيق الحب ». و « شراب الحب » و « أحجبة الحب » ويقول من درسوا هذه الظواهر بتفصيل من علماء الغرب ، أن رحيق الحب وشرابه يعتمد فى الدرجة

---

(١) فن السحر ـ احمد الشنتناوى ـ

(٢) سجل الأستاذ نجيب يوسف بدوى فى مقال قيم عن السحر فى ضوء الأنثروبولوجيا الحديثة وعلم النفس نص الرقية التى تقال عند حرق العروسه فى النار للخلاص من العين نرى أن نثبتها لطرافتها ودلالتها معا ٠

امباس امباس ، لحطك ياعين فى قمقم نحاس ٠ رقيتك واسترقيتك من عيون الناس ٠ قابلها سيدنا سليمان فى وسع الجبال قال لها رايحة فين ياعين؟ قالت رايحة لى حبا ودبا ، لى عرف الأم من الأب ، أديه بريشة بين كتافيه ، أخلى أمه وأبوه يبكوا عليه ، قال لها خزيتى لحطك ياعين فى قمقم نحاس ، واسبك عليكى بالزئبق والرصاص » وفى الصعيد تقال تعويذة أخرى «ياعين ياعتية ، ياخاينة ياردية ، لاتخونى فى المال ولا فى الدرية ٠ أن كانت عين راجل تطلع الحاجر وان كانت عين مره ، تروح المقبره » (مجلة علم النفس المجلد السادس عدد ١)

الأولى على العطور الجذابة ، وبعض الأعشاب ذات الخاصية المعينة . ويقابل رحيق الحب وشرابه ، طلاسم الساحر وأعماله للتفرقة بين المتحابين وخاصة الأزواج ، وهو ما أشار له القرآن الكريم فى قوله « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » وكثيرا ما تأخذ العملية صورة ما يطلق عليه فى الاصطلاح الشائع عملية الربط ، حيث يصبح الرجل عاجزا عن مباشرة زوجته . ولا سبيل لشفاء رجل يعتقد أنه ربط ، الا بفك العمل الذى عمل له بواسطة الشيخ الذى عمله أو بواسطة انسان آخر يعتقد المريض أنه أقوى ممن قام بعملية الربط . (١)

الايحاء كتفسير للنشاط السحرى

لم يكن باستطاعة العلم الحديث أن يمضى متجاهلا ظاهرة لها كل هذا الثبات فى حياة البشر ، ولم تستطع حضارة العلم المادى الحديث أن تقتلعها من النفوس اذ لا تلبث أن تتسرب الى المعتقدات بطريقة أو بأخرى . ولذلك فقد بدأت دراسة السحر والساحرين بطريقة موضوعية وفقا لمناهج الدراسات العلمية ، فذهب العلماء الى المجتمعات البدائية التى لا يزال السحر فيها هو أهم الأسس التى يقوم عليها الاجتماع ، فالساحر هو الزعيم وهو القائد وهو أهم انسان فى المجتمع ، لأنه المسئول عن انزال

---

(١) حدثنى الدكتور صالح مهدى طبيب المسالك البولية الحاذق بمستشفى المواساة ، أنه صادف كثيرا من المرضى الأصحاء الذين جاءوه يشكون من أنهم ربطوا ، وعبثا كان يحاول افهام هؤلاء المرضى بفساد هذه العقيدة .

وكان بعض هؤلاء المرضى يعودون له ليخبروه أنهم قد شفوا مما ألم بهم ، بعد أن نجحوا فى الاهتداء الى العمل الذى كان معمولا لهم .

ويفسر الدكتور صالح مهدى هذه الظاهرة أنها تحدث نتيجة الايحاء ، فقد دلت دراساته على أن الشيخ أو الدجال الذى يقوم بهذا العمل ، يسعى جاهدا لايصال خبر عملية الربط الى الشخص المقصود بالايذاء وذلك لاحداث الأثر النفسى المطلوب .

المطر ، وهو المسئول عن رد كيد الأعداء المنظورين وغير المنظورين . ذهب العلماء الى هذه البيئات والمجتمعات يدرسون ويسجلون مشاهداتهم ، ويقارنون بين ما يجرى وما كان يجرى فى القديم ، ولم يلبثوا أن خرجوا من ذلك بمجموعة هائلة من المعارف التى غيرت الكثير من تصورات علماء أوروبا وأمريكا فى أصل الانسان وقوته ، ومدى ما يستطيع أن يحققه ، ولمعت فى دنيا العلم أسماء علماء كتيلور وفريزز ومالينوفسكى وغيرهم [١] ممن أصبحوا رؤوسا لمدارس تنحوا مناحى مختلفة فى تفسير ظاهرة السحر وضرورتها للمجتمعات . ولا يتسع المجال لبسط هذه النظريات وانما نكتفى بالاشارة اليها لفتا لنظر من يريد الاستزادة من أمثال هذه المباحث . وتنتهى هذه المدارس كلها الى اثبات قيمة ايحائية للسحر وأنه قد أدى رسالته من هذه الناحية . يقول مالينوفسكى مثلا « فالسحر يوجد فى احدى حالتين ، حالة الجهل بالنتائج وحالة الجهل بالأسباب ؛ فحيثما كانت نتائج العمل غير مضمونة ، وعواقبه غير مأمونة ، كما فى الحرب والصيد ، وأينما وجدت عناصر المصادفة والحظ ، وجد السحر ، وتكون مهمته الرئيسية هى استجلاب الحظ ، وبعث الثقة فى النفس واشاعة التفاؤل فيها وهذه هى وظيفته السيكولوجية . ذلك أن أعمال الانسان ينبغى أن يؤيدها الشعور بالثقة من النجاح ، وكلما قويت هذه الثقة ، كان احتمال النجاح كبيرا ، وكلما تطرق الشك الى النفس وتزعزعت الثقة ، وتسربت تلك التيارات المضادة الهدامة من التردد والاحجام والشك الى نفس صاحبها ، فترت عزيمته ، ووهنت قوته ، وأصبح أدنى الى الفشل منه الى النجاح [٢] .

---

(١) مجلة علم النفس ـ المرجع السابق

(٢) مجلة علم النفس ـ المرجع السابق .

وهكذا سلم العلم أخيرا ، أن القول بأن السحر مجرد سخافة عقل ضعيف لا يزال يحبو فى دنيا العقل والمعرفة ، هو قول ساذج فطير ، واحتقار للانسان الذى امتاز عن الحيوان وسائر الكائنات بالعقل ، هذا الذى يرد الانسان عن بذل أى نشاط لا يعود عليه بفائدة محققة .

ونحن نتفق مع العلماء الذين درسوا السحر فى أن للسحر أثرا ايحائيا ، ونختلف معهم فى أننا لا نقف عند حد الايحاء . لا جدال أن فكرة التأثير عن طريق الايحاء المباشر تستطيع أن تفسر كل العمليات الناجحة التى يقوم بها الساحر تحت سمع وبصر من يجرى السحر لصلاحه أو ضده متى كان هذا الشخص يعتقد بالسحر . ولكن الايحاء المباشر لا يصلح لتفسير باقى الظواهر الأخرى التى يحدث الساحر فيها أثرا فى الطبيعة نفسها ، أو فى انسان بعيد عنه ولا يعرف من أمره شيئا [١] .

وهذا هو ما يجب على العلماء الذين شاهدوا معجزات السحر ، وكيف

---

(١) فى حياتى أنا شخصيا حادث صغير جدا حدث لى وأنا صبى صغير . حقا انه لايمت الى السحر بصلة ، ومع ذلك فقد عشت طول حياتى وصورة هذا الحادث لاتبرح ذاكرتى بحيث لايمكنى الا أن أذكرها الآن كمفتاح يمكن أن يفسر لنا عمليات الاصابة بالعين والحسد وبالتالى السحر . فقد كانت تسكن معنا احدى العائلات وحدث نزاع بيننا وبينهم ، فغادروا المنزل الذى كنا نسكن فيه كارهين . وفى أحد الأيام كنت أسير فى حارة فى حى البغالة فاذا بى أقع على الأرض فجأة لغير سبب ، وبينما كنت أنهض من سقطتى اذ لمحت فى احدى النوافذ المطلة السيدة التى كانت تسكن معنا وهى تنظر الى بحقد دفين حتى لكأنها توشك أن تسحقنى بعينيها . فأدركت على الفور أننى سقطت صريع هذه النظرة . وقد مضى على هذا الحادث الآن أربعون سنة ومع ذلك فلا زالت صورة هذه السيدة لاتبرح خيالى وكأننى أراها فى هذه الساعة . لو أننى نظرتها قبل وقوعى لما كان فى الأمر أى صعوبة فى تفسيره ، فالعقل الباطن أو اللا شعور هو الذى أوقعنى ، أما أن أكون سائرا فى طريقى وليس هناك أى مبرر لوقوعى ومع ذلك أقع ، فهذا هو ما لاتستطيع نظرية الايحاء أن تفسره .

يستطيع الساحر أن يؤثر عن بعد ، أن يقولوا لنا ماهو تفسيرها . ان من العجيب وقد يكون آية على ما يمكن أن يصل اليه العلماء أنفسهم من التعصب ، أن الكثيرين منهم اذا رأوا أمثال هذه الظواهر تجاهلوها ورفضوا أن يثبتوها فى تقاريرهم فضلا عن أن يناقشوها أو يحاولوا تعليلها حتى لا يجردهم زملاؤهم من سمة العلم . [1]

الايحاء طاقة

وعندنا أن القول بالايحاء الذى يتصور العلماء أنهم يستطيعون الوقوف عنده وهم آمنون أنهم لن يتهموا فى علمهم ، هو فى حد ذاته تسليم بكل قوى السحر ، والا فما هو المقصود بمعنى الايحاء ؟ أليس الايحاء على ما يقولون هو حالة نفسية ، فعلى أى أساس تتحول هذه القوة النفسية المعنوية الى قوة مادية ، تنقل الانسان من حال الى حال ؟ ان مجرد التسليم بأن الايحاء يمكن أن يؤدى الى شفاء مرض ، هو تسليم بأن الايحاء قوة ، وكل قوة هى طاقة ، والطاقة تعمل فى كل مكان داخل الجسم وخارجه . وانكار ذلك هو انكار للعلوم الطبيعية من أساسها .

الطاقة الانسانية تفسر السحر

ان السحر ظاهرة حقة ، ونظريتنا فى الطاقة الانسانية تفسرها أدق

---

(١) يقول الدكتور ج٠ب راين فى كتابه العقل وسطوته « وتروى أشياء غريبة عن الناس الذين يعيشون على البداوة • فحيثما يتحدث الانسان الى أحد علماء الأجناس الذى عاد بعد دراسة الهندى الأمريكى أو سكان الشرق الأقصى أو جزر البحار الجنوبية أو افريقيا فيسمع عن رؤية ظواهر غامضة تتحدى التفسير الطبيعى للأشياء ، ولقد قلت يتحدث ، لأن أثر هذه الظواهر التى لايمكن تصديقها ـ تحذف من التقارير المنشورة مراعاة للكياسة ولا تذكر الا مشافهة • وهذه الحوادث التى لايمكن تفسيرها تحدث غالبا فى الاحتفالات الدينية ، وهى تتطور من تحريك الاشياء الى قذف الحجارة بايد لاترى الى حالات انزال المطر بطريقة سحرية قد ذكرت فى بعض التقارير • (العقل ـ ص١٠٠)

تفسير ، وحسبنا أن نستعرض الشرائط التى يقال بوجوب توفرها لامكان نجاح السحر لكى نرى أنفسنا من جديد أمام ظاهرة العقيدة وما يمكن أن تولده فى النفس من طاقة فاعلة .

يقول لنا أبو مسلم المجريطى فى كتابه « غاية الحكيم » الذى لخص فيه كل علوم السحر وتجاربه لدى الأمم السابقة عليه ما يلى : « يجب على المشتغل بهذا العلم أن يكون موقنا بصحة ما يعمل لا يداخله شك فى عمله أو ارتياب ، لتقوى بذلك فعل النفس الناطقة ، وتتصل الارادة بعالمها من نفس الكون المطلوب . » ويقول فى موضع آخر « ومن شروط هذا العمل أن يستتر المشتغل به عن البشر وعن رؤيتهم وعن شروق الشمس وضوئها ، وأن لا يطلع عليه الا صحيح العزم مأمون الصحبة لا متهاونا ولا مزدريا بجميع ما يصدر عن روحانية الفلك من الأعمال المنسقة الباهرة القاهرة لهذا العالم »

ومعنى ذلك أن العقيدة القوية الثابتة شرط لازم لنجاح السحر ، وهو ما يقول به العلامة فريزر وتيلور وغيرهما بعد دراستهم لأحوال السحرة وقد أشارت الى ذلك دائرة المعارف البريطانية بقولها « يجب أن يمتنع الساحر عن أكل أطعمة معينة ، وأن يمتنع عن ممارسة الاتصال الجنسى . وكثيرا ما يعزى فشل الساحر الى ارتكابه بعض هذه الممنوعات .

وتعتمد النتائج المرجوة من الساحر على حالته العاطفية ، ففى طقوس السحر الأسود مثلا الذى يتألف من اشارة بقطعة من العظم الى صورة الضحية يقوم الساحر بادارة قطعة العظم فى الهواء ، ويصير الى حالة من التهيج والغضب كما لو كان يطعن العدو بالفعل . ويؤكد الدكتور مالينوفسكى الأهمية الكبرى لهذا التمثيل لتحقيق العمل المطلوب فى نظرية

السحر ، فهو يرى فى اهتياج الساحر العاطفى واعتقاده بأن هذه الأعمال مؤدية الى النتيجة المرجوة حتما ، الأساس الذى يقوم عليه السحر [1] . »

ولقد رأينا فى الفصل السابق كيف أن الاعتقاد يحول الصور الذهنية الى صور ايجابية حركية ، فلا يبقى الا التركيز عليها لكى تتكامل كل قوتها وفاعليتها للتأثير فى الخارج .

التركيز كشرط أساسى فى عملية السحر

وطقوس السحر كلها لا تعنى شيئا أكثر من التركيز ، وليس هناك ما يفسر لنا السخف الذى نصف به عمليات السحر الا أنها وسيلة لخلق نوع من التركيز . فهذا الجو الغامض الذى يزاول فيه الساحر عمله ويحيط به نفسه والألفاظ العجيبة التى ينطق بها ، والحركات واطلاق البخور ، والامتناع عن الطعام أحيانا وملازمة الأماكن الخلوية ، كل هذه هى محاولة التركيز على الهدف المطلوب . وحسب الانسان أن يستوعب تفاصيل المواد التى يصنع منها أى طلسم أو تعويذة ليرى أنها محاولة للتركيز بكل معنى الكلمة . فالمواد التى يصنع منها الطلسم يجب أن تكون نادرة ، وأن يتكبد الانسان الكثير من العناء للحصول عليها ، ليكون الجهد المبذول فى التنقيب للحصول عليها هو آية التركيز والايحاء بنجاح العمل المطلوب . وهو ما يفعله الأطباء بالذات فى مجتمعنا العصرى حيث تراهم لا يصفون الا أغلى الأدوية وأكثرها ندرة . وترى المتصلين بالمريض يحدثونك عن المصاعب التى عانوها حتى حصلوا على هذا الدواء أو ذاك على سبيل التفاخر . يفعل الأطباء ذلك شعورا منهم بأنه على قدر ما يتكبد المريض فى سبيل الحصول على الدواء بقدر ما يكون تحقق الشفاء مؤكدا.

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ـ مادة Magic

وهذا هو أسلوب الساحر الخالد وهو يطلب من صاحب الشأن مطالبه المعجزة . [1] لتكون هى السبيل لخلق جو من الايحاء والتركيز . فاذا كان المطلوب تحضير رحيق حب ، فيجب أن تكون المواد كلها توحى الرجاء والجمال والانتعاش ، أما اذا كان المطلوب اشاعة البغضاء والكراهية

(١) ليس هناك مايقرب للذهن هذا الذى نقول به من أن عمل الطلسم هو عملية تركيز من أن أنقل اليك كيفية عمل طلسم على سبيل المثال مما جاء فى كتاب غاية الحكيم للمجريطى ٠

« واليك عمل طلسم يستعمل للتفرقة واشاعة العداوة يسمى نعنيوس ٠ وطريقة عمله أن تأخذ شمعا لم يستعمل فى شيء فتصنع منه تمثالين مجوفين بأسماء من تريد تفريقهم ، وتقول هذا تمثال فلان وهذا تمثال فلان ٠ ثم تأخذ تمثال الرجل فتضعه على كفك ، وتأخذ وزن دانق من مرارة سنور أسود ووزن دانقين من مرارة خنزير ، ووزن دانق من شحم كلب أسود ، ووزن دانقين من دم سنور أسود وتضع ذلك كله فى سفط ثم تضعه على نار لينة حتى يذوب ويختلط ، فتصبه فى جوف التمثال حتى يصل الى جوفه ٠ ثم خذ نصف مثقال من شحم كلب أسود ووزن نصف مثقال من مرارة كلب أسود وتدقهم جميعا حتى يختلطاثم تصب المزيج فى ترقوة التمثال ٠ ثم خذ مسمارا دقيقا من الحديد وأنفذه فى صورة التمثال وأنت تقول «ياهوديس عميالوس حلوانيس سهواراس » ثم اعزل هذا التمثال على حدة ريثما تفرغ من عمل الآخر ٠ ويروح المجريطى يصف بدقة ما يفعل بالتمثال الآخر ، حتى اذا تم اعداد التمثال الثانى ، « فضع التمثالين على كفك وخذ مسمارا فضع طرفه فى صدر التمثال الذى هو الرجل وطرفه الآخر فى صدر التمثال الذى هو المرأة ، وأدر رأس كل واحد منهما الى جانب ٠ ثم خذ من الكور والجوشير من كل واحد دانقين ومن مرارة سنور اسود وشحم كلب اسود ، من كل واحد نصف مثقال واجمع بينهما بالخلط والذوبان ثم دخن بها وقل حين تدخن » ميموراس خندانوس سهوالوس ، قطعت وفرقت روحانية فلانة وفلان وهجت بينهما روحانية العداوة والبغضاء وباعدت بينهما كما أباعد بين هذين التمثالين الواحد عن الآخر ، واعراض كل واحد منهما عن الآخر بقوة هذه الروح الروحانية ٠ حتى اذا فرغت من عمل ذلك فارفعه وادفنه تحت شجرة غير مثمرة (؟؟) فانهما يتباغضان ويفترقان ويتقاطعان وتهيج بينهما العداوة والبغضاء ٠ (انتهى) وقد بقى أن نضيف على كل ما تقدم أنه لابد من ترقب أوقات معينة تتصل بمواضع النجوم فى أيام معينة ٠

فالمطلوب « شحم كلب أسود ، ومرارة خنزير ، ودم سنور اسود » أى كل ما يملأ النفس بالقتام والاشمئزاز ، ويهيئها للاحساس الملائم للعملية المطلوبة . ثم يبدأ عمل الطلسم المطلوب ومرة أخرى نرى أنفسنا أمام عملية تمثيل لما يريد الساحر تحقيقه ، وهو اذ يمثل فهو فى الحقيقة يركز .

وما دامت لدينا صورة فى الذهن يحس الانسان بضرورتها لكيانه ، ثم يروح يركز عليها فلا مناص من انطلاق الطاقة الانسانية على الوجه الذى شرحناه فيما سبق ، لتحقيق هذه الصورة فى الخارج .

ولعل هذا يفسر للناس لماذا لا يمكن تحويل المعتقدين بالسحر عن عقيدتهم ، ولا اقناع الكافرين بالسحر بحقيقته ، ذلك أن مرجع المسألة فى نهاية الأمر للعقيدة فالذين يؤمنون بالسحر يرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم ما يتصورونه فى عقولهم ، والذين لا يؤمنون بالسحر ويستسخفون الحديث عنه لا يرون ولا يسمعون ولا يصدقون الا ما يدور فى أذهانهم وهو تكذيب السحر ، فلو حدث ورأوا بالفعل ما بهتهم وأدهشهم ، فسيقولون لك لا بد أن فى الأمر خدعة لم تتوصل الى معرفتها ، يقولون ذلك حتى لو كانوا هم الذين اتخذوا الاحتياطات التى تصوروها كافية لمنع أى تلاعب . وليس هناك ما يحل هذا الاشكال سوى نظرية الطاقة الانسانية ، فحيثما استكملت العقيدة الانسانية أو الارادة شرائطها ، من حيث الشعور بضرورة أى هدف ووحدته فى الذهن والتركيز عليه ، فان ذلك كاف لتوليد الطاقة اللازمة لتحقيق هذا الهدف فى الخارج .

منـــاجاة الأرواح

« قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

ارواح الموتى وأشباحهم

لا أظن أن شيئا قد هز الانسان مذ عرف نفسه على هـذا الكوكب الأرضى كما هزته رؤية الموت . وأقول رؤية الموت لا وقوع الموت نفسه على الانسان ، لأنه عندما يحل الموت بالانسان فليس هناك محل للتحدث عن هذه المشاعر ، اذ تنتهى هذه المشاعر ويذوب الانسان فى بحر المجهول الذى لا يزال مجهولا لنا كما كان مجهولا بالنسبة لمن ســبقونا بملايين السنين .

فأعنف ما يمكن أن نقاسيه فى هذه الحياة هو رؤية أعزائنا ومن نحب يموتون أمام أعيننا ، أن نرى أولادنا وفلذات أكبادنا أو زوجاتنا وأمهاتنا وأحبابنا من أى نوع كان ، يسقطون صرعى أثر حمى تصيبهم ، أو نوبة قلب تصرعهم ، أو حادث ســـيارة أو طائرة يدهمهم . ومحال أن يملك الانسان نفسه من التساؤل ازاء أى حالة موت يشهدها لعزيز عليه ، كان حتى الأمس القريب يملأ الدنيا بهجة وحنانا ويشع نورا وبهجة ، بعد أن يصبح جسدا مسجى ، خير ما يعمل بالنسبة له هو أن يعجل بدفنه ، ويوارى التراب أو يتخلص منه على أى صورة من الصور ولو باحراقه حرقا . محال أن لا يسأل الانسان نفسه ، وهو يكاد يفقد صوابه وخاصة فى اللحظات الأولى : أصحيح أن كل هذه الحيوية قد خبت ؟ أصحيح أن هذا الصوت الجميل الشجى قد سكت ؟ أضاعت الى الأبد البســمات والضحكات العذاب ؟ هل ذوى الجمال والجسد الغض النضــير ؟ هل تلاشى الذكاء والعبقرية التى كانت تضىء الطريق للناس ؟ أصحيح أن ذلك كله قد ذهب

ولن يعود ؟ واذا كان قد ذهب فالى أين ذهب وأين راح ؟ ويتمرد العقل والوجدان ، محال أن يكون ذلك كله قد ذهب الى عدم ، فالعقل يرى من المستحيل أن يتحول الوجود الى عدم ، فالشيء لا يمكن أن يتحول الى ضده أبدا .

يقول الماديون انه لا يتحول الى عدم ، بل يتحـول الى ماء وتراب وغازات ومعادن ، انه ينحل الى عناصره الأولى التى جاء منها ويعود الى الطبيعة ذرات وأمواجا وذبذبات . ولكنَ حيـاة كل انسـان ليست مجرد أمواج متشابهة وذرات وذبذبات متماثلة ، أن لكل حياة انسانية على حدة شخصيتها الخاصة بها والتى تختلف عن شخصية أى انسان آخر ، فأين تذهب هذه الاضافة ، الشخصية المستقلة عن غيرها ؟ الى أين تذهب هذه الصورة الخاصة بكل انسان على حدة ؟ وما دام العلم الطبيعى يقول لنا ان المادة لا تفنى ، واذا كان قد تطور فأصبح يقول انها تتحول الى طاقة ، والطاقة الى اشعاع ، فالأمر المحقق أن العلم لا يزال يقول أن لا شيء يضيع أو يتبدد ، فما دام الأمر كذلك فيجب عليه أن يقول لنا أين تذهب شخصية الانسان الخاصة به دون غيره من العالمين ، الشخصية التى هى شيء يختلف عن مجرد الدم والعضلات ؟ بل أين يذهب العقل ذلك الجوهر الفريد الذى سلمتم جميعا يا معشر الماديين أنه لغز يقف أمامه العلم حائرا مشدوها ، ماالذى يحل بهذا العقل الذى يعى ويذكر ويتخيـل ويخلق ؟ لقد رفض الانسان وسيظل يرفض فكرة تلاشى الانسان بعد الموت ، يشهد بذلك تشبثه اليائس بجسد من يحب ورغبته فى عدم الاعتراف بالموت . يشهد بذلك مناجاة الانسان للميت حتى بعد أن يواريه التراب . يشـهد بذلك تذكر الانسان للميت واستحضار كل ما كان يسره أو يحزنه أو كان يألفـه من عادات . وعندما يكون الميت ممن اتصلت حياتهم بالانسانية كلهـا على

صورة من الصور ، فان البشر يظلون يترنمون باسمه أو يلعنونه كلما ذكر . فاذا كان ما خلفه علما نافعا فيظل علمه يدرس ويناقش ويطالع ولو بعد مرور آلاف السنين . فهل معنى ذلك أن بقاء الانسان بعد موته لا يعدو أن يكون مجرد ذكريات وآثار لما حدث وجرى ؟

من هنا يأتى دور الأحلام فى تقرير ما أحسه الانسان بوجدانه ، من أن شخصية الانسان تبقى محتفظة بذاتها بعد الموت والوفاة . فقد شاهد الانسان فى نومه أعزاءه وأعداءه الذين واراهم التراب يروحون ويجيئون، ويبتسمون له ، أو يعبسون ، يكلمونه مشجعين حينا منتقدين حينا آخر محذرين حينا ثالثا ، وينهض الانسان من نومه سعيدا بما رأى أو شقيا ، فهو غير قادر على طى صحيفة هذا الذى مات والذى ما يفتأ يكلمه ويناديه أو يتهدده ويتوعده .

عبادة الموتى

وأيا كان الرأى فى موضوع الأحلام وماهيتها وحقيقتها فقد كانت وستبقى هى الأساس فى اعتقاد كل الذين يعتقدون بعالم الأرواح . ولعله لا يوجد من بين الشعوب القديمة من جسد الحياة بعد الموت ، كما فعل المصريون القدماء ، حيث كانت كل أعمالهم وتصرفاتهم تتجه نحو تهيئة السبيل لهذه الحياة الجديدة التى سيحياها الانسان بعد الموت . وكان الاعتقاد عندهم أن شبح الانسان « الكا » تتردد على قبر الميت لتأكل وتشرب وتطرب بما اعتادت أن تطرب له فى الحياة الأولى . وكان هذا هو الحال تقريبا عند بقية الشعوب القديمة ، ومن هنا كانت عبادة الآباء والأجداد والموتى بصفة عامة ، هى العبادة العامة الشاملة فى كل زمان ومكان، وقد تظل هى الدين السائد الرسمى للجمهرة الغالبة من الناس حتى بعد انتشار الحضارة والمدنية فى عصرنا الحديث ، كما هو الشأن بالنسبة

لليابان ، وجماهير الصينيين . وقد تطغى الأديان الرسمية الأخرى من اسلام ومسيحية ، ولكن تقديس الموتى من الآباء والأمهات يظل هو الشغل الشاغل للناس جميعا ، وكم تسمع من الناس من حولك يحلفون لك بتربة آبائهم وأمهاتهم ، فليس ذلك الا مظهر هذه العبادة والتقديس . وكم من المصريين حتى الآن بالرغم من اسلامهم ، ما يزالون يتبعون التقاليد الفرعونية القديمة فيذهبون الى المقابر ويوزعون الرحمة على روح الميت ، ويتخيرون هذه الرحمة مما كان الميت يحب ويختار ، وليس ذلك الا احياء العادات القديمة فى تقديس الموتى ، والتقرب لهم بالقرابين .

ويذكر القارىء أننا لا نفتأ نشير لروسيا السوفيتية وتقديسها لجسد لينين ، ذلك أن هذه الظاهرة فى رأينا أقوى حجة يجب أن تفحم الذين ينكرون الروحانيات ، فهؤلاء أقوام يندون بالأديان ويبشرون بالمادية ومع ذلك فلم يستطيعوا أن يتحرروا من عبادة الموتى وأرواح الأبطال ، فيعبدون جسد لينين المسجى داخل تابوته ، وقد يقال ان الأمر ليس عبادة ولكنه تكريم أو تعظيم فليست العبادة شيئا غير التكريم والتعظيم .

الصلة بين العالمين المنظور وغير المنظور

يخلص من ذلك أن عقيدة البشر فى كل زمان وَمكان فى القديم مثل مافى الحديث ، تدور حول استمرار العلاقة والصلة بين الأموات والأحياء ، والتحدث عن عالم غير منظور الى جوار هذا العالم المنظور الذى يعج بسكانه . وهذا العالم غير المنظور يغص بدوره بأرواح الأجداد والآباء ، أرواح جميع من ماتوا وذهبوا ناعمى البال أو معذبى الضمير . وينعكس العالم غير المنظور على العالم المنظور أحيانا من حيث لا يدرك الأحياء أو يشعروا فكم منا من أحس بنفسه سعيدا فى أحد الأيام دون أن يدرك لذلك سببا واضحا ، وكم من مرة يحس الانسان بنفسه كئيبا بغير سبب مفهوم

كذلك ، وقد يصل الانعكاس الى حد وقوع أمراض مستعصية يحار الطب فى معرفة كنهها ، وقد يصل الى ما وراء ذلك أصواتا يسمعها البعض أو أشباحا يرونها ، وقد كان القدماء لايمارون فى ذلك ويرونه طبيعيا جدا ، فالصلة دائمة ومستمرة بين العالمين المنظور وغير المنظور .

الأديان السماوية

ثم جاءت الأديان السماوية العالمية فى أعقاب الأديان الوثنية المحلية ، وراحت تفسر الكون تفسيرا عاما شاملا ، فأقرت العقيدة الثابتة من أن الانسان مؤلف من روح وجسد ، فاذا كان الجسد ينحل فان الروح باقية محتفظة بشخصيتها وطابعها . وهكذا ظل العالم فى ظل الأديان السماوية يغص بالعالم غير المنظور من ملائكة وجن وعفاريت وأرواح شريرة وأخرى خـيرة .

انكار الروح

وأنكر العلم هذه الثنائية ، فليس شىء سوى المادة ، وليس هناك عالم سوى هذا العالم المنظور ، وكان هذا الذى صـادفنا فى كل خطوة من خطوات هذا الكتاب من انكار لكل روحى أو ما هو معنوى على أى صورة من الصور . ولكن هذا الانكار لم يلبث أن أحدث رد فعله كما هو الشأن فى الطبيعة دائما ، فقام بعض المشتغلين بالعلم الحديث كما رأينا ، يعيدون للمظاهر الروحية قوتها تحت أسماء جديدة ، وبدأت المسمرية كما مر بنا ثم كان التنويم المغناطيسى الذى تلقفه العلم ليجعله أحد موضوعاته ، فراح يفسره تفسيرا ماديا بحتا فأوشك أن يلقى من جديد مصرعه ، ولذلك فقد اضطر بعض العلماء أن يعدلوا عن التنويم المغناطيسى كوسيلة لأثبات الحياة الروحية للانسان ولجأوا الى علم الأرواح الحديث .

علم الأرواح الحديث هو محاولة لتحدى العــلم المادى فى ميدانه ، ميدان اللمس والحس والتجربة . اذا كان العلم يقول أنه لا يؤمن بشىء لا يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يكون قادرا على قياسه ، فلنجعله يســمع الروح اذ تتكلم ولنجعله يراها اذ تتحرك ، ولنجعل الأرواح تحرك الموائد وتدق بها على الأرض ، لنجعلها تشع اشعاعـــا ، ولنرسمها بالآلات اذا لزم الأمر .

واذا كان العلم قد أصبحت له كلمات خاصة ومعايير معينة ، فلنجعل علم أرواح يقوم على هذه المعايير . ولنجعله يتكلم بكلمات العلم ، فاذا كان علم الحياة يتحدث عن البروتوبلازم والسيتوبلازم فليتحــدث علم الأرواح عن الأكتوبلازم ، وليتحلى علم الأرواح بآخــر ما جاء به عــلم الطبيعة من نظريات . ليكن الأثير هذا المبــدأ الذى قال له الطبيعيون ، ثم لم يستطيعوا بعــد ذلك الا أن يصفوه بالمتناقض من الأوصـــاف ، فليكن هذا الأثير الغامض هو حجر الزاوية فى علم الأرواح . وأخيرا فليعتمد علم الأرواح الحديث على التجربة المعملية والتسجيل فى الدفاتر والسجلات، ولتحط هذه التجارب بكل الضمانات التى أصبحت شرطا أساسيا لاختبار صحة أى أمر من الأمور .

كبار علماء الطبيعة يؤيدون

على هذه الدعائم قام علم الأرواح الحديث ، قام به المثقفون والمتعلمون أرقى صنوف التعليم ، بل حمل لواءه جهابذة العلماء الذين شــهد لهم الناس بالأستاذية ، والقيادة العلمية . وعبثا نحاول أن نسرد مئات الأسماء من العلماء الأعلام التى يراها الانســان مذكورة ومسجلة فى كل كتــاب يتحدث عن علم الأرواح . ومع ذلك فان الانسان لا يستطيع وقد تحدث عن

موضوع تحضير الأرواح أن لا يشير الى بعض الأسماء التى آمنت بهذا العلم الجديد وليس من يجحد علمها أو فضلها . فهناك الفرد رسل والاس أعظم فسيولوجى انجليزى وشريك دارون فى نظرية الانتخاب الطبيعى ، وسير وليم كروكس الذى وصل الى مرتبة رئاسة الجمعية الملكية العلمية فى انجلترا وهو أعظم منصب يمكن أن يرنو اليه عالم من العلماء ، والسير أوليفر لودج أكبر علماء انجلترا فى الطبيعة فى القرن العشرين . واذا كانت هذه أسماء أعلام فى دنيا العلم فقد بقى أن نشير بجوارهم الى بعض أعلام دنيا السياسة والاجتماع والفنون ، كغلادستون زعيم حزب الأحرار الذى رأس الوزارة الانجليزية أكثر من مرة ، وهناك ذلك المشهود له بالعبقرية السير أرثر كونان دويل مخترع شخصية شرلوك هولمز ، الذى يستخدم المنطق والفراسة لحل الألغاز والمعميات .

وفى فرنسا تطل علينا أسماء لامعة من أمثال فيكتور هوجو ، وكاميل فلاماريون أعظم فلكيى فرنسا ، حتى نصل الى برجسون آخر فلاسفة فرنسا الكبار فى العصر الحديث . أما فى ايطاليا فيصادفنا أول ما يصادفنا أعظم رجال القانون بها ، وأعنى به لمبروزو ، فاذا أسرعنا الى أمريكا لنختم هذا الاستعراض فنرى فيلسوفها الأكبر مؤسس الفلسفة البرجماتية ، وليم جيمس على رأس القائمة . ومن علماء النفس العظام تطالعنا أسماء يونج وماكدوجل ، وهناك من يضع على رأسهم فرويد نفسه .

حتى فى بلادنا ، فى مصر نرى القاعدة مطردة ، فلا يتحمس لتحضير الأرواح الا الأعلام من رجالات مصر فهذا عالم من أكبر علماء الأزهر الذين تصدوا لتفسير القرآن وهو الشيخ طنطاوى جوهرى ، من دعاة تحضير الأرواح وعالم مصر الأكبر بلا منازع ، وهو محمد فريد وجدى

صاحب دائرة معارف القرن العشرين يحمل لواء الدعوة عاليا وينافح عنها حتى آخر نسمة من حياته .

ومما هو جدير بالذكر أنه ما من عالم من كبار علماء الطبيعـة الذين ألفوا فى هذا العلم أو شهدوا له الا وقد بدأوا جميعا من بداية واحدة ، وهى الانكار المطلق للقول بامكان الاتصال بالأرواح . فيقول الفرد رسل والاس فى كتابه « عجائب الاسبرتزم» لقد كنت دهريا صرفا مقتنعا بمذهبى كل الاقتناع ، ولم يكن فى ذهنى أدنى محل للتصديق بحياة روحيـة ولا يوجد عامل فى هذا الكون كله غير المادة وقوتها . ولكنى رأيت المشاهدات الحسية لا تغالب فانها هزمتنى وأجبرتنى على اعتبارها أشياء مثبتة قبل أن أعتقد نسبتها الى الأرواح بمدة طويلة . ثم أخذت هذه المشـاهدات مكانا فى عقلى شيئا فشيئا ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ولكن بتأثير المشاهدات التى كان يتلو بعضها بعضا بطريقة لا يمكن التخلص منهـا بوسيلة أخرى أى بغير نسبتها الى الأرواح . » ويقول السير وليم كروكس فى كتابه « الأبحاث على الظواهر الروحية » : « وحيث أنى متحقق من صحة هذه الظواهر فمن الجبن الأدبى أن آبى الشهادة بحجة أن كتاباتى قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئا فى هذا الشـأن ، ولا يستطيعون لما علقوه من أوهام أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فسأسرد بغاية الصراحة ما شهدته ورأيته بعينى وحققته من خلال التجارب المتكررة الدقيقة » . وكان الدكتور لمبروزو العالم الجنائى الايطالى من أشد الناس حملة على المشتغلين بعلم الأرواح الحديث ، حتى لقـد وصفهم فى بعض كتبه بالمجانين ، فاذا به يؤلف كتابا اعترف فيه بخطئه ونصح غيره لكى لا يقع فيما وقع فيه من خطأ بقوله « ولنحذر من ادعائنا دقة العقل واعتقاد أن كل

الناس من قبيل الواهمين ، والظن بأننا نحن فقط من العلمـاء فان ذلك يوقعنا فى الضلال »[1] .

كيف بدأ علم الروح الحديث ؟

والايمان بالروح والعـالم الخفى غير المنظـور والأرواح الخيرة والشريرة ، هو ايمان قديم عند البشر ، كما أشرنا الى ذلك ، ولكن علم الروح بشكله الحديث قد بدأ بصفة رسمية فى عام ١٨٤٦ فى أمريكا وذلك عندما سمع أمريكى وكان يسكن فى قرية (هيدسفيل) من مقاطعـة نيويورك ، طرقات ذات ليلة على أرض بيته فذهب ليكتشف الفاعل فأعيته الحيل فصبر على مضض ، ولكنه قام ذات ليـلة مذعورا من صراخ ابنته الصغيرة فسألها عما أصابها فزعمت أنها أحست بيد مرت على جسدها وهى فى سريرها ، فلم ير الرجل بدا من ترك المنزل فتركه . وقد خلفه فى سكناه رجل آخر متنور يسمى « جون فوكس » فحصل لأهله ما حصل لسلفه من الأصوات التى لا تجعل للنوم سبيلا الى الجفون ، فكانت مدام فوكس تنادى جيرانها وتستعين بهم فى البحث عن الفـاعل فلم يهتدوا اليـه . فتجاسرت المرأة ذات ليلة وقالت لذلك الطارق « أحدث عشر طرقات » ، ففعل فقالت له « كم عمر ابنتى ، كاترين ؟ » فطرق طرقات على عدد سنى عمرها . قالت له : ان كنت روحا فأحدث طرقتين ، ففعل . قالت : ان كنت أوذيت من شىء فأحدث طرقتين أيضا ، ففعل ولم تزل هذه المرأة به حتى علمت بواسطة الطرق انها روح رجل كان ساكنا فى هذا البيت فقتله جاره ليسرق ماله ودفنه فيه . فلم يسع مدام فوكس الا أن استحضرت الجيران واستجوبت الروح أمامهم فأجابت بما جعلهم فى دِهشة واقتنـاع فى آن

(١) راجع كل ذلك بتفصيل أوفى فى دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى • مادة « روح » •

واحد ، اذ كان الأمر كما أخبرت الروح . وضبطت الحكومة الواقعة وأجرتها مجراها القانونى . وقد شاع أمر هذا الحادث فى جميع الأصقاع فى أمريكا وغيرها ، فكثر ظهور مثلها من كل جهة ، لأن أمثالها كان يظهر كل حين فلا يلتفت اليه . فكلف الخاصة بالبحث فى هذه الظاهرة علميا وعمليا . فكان ممن بحثوها القانونى الشهير (ادموندز) الذى كان رئيسا لمجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة فاعتقد بصحتها وألف فيها كتابا ضخما سنة ١٨٦٥ [١] .

وانتشرت تجارب تحضير الأرواح فى سائر أنحاء أوروبا ، فى انجلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا والروسيا ، وتألفت عشرات ومئات الجمعيات العلمية من كبار الأساتذة والعلماء لاجراء التجارب والبحوث وصدرت ألوف الكتب وعشرات الألوف من المقالات فى الصحف والمجلات تأييدا أو استنكارا . وقد بلغ عدد المؤمنين بالأرواح ممن ينتمون الى جمعيات ويترددون عليها فى أمريكا وحدها ، عشرة ملايين ، حيث تنقسم منظمات تحضير الأرواح الى ثلاثة أقسام ، القسم الأول يدور حول بعض الوسطاء الذين يعملون لحسابهم ، وقسم يعتمد على الكنائس وقسم ثالث هو المهم يقوم على معسكرات منتشرة فى أنحاء الولايات المتحدة وخاصة حول مقاطعة نيويورك وبنسلفانيا ومعسكر شستر فيلد وانديانا وفلوريدا ، وفى هذه المعسكرات تلقى المحاضرات فى علم الروح ويعقد الوسطاء جلساتهم [١] .

وقد بلغ من الاهتمام بعلم الأرواح فى منتصف القرن التاسع عشر ، أن جاء وقت سيطر فيه الاقتناع على المؤمنين به أنه لن يلبث أن يصبح علم

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية Americana ـ مادة Spirit ودائرة معارف القرن العشرين مادة روح

العلوم ، وأن البشر يوشكوا آن يحلوا كل أسرار الوجود وألغازه التى أعيتهم منذ بدء الخليقة حتى الآن . ولكن ريح الحماسة لهذا العلم وجلساته لم تلبث أن خفت وهدأت ، اذ بدا غش كثير من الوسطاء يفتضح [١] ، وانزلق عدد من المشتغلين بعلم الأرواح فى مباحث عن حقيقة عالم الروح ، لا يحتاج الأمر الى كبير عناء أو ذكاء ليكتشف الانسان أنهم انما يتحدثون عما يخالج عقولهم هم . على أن السبب الحقيقى فى انكماش جلسات تحضير الأرواح فى الواقع ، هو اتجاه المباحث النفسية اتجاها جديدا كما سنرى وهو محاولة تفسير الظواهر الروحية تفسيرا ماديا بحتا يقوم على التجارب المعملية القابلة للقياس عن طريق الرياضة والاحصاء .

كيفية تحضير الأرواح

ويقوم تحضير الأرواح بصفة عامة على قدرة الوسيط ، وهناك أساليب كثيرة مستعملة لتحقيق هذا الغرض ولكن الخطوط العريضة لهذه العملية تنحصر فى أن بعض الوسطاء يدخلون فى مرحلة تسمى مرحلة الغيبوبة Trance ، ولا يمكن تحديد طبيعة هذه الغيبوبة على وجه قاطع ، وهل هى حالة فسيولوجية أم حالة سيكولوجية أى نفسية ، وهى تختلف باختلاف الوسطاء . ويغلق الوسيط عينيه ، ثم يقوم ببعض تقلصات

---

(١) كان ممن تصدوا لمحاربة علم الأرواح الحديث فى الولايات المتحدة الأمريكية مجلة « السيانتفيك امريكان » اذ خصصت جائزة مالية كبيرة لأى وسيط أو وسيطة يقوم بظاهرة نفسية تثبت على الأمتحان امام لجنة مؤلفة من عالمين طبيعيين وعالم نفسى ومشعوذ (الساحر هودينى) وسكرتير وقد تقدم لهذه اللجنة لنيل هذه الجائزة عشرة وسطاء ، أثبت البحث أن تسعة منهم خادعون وظهرت طرق خداعهم ، أما الوسيط العاشر وكان امرأة تدعى مارجرى فقد فسرت الأفعال التى بدرت منها ، تفسيرا فيه مط لبعض النظريات النفسية . (اساطين العلم ص ٢٩٠)

ويتصرف بعد ذلك كما لو كان قد تملكه روح . وتأتى الرسائل كما لو كانت من الروح المتقمصة ويبدو أن جسد الوسيط يستخدم كمجرد واسطة . وفى بعض الأحيان قد تكتب يد الوسيط رسائل بالقلم الرصاص . (١)

ويصف لنا (أرثر فاندلاى) مؤلف كتاب على حافة الأثير جلسات تحضير الأرواح وكيف تعتمد فى الدرجة الأولى على وسيط يتمتع بهذه الخاصية وهى استحضار الأرواح ، شريطة أن يتعاون معه بعض نفر يواظبون على حضور جلساته ويساهمون فى انجاحها ، ولا مانع من أن يحضر معهم واحد أو اثنان ممن لم يسبق لهم حضور هذه الجلسات . والشرط الأساسى لنجاح هذه الجلسات هو وجوب التوافق بين الحاضرين. ويستعان بالموسيقى لايجاد التوافق بين الحاضرين وحمل الهواء على الاهتزاز ، وقد تستخدم التراتيل الدينية بدلا من الموسيقى . ثم يجلس الحاضرون على شكل دائرة ويوضع وسط الدائرة بوقان ، وبعد الصلاة والترنيمة الأولى ، يشاهد الوسيط وهو يذهب الى النوم ، فيمسك الجالس على يمينه بيمناه والجالس على يساره بيسراه ، وتتماسك جميع الأيدى حتى يصبح الكل وكأنهم سلسلة ، ثم يطفأ النور ويستمرون فى الغناء الى أن يقع الوسيط فى الغيبوبة العميقة ، وان هو الا بعض الوقت حتى تسمع همهمة تزداد وضوحا ، ثم ينطلق صوت الروح معلنا عن نفسه أنه قد حضر . ثم لا تلبث أن تحضر أرواح أخرى حسب الطلب فتخاطب الحاضرين بأخص أسرارهم وعما جاءوا يسألون عنه . وتحرك الأرواح البوقين الموضوعين فى وسط الدائرة وتتكلم من خلالهما ، وتلامس أجساد الحاضرين وقد تتجسد الأرواح فيرى بعض الحاضرين أشباحها ، وتقوم

(١) دائرة المعارف الأمريكية Americana ــ مادة Spiritism

الأرواح عند الطلب بتحريك الموائد أو الدق على الأرض أو السقف أو تكتب بالقلم الرصاص على الورق أو تكتب أشعارا أو تحل معـادلات رياضية وتتكلم بلغات حيث يكون الوسيط أجهل ما يكون بهذه اللغات ، وأبعد ما يكون عن قرض الشعر ، وأعجز ما يكون عن حل هذه المعادلات[1].

حجرة تحضير الأرواح الحديثة

وقد تطورت حجرات تحضير الأرواح الحديثة لكى تساير التطـور العلمى والدقة الواجب اتباعها فى اجراء التجارب ، فأنشأ المعهـد الدولى للأبحاث الروحية فى لندن حجرة خاصة لتحضير الأرواح على آخر طراز علمى وقد بنيت جدرانها بالطوب وغطيت الجدران بطبقة من الجبس الملون بزرقة خفيفة والحجرة مربعة الشكل طول ضلعها ٢٤ قدما وارتفاعهـا ١٢ قدما ، والكراسى أشبه بكراسى الملاهى العادية . وتحت كل كرسى منهـا ميزان يسجل بطريقة تلقائية وزن الجالس اذا ما جلس طوال مدة التجربة ، لكى يكون من المستطاع معرفة وزنه دقيقة بدقيقة خلال التجربة كلها . وهناك جهاز لتسجيل درجة الحرارة فى الحجرة باستمرار حيث لوحظ عليه أنه ينخفض أثناء اجراء التجارب بينما كان من الواجب أن يرتفع نتيجـة الحرارة المنبعثة من أجساد الحاضرين . ويوجد فى سقف الغرفة جهاز ليهز هواء الحجرة باستمرار ، ويوجد الى جوار هذا الجهاز فتحة ركب عليها آلة فوتغرافية للتصوير ، كما توجد أيضا آلتان للتصوير السينمائى تعملان طول الجلسة بدون انقطاع ، وتستخدم حزمتان من الضوء تحت الأحمر وحزمة ثالثة للأشعة فوق البنفسجية وذلك لتصوير مالا تراه العين ، وقيل أنه قد أمكن رسم الأكتوبلازم الذى يخرج من جسد الوسيط أو أحـد الحاضرين . كما أن هناك جهازا لتسجيل كل ما يقع من الأصوات أثنـاء الجلسة . هذا الى عشرات أخرى من الأجهزة والاجراءات التى تتبـع أو

(١) على حافة العالم الأثيرى ــ ص ٦٠

تستعمل لاحكام الضبط والرقابة واستبعاد كل محاولة للغش والخداع أو التزييف من ناحية ، وامكان تسجيل الظواهر غير الطبيعية التى تتجلى فى الحجرة من ناحية أخرى [1] .

العلاج عن طريق الأرواح

وقد أصبح العلاج عن طريق الأرواح من الأمور الشائعة فى المجتمعات الانجليزية والأمريكية ، والمهم أن الذى يتولاه فى بعض الأحيان أطباء يحملون اجازات الطب فهذا طبيب يسمى الدكتور ويكلاند يقول عن نفسه فى كتابه أنه عضو الجمعية الطبية فى شيكاغو ، والجمعية الامريكية لتقدم العلوم واسم هذا الكتاب « ثلاثون سنة بين الموتى » حيث يحدثنا الدكتور المذكور عن شفائه مئات المرضى خلال ثلاثين سنة عن طريق الاتصال بالأرواح واقناعها بالتى هى أحسن أن تغادر جسد المريض ، ويقول لنا فيما يقول « لقد تناقشت مرة مع واحد وعشرين روحا مختلفة تكلموا من خلال زوجتى وأعطانى معظمهم الدلائل الكافية على أنهم أصدقاء وأقارب، معروفون لى عندما كانوا على الأرض وعلى وجه عام تكلموا بست لغات مختلفة فى حين أن زوجتى تتكلم فقط بالانجليزية والسويدية . ولقد أمكننا أن نطرد من مسز (أ) المريضة التى جاءتنا من شيكاغو ثلاثة عشر روحا سمح لهم أن يهيمنوا على مسز ويكلاند » [2] .

ويحدثنا المرحوم أحمد فهمى أبو الخير أنه باشر العلاج الروحى بنفسه ونشر لنا صور من عالجهم فى كتاب على حافة الأثير وفى أعداد مجلته التى أصدرها عدة سنوات تحت اسم « عالم الروح » ونشر شهادات هؤلاء الذين عالجهم مع صورهم ، ومن الطريف أن بعض هؤلاء كان من الأطباء

(١) على حافة العالم الأثيرى ص ١٦٤
(٢) ثلاثون سنة بين الموتى ـ ترجمة الدكتور عبد الجليل راضى ـ ص ٦٠

الذين قرروا فى شهاداتهم أنهم كانوا مرضى بأمراض ميئوس من شفائها حتى عالجهم أحمد فهمى أبو الخير عن طريق الأرواح فشفوا . (١)

وفى دنيا العلاج فى أنحاء العالم لمعت نجوم العلاج الروحى من أمثال جونز وبارش وادواردز ، حيث لم يعد العلاج قاصرا على داخل العيادات بل خرج الى الاجتماعات العامة ، تماما كما كان مسمر يفعل منذ أكثر من قرن من الزمان . وفى أكبر قاعات الاجتماعات العامة فى لندن يحتشد بضع ألوف من الجمهور ثم يقوم هارى ادواردذ بطل العلاج الروحى بمباشرة معجزاته التى يقول واصفوها أنها تذكرهم بمعجزات المسيح مع فارق واحد هو أنه لم يكن أيام المسيح سينما لتسجل ما يجرى أما اليوم فالسينما تسجل معجزات هارى ادواردذ حيث يمكن عرضها ورؤيتها فى كل مكان، وكى يستطيع المؤمنون بعلم الأرواح من أمثال المرحوم الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير ، أن يعرضوا هذه الأفلام على جماهير المؤمنين والمتشككين على السواء (٢) .

الهجوم على تحضير الأرواح ؟

هاجم العلماء الطبيعيون والماديون وهم الكثرة الغالبة بين المشتغلين بالعلم هذه الأيام ، تحضير الأرواح كأشد ما يكون الهجوم ، بحيث يكفى أن يعرف عن انسان أنه من المؤمنين بهذا العلم حتى تسقط على الفور صفته كعالم مهما كانت شهرته أو تاريخه وماضيه فى دنيا البحث العلمى . ولا يحسبن أحد أن ضخامة أسماء الذين اعترفوا بهذا العلم لها أى وزن أو اعتبار عند الجاحدين بهذا العلم . وليس أسهل على الناقدين اذا ذكر أمامهم اسم أحد الأعلام الذين شهدوا لهذا العلم أن يوصفوا بأنهم قد

---

(١) على حافة العالم الأثيرى — ص ١٥٧ .
(١) على حافة العالم الأثيرى — ص ١٦٢ .

خرفوا فى أخريات حياتهم ، أو أنه لا صحة لما نسب اليهم . [1]

والعجيب أن رجال الدين من ناحية أخرى ، قد وقفوا فى بادىء الأمر موقف العداء من تحضير الأرواح باعتباره بعثا للسحر وربما لو كانت الكنيسة لا تزال تتمتع بسلطانها القديم لحرقت المشتغلين بتحضير الأرواح، ولكن الكنيسة لم تفقد سلطانها فحسب ، بل وأصبحت تحت تأثير التعاليم المادية مهددة فى صميم كيانها ، ولذلك فقد بدأت تجد فى تحضير الأرواح ما يذكر الناس بوجود القوى الروحية فى الكون فأصبحت الكنيسة الأمريكية كما رأينا تشترك فى تحضير الأرواح .

أما الكثير من علماء المسلمين الذين كان من المفروض أن يؤيدوا بدورهم موضوع تحضير الأرواح كنجدة لهم ضد التيار المادى الذى يوشك أن يقتلع الأديان من أساسها ، فهم يتمسكون بمعارضتهم لعلم الأرواح لأن كل حديث عن الروح فيه مساس بالأمور الغيبية التى اختص الله بها نفسه ، ومن هنا فالعداء لا يزال مستحكما بين رجال الدين المسلمين والمشتغلين بتحضير الأرواح ، يظهر لك ذلك فى مقدمة كتاب بعض المشتغلين بهذا العلم فى مصر . [2]

---

(١) دار لى مع استاذ جامعى كبير ،ترجم وألف فى الفلسفة عشرات الكتب، حديث حول موضوع تحضير الأرواح والتلاشى ، فأجابنى أنه يعتبر هذه الامور كلها كلام فارغ ، فسألته وما رأيه فى أن عالما طبيعيا من أعظم علماء الطبيعة وهو السير اوليفر لودج ، انتهى الى أن يكون من دعاة هذا العلم فأجابنى : لابد أن يكون قد فقد اتزانه العقلى بعد وفاة ابنه • قلت له وما الرأى فى رجل مثل وليم جيمس الفيلسوف الأمريكى الحديث ؟ فأجابنى هذه هى النقطة الغامضة فى حياة الرجل • وهكذا كلما رحت أذكر له أحد الأعلام ، يعلق بكلمة من هذا الطراز ، وعاد ليؤكد رأيه الأول وهو ان الأشتغال بهذه الأمور مضيعة للوقت ، ومساس بالعلم • وليس ذلك الانموذجا لحديث العلماء والفلاسفة العصريين ، عن فرع من العلوم لا يؤمنون به •

(٢) ثلاثون سنة بين الموتى ـ ترجمة الدكتور عبد الجليل راضى ـ انظر مقدمة الكتاب •

وهكذا يلقى علم تحضير الأرواح الحرب من اليمين واليسار معا ، من المؤمنين بالروح وخلودها بعد الموت ومن المنكرين لكل روح أو حديث عنها . على أن الرجل الذى حارب علم تحضير الأرواح أشد الحرب لم يكن من رجال الدين ولم يكن من الفلاسفة الماديين ، ولكنه كان مشعوذا ساحرا لا يمت الى اليمين أو الى اليسار بصلة وذلك هو هودينى الساحر الأمريكى .

الساحر هودينى

ذكرنا من قبل أن مجلة السيانتفيك أمريكانا قد ألفت لجنة من المحكمين لمنح جائزة كبيرة لمن يستطيع أن يقوم أمامها بظاهرة نفسية خارقة تثبت على الامتحان والبحث العلمى . وقد كان هودينى أحد المحكمين الذين انتدبتهم اللجنة المذكورة لفحص من يتقدمون لنيل الجائزة ، وقد اختير هودينى بالذات لأنه كان يجد لذته الكبرى فى كشف ألاعيب الوسطاء المخادعين . لقد كان هودينى نفسه وسيظل أعجوبة بشرية استعصت على الحل ابان حياته ، وقد أصبح بعد موته من الشخصيات التاريخية التى شقت طريقها الى دوائر المعارف ، ووضعت عنه مئات الكتب والروايات والأفلام السينمائية . وقد أجملت دائرة معارف أمريكانا القول فيه فى العبارات الآتية « هارى هودينى ساحر أمريكى ولد عام ١٨٧٤ ومات عام ١٩٢٦ وهو ابن حاخام يهودى وقد أظهر قدرة خارقة على السحر . ولكن شهرته قامت فى الدرجة الأولى على قدرته على تخليص نفسه من أى قيود حديدية يربط بها ، حتى لقد أطلق عليه اسم « ملك الأغلال » . وقد طاف فى أنحاء العالم وعرض مشاهد مذهلة على استطاعته الخروج من أى سجن يوضع فيه فى كل المدن الكبرى تقريبا . وفى أحد المرات أحكم وثاقه ووضع فى صندوق أحكم غلقه بأحزمة من الصلب ثم أسقط فى نهر الهدسون

بنيويورك وبعد ٥٩ ثانية ظهر على سطح الماء . وكان يجد لذته الكبرى فى كشف حيل وسطاء تحضير الأرواح وخداعهم ولم يكن يكل أو يمل من العمل فى هذا السبيل » [١] .

وهكذا نجد أنفسنا ازاء رجل حير الدنيا بقوته الخـارقة وأعماله المعجزة ، فلو قال للناس انه يفعل ذلك بقوة الجن لصدقوه ، ولو قال لهم أنه يفعل ما يفعل بقوة الأرواح ، لما استطاعوا أن يكذبوه ، ومع ذلك فقد كان هذا الرجل بالذات أشد الناس انكارا لفكرة تحضير الأرواح ، وأكثر الناس حربا على المشتغلين بهذا العلم . فلا عجب اذا كان هودينى بالذات من أكبر العوامل التى جعلت ريح تحضير الأرواح على صورته التى غمر بها الدنيا فى آخر القرن التاسع عشر ، تهدأ كما ذكرنا من قبل . ولذلك فقد اعتبر هودينى أعظم نكبة رزىء بها علم تحضير الأرواح [٢] .

شطحات المشتغلين بعلم الارواح

على أن الذى نال فى رأينا من علم الروح بصورته الحديثـة ، هو انزلاق المشتغلين به من تسجيل ما يقع تحت أبصارهم من دق أو طرق أو تحريك لهذا الشىء أو ذاك الى الدخول فى مناقشات مع الأرواح المزعومة

(١) سجن هودينى فى واشنطون فى غرفة المحكوم عليهم بالأعدام الخطرين والتى لايتصور امكان الخروج منها بأى حال من الأحوال ، ومع ذلك فقد استطاع أن يفلت منها ولم يستطع أحد أن يعـلل كيف استطاع فعـل ذلك . وفى اسكتلنديارد فى انجلترا شد وثاقه بأغلال وسلاسل جديدة بمعرفة المختصين الثقاة ثم أسدلت عليه ستارة وسرعان ما تناثرت القيود وخرج حرا طليقـا .
وفى موسكو سجن فى عربة المنفيين الى سيبريا فأفلت منها كذلك . وفى كاليفورنيا دفن على عمق ستة أقدام تحت الأرض بعد أن قيد بالسلاسل فخرج دون أن يمسسه أى سوء .

(٢) هودينى الوسيط الروحى المتساحر ـ احمد فهمى أبو الخير ـ ومن رأى المرحوم أحمد فهمى أبو الخير كما يبين من عنوان الكتاب ، أن هودينى كان وسيطا روحيا ، ولكنه فعل ما فعل طلبا للشهرة .

للوقوف منها على كيفية حدوث ما يحدث ، وبدأت الأرواح تقول كلاما أقرب الى الهزل منه الى الجد . فالأرواح تستعين للاتصال بالحاضرين بمجموعة من خبراء العالم الآخر المتخصصين فى كيمياء العالم الثانى ، فيحضرون الى جلسة تحضير الأرواح ثم يشرعون فى سحب الأكتوبلازم من الوسيط والحاضرين بالقدر اللازم لعمل قناع تلبسه الأرواح ليكون بقدرتها أن تسمع صوتها للأحياء . وعندما تتجمع هذه الاكتوبلازم لدى الخبير فانه يضعها فى قصعة (روحية طبعا) ثم يضيف اليها بعض مواد أثيرية من عنده ويخلط هذه المواد سويا ثم يصنع من الخليط رئتين وحلقوما وحنجرة وفما ولسانا وهذا هو القناع الذى يتعين على الروح الراغب فى الكلام أن يلبسه [1] .

ويحدثنا هؤلاء المؤمنون بعد ذلك عن عالم الروح بطريقة تجعله نسخة طبق الأصل من مجتمعاتهم التى يعيشون فيها ، ففى المجتمعات الفرنسية تتكلم الأرواح بالفرنسية ، وفى المجتمعات الأمريكية فالحياة الآخرة صورة طبق الأصل من الحياة الامريكية وهكذا . ولا تزيد عقليات الأرواح المستحضرة عن عقلية الحاضرين فى الجلسة . فقد سأل « فندلاى » أحد هذه الأرواح مثلا عما اذا كنا سنبعث بأجسادنا مرة أخرى فاذا بالروح تجيب على هذا السؤال بالآتى « اننى أجد صعوبة فى الاجابة على هذا السؤال فلست أعرف أحدا بعث هذا البعث وهذا هو ما أستطيع أن أقوله فى هذا الصدد » . فأى أرواح هذه التى لا تعرف حرفا واحدا أكثر مما نعرف ، وكيف لا يضيف الموت والصورة الجديدة التى تعيش فيها فهما غير فهمنا أو ادراكا غير ادراكنا ؟ وعندما يمضى الانسان فى قراءة ما يكتب عن عالم الروح لا يتمالك نفسه من الاعتقاد ، أن كل هذا الذى يقال عن عالم الروح

(١) على حافة العالم الأثيرى ـ ص ٧٢

هو ما يتمنى الحاضرون أن يكون عليه ، فهـو عالم كاثوليكى اذا كان الحاضرون من الكاثوليك وهو عالم مادى اذا كان الحاضرون من الماديين . وأعتقد أن أمثال هذه الكتب وهذه الشروح والتفاصيل هى التى صرفت الكثيرين من المراقبين المحايدين عن النظر لموضوع تحضير الأرواح نظرة الجـد .

مدى الحق فى تحضير الأرواح

ومع ذلك فلا يمكن لأى منصف ، فضلا عن عالم محقق أن يتجاهل ظاهرة هذا مدى ثباتها فى كل عصور التاريخ ، والحاحها على البشر على صورة سحر فى القديم يعتمد على الجن والأرواح والشـياطين ، وعلى صورة أرواح فى العصر الحديث . من التجنى الذى لا تجنى قبله أو بعده رمى الناس بالجنون والتخريف اذا قالوا بتحضير الأرواح حتى ولو كانوا من كبار العلماء المشهود لهم بالصدق والتمحيص والقـدرة على اجراء التجارب بكل الضمانات التى يتطلبها العلم الحديث .

من العبث اتهام نفر من أكبر علماء الطبيعة ، أو غيرهم ممن اشتهروا بالعقل والحكمة ، بأنهم غشاشون مخادعون ، أو أنهم وقعوا فريسة سهلة للخداع والتغرير ، ولا مناص من التسليم بأن هذا النفر ومن لف لفهم من المشتغلين بتحضير الأرواح ، يرون بالفعل ويسمعون ما يجعلهم يقولون ما يقولون من وجود أرواح والا لما انقلب الكثيرون منهم ، من منكرين جاحدين الى مؤيدين متحمسين [1] .

---

(١) أتيح لى شخصيا أن أحضر أحدى جلسات الأرواح التى يمكن اعتبارها من أنجح مايمكن أن يحدث فى جلسة تحضير أرواح · وقد حدث هـذا فى دمشـق عـام ١٩٤٨ ، وقد كان أحـد زملائى هو الـذى أخـذنى لشهود هذه الجلسة بعد أن سبق له حضورها فكاد يفقد عقله كما نقول من فرط الدهشة لما رأى وشهد · فقد استدعيت روح والده التى راحت عن طريق الدق بأحد جانبى المـائدة تشير الى أمور كانت فى تصور صاحبى أنها =

الطاقة الانسانية هى التفسير الوحيد

والحق أن ليس هنا ما يحل مشكلة تحضير الأرواح كما حلت مشكلة السحر من قبل ، الا الأخذ بنظرية الطاقة الانسانية التى تتولد فى النفس نتيجة الارادة أو الاعتقـاد . وليس أدل على ذلك من أن الذين يؤمنون

= أسرار .وراحت روح والده تخاطبه بالشعر وكان يعرف أن والده يقول الشعر وهكذا • وصحبت الزميل الى جلسة تالية ، وبدأت الأجراءات العـادية ونام الوسيط وهو أحد التجار السوريين • وعندما قيل أن الروح حلت بالوسيط بدأ توجيه الأسـئلة اليهـا على أن يكون الجواب بالطرق مرة اذا كان الأمر على وجه معين ، وبالطرق مرتين اذا كان الأمر على خلاف ذلك • ولم يكن هناك أدنى شك أو خفاء فى أن المائدة ترتفع بالفعل من أحد جانبيها ثم تسقط ثانية فيحدث سقوطها هذه الدقات • وعندما تكررت هذه الظاهرة بوضوح عن لى أنه يمكن تفسيرها على أساس أننا نحن الذين نرفعها ونخفضها بواسطة أيدينـا الموضوعة فوقها وذلك بحركة لاشعورية بحتة [*] ذلك أنه عندما يوجه أى سؤال وتستلزم الاجابة عليه أن تدق المائدة ثلاث دقات ، فان صاحب المصـلحة فى الجواب على هذا الوجه يشرع فى الضغط على المائدة من ناحيته ، وذلك فى الوقت الذى يخف فيه ضغط أيدى الاشخاص الذين لا مصلحة لهم فى الموضوع وبهذا يزداد الضغط من ناحية ويخف من الناحية المقابلة فترتفع المائدة من أحد جانبيها، وهكذا تتكرر العملية طبقا للعـدد المطلوب •

ولم تكد الفكرة تطرأ لى حتى رأيت أن أضعها موضع التنفيذ دون أن أخبر أحدا من الحاضرين بما عزمت عليه ، فانتهزت فرصة توجيه سؤال يستدعى الرد عليه تحريك المائدة ثلاث مرات فبدأت أضغط وظللت أضغط دون أن أتوقف بعد الضغطات الثلاث فاستمرت المائدة تتحـرك ما بقيت أضغط من ناحيتى ، وعندما قررت أن أوقف عملية الضغط وقفت المائدة عن الحركة • وظللت بعد ذلك أكرر التجربة طوال الجلسة فسارت الامور كما تصورت ، وطبقا لنظريتى فهى تتحرك ما بقيت أنا دون الآخرين أعمل على تحريكها وتقف عندما أكف عن رغبتى فى تحريكها • وقد حدث بعد أن استطالت الجلسة وازدادت حماسـة الحاضرين لما يرون ويشهدون ، أن بدأت المائدة تقف على أحد جانبيها ثم تتحرك على ساقيها الباقيتين فى أنحاء الحجرة ونحن نسير الى جوارها اذ أن ايدينـا كانت فوقها بطبيعة الحال ، وقد كنت مقتنعا فى هذه اللحظة أن المائدة تتحرك عن طريق أيدينا الموضوعة فوقها ،وأن أيدينا هى التى تحول بينها وبين الوقوع• وكان معنى ذلك أنه بدلا من تحريك المائدة بأن نضع أيدينا تحتها لنقاوم فعل الجاذبية كما تقضى الاوضاع الطبيعية ، فقد كنا نحرك المائدة بأيدينا الموضوعة فوقها كما لو كانت أيدينا تنطوى على مغناطيسية• وهكذا خرجت من هذه الجلسة غير مؤمن بتحضير الأرواح ولكننى أحمل فى أعماق نفسى بذور الطاقة الأنسانية، من أن كل انسان فيه طاقة تمكنه اذا أراد أو اعتقد ، أن يحرك الأشياء بطريقة تبدو غير طبيعية•

بتحضير الأرواح هم الذين يرون ويسمعون ، والذين لا يؤمنون لا يرون شيئا ولا يسمعون ، واذا رأوا شيئا أو سمعوا فسروه طبقـــا لمفهومهم ومعتقداتهم . والاعتقاد شرط أساسى لدى المشتغلين بتحضير الأرواح ، وفى ذلك يقول فندلاى فى كتابه على حافة الأثير « لا يعقل أن يجتمع أغراب ليست بينهم معرفة سابقة بحضرة وسيط مهما كان بارعا ، ثم يتوقعـون الحصول على نتائج مرضية من أول جلسة ، ذلك مستحيل . ولذا كان من المستحسن أن يوجد فى كل جلسة أكبر عدد ممكن من الزائرين المواظبين لكى يساعدوا على توفر الشروط فيمهدوا من ثم الطريق للأغراب لكى يحضروا ويتمرنوا على هذه الجلسات ويتخذوا منها أداة تعزيةوتسرية.»[1] ومعنى هذا أن الاعتقاد شرط أساسى ، ونحن نعرف ماهو الاعتقاد ، انه خلق الصور فى الذهن والتشبث بها ، فيترتب على ذلك حصول الصور فى الخارج ، وليس هناك ما يفسر لنا لماذا كانت الأرواح فى أول عهدها تدق الأرض وتحرك الموائد ، عندما كان يقال ان هذه هى وسيلة تخاطب الأرواح مع البشر الأحياء . فلما أوغل المشتغلون فى العلم وقالوا بل انها قادرة على التكلم من خلال الوسيط ، أصبحت جلسات الأرواح تقوم على ذلك . ثم لما قيل ان بقـــدرة الأرواح أن تتكلم استقلالا عن الوسيط من خـــلال الأبواق التى توضع لها أصبحت الأرواح تتكلم من خلال الأبواق . ولما قيل انه من الممكن أن يرى البعض الأرواح أصبح هـــذا البعض يراها . وأصبح حظ المشتركين فى جلسة تحضير الأرواح يختلف تبعا لحظهم من الايمان ، فالبعض يسمع الروح ، والبعض يحس بملامســـتها له والبعض يراها رأى العين ، والبعض لا يراها ولا يسمعها أو يحس بها لأنه يشترك فى الجلسة منكرا للموضوع كله .

(١) على حافة العالم الأثيرى ــ ص ٦٠

وليس ما يجرى فى جلسات تحضير الأرواح من اطفاء للأنوار وترتيل للأناشيد الدينية أو قراءة السور القرآنية وعزف الموسيقى ، والجلوس على هيئة معينة ، وتلامس الأيدى وتشابكها ، ثم دخول الوسيط فى حالة الغيبوبة ، الا وسائل لأحداث التركيز الذهنى المطلوب . وهكذا تتحقق الشروط الثلاثة لتوليد الطاقة الانســانية من اعتقــاد تولده الضرورة ، وتوحيد للهدف وهو ظهور الأرواح ثم التركيز عليه فيكون التحقيــق للمطلوب .

ونحن ممن يعتقدون أن علماء الطبيعة الذين شهدوا جلسات تحضير الأرواح ، لم يغب عنهم أن يفسروا ما رأوا من الظــواهر على اســـاس وجود طاقة انسانية بالفعل ، قادرة على فعل الذى تفعل ، فلم يكن هذا التصور بعيدا فقد قال به مسمر كما رأينا ، والتنويم المغناطيسى كان قد أصبح من مسائل العلم المقررة ، فما الذى جعل هؤلاء العلماء الأفذاذ بدلا من تفسير ما يرون من ظواهر هذا التفسير البسيط ينزلقون الى القول بالأرواح ، وأن ما يحدث لا يمكن أن يتم الا بقوة الأرواح ؟ الرأى عندنا أن شدة ايمانهم بالمادة على صورة معينة وأن هــــذه المادة لا يمكن أن تتصرف الا على الوجوه المألوفة فى العلم ، كان هو السبب الذى حمــل هؤلاء العلماء الأعلام على قول ماقالوا من نسبة ما رأوا الى أرواح الموتى. ان الانزلاق يكمن فى هــذه القفزة — ما دامت قوانين المــادة المعروفة لا تستطيع أن تفسر الظاهرة فلم يبــق الا أن تكون أرواح الموتى هى التفسير — مع أنه ليس هناك ما يمنع أن تكون للمادة أشكال وحالات لم نعرفها بعد ، وقد يكون من قوى المادة حالة تعمل بقوانين على خلاف القوانين التى نعرفها حتى الآن . يخطىء اذن هؤلاء الذين ينكرون الظواهر

المحققة والمؤكدة التى كان السحر يحققهـــا فى الماضى ولا يزال قادرا عــلى تحقيقها عند من يؤمنون به كما يخطىء من ينسبون عمل السحر للعفـــاريت أو للجـــان . ويخطىء من ينكرون الحقـــائق المؤكدة التى شهد بهـــا كل من حضر جلســـات جدية لتحضـــير الأرواح ، بدعوى انها لا تتفق وحقـــائق العـــلم الذى يعرفون ، كمـــا يخطىء من يتصورون أن هذه الظواهر من عمل أرواح الموتى . والحقيقـــة أن الانسان ، الانسان الحى وحده هو الذى يقوم بكل هذه الأعمال بمقتضى الطاقة المودعة فيه والقادرة دائما على أن تحقق له موضوع عقيـــدته أو ارادته .

وسنرى فى الفصل التالى كيف أن موضوع هذه الطاقة الانســـانية وانطواء الانسان عليها ، لم يعد مجرد استخلاص نظرى نقول به على ضوء الملاحظة والمشاهدة التى قد يختلف كل انسان عن الآخر فيما يمكن أن يستخلصه منها ، ولكنه أصبح محل التجارب المادية المعملية التى لا تجرى فى الظلام ولكن فى وضح النهار بعيدا عن الأرواح والأشباح ودق الموائد ، والتى تعتمد فى الدرجة الأولى على وسائل الاحصاء .

الفصل التاسع

التوصل إلى إثبات وجود الطاقة الإنسانية بطريقة تجريبية معملية

علم ما وراء النفس أو الباراسيكولوجى ـ احساسات لاتعليل لها ـ علم الفراسة ـ انتقال الافكار ـ حادث نيويورك ـ فى بومباى ـ تجارب جامعتى هارفرود ديوك ـ الأدراك خارج الحواس ـ التلابثى ـ الجـــلاء البصرى ـ ماأثبتته التجارب ـ المعهدالأمريكى للرياضيات يؤيد ـ الاتحاد الأمريكى لعلماء النفس يؤيد ـ الطاقة النفسية المحركة ـ اكتشاف الطاقة بطريقة سلبية ـ ما هى طبيعة (ط.ن.م) ـ الطاقة الانسانية كحقيقة علمية مقررة ـ

علم ما وراء النفس ، الباراسيكولجى

والآن وقد أوشك كتابنا على نهايته ، لم يبق أمامنا بعد هذه الدراسة المستفيضة ، الا أن نسوق آخر ما انتهت اليه تجارب علم النفس فى بعض جامعات الولايات المتحـــدة الأمريكية وكيف انتهت الى اثبات انطواء الانسان على طاقة نفسية باستطاعتها أن تدرك الأشياء عن بعد وأن تحركها كذلك . وقد كان الاثبات هذه المرة بطرق معملية تجريبية احصـــائية تخضع لمنطق الاحصاء والمعادلات الرياضية ، كأى علم طبيعى آخر . ومن الطريف أن هذه الأبحاث الأخيرة قد بدأت من نفس النقطة التى بدأ تفكيرى منها ، وهى هذه الظواهر الانسانية البسيطة التى تعرض لكل انسان ، فيمر عليها مرا كريما ، أو أن يفسرها تفسيرا عابرا سطحيا كأن ينسبها الى الصدفة ، أو فعل الله المباشر اذا كان من المؤمنين الذين ينسبون الى الله مباشرة فعل أى شىء يقع للانسان أو منه .

لقد كانت الظواهر التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق كالدعاء والسحر وتحضير الأرواح ، ظواهر تجمع بينها العقيدة ، بأن الله هو فاعل كل شيء فى موضوع الدعاء ، والجن هى فاعلة كل شيء فى موضوع السحر ، وأرواح الموتى هى فاعلة هذه الظواهر فى موضوع تحضـــير الأرواح . أى أن الاعتقاد السائد عن هذه الأمور كلها ، أنها تتم بفعـــل قوة خارجة عن الانسان . والى جوار هذه الظواهر التى افترقت حولها الآراء ، وجدت مجموعة أخرى من الظواهر ، نظرا لشيوعها ، لم تثر اهتمام الناس كثيرا ، مع أن هذه الظواهر هى مفتاح الظواهر الأكبر والتى حيرت الانسان ، كالايمان والسحر وتحضير الأرواح والدعاء . وقد كانت هى التى دفعتنى بالذات للقول بالطاقة الانسانية وأنها تعمل طبقا للقانون السابق الحديث عنه فى كل ما مضى .

ظواهر شـــــائعة

أو لم يحـدث لك أيهـا القـــارىء الكريم أن فكرت فى انســان لم تره منــذ أمــد طويل وفكــرت لو تلقـــاه ، فاذا بك تراه أمامك بعــد زمن يســـير فى أحــد منحنيــات الطـــريق ؟ (١) أو لم تتمن

(١) من الحوادث المحفورة فى ذهنى بهذا الصدد ما حدث لى ابان زيارتى لمدينة بورسعيد بعد حدوث العدوان الثلاثى عليها . كنت شديد الرغبة أن أحيى اخوانى الذين جاهدوا خلال الاحتلال البريطانى فى بسالة ممثلين فى شخص الأخ شاكر مخلوف الذى كان يصدر جريدة سرية مع نفر من زملائه فى هـــذه الفترة . ولما كان ذهابى الى بورسعيد بخصوص الحضور فى بعض القضايا ، فقد كنت مرتبطا بأصحاب القضية الذين كانوا شديدى اللهفة على العودة الى القاهرة بمجرد الانتهاء من نظر القضية . وبينما كنا عائدين من بور فؤاد الى بور سعيد كان ما يشغلنى ويهمنى ، أن أرجع من بورسعيد دون أن أحقق أمنيتى فى تحية زملائى وخاصة الأخ شاكر ، ورحت أتجول على ظهر المعدية التى تنقلنا، فاذا بى أرى شاكر مخلوف وجها لوجه . لقد كانت هذه لحظة من أسعد لحظات حياتى اذ أكدت لى ماظل طول حياتى يراودنى من انطواء الانسان على طاقة من نوع مـــا .

فى يوم من الأيام حضــور والد أو أم أو حبيب أو صــديق ، فاذا بك تراه داخلا عليك ؟ [1]

ان أمثال هذه الحوادث تعرض لكل انسان وقد عرضت له قديمـا وتعرض له فى هذه الأيام ، فأما فى القديم فلم تكن تثير فى نفسه كبير غرابة كما قدمنا فالايمان بالله وانطواء الانسان على قوة روحية كان كفيلا بتفسير كل شىء .

علم الفراســـة

وقد وجد منذ أقدم العصور من تصدوا لتعليل هذه الظواهر بطريقة تتصل بقوة الانسان الذاتية . فكان أن نشأ علم الفراسة حيث يستطيـع الانسان من مجرد نظرة يلقيها على بعض أعضاء الانسان أو أثر من آثاره ، أن يدرك الكثير عنه سواء عن أخلاقه أو عمله أو تاريخه . وقد عرف قدماء المصريين هذا العلم ، وأشار اليه بقراط قبل الميلاد بنحو أربعة قرون وكتب عنه الطبيب اليونانى جالينوس الفصول الطوال فى القرن الثانى للميلاد . وألف فيه أمير الفلاسفة أرسطو وجعله علما مستقلا . وقد نقل العـرب هذا العلم عن أرسطو فيما نقلوه عنه من علوم ، وألف فيه بعضهم كتبـا

---

(١) لعل من أقوى الوقائع فى هذا الصدد ما حدثنى به أخى الصادق الأمين الاستاذ كمال سعد . فقد هاجمه البوليس ذات يوم لاعتقاله خلال أيام الجهاد القديم ، وكان فى ذلك الوقت يدير عزبة كبيرة قد استأجرها ولم يعرف كيف يتركها هكذا وليس معه مساعد أو معين ، فراح يردد فى نفسه فى حسرة ولوعة لو أن أبى كان هنا الآن ؟ ! فلم تكد هذه الأمنية تستقر فى خاطره حتى وجـد أباه الذى كان يقيم فى بلد بعيد يدخل عليه ، وقد جاء من السفر على غير انتظار وعلى خلاف العادة . فلما سأله كمال عن سبب مقدمه أجابه أنه عقب صـلاة الفجر قرر أن يحضر لزيارته دون أن يدرك لذلك أى سبب خاص . وهكـذا تسلم الأب العزبة من ولده ، ذهب كمال سعد الى معتقله أكثر ما يكون سعادة بهذا التوفيق .

مستقلة كالرازى وابن رشد . ومن العرب نقل الى أوروبا فى العصور الوسطى [1] .

وتكاد الفراسة عند الشعوب الفطرية كالبدو تشبه المعجزات حيث يستطيع الشخص أن ينبئك بالكثير لمجرد رؤيته أثر قدم من الأقدام ، حتى ليحدثك بأن صاحب الأثر مثلا له عين واحدة وأنه يحمل حملا معينا ، وأنه كان مضطربا وأنه مصاب فى يده وهكذا [2] . والى جوار هذه القدرة التى سميت بالفراسة ، كانت هناك قدرة أخرى معروفة كذلك وشائعة ومسلم بها كحقيقة مقررة ، وتلك هى القدرة على قراءة الأفكار وانتقالها من انسان الى انسان . وعلى هذين النوعين من القدرة والكفاءة ، قامت فى كل زمان ومكان حرفة العرافة أو التنبؤ بالمستقبل فى صورها المختلفة ، من تنجيم ، أو مطالعة للكف ، أو فتح الرمل والودع وقراءة الفنجان ... الخ . وقد وجد المشتغلون بهذه الحرفة دائما سوقا رائجة ليس فقط بين السذج والعوام كما قد يظن البعض ، بل بين علية القوم المتعلمين والمثقفين ، ذلك أن المنجم وقارىء الطالع على أى صورة من الصور يتمتع بهذه الفراسة التى أشرنا اليها ، وعندما يضيف اليها قدرته على قراءة الأفكار كما قدمنا ، فانه يصبح فى حالة تجعله يدهش رواده بما يكشف لهم به عما يجرى فى عقولهم ، وما يصوره لهم بفراسته . حول ما يتمنونه ويصبون اليه . وتفسير عمل العرافين من قديم الزمان على هذا الوجه قال به كثيرون فى كل وقت وآن ، باعتبار أن انتقال الأفكار مسألة مقررة .

انتقال الأفكار

والحق أنه لا يوجد انسان لا يمارس من حين وآخر هذه الملكة على قدر من التفاوت بين مختلف الأشخاص . ومن الأمور المألوفة أن يهم

(١) دائرة معارف القرن العشرين ـ مادة « فراسة »
(٢) مشاهداتى فى جزيرة العرب ـ للمؤلف ـ ص ٢٦٢

انسان بقول كلمة أو رأى معين فيسبقه به مخاطبه أو أحد السامعين . وقد جرى العرف الشائع على أن يقول الانسان فى هذه الحالة لمن سبقه بالفكرة (عمرك أطول من عمرى) . وقد فسر العلم الحديث هذه الظاهرة لا على أنها انتقال فكر ولكن على أنهـا مجرد توارد الأفكار ، أى أن كلا من الشخصين قدفكر بطريقة واحدة . ولكن ذلك اذا صح تفسيرا لبعض الحالات ، فهو لا يمكن أن يفسر حالات أخرى يستطيع فيها شخصان متحابان أو متفاهمان بطريقة قوية ، أن يتبادلا على البعد نظرات يفهم منها كل منهما ما يدور فى عقل الآخر على وجه القطع واليقين . فالمسألة ليست تفكيرا مشتركا ، ولكنها مطالعة ما يدور فى ذهن الآخر حيال مسألة معينة . وتزداد الظاهرة عمقا ودلالة عندما يكون هذان الشخصان بعيدين عن بعضهما كما لو كانا فى بلدتين مختلفتين ومع ذلك فان كلا منهما يتصرف كما يحب له الآخر أن يتصرف .

وقد كانت هذه الظاهرة الأخيرة هى ما استلفت الأنظار منذ القديم وكانت تفسر على أنها من ظواهر الروح الخفية ، حتى اذا جاء التنويم المغناطيسى عللها البعض بانتقال الأفكار بواسطة السيال المغناطيسى ، وقد رأينا كيف أنه استبعد من التنويم المغناطيسى فكرة تداخل سيال مغناطيسى ، ولذلك عمد بعض العلماء الى دراسة ظاهرة انتقال الأفكار مستقلة عن التنويم المغناطيسى . وعلى ذلك فقد نشأ ما يسمى علميا بالتلابثى Telepathy وهو ظاهرة انتقال الأفكار عن بعد . وفى هذا الموضوع تقول دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة « تلابثى — ان انتقال المؤثرات من أى نوع كان من عقل الى آخر بعيدا عن طريق الوسائل الحسية العادية هو مسألة مقررة . ويرجع الفضل فى تحديد الظاهرة الخاصة بانتقال الأفكار واطلاق هذا الاسم عليها الى

العلامة شارل مايرس Myers ، فقد كان هو الذى أطلق عليها هذا الاسم بعد تجاربه المشهورة التى قام بها عام ١٨٨٢ ، فقد ثبت من هذه التجارب وجود أشخاص يملكون هذه الموهبة فى تفوق كبير ملحوظ ، ولكن من ناحية أخرى فقد أسقط الرأى الذى كان يقول بأن انتقــال الأفكار يتم بواسطة أمواج يبعثها المخ سواء كانت هذه الأمواج كهربائية أو مغناطيسية أو ما سمى فى بعض الأوقات بالأمواج المخية » [1] .

وسنرى بعد قليل كيف أن هذه المباحث هى التى تطورت فيما بعــد للوصول منها الى القول بانطواء الانسان على الطاقة النفسية المحــركة والقوى الانسانية الروحية بصفة عامة .

وقد كانت هذه الظواهر البسيطة هى كما قلت من قبل الحافز لى على التوفر لدراسة هذا الموضوع ، وقد حان الوقت لأذكر الحادثين المباشرين ، اللذين كانا سببا فى لفت نظرى لهذا الموضوع بكل قوة ، فرحت أضاعف فى اهتمامى وقوة ملاحظتى ، حتى تجمعت لدى هذه المادة التى انتهت الى هذا الكتاب .

فى مدينـــــة نيويورك

أما الحادث الأول فقد وقع لى فى مدينة نيويورك عام ١٩٤٧ ، وكنت قد ذهبت اليها موفدا من قبل أخوانى أعضاء مصر الفتــاة لأقوم بالدعاية للقضية المصرية فى أروقة هيئة الأمم وفى الدوائر الأمريكية ، وكان من بين متطلبات هذه المهمة أن أضع كتيبا باللغة الانجليزية بمساعدة بعض الأخوان عن تاريخ مصر بصفة عامة وتاريخ العلاقات المصرية الانجليزية بصفــة خاصة . وأحسست خلال الطبع بأن الكتاب ينقص فقرة تلخص دور مدينة الاسكندرية فى حضارة العالم وما قامت به جامعتها المشــهورة من دور

(١) دائرة المعارف البريطانية ــ مادة Telepathy
Encyclopedia Britannica .

قيادى فى حياة العالم الروحية والثقافية . فرجوت الطابع أن يمهلنى فترة قصيرة لكى آتيه بالفقرة المطلوبة ، وأسرعت الى دار الكتب الأهلية بنيويورك أبحث عن كتاب أمريكى مشهور لأقتبس منه هذه الفقرة . فسألت الأمين أن يدلنى على كتاب من هذا القبيل فأشار الى الفهرس العام لما كتب عن مصر ، فاذا بأدراج تتضمن الألوف من الكتب ، فحرت وسط هذا الطوفان أى الكتب اختار ؟ وقد كان مجرد محاولة مطالعة أسماء هذه الكتب يحتاج الى ساعات وساعات . وأخيرا خرجت من حيرتى بأن اخترت أربعة كتب حيثما اتفق . ورحت أنتظر مجىء هذه الكتب وأنا على أحر من الجمر ، فاذا بالموظف المختص يحمل ما يزيد عن عشرة مجلدات تؤلف هذه الكتب الأربعة التى طلبتها . ومرة أخرى وجدت نفسى ضائعا وسط هذا الخضم من الكتب حيث يحتاج تصفح كتاب واحد منها الى أيام ، ولما كان وقتى محدودا جدا اذ أمهلنى الطابع فترة الغذاء فقط ، فقد كدت أيأس من امكان تحقيق هذه الرغبة ، ولكنى قبل أن أنصرف نهائيا ، رأيت أن أفتح أحد هذه الكتب حيثما اتفق ، فاذا بى أعثر على الفقرة التى أريدها لأول وهلة [1] . وطوال الطريق أثناء عودتى الى المطبعة كنت مذهولا من هذا الذى حدث ، ورحت أقول بينى وبين نفسى : محال أن يكون ذلك صدفة ، لابد أن تكون هناك علاقة بين شدة لهفتى على الحصول على هذه الفقرة وحصولى عليها بالفعل ، بهذه السهولة والسرعة ، وما فتئت أردد هذا القول منذ ذلك التاريخ حتى الآن وخاصة بعد أن تعزز بالحادث الثانى الذى وقع لى فى بومباى وهو أمعن فى الدلالة من حادث نيويورك .

---

(١) اسم الكتيب الذى أشير اليه

The Story of Egypt and Anglo- Egyptian Relation. By Ahmed Hussein.

والفقرة المشار اليها ــ ص ٣

وقد وقع حادث بومباى عام ١٩٥٣ وكان الحزب الاشتراكى قد دعى للاشتراك فى مؤتمر للأحزاب الاشتراكية الافريقية والأسيوية يعقد فى مدينة رانجون . وقد صرح لى بالسفر فى آخر لحظة فلم تكن هناك أى فرصة للحصول من الحكومة على النقد الأجنبى الذى يصرح به فى أمثــال هذه الحالات ، ولما كنت شديد الحرص على اتباع القوانين فقد رفضت ما عرض على من أن آخذ معى بعض الأموال بطريقة غير قانونية . وعلى ذلك فقد أوشكت أن أغادر مصر بالفعل وليس معى أى مبلغ من المال اللازم للقيام بهذه الرحلة الطويلة حتى جنوب آسيا ، وقد كان ذلك يملأنى قلقا بطبيعة الحال . واذا بنا نفاجأ فى اللحظة الأخيرة قبيل قيام الطائرة مباشرة بصديق هندى يسلم على ، حيث كان فى وداع بعض أصدقائه من الهنود المسافرين، ويسألنى على غير انتظار ، هل أنت فى حاجة الى نقود هندية ؟ فقلت له نعم فأسرع بكتابة خطاب لصديق له فى بومباى يطلب منه فيــه أن يعطينى ما يساوى مائة جنيه مصرى . ووصلت الطائرة الى بومباى فى طريقها الى كالكوتا فرانجون ، ولم تكد الطائرة تحط رحالها حتى أسرعت أبحث عن صاحبى الذى سيقدم لى النقود الهندية ، فاذا بالعنوان المعطى لى هو عنوان مكتب الرجل وقد كان مغلقا بسبب عطلة الأحد . ولم يكن هناك من يعرف منزله ، وهكذا وجدت نفسى من جديد، وقد سد فى وجهى هــذا الأمل الذى كان قد انفتح لى ، وقلت فى نفسى يجب أن أعثر على هذا الرجل ، يجب أن أعثر عليه ، فكيف أذهب الى رانجون خالى الوفاض ؟ وكان العثور على الرجل الذى لانعرف عنوان بيته وسط ملايين مدينة بومباى ، أشبه الأشياء بالبحث عن ابرة فى جوف المحيط . ولقد رويت القصة بتفصيل لا أستطيع أن أعود اليه الآن [1] وذلك فى كتابى (يقظة

(١) انظر كتاب يقظة العملاق ـ للمؤلف .

العملاق) الذى فصلت فيه أنباء هذه الرحلة ، وكيف أننى وقفت فى أكبر ميادين بومباى والألوف من البشر يتدفقون من حولى فاذا بعابر سبيل يلمح حيرتى فيسألنى عما أبحث عنه فأقول له : اننى أبحث عن شخص يدعى (م . س مهتا) فسألنى بكل بساطة عن عنوانه ، فلما قلت له لا أعرف عنوانه نظر الى نظرة أدركت على الفور معناها وأننى جدير بها ، فها هو ذا انسان قد جاء من مصر ليبحث عن رجل فى بومباى لايعرف الا اسمه بل بالأحرى الحروف الأولى من اسمه . ولكن فى الوقت الذى كان الرجل فيه يقاوم سخريته بى كانت هذه الحروف التى نطقت بها قد قرعت سمع واحد من عابرى السبيل فاستوقفته ، وسأل محدثى عما أريده من هذا الاسم الذى لفظته ، فقال له اننى أبحث عنه ، فقال أنه يعرف الرجل ويستطيع أن يقودنى اليه ، ولم أتصور الا أن هذا الرجل قد اكتشف أننى أجنبى فقرر أن يستدرجنى الى مكان ما ، ظنا منه أننى أحمل فى جيبى نقودا طائلة ، فقد كان يستحيل على تصورى أنه من بين هذه الملايين التى تعج بها المدينة من حولى قد ساق لى القدر ،ربما ، الشخص الوحيد الذى يعرف بيته . ومع ذلك فلم يكن بوسعى أن أغفل هذه الفرصة التى سنحت لى فتوكلت على الله وسرت خلف الرجل وأنا أرتجف من الخوف وأحدث نفسى فى كل لحظة أن أبادر بالهرب ثم أراجع نفسى وأمضى فى السير ، وعبثا أقص التفاصيل لهذا الحادث المثير فقد راحت الموافقات العجيبة واحـــدة بعد أخرى تعمل بطريقة لاتكاد تصدق والمهم أننى لم أبرح مدينة بومباى فى منتصف الليل بالطائرة الى كالكوتا ، حتى كنت قد قابلت (م . س مهتا) والذى حدثنى أنه كان غائبا عن بومباى ولم يكن مقدرا له أن يعود فى ذلك الوقت وعندما عرف ما أريد أظهر استعداده لتقديم المبلغ المطلوب صباح اليوم التالى عند فتح البنك . وعندما أعلمته أننى سأغادر البلد قبل

الصباح أظهر شديد أسفه أن لايكون بقدرته أن يقدم لى هذه الخدمة . فى هذه اللحظة ، ووعد بارسال المبلغ الى رانجون ، فقلت له ، ولكن لابد لى من الحصول عليه قبل سفرى الى رانجون فأبدى تعذر تحقيق ذلك فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، والفرصة القليلة التى لاتزال باقية قبل قيام الطائرة . وبينما نحن فى الحديث اذ جاءه صديق يسلم عليه ، فحدثه عن موضوعى فاذا بهذا الصديق يحمل المبلغ معه فقدمه له على أن يأخذه منه فى الصباح . وهكذا غادرت بومباى الى رانجون وأنا أكاد أطير من الفرح بلا طائرة لهذا الذى جرى وتم . ومنذ ذلك التاريخ وأنا دائم السؤال بأى قوة عثرت على الرجل فى بومباى كما عثرت على الفقرة المطلوبة فى نيويورك ؟

أما أصدقائى ومعارفى الذين طالعوا كتابى عام ١٩٥٣ وفيه تفاصيل هذه القصة فقد انقسموا فريقين فى تفسيره ، فالمؤمنون قد رأوا فى ذلك توفيق الله وأثره المباشر فى عثورى على الرجل لاخراجى من المأزق الحرج الذى كنت فيه ، أما الفريق الآخر فقد راح يردد الكلمة المألوفة أو المشجب التى نعلق عليها كل ما نعجز عن تفسيره وتأويله ، وأعنى بها كلمة الصدفة ، الصدفة المدهشة الرائعة . ولقد قلت من قبل أننى لست ممن يقولون بأن الله يتصرف بالقطاعى وحسب الحاجة ، وانما هو يتصرف من خلال القوانين الثابتة فى كل زمان ومكان ، والتى يستطيع أن يستعملها أى انسان أيا كانت درجة ايمانه بالله أو عطف الله عليه . كما أن كلمة الصدفة أصبحت غير سائغة ولا مقبولة وخصوصا بعد أن ثبت أن ما كان يتصور أنه يتم بمحض الصدفة أو خبط عشواء ، قد ظهر أنه ليس كذلك، وأصبح لحلاتمالات قانون ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، قد يكون من الصدفة أن أقابل صديقى الهندى فى مطار القاهرة ، ولكن أمن الصدفة

أيضا أن يبادرنى بأن يعرض على نقودا ليقرضنى اياها ؟ وهل من الصدفة أن أعثر على رجل من خلال بضعة ملايين فى بضع ساعات ؟ وهل من الصدفة أن يعود الرجل على غير مألوف عادته الى بومباى ؟ وهل من الصدفة أن يقابل فى اللحظة الأخيرة من يقدم له المال الذى أريد ؟ أن قانون الاحتمالات يقول أنه اذا جاز تصور أحد هذه الحوادث على أنها مصـــادفة ، فان التقاءها على هذه الصورة ، يجعل فرصة الاحتمال فيها واحد على رقم قد لا يكفى هذا الكتاب كله لتسجيله .

لا ليست هذه صدفة ، وانما مسائل تجرى وفق قوانين ثابتة ومعينة . وهكذا بدأت دراستى ورحت أسترجع هذه الحوادث التى مرت فى حياتى والتى أشرت الى بعضها ولم أشأ أن أشير الى الكثير منهـا لاعتبـارات مختلفة ، ثم مددت دراساتى الى معارفى ومن يحيطون بى ، ورحت أطالع كل ماقيل وكتب فى هذا السبيل . فكانت هذه المباحث التى عرضتها فيما سبق . ولم أكن أدرى بعد أن وصلت الى هذه الدرجة من الدراسة ، أن أساتذة جامعيين فى الولايات المتحدة الامريكية قد سبقونى الى اثبات هذه الظواهر الانسانية بطريقة تجريبية معملية ، أى تخضع للقياس والاحصاء والحقائق الرياضية . بل أن بعض هذه التجارب قد أجريت تحت اشراف عالم النفس الكبير مكدوجل ، والذى أشرف على المباحث التى أجرتهـا جامعة هارفورد ، وأن هذه المباحث قد حفزت جامعة أخرى للتخصص فى هذا النوع من الأبحاث وهى جامعة ديوك الامريكية والتى تشتغل فى هذه التجارب منذ عشرين سنة . حقا لقد صادفتنى اشارات عابرة عن هــذه الجهود فى بعض الكتب التى طالعتها [١] ولكننى لم أفهم من هذه الاشارات

(١) أشار الى هذه المباحث وخطورة نتائجها الكسيس كاريل فى كتابه « الانسان ذلك المجهول » كما أشار اليها « جوليان هكسلى » فى كتابه « الانسان فى العالم الحديث » وتحدثت عنها دائرة معارف امريكا .

ضخامة الجهد الذى بذل ، ولا عمق الاكتشافات التى أمكن التوصل الى اثباتها ، حتى كان كتاب العقل وسطوته ، وهو الكتاب الذى ألفه الدكتور راين الذى قام بهذه المباحث ، ولخص فى هذا الكتاب النتائج التى أمكن التوصل اليها ، والذى تفضل الدكتور محمد الحلوجى مشكورا فترجمه .

الادراك خـــارج الحواس

وقد قامت تجارب جامعة ديوك المضنية ، حول اثبات ما أطلقوا عليه تعبير « الادراك خارج الحواس » وهو التعبير الشامل لظاهرات الجلاء البصرى والتلابثى والتنبؤ بالمستقبل ، ثم امتدت التجارب بعد ذلك لاثبات (• ط • ن • م) والفكرة الأساسية التى قامت عليها هذه التجارب ، كانت هى التوصل من خلال اختبارات بسيطة وظروف لا تعقيد فيها ، لاثبات بعض الظواهر التى توصف بأنها روحية ، وذلك بغير حاجة الى هــذا الاظلام التام الذى يسود جلسات تحضير الأرواح . ان أى نتيجة تحدث فى الظلام ، تبقى دائما مشكوكا فيها ، وكثيرا ما يتكشف غش الوسطاء فيدعو ذلك للتساؤل عما اذا كانت التجارب السابقة التى لم يكتشف فيها غش الوسطاء كانت الرقابة فيها غير محكمة وبذلك يسقط الدليل المستفاد منها . [١] ولذلك فقد بحثوا عن تجربة يمكن اجراؤها فى وضح النهار ، وتطبق على جميع الأشخاص لا على طائفة خاصة أو محدودة ممن يطلق عليهم اسم الوسطاء ، وأن تكون بحيث يمكن قياس نتائجهــا بالطــرق الاحصائية . وقد اعتبرت هذه الشروط كلها متوفرة فى طريقة التعرف على أوراق الكوتشينة عن بعد كوسيلة لاختبار الجلاء البصرى أولا ، والتلابثى ثانيا . وقد بسطت الكوتشينة سواء من جيث العدد أو الصور المستعملة وذلك لضبط العملية وقيدها ومراجعتها وحساب الاحتمالات الرياضية .

---

(١) العقل وسطوته ــ ص ١٠١

فقصر عدد أوراق الكوتشينة على ٢٥ قسمت الى خمس مجموعات تحمل كل منهـا صورة (نجمـة — مستطيل — صليب — دائرة — خطوط متموجة) وأطلق على هذه الكوتشينة اسم « كارتات خارج الحواس » .
وبدأت التجارب فى بادىء الأمر بداية بسيطة ، فكانت الكروت تعرض على الوسطاء ويشرح لهم الغرض من التجارب ثم توضع وجوه الكارتات الى أسفل على المائدة أمام الوسيط ، وكان على الوسيط أن يتعرف على الكارت الأعلى وحينما يذكر الشكل الذى يراه يكتب المجرب الذى كان يجلس أمام الوسيط الاجابة على ورقة ثم يسحب الكارت الثانى ويتعرف عليه وهكذا حتى تنتهى جميع الكروت . ثم تراجع الكروت فى المجموعة على الأجوبة المسجلة ، لمعرفة مقدار النتائج الناجحة ، وكان التشجيع يقدم للوسيط ما أمكن ثم تفنط الكوتشينة وتعاد التجربة . وطبقـا لقوانين الحظ ، فان الأجوبة الصحيحة تبلغ فى المتوسط خمسـة فى كل خمسة وعشرين . فاذا أصاب الوسيط نجاحا أكبر من ذلك فان الأجوبة الناجحة تسجل بواسطة مسطرة خاصة اسمها « الانحراف المعيارى » وهذه المسطرة التى كانت كثيرة الاستعمال قبل ذلك فى كثير من العلوم ، كانت تدل على النتائج الزائدة عن الحظ وحده .

وعلى هذه الوتيرة مضت التجارب عشرات ومئات بل وألوف المرات ، والاحتياطات تزداد شدة يوما بعد آخر ، فبعـد أن كان الوسيط يجلس بحيث يرى المجرب ، أصبح يجلس بحيث لا يراه ، اذ كان المجرب يجلس خلف ستار . وفى بعض التجارب جلس كل من الوسيط والمجـرب فى حجرتين مختلفتين . وأخيرا وصل الأمر فى التجارب الى حد جلوس كل من المجرب والوسيط فى بنائين مختلفين ، ظلا يتباعدان حتى وصل البعد بينهما فى بعض التجارب مئات الكيلو مترات .

وفى عام ١٩٣٤ نشر أول تقرير علمى عن هذه التجـارب ، وكان أبرز ما تحتويه هذه التجارب هو استطاعة رجل أن يحصـل على متوسط ٨ اجابات صحيحة فى كل ٢٥ كارت ، أى بزيادة ٣ كروت عن المتوسط المتوقع فى كل كوتشينة وذلك خلال ٧٠٠ دورة . وقانون الحظ والاحتمالات ينص على احتمال أن يصل الانسـان فى حالة من مائة حالة ، الى أن يصيب ٨ اصابات صحيحة من ٢٥ لمدة ثلاث مرات متوالية . أما حصول انسـان على هذا القدر من الاصابات فى ٧٠٠ مرة فيقتضى عددا من الأرقام يستغرق هذه الصفحة كلها . ولذلك اعتبرت الاصابات التى حققها هذا الشخص وحده لها من المغزى ، ما من شأنه اخراج الحظ من الموضوع اطلاقا . وقد كان المتوسط العام لكل ما أجرى من التجارب وعددها ٨٥ ألف كوتشينة هو ٧ نقط فى كل كوتشينة أى من ٢٥ كارت . وقد اعتبر الحصول على هذا المتوسط فى مجموعة كبيرة من التجارب حدثا معجزا فى الدلالة على الادراك خارج الحواس . وقد حدث خلال هذه التجارب أن تمكن بعض الأشخاص من الحصول على ٩ اجابات صحيحة متتالية ، ثم استطاع فى تجربة أخرى أن يحرز ١٥ اصابة صحيحة متتالية ، واستطاع شخص أن يحرز ٢٥ اصابة صحيحة أى كتشينة كاملة .

يقول الدكتور راين تعليقا على هذه النتائج « ولقد كانت هذه النتائج الرائعة (٢٥ من ٢٥) نادرة ولكنها حين وقعت أزالت كل شك من امكان انطباق أى نظرية للحظ عليها . وكانت نسبة أكبر نجاح اشتمل عليها تقرير فى كل تاريخ الباراسيكولوجى هى تلك التى أجريت بمعرفة الأسـتاذ ت . ن . رايس أستاذ علم النفس بجامعة هنتر بنيويورك ، وكان الوسيط الممتاز بنتا اشتهر عنها أنها روحية وغير محترفة . وقد أجريت التجارب فى ظروف مواتية ، وكان المرسل والمستقبل فى بناءين مستقلين ، وقد اعتمد

على ساعات متوافقة في الضبط ، وقام الدكتور رايس نفسه كمحطة ارسال مستعينا بكوتشينة (١ • خ • ١) ومؤديا محاولة واحدة فى كل دقيقة . وتحت هذه الظروف أمكن للوسيطة أن تحصل على ١٨ نقطة من ٢٥ خلال سلسلة من ٧٤ تجربة . وفى احدى الحلقات وصلت نسبة الاصابة الى ٢٥ من ٢٥ ، كما أن عددا آخر منها كان مستواه أعلى من ٢٠ فى كل ٢٥ (١)

المعهد الامريكى للرياضيات يؤيد

وقد حدث عندما نشرت تقارير هذه التجارب فى المجلات العلمية ، أن ثارت فى وجهها الاعتراضات والانتقادات ، على أساس الناحية الاحصائية الرياضية ، فما قيل بأنه متوسط الحظ فليس كذلك ، وعلى ذلك تنهار النظرية من أساسها ، ويكون ما حدث هو نتيجة الصدفة البحتة . فقام فريق من أعلام الرياضة فى أمريكا يؤيدون صحة الأسس الرياضية والاحصائية التى استندت عليها تجارب جامعة ديوك ، وظل الأمر محل أخذ ورد حتى كان ديسمبر عام ١٩٣٧ وهو تاريخ انعقاد المؤتمر السنوى للمعهد الامريكى للرياضيات الاحصائية فى مدينة انديانا بوليس ، وقد أصدر هذا المؤتمر تصريحا للصحافة عززه المعهد بصفة رسمية وهذا هو نص هذا التصريح « ان أبحاث الدكتور راين لها مظهران ، مظهر تجريبى ومظهر احصائى ، فمن الناحية التجريبية فليس لدى علماء الرياضةمايقولونه بالطبع ، أما من الناحية الاحصائية فان الأبحاث الرياضية الحديثة قد أثبتت الحقيقة آنه مع افتراض صحة الطريقة التى أجريت بها التجارب ، فان التحليل الاحصائى لها صحيح وثابت ، واذا كان هناك عدالة فى نقد أبحاث

(١) العقل وسطوته ــ ص ٥٠

الدكتـــور راين فيجب أن توجـه الى النواحى الأخـرى غير النواحى الرياضية [1] .

تأييد الاتحاد الأمريكى لعلماء النفس

وكان من أثر هذا التصريح أن تلاشى الهجوم على التجارب من الناحية الرياضية الاحصائية وظل يلوذ بالنواحى الأخرى من التجـارب . وعلى ذلك فقد رؤى أن يدعى الاتحاد الامريكى لعلماء النفس الى مؤتمر مائدة مستديرة لمناقشة طريقة التجارب التى سارت فيها (ا . خ . ا) فعقـد لذلك اجتماع فى كولمبس بأوهيو فى سبتمبر عام ١٩٣٨ ، ونظم الاجتماع بحيث يقوم ثلاثة ممن يمثلون أبحاث (ا . خ . ا) بعرض أبحاث قصيرة على طريقة المناظرة ، ثم يعقب ذلك مناقشة مفتوحة للجميع . ولم تكد المناقشات تنتهى ويرفض الاجتماع ، حتى كانت أصوات النقـد كلهـا قد خفتت وأصبح المعترف به فى الولايات المتحدة الامريكية ، أن هـذا الاجتماع كان هو نقطة تحول كبرى فى اعتراف العلم الحديث بأبحـاث الادراك خارج الحواس .

الطاقة النفسية المحركة (ط٠ن٠م)

وكما كان حادث عثورى على الرجل الهندى فى بومباى هو الحافز لى على بدء هذه الدراسة التى خرجت منها بالاعتقاد أن الانسان هو مولد الطاقة التى تحقق ارادته وموضوع عقيدته ، فكذلك كان شأن هذه المباحث الأولية فى جامعة ديوك اذ تطوروا منها الى محاولة اثبات الطاقة الانسانية القادرة على التحريك والتأثير على البيئة . فانتهت التجارب التى استخدمت لتحقيق هذا الغرض الى اثبات وجود هذه الطاقة بالفعل ، وفى ذلك يقول

---

(١) المصدر السابق ـ ص ١٨٥

الدكتور راين « الطاقة النفسية المحركة أو الباراكنزيس ، هى كلمةجديدة لتعبر عن فكرة قديمة ، وانا لنجدها فى معاجم اللغة بمعنى « فعل العقل فى الجهاز المادى » والاعتقاد بوجود هذه القدرة للعقل وخصوصا فيما يتعلق بصلتها بالجسد ربما كان قديما قدم التفرقة بين العقل والجسد . وهى من تلك الأفكار المعروفة من بين المدركات التى نسلم بها ولا نلحظها فى حياتنا الفكرية . فمن الواضح اذن أن يكون هناك نوع من الطاقة الروحية المحركة فى كل مرة يثير فيها تفكيرنا النشاط العصبى العضلى اذا افترضنا أن تفكيرنا يفعل ذلك ، فهذا الأثر النفسى المادى يحدث بوضوح تغييرات كهربائية وأخرى مادية فى المخ ، فتبدأ سلسلة من التفاعلات المادية فى أعصاب الجسم وعضلاته . » (١)

وقامت تجارب (ط • ن • م) على النرد (الزهر الخاص بالطاولة) باعتباره الوسيلة التى تتوفر فيها كل الشروط المطلوبة من حيث البساطة وامكان استخدامها على نطاق واسع بطريقة معملية وتكرارها ألوف المرات بعد احاطتها بالضمانات المطلوبة ، ثم استخلاص النتائج الاحصائية الرياضية .

وقد كان اختيار النرد كوسيلة لاكتشاف (ط • ن • م) اختيارا موفقا فكثير من الأشخاص يعتقدون أن لديهم القدرة على التأثير فى الزهر والحصول على الرقم الذى يريدونه أثناء اللعب . وجعلت دورة رمى الزهر هى٢٤ للزهر الواحد فاذا كانا زوجين تكون الدورة ١٢ فقط فاذا كانوا ثلاثة تكون الدورة ٨ مرات ومعدل الحظ أو الصدفة هو ٥ مرات فى كل دورة . ومع استمرار التجارب كانت الاحتياطات والضمانات تزداد باستمرار لاخراج أى عنصر مؤثر خلاف الطاقة النفسية . فصنعت أحجار

(١) المرجع السابق ــ ص ٩٥

الزهر من مواد مختلفة وأحجام متفرقة ، وعهد بقذفها الى احدى الآلات حتى لا تتدخل اليد أو الأصابع . وعلى هذه الوتيرة مضت مئـــات من الدورات التى تولاها وسطاء مختلفون . ولقد استمرت هذه التجـارب أربعة عشر عاما . وقد كان متوسط النجاح فى البداية أعلى من متوسط الحظ زيادة طفيفة ولم تكن هناك متوسطات مرتفعة بشكل ملحوظ ، ولم يحدث فى كل تجاربنا ما يعادل الارتفاع فى (ا • خ • ا) ولم يحدث خلال تجارب الأربعة عشر عاما حالة حدث فيها نجاح كلى كما كان يحــدث فى (ا • خ • ا) واستعملت نفس الأساليب الاحصائية المعتمدة بموافقــة السلطات الرياضية المختصة فى رياضيات الصدفة والاحتمالات .

اكتشـــــاف الطاقة بطريقة سلبية

وقد كشفت تجارب (ط • ن • م) عن وجودها بطريقة سلبية ، بمعنى أن الدورات الأولى فى التجارب كانت تبدأ دائما فوق معدل الصدفة ثم تظل هذه المعادلات تتناقص وتتناقص . وقد لوحظ أن هذا الانخفــاض يتم بطريقة منتظمة فى جميع التجارب التى أجريت سواء فى جامعة ديوك أو فى غيرها من الجامعات التى أجريت فيها هذه التجارب . فكان هذا التطــابق غير العادى والانتظام المستمر فى هبوط النتائج ، هو الدليل الذى اتخذ على وجود هذه الطاقة النفسية ، وأنها تكون أعظم ما تكون ارتفاعا عند بدء أى تجربة ثم تروح تتناقص بالتدريج مع استمرار التجربة [1] فقد أكد

(١) ليس هناك مايفسر هذا الهبوط المستمر فى تجارب (ط٠ن٠م) الا نظريتنا فى الطاقة الأنسانية وما تقوم عليه من عنصر الاعتقاد والتصور ٠ فان التجارب تبدأ دائما من نقطة الى الاعتقاد اقرب سواء فى نفس المجرب أو الوسيط ، ومع استمرار هذه التجارب بدون نجاح يذكر يجعل الشك يتسرب الى العقيدة فيكون الهبوط ، والهبوط يؤدى الى هبوط جديد وهكذا حتى يحل الاقتناع بالفشــل محل الاعتقاد بالنجاح ، فاذا بالنتائج تتحول الى سلبية بحتة حتى لتهبط الى دون معدل الحظ ٠ (راجع بالتفصيل هذه التجارب فى كتاب العقل وسطوته)

علماء الرياضة أنه من المحال أن يكون هذا الانخفاض المستمر المنظم من عمل الصدفة .

وفى عام ١٩٤٣ نشر تقرير جامعة ديوك عن (ط . ن . م .) وعرض هذه التجارب التىاستغرقت بضع سنوات وختم التقرير بالنتيجة الآتيـة « واذن فان للعقـل قوة يستطيع بها أن يؤثر فى المادة ، ومهمـا كانت (ط . ن . م) وأيا كان نشاطها فانها تعمل للمادة شـيئا يستطاع قياسه احصائيا — وهى تحدث نتائج فى البيئة المادية لا يمكن تعليلها بأى عامل أو نوع من الطاقة معروف لعلم الطبيعة . وعلى أى حال فلا بد من وجود طاقة يمكن تحويلها الى نشاط مادى ، هذه الطاقة هى الطاقة العقلية » [١] وهكذا لم يعد موضوع الطاقة الانسانية مسألة نظريات أو فروض ، بل أصبحت حقيقة واقعة تنشر عنها الأبحاث العلمية الدقيقة ، وتؤيد بقوانين الرياضة والاحصاء .

مــاهى طبيعــة ط . ن . م ؟

والسؤال الآن ماهى طبيعة هذه الطاقة الانسانية المحركة وهذا الادراك خارج الحواس ؟

يجيب الدكتور راين كما رأينا أنها من طبيعة تخالف طبيعة المادة وأن القوانين التى تحكمها قوانين تغاير قوانين المادة . وليس هناك ما يمنـع أن يكون الأمر كذلك ، ولكن الحجج التى ساقها الدكتور راين لذلك لا تؤدى فى رأينا لهذه النتيجة .

فهو يقول أن (ا . خ . ا) أى الادراك خارج الحـواس لابد أن تكون طاقة غير مادية لأنها لا تخضع لقوانين المادة المقررة كتناسب الطاقة

---

(١) المرجع الســـابق ـ ص ١٢١

تناسبا عكسياً مع مربع المسافة . فقد ثبت عنده أن نسبة الاصابة فى الجلاء البصرى والتلاشى ، قد تزيد بازدياد المسافة وقد تهبط مع تقصير المسافة. وكذلك الحال بالنسبة لـ (ط • ن • م) فهى لا يمكن أن تكون طاقة مادية لأنها تخرج على قوانين المادة خروجا يمس فى الصميم العلاقات المادية والأسس التى يقوم عليها علم الميكانيكا ، فلا الكتلة ولا العدد ولا الشكل ، بالذى يؤثر على اختبارات (ط • ن • م)

والحق ان الانسان ليلحظ فى حالة الدكتور راين ، ما يلحظه بالنسبة لكل من يعتقد أمرا من الأمور ، اذ يرى المسائل دائما من وجهة نظر عقيدته (وما أبرىء نفسى من ذلك) وواضح أن الدكتور راين من المؤمنين بالروح وأنها شىء يختلف عن المادة ، ولذلك فهو يفسر الظواهر بما يؤكد هذه الفكرة .

وفى رأينا أنه لا محل للتحدث اطلاقا عن تغير المسافات فى هذه التجارب أو تغير الأحجام والأوزان وهل كان لها تأثير فى نتائج الطاقة أم لا فان أبسط قواعد التجريب العملى هو المحافظة على وحدة العناصر فى كل تجربة باستثناء عنصر واحد هو الذى نغيره ، ومن هنا نستطيع أن نوجد العلاقة بين هذا العنصر الواحد الذى تغير وبين النتائج . ولا شك أن ذلك كان متعذر التحقيق فى كل التجارب التى قام بها الدكتور راين ، فقد قرر هو نفسه فى صفحة (١٢٤) أن الوسطاء كانوا ينفرون من الزهر المفرد بينما يقبلون بحماسة على الزهر المزدوج . ومعنى هذا أن الكتلة هنا اذا كانت تغيرت ، فقد تغير فى نفس الوقت العامل النفسى ، ومن ثم فلم يعد باستطاعتنا أن نقرر أن التغير فى الكتلة لم يكن له أى تأثير فى النتائج ، لأننا لا نعرف أى العاملين أقوى من الآخر عامل ازدواج الكتلة ، أم عامل ازدياد النشاط النفسى . وقد اعترف الدكتور راين نفسه أن « قوانين

الاهتمام والحماسة وليست قوانين الحركة هى التى كانت تقرر مستوى الاصابات . [1] فالاستنتاج اذن بأن (ط . ن . م) ليست مادة لأنها لا تخضع للقوانين الخاصة بالتربيع العكسى ، والحجم والعدد ، هو استنتاج غير سائغ لأنه قد بنى على أن قوانين الاهتمام والحماسة ليست من نوع القوانين المادية ، وهى بذاتها المسألة المطلوب اثباتها ، فلماذا لا يكون الاهتمام والحماسة هما مظهر طاقة مادية من نوع ما ؟

ونحن وإن كنا لا نستبعد أن تكون الطاقة الانسانية من نوع يغاير الطاقة المادية ، فنحن مع ذلك ممن أصبحوا يرون أن شقة الخلاف بين ماهو مادى وغير مادى قد أصبحت غير ذات موضوع ، بعد أن أكد لنا العلم الحديث أن المادة لم تعد هذا الشىء المحسوس أو الملموس لنا ولآلاتنا ، بل ان من المادة ماعجزنا حتى الآن أن ندركه بأدق آلة من آلاتنا ، وبعد أن أصبح يقال ان الطاقةمادة ، والأشعاع مادة ، بل والنور مادة تتألف من فوتونات ، تنجذب ويمكن أن توزن ، فلست أرى أى أهمية أو ضرورة للقول بثنائية الكون لامكان تفسير مافيه من ظواهر ، ولعله من الأدق أن يقال أن هذه الطاقة أو تلك تخالف الطاقات المعروفة حتى الآن ،وتعمل بقوانين تخالف القوانين التى نعرفها حتى الآن ، ولكن ذلك لا يعنى بحال أنها طاقة من طبيعة تضاد طبيعة المادة أو تقف منها على طرف نقيض [2]

الطاقة الأنسانية حقيقة مقررة

على أنه مهما يكن القول فى طبيعة الطاقة الانسانية ، فهذا ما تترك للأيام والأجيال أن تكشف عنه ، أما الآن فحسبنا أن نقرر أن انطواء الانسان

---

(١) المرجع السابق ـ ص ١٢٥

(٢) حياة الروح فى ضوء العلم ـ ادموند ٠و٠سينوت ـ ترجمة اسماعيل مظهر ٠

على هذه الطاقة مسألة لا ينبغي أن تثير أى جدل ، ونقصد بالطاقة الانسانية هذه القوة التى نقول عنها أنه لا يحدها حد ، والتى تحقق للانســـان موضوع ارادته وعقيدته .

ومن الواضح أن هذه التجارب التى قامت بها جامعات أمريكا ليست سوى البداية ، وانى لأرجو أن يكون كتابى هذا حافزا لمزيد من التجارب بالأسلوب الذى اتبعته جامعة ديوك أو بغيره من الأساليب التى قد تكون أصح ، وانى لأرجو أن تذهب التجارب الى ما وراء اثبات وجود هــذه الطاقة ، فان البشر يزاولون هذه الطاقة بالفعل وسيظلون يزاولونها ، والمهم الآن هو أن تقاس هذه الطاقة بطريقة ما تمهيدا لاثبات هذا القانون الذى يحكم هذه الطاقة وهو ما نقول به وما سنحاول أن نضعه فى صيغته النهائية فى الفصل القادم .

مراجع خاصــــة

بالفصلين الثامن والتاسع

٩٩ — فنون السحر — الأستاذ أحمد الشنتناوى — (من سلسلة اقرأ)

١٠٠ — غاية الحكيم — لمسلمة بن أحمد المجريطى الأندلسى
(مخطوط بدار الكتب المصرية)

١٠١ — قضية التحريض على حرق مدينة القاهرة — للمؤلف

١٠٢ — فى ظلال المشنقة — للمؤلف .

١٠٣ — فى البدء كان الكلمة — الأستاذ خالد محمد خالد

١٠٤ — مجلة علم النفس — المجلد السادس العدد الأول — السحر فى ضوء علم النفس — للأستاذ نجيب يوسف بلدى .

١٠٥ — العالم غير المنظور — على عبد الجليل راضى

١٠٦ — مشاهداتى فى جمعيات لندن الروحية — على عبد الجليل راضى

١٠٧ — ثلاثون سنة بين الموتى — كارل . ا . ويكلاند — ترجمة على عبد الجليل راضى .

١٠٨ — على حافة العالم الأثيرى — ج . أرثر فندلاى — ترجمة أحمد فهمى أبو الخير .

١٠٩ — هودينى الوسيط الروحى المتساحر — أحمد فهمى أبو الخير .

١١٠ — السيكولوجيا والروح — أحمد فهمى أبو الخير .

١١١ — عالم الروح — مجلة العلم الروحى الحديث — لصاحبها أحمد فهمى أبو الخير — مجموعة السنة الأولى ١٩٤٨ .

١١٢ — جبروت العقل — جلبرت هايت ترجمة فؤاد صروف .
١١٣ — العقل وسطوته — الدكتور ج . ب . راين — ترجمة محمد الحلوجى .
١١٤ — حياة الروح فى ضوء العلم — ادموند و . سينوت — ترجمة وتقديم اسماعيل مظهر .
١١٥ — فى عالم الفلسفة — الدكتور أحمد الأهوانى .

مراجع سبقت الاشارة اليها

— القرآن الكريم
— التاج الجامع للأصول
— احياء علوم الدين
— مقدمة بن خلدون
— تاريخ مصر القديمة — بريستد
— قصة الحضارة
— من نافذة العقل
— أساطين العلم
— دائرة معارف القرن العشرين
— دائرة المعارف البريطانية .
— دائرة المعارف الأمريكية .

الفصل العاشر

قانون الطاقـــة الإنسانية (ق.ط.ا)

القوانين العلمية للاستقراء الناقص ـ قوائم الحضـور والغيبة ـ التلازم فى الوقوع والتخلف ـ الصور الذهنية ـ الأسباب المؤدية الى وضوح الصـورة وشـدة التركيز عليها ـ كيف تتحقق الأهـداف والغايات ـ ماهية الطاقة الانســانية ـ قانون الطاقة واستثناءاته ـ القـانون يعمل طردا وعكسا ـ الانسان مسـتودع الطاقات كلها ـ الطاقة النووية ـ كيف يطلق الانســان الطاقات ؟ هل الآلات ضرورية لاستخدام الانسان للطاقة ـ ضخامة الآلة مظهر عجز الانســان ـ التناسب العكسى بين تطور الآلة وقوى الانسان الذاتية ـ تناقص قوى الانسان الذهنيـة ـ انطواء الجسم البشرى على كل الآلات ـ الانســان بذرة الكون .

أى هدف انســـانى × درجـة ضرورته = وضــوح صورته فى الذهن × شدة التركيز = طاقة تحقق الهدف فى الخــارج — عنـد غيـاب الظـروف المعاكســة

تلخيص وتحليـــل

كان سبيلنا فى الفصول الأربعة السابقة ونحن ندرس الارادة وعملها ، والعقيدة وتأثيرها ، وصور العقيدة المختلفة ، كالتنويم المغناطيسى والدعاء والسحر وتحضير الأرواح والتلابثى والجلاء البصرى ، أن نفحص هذه الظواهر كلها ، ونكشف عن الظروف والملابسات التى تحيط بها ، والشروط التى أجمع كل المشتغلين بها على وجوب توفيرها ، وذلك تمهيدا لاستخلاص نظرية عامة تصلح لتفسير هذه الظواهر كلها وتربط بينها برباط واحـد ، من شأنه أن يحـول النظرية الى قانون علمى بعـد مزيد من التجارب

والاختبارات . وأحسب أنه صار فى مقدورنا أن نصوغ هذه النظرية أو ذلك القانون ، الذى لا شك أن القارىء نفسه قد أدركه لكثرة ما كررناه ، ومن حسن الحظ أن القوانين العلمية لاتزعم لنفسها ثباتا مطلقا من نوع ثبات القوانين الرياضية أو المنطقية [1] .

ذلك أن الرأى مستقر على أن القوانين العلمية لايمكن أن تقوم على الاستقراء الكامل ، وانما يكتفى فيها بالاستقراء الناقص ، وهو ما تتم فيه ملاحظة بعض النماذج وتعميم الحكم بعد ذلك على بقية الأفراد فى كل زمان ومكان ، وذلك لاستحالة ملاحظة كل فرد من أفراد الظاهرة .

فالقوانين الطبيعية لايمكن أن تكون يقينية بطبيعتها ، بل هى الى حد كبير احتمالية ترجيحية بمعنى انها تظل صادقة مالم يثبت بطلانها . وليس أمام العلم من سبيل غير ذلك [2] .

وقد رأينا مصداق ذلك فى تغير القوانين العلمية ، تبعا لما يظن أنه ازدياد المعارف البشرية . فاذا قلنا اننا بصدد استخلاص نظرية أو قانون علمى خاص بالطاقة الانسانية ، فنحن نعمل داخل هذا النطاق من القوانين والمبادىء . وقد كان فرنسيس بيكون الفيلسوف الانجليزى الذى عاش فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أول من وضع من الأوروبيين منهاجا للبحث والكشف عن أى ظاهرة علمية ، وذلك عن طريق اعداد ثلاث قوائم عقب دراسة أى ظاهرة يراد تفسيرها أو تعليلها . فيدرج فى القائمة الأولى

---

(١) مثال القوانين المنطقية الثابتة ثبوتا مطلقا ، قانون الذاتية ، وهو قولنا ان الشىء هو ذاته ، أى أن « ا هو ا » . ومثال القوانين الرياضية ، قولنا ان مجموع زوايا المثلث تساوى قائمتين »

(٢) مسائل فلسفية للدكاترة الطويل وزكى نجيب محمود وعبده فراج ــ ص ٩٠

من هذه القوائم الحالات التى تتحقق فيها الظاهرة ، وتسمى هذه القائمة قائمة الحضور أو الاثبات . وقائمة ثانية يثبت بها الأحوال التى تتخلف فيها الظاهرة وتسمى قائمة الغياب . أما القائمة الثالثة فقد خصصت للمقارنة والتفاوت فى الدرجة من حيث الشدة والضعف بالنسبة للظاهرة . على أن طرق الاستقراء العلمى قد وجدت صورتها المتكاملة على يد جون ستيوارت مل ، فجعل السبيل لتمحيص الفروق واختيار أصوبها يتم من خلال ثلاث طرق تكاد تكون تعبيرا باسلوب جديد عن قوائم بيكون الثلاث .

الطريقـــــة الأولى

طريقة التلازم فى الوقوع ، ويراد بها أن وجود العلة يستلزم دائما وجود معلولها فى كل الأحوال ، حتى يمكن استخلاص أن ذلك الشىء هو علة هذا الشىء الآخر .

الطريقـــــة الثـانية

طريقة الاختلاف أو التلازم فى التخلف ، وتقوم على قاعدة أن غياب العلة يستتبع غياب معلولها فى جميع الأحوال .

الطريقـــــة الثـــالثة

الجمع بين الاتفاق والاختلاف ، بمعنى أن وجود العلة يستتبع وجود معلولها وتغيب العلة يستتبع غياب معلولها ، وهو ما سبقهم علماء المسلمين الى تقريره فى هذه القاعدة الأصولية من أن «العلة تدور مع المعلول وجودا وعـــدما » .

وعلى هدى هذا المنهاج ، باستطاعتنا أن نمضى الى استخلاص قانون الطاقة الانسانية على ضوء التحليل الذى قمنا به لشتى ظواهر النشاط الانسانى .

ولقد رأينا أن أول ما يصادفنا عند تحليل أى نشاط انسانى ، ابتداء من القيام بأبسط حركة كتحريك اصبعه أو هز رأسه ، حتى قيادة الشعوب واشعال نيران الحروب واختراع وسائل المواصلات والصعود الى القمر ، فلابد أن يكون ذلك كله مسبوقا ومستندا الى صور ذهنية ، تتجلى فى الذهن أولا ثم تتحقق فى الخارج ثانيا . وحيث لاتوجد صورة ذهنية فلن توجد أى حركة انسانية من أى نوع من الأنواع وهكذا نجد التلازم فى الوقوع والتخلف بين الصور الذهنية وتحولها الى عمل وحركة ســواء فى داخل جسم الانسان أو خارجه . فلا نكون قد عدونا الصواب اذا قرنا أن الصور الذهنية هى علة كل ما يقع من الانسان من نشـــاط مهما كان نوعه أو كانت درجته .

قوة التركيـــز

ثم نلاحظ بعد ذلك أن وجود الصور وحـــده فى الذهن لا يكفى لتحققها ، فما أكثر الصور التى تغمر أذهاننا سواء فى حالة النوم أو اليقظة دون أن تتحول الى حركة أو عمل من أى نوع كان ، فأنا فى هذه اللحظة بالذات أتصور نفسى وقد توقفت عن الكتابة ، ونهضت واقفــا وخرجت من الحجرة ، ومع ذلك فان شيئا من ذلك لم يقع ، وهأنذا ما زلتمستمرا فى الكتابة ، ذلك لأن كل اهتمامى فى هذه اللحظة وكل تركيزى هو على الاستمرار فى الكتابة ، ولا سبيل لتوقفى عن الكتابة ، وخروجى من الحجرة الا أن أنقل التركيز من الكتابة الى الخروج .

ومعنى ذلك أن التركيز عنصر لازم لتحقيق أى صورة تنشأ فى الذهن، فلا سبيل لنا الى مطالعة كتاب أو حفظ قصيدة أو متابعة محاضرة ، أو تحقيق أى عمل الا بتركيز الاهتمام أو الانتباه الى هذا الأمر . أيمكنك

أن تسمع الا اذا أرهفت سمعك ، أو تنظر الا اذا صوبت بصرك باتتباه ؟ ان العين قد تكون مفتوحة ومع ذلك فهى لا ترى ، والأذن موجهة نحو الصوت ثم لا تسمع لأن الذهن يكون مشغولا بأمر آخر وما من رسول أو نبى ، أو زعيم أو قائد أو بطل من الأبطال فى أى ميدان صغر أو كبر ، الا وكان التركيز على موضوع رسالته أو عمله هو شغله الشاغل كما رأينا . وقد سميت هذه الظاهرة بالعزم والتصميم وقوة الارادة أو قوة العقيدة ، وليس ذلك كله الا تعبيرا عما نسميه التركيز .

ولقد صادفنا التركيز فى كل مظاهر النشاط التى بسطناها فى الفصول السابقة ، ورأينا كيف أنه لا حركة ولا عمل فضلا عن نجاح أى أمر من الأمور مالم يكن هناك تركيز . وهكذا نرى التلازم فى حالتى الحضور والغياب أو فى حالتى الاتفاق فى الوقوع وفى التخلف ، وبين التركيز وتحقق ارادة الانسان . فيجب أن نعتبر التركيز بدوره شرطا أساسيا لتحقق أى نشاط انسانى صغر أو كبر .

وضوح الصور ومدى قوة التركيز عليها

وليس هناك ما يؤكد أن الصور الذهنية والتركيز عليها هما الشرطان الأساسيان لتحقيق هذه الصور فى الخارج ، من أننا نستطيع أن نلاحظ العلاقة بين مدى وضوح الصورة فى الذهن وقوة التركيز عليها ، ومقدار تحقق هذه الصورة بالفعل فى الخارج . فكلما كانت الصورة واضحة ناصعة فى الذهن ومحددة المعالم ، وكلما كانت قوة التركيز عليها شديدة كلما كان تحققها فى الخارج أكثر نجاحا وتوفيقا . وعلى العكس من ذلك كلما كانت الصورة فى الذهن غامضة أو معتمة ، كلما كان تنفيذها فى الخارج غامضا ومهزوزا ومضطربا . وبالمثل اذا كان التركيز على الصورة ضعيفا ، فان تنفيذها فى الخارج يكون ضعيفا كذلك ، بل قد لا ينفذ على الاطلاق اذا تلاشى التركيز . وهكذا يتحقق الأسلوب الثالث من أساليب الاستقراء

التى أشرنا اليها ، وهو الخاص بالمقارنة وتفاوت الدرجة ، وما أسماه (مل) الجمع بين الاتفاق والاختلاف ، وأسماه علماء المسلمين دوران العلة مع المعلول وجودا وعدما .

ما الذى يوضح الصورة ويقوى التركيز عليها ؟

ولقد ذكرنا من قبل العوامل التى تؤدى الى شدة وضوح الصورة فى الذهن ، وتساعد على قوة التركيز عليها ، وأن هذه العوامل تتلخص فى احساس الانسان بضرورة أى عمل أو هدف من الأهداف أو فكرة من الأفكار للابقاء على كيانه المادى أو المعنوى . فكلما اشتد الاحساس بضرورة أمر من الأمور كلما وضحت صورته فى الذهن وازداد التركيز على هذه الصورة . فيجب اعتبار الضرورة هى المولد الأكبر لصور الأهداف وتوضيحها فى الذهن والتركيز عليها .

الكيفية التى تتحقق بها الغايات والأهداف

قلنا فيما سبق ان الاحساس بالضرورة عندما يولد فى الذهن صور الأهداف والغايات ويدفع الانسان الى التركيز عليها ، فان ذلك يؤدى الى تحقق هذه الأغراض والأهداف كما ارتسمت فى الذهن فى الخارج . ولقد تساءلنا من قبل أكثر من مرة عن القوة أو الطاقة التى تتحقق بها هذه الأشياء ، والجواب على هذا السؤال لا يخرج عن أحد احتمالين لا ثالث لهما .

فاما أن غايات الانسان وأهدافه تتحقق فى الخارج بقوة خارجة عن الانسان ، أو أنها تتحقق بقوة خارجة من الانسان نفسه . فالذين يقولون بأن كل شىء يتم فى هذا الكون بحتمية طبيعية مقررة سلفا ، سواء كانت هذه الحتمية من صنع الله أو الطبيعة — عند من لا يؤمنون بالله — يتصورون أن كل شىء فى هذا الكون ، كل ذرة فيه ، كل خاطر يمر بذهن انسان ،

كل ورقة تسقط من شجرة ، كل نقطة ماء تنحدر على الأرض ، كل حركة أو نأمة تصدر عن الانسان فضلا عن الكلمة يتفوه بها ، كل ذلك يجرى وفقا لخطة موضوعة ومقررة سلفا . ومعنى ذلك أننا جميعا مســـاقون بطاقة واحدة تحركنا لفعل الذى نفعل وقول الذى تقول ، والاندفاع حيث اندفعنا والانقباض حيث انقبضنا ، شأننا فى ذلك شأن أى ذرة أخرى فى الكون ، أو أى موجة أو ذبذبة .

وقد رأينا أن العقل يجيز هذا التصور ولا ينكره ، وليس أدل على ذلك من أن المؤمنين بالله والماديين الذين لا يؤمنون بالله قد التقى الكثيرون منهم حول هذه الفكرة . فالله هو خالق كل شىء وهو الذى لا ينفك يخلق كل ما يجرى فى الكون أو يقع من أى انسان ، فهو المحرك وهو المدبر وهو المهيمن الفعال لكل شىء .

وأيا كان مدى صحة هـذا الرأى ســواء كان من الناحية الدينية أو الطبيعية المادية ، فقد رفض الانسان من الناحية العملية هذا التصور حتى ولو ارتضاه من الناحية العقلية أو الوجدانية ، رفضه وهو يعمــل فكره محاولا أن يختار بين أمرين ، رفضه وهو يتخيل وهو يتمنى وهو يؤمل ، وهو يسعى لتحقيق أمر من الأمور فلا يقعده الفشل أو يصرفه عن معاودة الكرة تلو الكرة ليحقق ما يريد ، على الرغم من وضوح مشيئة القدر أنه لا يريد له التحقيق ، رفضه الانسان وهو يستمع الى هـــذه الأصوات الداخلية فى نفسه والتى تزكى بعض أعماله وتستنكر بعضها الآخر ، رفضه الانسان وهو يقدم على أعمال تعود عليه بالضرر المادى المحض ، وينصرف عن أعمــال تدفعه اليهــا سليقته ، ويستحثه على اتيان كل ماهو محبب للنفس والذات ، ولا يمكن أن يكون ذلك كله الا مظهر احساس الانسان بأنه صاحب الحق فى تقرير مصيره نحو هذا الاتجاه أو ذاك . ولو كان

كل انسان لا يعدو أن يكون آلة مسيرة كأى آلة يصنعها الانسان أو تصنعها الطبيعة نفسها ، لما كان هناك أى معنى أو تفسير للاحساس بالسخط أو الرضا، بالجمال أو القبح ، بالخير أو بالشر ، ولما كان هناك أى معنى لقيام الرسل والمصلحين والمعلمين والمدرسين ، لما كان هناك أى ضرورة أو مفهوم لقيام الجماعات والاجتهاد فى صوغ القوانين والشرائع ، واستبدال هذه القوانين من حين لآخر بقوانين ونظم تغايرها وقد تناقضها ، فيما كان ذلك كله ويكون ، ما دام كل شىء يسير بحتمية مقررة سلفا ولا فكاك منها ؟

وهكذا نرى أن الأخذ بهذا الرأى مهما كان صوابه من الناحية النظرية البحتة واجازة العقل له ورضاء الوجدان عنه ، فهو لا يفيد البشر فى قليل أو كثير ، فضلا عن أنهم قد رفضوا السير فى حياتهم على مقتضاه ، يستوى فى ذلك أعظم الناس ايمانا بقدرة الله وأقلهم حظا من هذا الايمان فهذا هو رسول الله (صلعم) يقول « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » وليس وراء ذلك استحثاث للعمل على أساس ارادة الانسان العاملة الخلاقة . واذ يسقط التفسير الأول للطريقة التى تتم بها أعمال الانسان ، والقوة التى تحققها ، أو على الأقل اذ ينحى من الناحية العملية ، فلم يبق أمامنا الا التفسير الثانى وهو أن تكون أعمال الانسان تتحقق بقوة من داخله قد أودعت فيه ، وأن كل انسان عبارة عن مركز مقفل مستقل بقوته قادر على استخدام القوة الكلية المبثوثة فى الطبيعة لتحقيق ما يدور فى ذهنه من صور تخلقها الضرورات الخاصة به دون أى انسان آخر فى العالمين .وبهذه القوة الكامنة فى كل انسان يستطيع أن يفعل بنفسه من الداخل أو فى الخارج ما يحلو له عمله ، وبنفس هذه القوة يؤثر فى البيئة المحيطة به ، الجامد منها والحى على السواء . وليس تصور هذه القوة الانسانية فاعلة ومؤثرة الى مالا نهاية بأعصى على التصور ، من نسبة هذه الفاعلية والقدرة

على التأثير الى أى قوة أخرى غير قوة الانسان ، مادام من المسلم به أن هذا الانسان هو ذروة ما وصلت اليه الطبيعة فى تطورها على ما يقول علماء المادة ، أو هو قبس من روح الله على ما يقول المؤمنون .

بقى أن نزيد على ذلك أن هذا القول أو التفسير لمجريات الأمور ، هو ما نظم البشر حياتهم على أساسه بالفعل أفرادا وجماعات ، فكل انسان على حدة ، وكل جماعة من الجماعات ، تحس أو يحس من نفسه القدرة على الحركة والاندفاع نحو تحقيق غاياته ، لا البسيط منها أو العادى بل البعيد والمركب وما يوصف أحيانا بأنه مستحيل .

ما كنه هذه القوة ؟

فاذا كان لامناص من التسليم بالقوة الانسانية عقلا وعملا ، فقد جرى التساؤل كما رأينا عن كنه هذه القوة . أهى قوة من نوع المادة أم قوة روحية أى من طبيعة تخالف المادة ؟ فحيث توصف المادة بالكثافة والغلاظة والوزن النوعى ، وتتأثر بالجاذبية والتفاعل الكيمائى أو الكهربى ، فلا تتأثر الروح بالجاذبية ولا يمكن وصفها بالكثافة أو الغلاظة أو قياسها بالكم والعدد ، فهى شىء شفاف لا قوام له الا من حيث هى شىء معنوى بحت. ذلك هو بعض ما يقال للتفرقة بين ماهو مادى وماهو غير مادى ، ولقد رأينا كيف أن العلم الحديث بعد أن توصل الى ما توصل اليه من النفوذ الى حقيقة الذرة ، أصبح ينظر الى المادة كمظهر من مظاهر الطاقة أى القوة الفعالة المتحركة المحركة ، فلم يعد هناك ساكن ومتحرك وانما الوجود كله حركة متصلة ، وما الاشعاع نفسه الا مادة والضوء فى النهاية هو منشأ المادة ، وما دام الأمر كذلك فلم تعد هناك ضرورة ، كما قلنا من قبل ، لهذا الازدواج وهذه الثنائية التى ما فتىء الانسان يقسم الوجود اليها .

وعندنا أن هذا الاشكال لا يعود له وجود ، أو بالأحرى لا تعود له

أى أهمية من الناحية العملية متى وصفنا هذه القوة بأنها انسانية ، فسواء كانت مادية أو روحية فالانسان مصدرها ، فهو الذى يفعل وهو الذى يريد ويعتقد ، وهو الذى يؤثر فيما يحيط به ، فاذا سمينا هذه القوة بأنها انسانية فهو كاف لتعريفها وتحديدها ، وفرزها عن سائر القوى .

ولما كان العلم قد اعتاد أن يطلق على القوة اذا أصبحت فاعلة مؤثرة على المادة ومتفاعلة معها كلمة « الطاقة » فاننا يجب أن نسمى القوة الانسانية عندما تخرج من حالة الكمون الى الفعل أنها طاقة . وعلى ذلك نكون قد عرفنا الطاقة الانسانية ومصدرها وفاعليتها ، ويكون باستطاعتنا أن نلخص كل الذى قلناه فى هذا الموضوع على صورة معادلة رياضية تحكم الأمر كله ، وذلك على الوجه التالى : أى هدف انسانى × درجة ضرورته = وضوح صورته فى الذهن × شدة التركيز = طاقة تحقق الهدف فى الخارج .

استثناءات من القانون

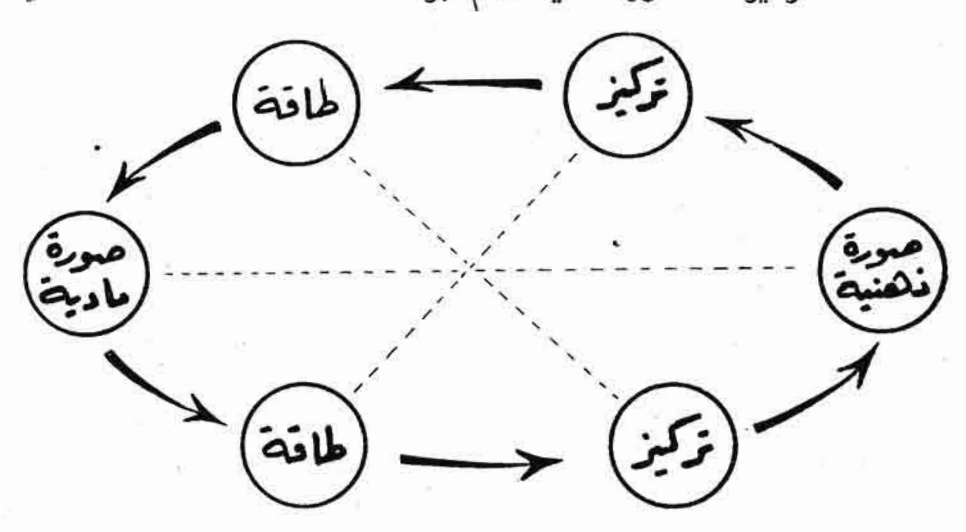
ولكن القانون على هذه الصورة ما يزال ينقص الاشارة الى الاستثناءات أو بالأحرى التحفظات التى تحدثنا عنها فى كل ما مر بنا ، من وجوب أن لا تتعارض الصور الذهنية مع القوانين الأساسية للطبيعة ، وفتح اعتماد لنشاط الطبيعة العام الذى يقتضيه وحدة هدفها الذى تسعى لتحقيقه ، ومع الأخذ فى الاعتبار أن لكل انسان ارادة كأى انسان آخر ، وقدرة كامنة كأى انسان آخر ، وأن هذه الارادات اذا تعارضت نشأ من ذلك القلق والمتاعب والاضطرابات ... الخ ما يشكو منه البشر .

وعلى ذلك فيتعين أن نضمن القانون اشارة الى هذا التحفظ الذى هو من لزوميات كل قانون فى الواقع ويكون النص الأخير للقانون هو

« أى هدف انسانى × درجة ضرورته = وضوح صورته فى الذهن × شدة التركيز عليها = الطاقة اللازمة لتحقيق الهدف فى الخارج ، عند عدم وجود الظروف المعاكسة » .

القـــانون يعمل طردا وعكســـا

ويعمل هذا القانون كأى قانون آخر فى الطبيعة طردا وعكسا ، بمعنى أنه اذا كانت الصورة الذهنية والتركيز عليها يحدثان طاقة تؤدى الى تحقيق هذه الصورة فى الخارج ، فان الصور فى الخارج تبعث الى الانسان بطاقة يؤدى تركيزها على مختلف حواس الانسان الى صورة فى الذهن . وهكذا يؤلف الانسان ، كل انسان على حدة ، مع الكون الخارجى دائرة مغلقة . فالصور الذهنية تتحول من خلال التركيز الى طاقة تحدث الصـــور فى الخارج ، حيث تتحول الصور الخارجية الى طاقة تتركز على حواس الانسان فتعود صورا ذهنية ، وهكذا بحيث يمكن كتابة هذه الدائرة على الوجه التالى : صورة ذهنية — تركيز — طاقة — صورة مادية فى الخارج — طاقة — تركيز — صورة ذهنية وهلم جرا



ويبين من ذلك أن التركيز قرين التصور الذهنى ، والطاقة قرينة الصور المادية ، والتبادل بين التركيز والطاقة دائمين مما يدل على أن كلاهما أصل للآخر ، وذلك يعود بنا الى آخر مكتشفات العلم الحديث من أن الطاقة اذا تركزت فهى المادة ، والمادة اذا أمعنت فى التركز انقلبت الى طاقة من جديد فهى مابين تركيز وانتشار أو صورة وطاقة .

قيام الكون كله على التركيز والانتشار أو الصورة والطاقة

وقد بقى أن نعرف أن الكون كله من حولنا ، أو بالأحرى الوجود كله يقوم على هاتين الحالتين ، حالة التركيز فالانتشار ، أو الانتشار فالتركيز ، ومن الصعب أن نقضى برأى فى أيهما سبق الآخر .

فالانتشار يولد التركيز ، والتركيز يولد الانتشار . ولكى أقرب لك كيف يتم ذلك فلنبدأ بمثل قد يوضح لنا الأمر بصفة مبدئية . ان آلة التصوير السنمائى أو التلفزيونى تركز صورة المنظر المادى المجسم الى أصغر حيز متصور فى شريط السينما ، وعندما يعرض هذا الشريط فى السينما فانه يعود الى الانتشار على لوحة السينما فى هذه المساحة الضخمة التى نعرفها ، ولا تلبث الصورة أن ترتد من جديد من هذه اللوحة لكى تتركز فى نقطة على شبكية العين كأى منظور آخر ، ثم تعود من جديد الى الانتشار فى الذهن بنفس الأبعاد التى كانت بها على لوحة السينما . ومعنى هذا أن الصورة قد انتشرت وتركزت ثم عادت من جديد للانتشار فالتركيز وهكذا . وقد يتصور البعض أن هذا المثل لا يعدو أن يكون حديثا عن الظلال والصور ، وقد بقى أن ندلل كيف أن هذا هو ما يحدث فى الطبيعة كلها . أنظر الى الشجرة بعد أن تأخذ زخرفها وتصل الى كمال نضجها النهائى ، بعد أن يغلظ ساقها ، وتنتشر فروعها ، وتورق أغصانها ،

وتتفتح أزهارها ، وتنضج ثمارها ، وكيف ينتهى ذلك كله الى بذرة . وما البذرة الا الشجرة مركزة بكل خصائصها ومقوماتها ، وأيا كانت ضآلة البذرة حتى لتكون كالدقيق السافى ، ومع ذلك فان حبة واحدة من هذا الدقيق السافى هى الشجرة فى كمالها ، حسبها أن تقع على الأرض بقوة الطبيعة أو بقوة الانسان لكى تعود للانتشار من جديد فترسل جذورها عبر الأرض الطيبة ، بينما تشرئب فروعها نحو السماء فتشق هذا الغلاف الأرضى متطلعة نحو الشمس نحو الأصل الذى منه جاءت ، حتى اذا أخذت زخرفها من جديد وازينت ، انتهت مرة أخرى الى البذرة ، البذرة التى لا تعنى شيئا الا التركيز للشجرة .

ولن نعيد هنا ما قلناه عن حياة الانسان وكيف أن الانسان بعد أن يبلغ مرحلة نضجه وكماله الجسدى ، لا يلبث أن يركز حياته المتكاملة فى بذرة ، على صورة الحيوان المنوى عند الرجل ، والبويضة عند الأنثى . وفى هذه البذرة تكمن كما قلنا لا خصائص الأم أو الأب وحدهما بل كل خصائص الجنس البشرى والحياة كلها .

فاذا خرجنا من نطاق الحياة الى المادة ، فقد رأينا كيف تلخصت المادة فى أنها محض حركة مابين تخلخل وتكاثف ، وانتشار وتضاعف . واذا كان الكون قد وصف حينا بأنه مجموعة من الموجات فليست الموجة ولتكن الطولية مثلا ، الا انتشارا للطاقة يبلغ ذروته عند نقطة يطلقون عليها اسم (البطن) ثم تنحدر الحركة بالتدريج الى أن تصل الى حد تسمى عنده بالعقدة حيث تبدو الحركة كما لو كانت قد توقفت ، والانتشار كما لو كان قد تلاشى ، مع أنه محال أن تتصور الحركة قد توقفت أو الانتشار قد تلاشى لأنه من هذه العقدة نفسها تبدأ الموجة التالية وهى تنتشر فى طريقها نحو الذروة ، أى نحو بطن جديدة . واذن فالعقدة التى هى منتهى التركيز

هى نقطة ميلاد الموجة الجديدة ، وبطن كل موجة التى هى ذروة الانتشار هى نقطة البدء لميلاد عقدة جديدة . وعلى هذه الوتيرة يجرى كل شىء فى هذا الوجود وتتنوع صوره وأشكاله فاذا قلنا أن الطاقة الانسانية تتولد من الصور التى هى طاقات مركزة لتعيد تأليف هذه الصور فى الخارج فليس ذلك الا تطبيقا لناموس الطبيعة السائد (١)

الانسان مستودع لما نعرف من الطاقات وما لانعرف

وعندما نقول أن الانسان كل انسان ، فيه من الطاقة ما يقدره بذاته على عمل أى شىء ، ولو كان هذا الذى يريد هو زحزحة الجبال عن مواضعها ، أو شق البحر أو الصعود الى السماء ، فنحن لا نقول ذلك بمحض الاستنتاج العقلى كما قد يخيل للبعض ، وانما توصلنا الى التقرير بانطواء الانسان على هذه القدرة اللانهائية من خلال البحث العلمى والاستناد الى نتائجه المقررة والتى لا يمارى فيها أى مشتغل بالعلوم الطبيعية . فالانسان ينطوى باجماع الآراء والتجربة والبرهان على جميع الطاقات المعروفة فى الطبيعة . وهذه الطاقات تتلخص فى :

— الطاقة الميكانيكية — الطاقة الكيمائية — الطاقة الاشعاعية — الطاقة الكهربية — الطاقة الشمسية — الطاقة النووية . وما من طاقة من

---

(١) تقوم المادية الجدلية على أن الكون يتألف من أشياء ونقائضها فيدور الصراع بين المتناقضات ومن هذا الصراع ينبثق موجود جديد يكمن فى طياته نقيضه وهكذا . وقد حان الوقت لزوال هذه النظرة الثنائية للطبيعة بعد أن أثبت العلم المادى ما أثبت ، وأن الوجود يتألف لامن الشىء ونقيضه بل من الشىء وتركيزه . وبانتهاء النظرة الثنائية للكون تنتهى معها فكرة التناقض وما يترتب عليها من صراع أبدى ، والحق أن الوجود لايمكن أن يكون صراعا فمحال أن يتصارع الشىء مع نفسه ، وانما الوجود تناغم وتوافق ، والصراع فكرة من خلق الأنسان كبقية الأفكار الأخرى التى خلقها طبقا لمقاييسه الخاصة .

هذه الطاقات الكونية الا ويتلقاها الانسان كأى شىء آخر فى الوجود ثم يعيد عكسها الى الخارج كأى جسم مادى آخر ، ثم يزيد الانسان على ذلك أنه قادر بنفسه على توليد الطاقة . فاذا كانت الطاقة الميكانيكية تتولد على ما يقولون ، من تحرك المادة بعد سكونها أو سكونها بعد حركة ، فان كل انسان يستطيع أن يدرك من أمر نفسه أنه مولد مستمر للطاقة الميكانيكية وهو لا يكف عن الحركة ليلا أو نهارا مستيقظا أو نائما ، ولقد رأينا كيف أن القلب لا يكف لحظة واحدة عن الدق ما بقى الانسان حيا ، ومعنى ذلك أن توليد الانسان للطاقة الميكانيكية هو شىء قرين الحياة نفسها . ومثل ذلك يقال عن كون الانسان مولدا دائما للطاقة الكيميائية . فالطاقة الكيميائية تتولد نتيجة تفاعل جزئيات المادة عندما تخلط أو تحرق أو عن طريق التغذية التى هى نوع من الاحتراق الداخلى بغير لهب كما هو معروف . وما أكثر ما يصفون الكبد بأنه معمل كيميائى وكذلك الشأن بالنسبة للصفراء أو المرارة وبقية الغدد ، ولكن الحقيقة أنه ما من خلية من خلايا الانسان الا وهى تغص بالتفاعلات الكيميائية ، ولعلنا لا زلنا نذكر كيف أن أقواما قد لخصوا الحياة فى أنها مجرد تفاعل كيميائى . فالقول بانطواء الانسان على الطاقة الكيميائية ، هو قول ثابت بالعلم والتجربة .

هناك بعد ذلك الطاقة الاشعاعية التى تولدها الحرارة ، ومسألة الحرارة التى تنبعث من أجسامنا لا تحتاج الى دليل ، فالانسان مولد لا ينضب من الحرارة الا بعد أن يكف عن الحياة .

أما الطاقة الكهربية فتجىء نتيجة ترتيب جزئيات المادة ترتيبا خاصا ، ومن الحقائق التى باتت مقررة انطواء الانسان على الطاقة الكهربية ، والأعصاب تؤدى وظيفتها عن طريق ارسال التيارات الكهربائية التى

أصبحت تقاس بآلات القياس الكهربية [١] . وقد جاء وقت فى القرن التاسع عشر تصور العلماء أن مشكلة الحياة قد حلت باعتبارها كهرباء فنقشت احدى جامعات أوروبا على واجهة بنائها « الحياة كهرباء » [٢] ومن المسلم به أن الشمس هى مصدر كل مافى الكرة الأرضية والحياة من طاقة ، فالنبات الذى هو أعظم مصادر الطاقة على الأرض قد استمد هذه الطاقة من الشمس ، واليوم بدأ العلم ينحو نحو استمداد الطاقة من الشمس بطريقة مباشرة لتحريك الآلات وتحقيق شتى الأغراض ، وذلك عن طريق جمع هذه الأشعة على سطوح معدنية ثم تركيزها فى بؤرة معينة . وهذه العملية يقوم بها الانسان مذ كان انسانا فجسمه مغمور بالضوء وأشعة الشمس وهو يختزن أشعة الشمس فى خلاياه الحية ، وليس فينا من لا يحس الفارق الضخم فى قوته وحيويته أثناء النهار ، بالقياس الى حيويته فى الليل ، والفارق بين لون الجلد المعرض للشمس وغير المعرض لها .

---

(١) باستطاعة كل انسان أن يكشف عن الكهرباء فى جسده اذا دلك قدمه في يوم بارد صفا جوه ثم لمس بعد ذلك جسما معدنيا ، اذ لاتلبث أن تقفز من أصابعه شرارة الى الجسم المعدنى فيحس الأنسان برجفة تسرى فى بدنه ويسمع فرقعة، وقد لاترى الشرارة فى الضوء ، ولكن التجربة لو تمت ليلا لرؤيت الشرارة أيضا ٠ وكثيرا ما تحدث الشرارة عندما نلمس سيارة بعد وقوفها مباشرة ، أو عقب تمريرنا يدنا على ظهر قطة فى بعض الأحيان ، فنحس بها على شكل رعشة ٠ (الكهرباء تأليف موريس باركر) ٠

وقد كان القدامى ، قبل المحدثين أول من فطنوا لانطواء الأنسان على هذه الطاقة الكهربية اذ كانوا يصفون الأنسان ساعة الغضب بأن عينيه تقدحان الشرر ،وقد تصورنا أنذلك انما يقال على سبيل الاستعارة، وها هو علم الكهرباء الحديث يثبت أن هذا القول حقيقة مادية

(٢) الانسان على طبيعته ــ ص ٢٠٩

Man on his Nature.

الطـــــاقة النووية

وآخر ما اكتشف الانسان من طاقات هو ما أصبح يطلق عليــه اسم الطاقة النووية ، حيث تتحول الطاقة عن طريق الانشطار النووى الى طاقة جبارة . واذا كانت الطاقة النووية تقترن فى الأذهان بالقنابل الذرية التى تهدد العالم بالسحق والابادة ، فان استخدام الطـاقة النووية للأغراض السلمية بدأ يشق طريقه فى الوجود ، فأصبحت الطاقة الكهربائية تولد عن طريق الطاقة النووية ، والسفن والغواصات تسير بالطـاقة النووية ، وكلما ازدادت معارف الانسان ، فستزيد قدرته على استخدام هذه الطاقة فى شتى صنوف الأغراض . وفى رأينا أنه مادام الانسان ينطوى على كل مافى الطبيعة من طاقات ، وما دامت الطـاقة النووية هى احــدى طاقات الطبيعة ، فان القياس العقلى يحتم أن يكون الانسان مشتملا على الطاقة النووية كاشتماله على بقية الطاقات . واذا كان أحــد لم يقل بذلك حتى الآن ، فان المستقبل كفيل باثبات هذا الذى نقول .

الانسان طاقة فى حالة تركيز

يخلص مما تقدم أن الانسان ليس فى حقيقته ســـوى مجموعة من الطاقات ، ونحن فى ذلك لم نأت بجديد فان التعريف العلمى للحياة هى أنها « نظام من الطاقة » .

بقى أن يقال : انه ليس هناك من ينازع ، فى أن الانسانمنطو على شتى صنوف الطاقات بالفعل ، ولكن بكمية ضئيلة جدا لا يمكن أن تكون ذات فاعلية تقاس الى فاعلية أى آلة من الآلات .

وليس هناك ما هو أمعن فى الخطأ من هذا التصور ، فمقدار الطاقة لا يقاس بحجم معين أو حركة مقننة ، اذ يكفى أن ترتب أجزاء المادة بكيفية معينة لكى يتولد من هذا الكيف الجديد طاقة ، فالكيف لا الكم هو مصدر

الطاقة . ونحن نعلم الآن أن أى موجة كهربائية مهما صغرت تنشأ عنهـا موجة مغناطيسية ، لا تلبث بدورها أن تولد موجة كهربائية وهكذا الى مالا نهاية حيث تنطلق هذه الأمواج عبر الفضاء بسرعة الضوء أى ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة ، وليس وراء ذلك دليل على انبعـاث الطاقة الى مالا نهاية من أصغر كمياتها .

كيف يطلق الانسان طاقاته ؟

عندما كانت معلومات الانسان الحديث عن الكهـرباء لا تزال فى بدايتها ، فقد تصور أن نقل الكهرباء من مكان الى مكان ومن جسم الى آخر — يحتاج الى واسطة معدنية كالسلك لتوصيل الطاقةالكهربائية ، ولم يلبث أن اكتشف أن لا حاجة به الى هذه الأسلاك لنقل الطاقة ، فحـل التليفون والتلغـراف اللاسلكى محل التليفون والتلغـراف السلكيين ، اللذين بينا لنا أن أى جسـم فى الكون يتلقى كل مافى الكون من طاقات ويبعث الى الكون من حوله مافيه من طاقة بغير حاجة الى واسطة سوى هذا الفضاء والفراغ .

ترى هل فكرت يوما ما الذى يعنيه رؤيتك لقرص الشمس واحساسك بالدفء ؟ أو ما الذى يعنيه رؤيتك للقمر وباقى النجوم التى تملأ السماء ؟ أن ذلك يعنى من الناحية العلمية البحتة ، أن كل جزء من الشمس قد شع ضوءا فانطلقت هذه الأشعة المنبعثة من كل جزء من أجـزاء الشمس عبر الفضاء لتصل اليك وتتركز على شبكية العين أو بالأحرى على نقطة لا تكاد ترى من هذه الشبكية . ويحدث مثل هذا التركيز على كل قطرة ماء فى هذا الكون ، على كل حبة رمل على كل هباءة هائمة فى الهواء ، فهى كلها ، كلها بدون استثناء تعكس الكون المحيط بها كله ، فالكل ينعكس دائمـا

على كل جزء من الأجزاء ، وليست هذه فلسفة ولا هى ميتافيزيك ، وانما هو ما أصبح بقدرة أى انسان عنده راديو أن يتحقق منه بالتجربة والدليل الحسى والبرهان .

أرأيت نفسك بالليل وقد آويت الى حجرتك ، ان السكون يغمر هذه الحجرة والصمت يسودها ومع ذلك فان كل أصوات اذاعات الدنيا كلها كامنة فيها وما عليك الا أن تدير مفتاح الراديو لكى يتحقق لك مصداق ذلك ، فالأصوات تنبعث من كل مكان ، من موسكو ومن برلين ونيويورك وصوت العرب وبكين والسعودية ، من أمريكا الجنوبية مثل اذاعات استراليا واندونيسيا ، قرآن يتلى أو موسيقى صاخبة ، أو دقات نواقيس أو آذان مساجد تدعو للصلاة ، أو تمثيليات مبكية وأخرى مضحكة ، ولو أنك لم تراع اللياقة ورفعت صوت مذياعك لأقلقت الجيران من نومهم ، ولأسرعوا يحتجون عليك . وان هى الا حركة بسيطة من مفتاح الراديو حتى يهيمن السكون من جديد وكأن هذه الاذاعات المتعارضة المتباغضة التى يهاجم بعضها بعضا ، كأن هذه الموسيقى التى كانت تدوى وهذه الخطب والمحاضرات قد تلاشت ولكنها لم تتلاش فهى لا تزال هناك فوق وسادتك التى ستضع رأسك عليها لتنعم بالراحة والهدوء . وفى القريب العاجل سيكون بقدرة جهاز التلفزيون أن ينقل كل اذاعات العالم المرئية كما ينقل الراديو كل اذاعات العالم الصوتية ، ومعنى ذلك أنه سيكون فى داخل حجرتك وفى كل حجرة فى العالمين ، سيكون فيها كل المرئيات وصور الحوادث التى وقعت وتقع فى الدنيا . فهل فهمت الآن ولمست باليد كيف أن كل اذاعات الكون الصوتية والمرئية توجد فى كل جزء من أجزاء الكون ، فى الهواء وفوق الجبال وتحت الماء فى الصحارى مثل مافى المدن ، فى القصور مثل مافى القبور . وعلى هذه الوتيرة يمكنك أن تدرك الآن أننى

عندما أقول لك أن الكون كله كائن فى كل جزء من أجزائه فلست أقول لك كلاما لا يثبته الدليل والبرهان . وما دام الأمر كذلك فأحسب أنك لن تجد كبير صعوبة لتدرك ان الانسان أى انسان ، ينطوى على كل مافى الكون من طاقات اذ أنه يتلقاها ويعكسها من جديد لتعود اليه بالتالى .

هل الآلات ضرورية لاستخدام الطاقة ؟

فاذا أصبح مفهوما أن الانسان بؤرة لهذا الكون يتلقى كل مافيه من طاقة ، ويبعث اليه الطاقة ، فقد بقى علينا أن نتساءل أليس بوسعه أن يستخدم هذه الطاقات اللانهائية لتحقيق كل ما يريد ويختار ؟ ان الكثيرين قد يردون على هذا التساؤل بالايجاب شريطة أن نعترف بضرورة الآلة لاستخدام هذه الطاقة . كثيرون سيقولون لنا نحن لا نتازع فى قدرة الانسان اللانهائية ولكن لا سبيل له لاستخدام هذه القدرة الا من خلال الآلات الجبارة . أيستطيع الانسان أن يسمع اذاعات العالم بغير راديو ، أيستطيع أن يطير بغير طائرة ، أيستطيع أن يصل الى القمر بغير صاروخ ؟ وفى الجملة أيستطيع الانسان أن يقوم بعمل صغر أو كبر الا من خلال آلة من نوع ما ؟ فالانسان قادر نعم ، ولكنه قادر بواسطة هذه الآلة التى صنعها أو سوف يصنعها . ولو أن قانون الطاقة الانسانية الذى قلنا به قد صيغ على الوجه التالى ، لما وجد أى معارضة من أى انسان ما : أى هدف انسانى × درجة ضرورته = وضوح الصورة فى الذهن × شدة التركيز = آلة تحقق للانسان ما يريد ، أو بالأحرى تحقق له مادار فى ذهنه . لو أننا قبلنا هذه الصيغة لوفرنا الكثير من النقد الذى سيوجه الى هذا الكتاب ، ولو تأملنا قليلا لما وجدنا هذه الصيغة المقترحة تغير طبيعة القانون ، فليست الآلة فى حقيقتها الا طاقة انسانية قد أودعها الانسان فى الآلة فهى جزء منه ، وهى تعبير عن قدرته ، فلا حرج علينا لو قلنا ذلك ،

ولكنا لو قلنا به فنكون قد خرجنا عن عقيدتنا ولا يكون فى كل ما جئنا به فى هذا الكتاب شيئا جديدا يضاف الى تراث البشر ، أو لم يحقق الانسان بالفعل عن طريق الآلة كل مادار فى خيال البشر باعتباره أحلاما وخيالات ؟ أو لم يطف تيتوف بالفعل حول الأرض فى الفضاء الخارجى تمهيدا للرحلة بعد ذلك الى القمر ؟ فأى أمر لا يستطيع الانسان تحقيقه عن طريق الآلات التى سيخترعها ؟ ولكن دعوانا تختلف عن ذلك تماما . ان قانوننا الذى قلنا به يقوم على أنه بحسب الانسان أن يتصور ثم يركز ذهنه على ما يتصوره ضروريا له ، لكى تتحقق الصورة فى الخارج بغير واسطة منظورة من هذه الوسائط المألوفة ، بغير حاجة الى آلة مصنوعة من حديد أو سلك أو خشب أو بلاستيك فضلا عن صلب وفولاذ . وقد تأكد لنا ذلك الأمر عندما استعرضنا تاريخ علاقة الانسان بالآلة ، وكيف أن ضخامة الآلة لا تعنى شيئا سوى عجز الانسان وجهله ، وكيف أن هناك تناسبا عكسيا بين رقى الآلة وقوى الانسان الذاتية ، فكلما ارتقت الآلة كان ذلك على حساب قدرة الانسان ، وأخيرا كيف أن جسم الانسان انما يحتوى على جميع النواميس التى تقوم عليها الآلات . وأحسب أننا عندما نزيد هذا الأمر تفصيلا — فان هذه القضية التى نقول بها وتبدو لك عسيرة الهضم — ستتحول الى حقيقة علمية كأى حقيقة علمية أخرى يمكن أن توجد فى هذا الوجود .

ضخامة الآلة مظهر عجز الانسان

أول ما يقابلنا من القوانين التى تحكم العلاقة بين الانسان والآلة ، أنه كلما كانت الآلة ضخمة فى الحجم ، ثقيلة فى الوزن ، تحتاج الى طاقة ضخمة لتشغيلها ، كلما كان ذلك معناه أن الانسان لا يزال جاهلا بأسرار الطبيعة وقوانينها لأنه كلما ازداد معرفة بهذه القوانين كلما أصبح أكثر قدرة على

صنع آلات أصغر بفاعلية أكبر ولا تحتاج منه الى كبير طاقة لتشغيلها .

ولو أنك زرتِ أى متحف من متاحف العلوم فى أوروبا أو أمريكا أو روسيا ، حيث يستعرضون تاريخ صنع الآلات وتطورها ، لراعك أن ترى ضخامة النماذج الأولى للآلات البخارية ، وغيرها من أدوات الانسان فالساعات الأولى مثلا تزن بمئات الكيلو جرامات تصورا منهم أن الساعة لا يمكن أن تؤدى وظيفتها الا اذا كانت بهذا الحجم ، ونحن نعرف اليوم كيف تلبس بعض السيدات ، ساعات يخيل للانسان أنها مجرد فص فى الخاتم ، ومع ذلك فهى تعمل بأدق ما عملت ساعة فى أى يوم من الأيام . والحق أنك لست فى حاجة للذهاب الى المتاحف فى أوروبا أو أمريكا لمشاهدة هذه الظاهرة ، وما عليك الا أن تجرى بحثا صغيرا فى محيطك الخاص وبعض الآلات التى أصبحت تستعملها . فلو أنك بحثت قليلا لعلمت أن آلة التصوير مازالت تسمى « كاميرا » وقد لا تعرف أن كلمة كاميرا معناها الحجرة ، ذلك أن عملية التصوير عندما بدأت كانت تحتاج الى استعمال حجرة لامكان عمل صورة فوتغرافية . ثم رؤى أن باستطاعة صندوق متوسط الحجم أن يقوم بهذه المأمورية ، ومضت آلة التصوير الرحلة المألوفة ، حتى انتهت الى ما نعرف حيث توجد فى السوق التجارية للاستعمالات العادية ، آلة تصوير لا يزيد حجمها عن علبة كبريت صغيرة ومع ذلك فباستطاعتها أن تحصل على مئات وألوف الصور الرائعة . وتحتوى الأقمار الصناعية التى تدور الآن حول الأرض ، على آلات تصوير سينمائى ، بل وتلفزيونى لارسال كل ما يجرى فى الفضاء ، دون أن يزيد حجم هذه الأجهزة عن قطعة السكر على مانشرت الصحف .

وعلى ذكر أجهزة التصوير والتلفزيون الصغيرة ، فان أى قارىء قد شهد بنفسه من غير شك ، كيف أن جهاز الراديو لبضع سنوات خلت كان

كبير الحجم ، ثم كيف راح يتناقص ويتناقص فى الوقت الذى تزيد فيـه فاعليته ، حتى انتهينا الى راديو الترانزستور ، والذى يعتبر بدوره عملاقا الى أجهزة الراديو الموضوعة فى الأقمار الصناعية ، وقد يكون من المفيد أن تعلم أن الانسان تمكن من تصغير الراديو الى هذا الحد العجيب عندما اكتشف أن بلورات عنصر (الجرمانيوم) يمكنها أن تؤدى دور الصمامات الضخمة التى كان الانسان يصنعها ويتصور بطبيعة الحال أن لا سبيل لكى يقوم الراديو بعمله الامن خلالها .

وليس فينا من لم ير أجهزة التسجيل عندما صنعت للسوق التجارية لأول مرة وكيف كانت تتألف من صندوق ضخم ، وكيف وصل الأمر بعد ذلك بأجهزة التسجيل الى حد أن توضع فى عروة (الجاكتة) أو فى ساعة اليد أو كدبوس فى رباط العنق . وعبثا نستطيع أن نمضى فى سرد الأمثلة والشواهد القريبة أو البعيدة فالقاعدة ثابتة ومطردة : أنه كلما ازداد علم الانسان وأحاط بأسرار الطبيعة ، كلما أصبح أكثر قدرةً على بذل طاقة أقل بآلات أبسط لتحقيق أهدافه . ولست أشك لحظة أن أبناء القرن الحادى والعشرين سينظرون الى آلاتنا الضخمة فى سخرية واشفاق وســوف يتحدثون عن عجزنا وقصورنا كما تتحدث نحن عن انسان العصر الحجرى، وسوف يدهشون كيف لم ندرك هذا السر أو ذاك من أسرار الطبيعةوالذى يغنى عن هذه الآلات الفظة الغليظة .

وتكون القاعدة الأولى التى يجب أن نضعها نصب أعيننا ، هى أنه كلما كبر حجم الآلة كلما كان ذلك آية جهلنا وعجزنا ، وأننا كلما ازددنا علما وقدرة كلما صغُرت آلاتنا ، وباستطاعتنا أن نمضى بالمنطق حتى نهايته فنقول أن باستطاعة الانسان أن يصل الى درجة من العلم تغنيه عن الآلة

كلية الا آلة الطبيعة نفسها ، ولكن لننتظر قليلا حتى نسوق باقى ملاحظاتنا ونتائج دراساتنا [1] .

التناسب العكسى بين ارتقاء الآلة وقوة الانسان الذاتية

وثمة قاعدة أخرى تحكم العلاقة بين الانسان والآلة ، وسنرى كيف تنتهى بنا الى نفس النتيجة السابقة . فلو أننا درسنا تاريخ الانسان الحضارى ، لتأكد لنا أن قوى الانسان الذاتية فى تناقص مستمر بنسبة عكسية مع رقى الآلة . تقول نظرية التطور ان الانسان الحديث هو ثمرة التطور فهو لم يولد على هذه الصورة الكاملة الانسانية التى هو عليها اليوم ، ومعنى ذلك أن الانسان قد وجد حيث لم يكن قد صنع أى آلة من الآلات لأنه لم يكن قادرا على صنعها ، وكان الانسان قبل أن تكون لديه أى مهارة من هذه المهارات التى يقال أنه اكتسبها على سبيل التطور والتدرج، فلم يكن يعرف بعد كيف يستخدم يديه بمهارة ، أو كيف يلتقط بأصابعه شيئا ليقذف به عدوه ، فضلا عن أن يصنع سكينا ، أو ما هو أبسط من ذلك من الآلات . فكيف استطاع الانسان بالرغم من ذلك أن يعيش وسط هذه الطبيعة الخشنة فى هذه الأيام ، كيف نجا من ضراوة العواصف واللهب والحمم التى كانت تقذف بها البراكين الثائرة فى كل مكان ، كيف قاوم السيول الجارفة ، والرياح الهوجاء ، وأخيرا كيف استطاع أن يصمد

(١) كان القرآن الكريم هو أول من لفت نظر البشرية الى قوة العلم المطلقة والتى تغنى الانسان عن استعمال أية آلة أو واسطة سوى معرفة نواميس الطبيعة وذلك فى قصة سليمان عندما سأل أتباعه من الانس والجن أيهم يستطيع أن ينقل له عرش بلقيس من اليمن الى بيت المقدس قبل قدومها على سليمان « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين ـ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك: (النمل ـ ٣٩ ، ٤٠) وهكذا تفوق الانسان (الذى يعلم) على الجن الذى يمثل القوة المادية ففعل فى ومضة عين ما احتاج عفريت الجن لبضع ساعات لاتمامه.

لكل حيوانات ذلك الزمان وقد كانت أشد ضراوة مما هى عليه اليوم وأكثر عددا وأعز نفرا ؟ كيف حدث أن هذا الانسان الذى لم يكن قد زود بالعقل بعد ، قد استطاع أن يحتفظ بحياته ، بل وينتصر على هذه الحيوانات كلها فيصبح سيدا لها ؟ لامناص من التقرير بأن هذا الانسان البدائى لم يكن يملك سوى عضلاته وقواه الذاتية البحتة ليقاوم كل حيوانات الغابة ، بل ليقاوم الطبيعة نفسها ، واذن فلاشك أن هذه العضلات كانت أقوى من عضلات أى حيوان آخر مفترس ، لابد أن سرعته كانت أقوى من سرعة أى حيوان متصورة ، لابد أنه كان يتسلق الأشجار بأسرع وأيسر من أى حيوان آخر ، لا بد أنه كان يشم كأقوى مايستطيع حيوان أن يشم ، وكان يسمع بأحد مايمكن لأى حيوان أن يسمع ويعوم بخير ماتستطيع سمكة فى الماء أن تعوم ، وبالجملة لا بد أن هذا الانسان كان قادرا على كل مايمكن أن يقدر عليه أى حيوان آخر ، والا لما استطاع أن يعيش . فقانون التطور يقول ان الحياة تقوم على تنازع البقاء ، وان البقاء هو من نصيب الأصلح أى الأقوى فى سائر الاتجاهات . ومن ناحية أخرى فان علم التطور يقول لنا أن الانسان هو ذروة ماوصلت اليه الطبيعة من رقى وتطور .

هذا هو مكان الانسان الأول فى الوجود لو أخذنا بقانون التطور ، كان أقوى الكائنات كلها وسيدا عليها حتى قبل أن يكون له عقل . وقدعاش هذا الانسان بغير آلة على الاطلاق من أى نوع كان ، عاش الحياة الانسانية الكاملة بكل ماتحمل من معانى الخلق والابداع ، لأن هذا الانسان البدائى قد اخترع أعظم ما يمكن للبشر أن يخترعوه من آلات ، لقد اخترع الكلام كما نفهمه . وبدأت مأساة هذا الانسان عندما بدأ يودع مافى نفسه من طاقة فى آلات يصنعها خارج جسمه . فمع أول سكين صنعها ونجح فى استعمالها كانت قوته العضلية تنقص بمقدار الفاعلية التى أصبح يجدها

فى السكين . وعندما استأنس الكلب ليساعده فى الصيد فقد تقصت حواسه بمقدار ما أصبح الكلب يضيف الى قدرته ، وعندما استأنس الحصان ليستخدمه فى العدو فقد تقصت سرعته بمقدار ما أضاف استعماله الحصان اليه من سرعة . ذلك هو منطق ناموس الحياة ، أن تنقص طاقة أى شيء عندما لا يكون الانسان محتاجا اليها . وكل عضلة من عضلات الانسان بل كل حاسة وكل عضو يقوى بالاستعمال ويضعف ويذبل بعدم الاستعمال . وهكذا بدأت قدرة الانسان التى لا حد لها على الشم تتناقص اذ لم يعد فى حاجة اليها ، أو بالأحرى وجد من يتولاها عنه ، وضعفت حاسة الأبصار وبقية الحواس الأخرى ، وكلما أوغل الانسان فى الحضارة كلما كان ذلك على حساب قوته وكيانه وصحته وما يستطيع عمله بقواه الخاصة المجردة .

ولسنا فى حاجة الى الرجوع الى الوراء لنرى كيف أن كل آلة جديدة يبتدعها الانسان يكون أثرها المباشر هو على حساب الانسان . فعندما أصبح بقدرة الانسان أن يصنع لنفسه أسنانا صناعية رأينا كيف تدهورت أسنان البشر ، فبينما كان أجدادنا يبلغون جميعا أرذل العمر بأسنان كاملة لم تعرف السوس وآلام الأسنان (وبلاوى الأسنان) ، أصبح يتطلب من الانسان المتحضر أن يجعل أحد مهامه فى الحياة التردد على طبيب الاسنان بصفة دورية ، ولم يعد هناك ماهو أسهل من أن يشير طبيب الأسنان على أى انسان أن يخلع أسنانه كلها ، وأن يستبدل بها أسنانا صناعية .

تناقص قدرة الانسان على السير

وقد عاصرنا الجيوش وأقوى أسلحتها هو سلاح المشاة ، الذى لا يعرف وسيلة للمواصلات سوى قدميه ، فعن طريق هذين القدمين يذهب

الى أى مكان فى العالم ويخوض المعركة فور رؤية العدو ولو كان قريب العهد بالسير مئات الكيلو مترات ، ولم يكن على الجندى أن يحمل نفسه فحسب ، بل كان عليه أن يحمل كل معداته معه . وبهذا الأسلوب جابت جنود الاسكندر الآفاق ، واخترقت الجيوش العربية الدنيا من الشرق الى الغرب ، وقطع نابليون طريقه من باريس الى موسكو ، وأعنى بنابليون جنود مشاته . واليوم لا تزال بعض الفرق فى الجيوش تحمل هذا الاسم تكريما لهؤلاء الجنود القدامى ، لأنه لم يعد هناك جندى واحد يقدر على السير بضعة كيلو مترات ثم يكون صالحا لخوض أى معركة . أجل قد لا يزال هناك جنود بواسل ، ولكن هؤلاء البواسل لا يستطيعون أن يحتفظوا ببسالتهم لو اضطرتهم الظروف أن يذهبوا الى المعركة سيرا على الأقدام ألف كيلو متر كما فعل اخوان لهم من قبل . وكيف يقدرون على فعل ذلك بعد أن أصبحت هناك سيارات تنقلهم الى ميدان المعركة فى بضع ساعات ؟

تناقص قوة البصر

وعندما لم يكن للبشر سوى عيونهم المجردة فقد رأوا بها كل ما احتاجوا أن يروه على البعد السحيق ، فقد كانوا هم راصدوا النجوم والكواكب ومبدعو الفلك ، وقد استطاعوا أن يحدثونا عن النجوم الصفراء والزرقاء والخضراء والحمراء والبنفسجية ، وهو أمر لا نستطيع اليوم أن نتحدث عنه الا من خلال المطياف الذى يفرق بين ألوان النجوم . ويحدثنا التاريخ وكتب الأدب عن مدى قوة الابصار لدى القدامى مما نكتفى بالاشارة اليه خوفا من أن ندخل فى جدل عن صحة هذه الأنباء أو كذبها . وحسبنا أن النظارات اليوم تؤلف جزء من وجه الانسان ، لا الانسان

العجوز أو الكهل ، وانما الصبيان والأطفال فى كثير من الأحوال ، صيانة للبقية الباقية من بصرهم عن الضياع .

تناقص قوة الصوت والسمع

وفى صبانا حضرنا اجتماعات سياسية ، احتشد فيها الألوف لسماع خطاب سياسى من زعيم البلاد فى ذلك الوقت ، ولم يكن لدى الخطيب ما يسمع الناس به الا صوته ، ولم يكن لدى الناس ما يسمعون به الا آذانهم المجردة ، ومع ذلك فقد أسمع الخطيب واستمع الناس ولم يشك أحد أنه لم يسمع [١] .

ومن قبل ذلك وأعجب من ذلك ، احتشاد عشرات الألوف فى العصور القديمة لدى الأغريق والرومان فى المسارح العامة ، ليشهدوا احدى روائع سوفوكليس أو ارستوفان فى الهواء الطلق ، ولم يكن لدى الممثلين سوى صوتهم لاسماع الناس ولم يكن لدى هذه الألوف المؤلفة سوى آذانهم للسماع ، ومع ذلك فقد كان الجميع يسمعون ولم تك هناك ميكرفونات أو مكبرات للصوت . أما اليوم وبعد اختراع المكبرات فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أنه حتى فى داخل الحجرة المغلقة لم يعد الناس يسمعون الا بمكروفون [٢] . وكان هناك أطباء ممتازون هم صانعو الطب بمعناه الحديث، هم الذين تولوا تشخيص الأمراض وأعراضها وهم الذين وصفوا العلاجات

---

(١) القيت أنا شخصيا عديدا من الخطب فى حشود من الطلاب والجماهير عام ١٩٣٠ وبعد ذلك ، حيث لم تكن الميكروفونات قد استعملت فى مصر فى ذلك الوقت على نطاق واسع .

(٢) من أطرف ما مر بى من حوادث فى هذا الشأن ، انه قد أتيح لى رؤية أحد كبار المقرئين يتحرج من تلاوة القرآن خلال الميكروفون فى أحد المآتم فأصر على وجوب رفعه لكى يشرع فى تلاوته ، ثم رأيت هذا المقرىء نفسه وهو يرفض أن يقرأ الا بعد أن يؤتى له بميكروفون ، وذلك بعد انتشار الميكروفون .

التى لا تزال محترمة حتى الآن بعد كل ما وصلنا اليــه من تفوق فى عالم العلاج ، ومع ذلك فان هؤلاء الأطباء لم يكن لديهم مسماع ليسمعوا دقات قلب المريض ، ولم تكن لديهم أجهزة لقياس ضغط الدم ولا معامل لتحليل البول أو الدم ، فضلا عن الأشعة التى ترسم الجسد من الداخل ، أو التى ترسم حركات القلب ... الخ ومع ذلك فقد استطاعوا بحسهم المرهف ، بمجرد النظر أو بمجرد اللمس ، أن يشخصوا هذه الأمراض كلها ، حيث لا يجرؤ اليوم أعظم الأطباء فى أمريكا أو روســـيا أن يشخص أبسط الأمراض الا بعد سلسلة من التحاليل المعملية وصور الأشعة وعديد من البيانات التى تقدمها له الأجهزة المختلفة .

تناقص القوى الذهنية

وقد تجد من يسلم لك بتناقص قوى الانسان بالفعل من الناحية الحسية والعضليـــة ، ولا يرى فى ذلك أى بأس ما دامت الآلات تقوم بالغرض المطلوب أكثر دقة ، فضـــلا عن أن تناقص قوى الانســـان العضلية قـــد عوضها تزايد قواه الذهنية ، فان الآلات وقد قامت عن الانسان بالجهد العضلى ، فقد هيأت له الفرصة لنمو ملكاته الذهنية . وليست هذه القضية المدعاة الا مجرد قول وادعاء ينقضه الواقع فقـــد تناقصت قوى الانسان الذهنية كسائر قواه الأخرى نتيجة تطور الآلة وقيامها عنه بما اعتاد أن يقوم به بذهنه . ولن نحاول فى مناقشتنا لهذه القضية أن تتكلم بصيغـــة التعميم ، لن نقول مثلا انك لن تجد اليوم عقلا بشريا كعقل أفلاطون أو أرسطو أو ابن سينا أو ابن خلدون ، أو حتى عقـــل كانت أو ديكارت ، لا لن نقول شيئا من ذلك لأنه يجرنا الى جدل لا نستطيع الوصول فيه الى مقارنة مثمرة تؤدى الى نتيجة حاسمة . لا ولن نقـــول ان أى مخترع فى

القديم ، وحتى الوقت القريب أى حتى القرن التاسع عشر ، كان هو وحده الذى يقوم بصنع أى اختراع ويتعين عليه أن يحل كل مشاكله العقلية والمادية ، كان عليه دون غيره أن يحل المعادلات الرياضية اللازمة لاختراعه، وأن يقوم بالتجارب المعملية الكيمائية أو الميكانيكية .. الخ بل كان عليه أن يصنع بيده اذا لزم الأمر المتطلبات الآلية التى لا بد منها لصنع جهازه . أما اليوم فقد أصبح أى اختراع شركة بين مجموعة من العلماء الذين لا يستطيع أى واحد منهم أن ينسب الاختراع الى نفسه فهو من صنع الجهود المشتركة ، أجل لن نقول ذلك لأننا لن نعدم من يقول لنا ان اختراعات اليوم قد أصبحت من الضخامة والتعقيد بحيث لا يمكن مقارنتها باختراعات الأمس . والحق أننا لسنا فى حاجة لاثبات تناقص قوى الانسان الذهنية فى العصر الحديث تتيجة لرقى الآلات ،لهذا الأسلوب من التعميم ، فباستطاعتنا أن نعالج الموضوع بطريقة حسابية تحليلية فنصل الى نتيجة لا يمكن أن ينتطح فيها عنزان . ماهى القوى الذهنية ؟ أليست هى ملكات العقل ؟ فما هى ملكات العقل ؟ أو لسنا متفقين على أنها تتألف من المخيلة والذاكرة والمفكرة ؟ فلنبدأ بمعرفة حظ الانسان الحديث فى عصر الآلات من هذه الملكات ، وهل زادت أم نقصت عما كانت عليه .

الانسان القديم أقوى خيالا

أو ليس من الحقائق المسلم بها أن الانسان القديم كان أكثر خيالا من الانسان الحديث ؟ أو لسنا نعتز بأننا برئنا من هذا الاغراق فى الخيال الذى كان الانسان فى القديم يعيش فيه ؟ أو لسنا متفقين على أن الطفل يمثل الانسان فى مراحله الأولى ولذلك فقوة الخيال عنده متفوقة ودنيا الطفل كلها خيال فى خيال ، بحيث حرصنا فى تربيتنا له وتعليمه، على أن

نخرجه من هذا الخيال ليعيش فى دنيا الواقع ؟ واذن فلا مناص من التسليم بأن الانسان الحديث يحلو له أن يصف نفسه بأنه واقعى لا يعيش فى الخيال، ومعنى ذلك أن قوى المخيلة عند الانسان المتحضر الغارق فى الآلات والواقع حتى الأذقان ، هى دون مخيلة الانسان الذى لم يعرف هذه الآلات الا فى خياله .

وأقوى ذاكرة وحافظة

فاذا انتقلنا الى الذاكرة وجدنا الأمر بدوره محل اتفاق فليس هناك من ينازع فى أن القدامى لا يمكن الا أن يكونوا أقوى ذاكرة منا وأقوى حافظة ، وتلك بدورها مسألة حسابية بحتة ، فحيث لا ورق ولا أقلام فضلا عن كتب ، فما هو السبيل لتعلم العلم الا أن يكون تلقينا من انسان لآخر بغير عدة سوى الذاكرة والحافظة . ما هو سبيل الانسان لحفظ القرآن فى القديم الا أن يسمعه فيحفظه ؟ . ان كتب الأدب العربية تحدثنا عن أشخاص من العرب كانوا يحفظون القصيدة الطويلة لمجرد سماعها مرة واحدة، بينما كان يحتاج البعض الآخر لسماعها مرتين لكى يحفظها . وقد اعتدنا ، كما هو شأننا أن نكذب كل ماهو قديم وأن نعتبر ذلك محض خرافة ، ولم نسائل أنفسنا اذن بأى طريق كان الشاعر العربى نفسه الذى لا يعرف الكتابة يقول الشعر ، وعندما كان أى شاعر يقف فى سوق عكاظ ليلقى قصيدته فتنتشر فى البادية ، ماهو سبيل العرب لنقل القصيدة الا أن يسمعوها مرة أو مرتين على الأكثر ، ما داموا بلا أوراق أو أقلام ليدونوا ما يسمعون . ان رجالا كأمثال ابن سينا يحدثوننا عن أنفسهم أنهم لم يكادوا يبلغوا بضعة عشر عاما حتى كانوا قد حفظوا عن ظهر قلب كل كتب العلوم التى كانت معروفة فى أيامهم ولا يجب أن نمارى فى ذلك فحيث لا كتب أو مطابع ، فلا سبيل لكسب المعلومات الا عن طريق الحفظ.

ومن حسن الحظ أننا دائما لسنا فى حاجة للرجوع الى القديم لاثبات أى قول من الأقوال ، فالحاضر يحمل دائما من النماذج ما يشير الى الماضى ، فمن الأمور المسلم بها أن الطفل أكثر قدرة على الحفظ من الشاب فالرجل، وهو أحد ذاكرة فى طفولته منه بعد أن يكبر . والطفل على ما يقولون لنا يمثل الأدوار الأولى للانسان . ومن الأمور المسلم بها كذلك أن ساكن الريف أقوى ذاكرة من ساكن المدينة ، وساكن البادية أقوى ذاكرة من الاثنين معا ، والشعوب التى توصف بالبدائية لا يمكن أن تنسى واقعة حدثت أمامها ، أو كلمة نطقت فى حضرتها .

ومرة أخرى هذه مسألة مسلم بها ، من أن الانسان القديم لا يمكن الا أن يكون أقوى حافظة وذاكرة مادامت الكتابة والكتاب لم تكن قد اخترعت ، وبعد أن اخترعت ظلت محصورة فى عدد محدود جدا ، فقوة الذاكرة كانت ضرورة حتمية لامكان المعاملات ومعرفة الأنساب وابرام المعاهدات ... الخ .

الانسان القديم أقوى مفكرة

فما الذى بقى بعد ذلك من قوى الذهن ، بقيت المفكرة . فهل حظ الانسان فى عصر الآلة منها أكثر ؟ ويجب أن نأخذ للتفكير معيارا لا نختلف عليه بحيث نستطيع أن نقيس به اذا كانت قوى الانسان الذهنية فى الوقت الحاضر أقوى أو أضعف . ومن حسن الحظ أن هذا المقياس أو المعيار معروف ومتفق عليه ، فليس هناك من ينازع فى أن حل المعادلات الرياضية هو أقوى معيار يمكن أن تقاس به القدرة على التفكير . فقديما عندما لم تكن هناك آلات حاسبة ، فضلا عن عقول الكترونية ، فقد استطاع علماء الفلك والطبيعة من أمثال كبلر وتيخو براخيا ونيوتن ، أن يحسبوا بكل دقة رياضية مدارات الكواكب حول الشمس بحيث يتبينوا أن هذه المدارات

ليست دائرة كاملة بل هى قطاع ناقص (اهليلجية) . ولقد وصلوا بحساباتهم المعقدة كما رأينا الى حد القطع بوجوب وجود كواكب غير هذه الكواكب المعروفة ، تسبب انحرافات بعض الكواكب فى أفلاكها لكى تكون حساباتهم صحيحة ، ثم ظهرت صحة حساباتهم بالفعل فاكتشفت الكواكب الجديدة حيث قالوا . ولم يكن لهؤلاء الفلكيين العظام ، لم يكن لنيوتن الذى وزن الشمس والذى وضع حساب التفاضل والتكامل ، لم يكن لهم ما يحسبون به الا عقولهم المجردة ، غير مستعينين الا بالورقة والقلم ، وأحيانا استغنوا حتى عن هذه الورقة والقلم فقد كانوا يديرون الحسابات والمعادلات فى رؤوسهم ولا يسجلونها على الورق الا بعد أن ينتهوا منها . واليوم فى عصر الآلة الحاسبة والعقول الالكترونية لن تجد عالما واحدا من المتبحرين فى الرياضة يمكن أن يحل معادلة فلكية غير مستعين بالآلة الحاسبة التى أصبحت تقوم بهذه العمليات ، ففيم يزعج الانسان نفسه بهذه الأمور . ولو تركنا دنيا الرياضة العالية الى دنيا الأعمال ، دنيا الشركات والبنوك ، دنيا المحاسبين والمراقبين فلن تجد واحدا من هؤلاء يقوم اليوم على عملية ضرب مطولة أو يقدر على استخراج جذر تربيعى غير مستعين بآلة حاسبة. ومرة أخرى لسنا فى حاجة للرجوع الى الوراء لاثبات قدرة العقل البشرى وتفوقه على آلاتنا الحديثة فى اجراء العمليات الرياضية ، فمن شأن الطبيعة أن تحتفظ لنا دائما بنماذج من القدرة الانسانية ، وأنماط البشر المختلفين حتى لا نضل الطريق ويظل حاضرنا متصلا بماضينا على الدوام .

فقد شهدت القاهرة السيدة « شاكوتتالا » الهندية والتى عمت شهرتها العالمين اذ تتحدى المحاسبين وآلاتهم . وتخطىء الآلة ولكن شاكوتتالا لا تخطىء . وقد عقدت لها مسابقة فى نادى التجارة حيث احتشد مائة محاسب مزودين بالآلات الحاسبة ، وبدأت الأسئلة ، واشتغلت الآلات

الحاسبة التى أعدها نادى التجارة ، فى نفس الوقت الذى أمسكت فيه شاكونتالا بالطباشير لتحل المسائل الحسابية . وقد بدأت هذه المسائل بالتساؤل عن الجذر التكعيبى للرقم ٩١١٢٥ ، وقبل أن تجيب الآلات الحاسبة ، كانت شاكونتالا تقول انه (٤٥) [1] .

وشبيه ذلك ما نشرته شركات الأنباء العالمية من أن خبيرا فرنسيا فى الحساب (موريس راجبير) تحدى احدى الآلات الكهربائية الحاسبة ، فى سرعة حل المسائل الحسابية المعقدة ، حيث أجرى ١٢ عملية حسابية معقدة أمام الجمهور فى ٣ دقائق و ٤٣ ثانية ، بينما لم تتمكن الآلةالحاسبة من حل هذه المسائل الا بعد ٥ دقائق و ١٨ ثانية [2] .

وقد بقى أن نعرف أن هذا الذى أصبح يعد أعجوبة يتجمع الفنيون لمشاهدتها ، كان هو الأمر العادى الشائع والمتبع ، حيث لم تكن هناك آلات حاسبة فكان يتعين على كل مشتغل بالرياضيات أن يجيد حل أضخم المعادلات بعقله .

وهكذا يثبت لدينا أن القدرة على التفكير ممثلة فى أعلى مظاهر التفكير وهو حل المسائل الرياضية قد تناقصت بدورها مع اختراع الآلات . وتطرد القاعدة فى كل تطبيقاتها من أن عدم استعمال أى ملكة من الملكات يؤدى الى ضعفها ، ولما كان اختراع الآلات يؤدى على وجه القطع واليقين الى

---

(١) تبلغ هذه المعجزة الهندية (٣٠) سنة من العمر وقامت بجولات حول العالم عشر سنوات زارت خلالها ٦٧ عاصمة ، فبهرت العالمين ، وفى كثير من المرات ، كانت الآلات تخطىء ولاتخطىء شاكونتالا . (راجع جريدة الاهرام عدد الخميس ١٩٦١/١١/٢ حيث نشرت تفاصيل هذه المسابقة العجيبة التى انتصر فيها الانسان على الآلة) .

(٢) جريدة الاهرام عدد يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر عام ١٩٦١

عدم استعمال الانسان لكثير من أعضائه وعضلاته وملكاته وذهنه ، فان النتيجة المحققة لذلك هى تدهور هذه العضلات والقوى والملكات .ويكون المفهوم العكسى لذلك ، أنه كلما استغنى الانسان عن الآلات ، كلما زاد ذلك فى قدرته على حل مشاكله بقواه الذاتية . وسوف يحمل المستقبل فى طياته ميادين يرى الانسان نفسه فيها بعيدا عن عالم الآلات التى عرفها وألفها ، غدا عندما يصعد الى الكواكب الأخرى ؛ وسيكون من المحقق أن الانسان بقواه الذاتية وبغير آلات ، سـوف يحقق مشيئته ، وينفـذ ارادته فى كثير مما يبدو لنا اليوم مستحيلا .

انطواء الجسم البشرى على اصول الآلات كلها

وثمة قانون ثالث يحكم العلاقة بين الانسان والآلة ، وذلك القـانون هو أنه ما من آلة ابتكرها الانسان ، الا وهى امتداد لأعضائه ، تعمل على ذات الأسس التى تعمل بها هذه الأعضاء ، وقد بدأت اما تقليـدا لهذه الأعضاء ، أو تعمل على نفس النظرية التى تعمل بها الأعضاء . فعندما صنع الانسان أول وعاء ليحفظ فيه الطعام أو يشرب به الماء فلم يكن فى ذلك الا محاكيا لكفيه عندما يغترف بهما الماء ، ولا يزال الانسان الذى لا يملك وعاء ليشرب فيه يستخدم هذا الوعاء الطبيعى قبل أن يخترع الانسـان أى وعاء . والآلات الحادة القاطعة من سكاكين وخناجر وسيوف وحراب، ليست الا تقليدا لقواطع الانسان من أظفار وأنياب وأسنان .

واذا كان أبسط استعمال للآلة قد أخذ أول ما أخذ صورة صنع العتلات واستخدامها ، فليست أطراف الانسـان ابتداء من أذرعه وأرجله حتى أصابعه ، الا عتلات بالمعنى الفنى لكلمة عتلة من الناحية الصناعية . وليست كل الآلات البصرية ابتداء من آلة التصـوير وانتهاء بالتلفزيون ، الا

استخداما لبعض النظريات التى تقوم عليها عمليات الأبصار بواسطة العين . ومثل ذلك يقال عن جميع الآلات السمعية . فهى كلهــا عالة على الأذن . وهذه الشبكات الضخمة من الأنابيب التى أصبحت تسرى خــلال المدن حاملة المياه الصالحة من جانب ، وحاملة الفضلات من الجانب الآخر ، هى أشبه الأشياء بالدورة الدموية ، بل ان الانسان لم يستطع أن يجد لهــا اسما جديدا فأطلق عليها اسم « دورة المياه » .

والكتل الضخمة من الأسلاك الكهربائية التى تسرى فى أنحاء المدن حاملة القوى المحركة الى كل مكان ، لا يمكن أن تخرج عند المقارنة ، من شبهها بمجموعة الخلايا العصبية والأعصاب والمراكز العصبية التى تنقل الطاقة المحركة والحاسة الى كل خلية من خلايا الجسد كما رأينا .

وعضلات الانسان تقوم بالدور الذى يقوم به أى محرك من المحركات. وقبل أن يخترع الانسان نظام الاحتراق الداخلى المستعمل فى السيارات وأمثالها ، كان الجسم يطبق هذا الأسلوب مذ كان الانسان انسانا . ولا تزال عملية الاحتراق الداخلى فى الآلات تحتاج الى شرارة كهربائية لاتمام عملية الاحتراق ، حيث تتم العملية داخل جسد الانســـان بدون لهب من أى نوع كان .

ويتطلع الانسان اليوم الى صنع عقول الكترونية تتولى ادارة الآلات، ولن يكون أعظم عقل الكترونى يبدعه الانســـــان الا عالة على العقل البشرى .

فالآلات كلها مستقرة فى جسد الانسان وطبيعته ، تعمل بأساليب أدق فى حيز أصغر ، وبوسائل أخفى وأعقد .

ملخص القواعد التى تحكم الانسان والآلة والطاقة

وأحسب أنه باستطاعتنا الآن أن نلخص ما سقناه من القواعد تمهيدا لتأكيد قانون الطاقة الانسانية .

١ — كل انسان ينطوى على مجموع نواميس الطبيعة وقوانينها التى لا يقومْ الوجود الا بها .

٢ — كل انسان ينطوى على كل مافى الكون من طاقة .

٣ — يستقبل كل انسان الطاقة ويرسلها بغير حاجة الى أى واسطة

٤ — جسم كل انسان وعقله ينطويان على الأسس التى تقوم عليها أى آلة

٥ — لا تقاس فاعلية أى آلة بضخامتها أو وزنها أو المادة المصنوعة منها ،

٦ — تضعف قوى الانسان كلما اعتمد على الآلات ، وتقوى كلما استغنى عنها .

وهذا من شأنه أن ينتهى بنا من ناحية عملية تجريبية ، أى باستخدام قواعد العلم الطبيعى المعترف بها ، الى تأكيد قانون الطاقة الانسانية ، والذى يقضى بقدرة الانسان على تحقيق كل ما يدور فى ذهنه متى استخدم القانون وطبقه تطبيقا صحيحا حسب النص التالى :

أى هدف انسانى × درجة ضرورته = وضوح صورته فى الذهن × شدة التركيز = طاقة تحقق الهدف فى الخارج عند غياب الظروف المعاكسة .

وبعد

وبعد فاذا كان لا بد لهذا البحث أن يختم ، ولهذا الكتاب أن ينتهى ، فليس هناك مانختمه به الا أن نتساءل ، ما الذى يستكثره أى معترض على ما قلناه عن الانسان ، سواء كان هذا المعترض يقيم اعتراضه على أساس من التحكك بالمادية والطبيعة أو أقام اعتراضه على أساس من التمسك

بعض الأفكار الدينية ؟ ولنتكلم أولا بلغة المادة والطبيعة ، أو ليس من المتفق عليه أن الطبيعة تعمل كل شيء فى هذا الوجود بدون الآلات على الصورة التى ابتدعها الانسان حتى الآن ؟ فبأى أسلوب تصنع الطبيعة ما تصنع ، وبأى واسطة وبأية وسيلة ؟ لا جواب على ذلك الا أن الطبيعة تعمل الذى تعمل بقوة مافيها من نواميس أو قوانين . فهل لهذه النواميس حجم معين ؟ هل لهذه النواميس مكان مخصوص تأوى اليه ؟ أم أن هذه النواميس هى الطبيعة نفسها ؟ فلو فرضنا أن الانسان مجرد جزء من الطبيعة لكان ذلك وحده كافيا لكى تكون كل نواميس الطبيعة مستكنة فيه فمن غير المتصور أن يخلو مكان أو جزء من الطبيعة من نواميسها كلها [1] ، فكيف والانسان فى حقيقته لا يمكن أن يكون جزءا من الطبيعة بل هو الطبيعة كلها فى صورة مركزة . فقد قلنا أن كل شيء فى الوجود لا بد أن يتركز فى بذرة له تلخص كل كيانه وتحوى صورته التى يعود منها للانتشار ، ولا يمكن أن تشذ الطبيعة فى مجموعها عن هذه القاعدة فلا بد أن للطبيعة بذرة تتكدس فيها بكل خصائصها وامكانياتها وأسرارها ، ومن حقنا بل من واجبنا أن نتساءل عن هذه البذرة التى تلخص الطبيعة كلها أين توجد . أفيمكن أن تكون هذه البذرة هى الذرة ؟ لقد قيل لنا بالفعل أن الذرة فى تركيبها تشبه أن تكون كونا كاملا بشموسه وكواكبه . أفتكون هذه الذرة هى بذرة الكون ؟ كان يمكن أن تكون كذلك لو أن الذرة تحتوى على سر الحياة أيضا ، لأن الكون يحتوى على الحياة فيما يحتوى ، وبذرة الكون لا بد أن تحتوى على كل عناصره . أفتكون الخلية الحية هى بذرة هذه الطبيعة ؟ كان يمكن أن تكون

---

(١) ان هذا النظر الذى انتهى بنا اليه العلم المجرد ، ليس الا عودا لايمان المؤمنين من أن الله فى كل مكان .

كذلك فانها تحتوى على الذرة وتحتوى بالأكثر على سر الحياة . ولكن الطبيعة تحتوى فوق الحياة على العقل ، والخلية الحية المجردة من العقل لا يمكن بناء على ذلك أن تكون هى بذرة الطبيعة . فلم يبق أمامنا الا بويضة الانسان الملقحة ، هى الوجود المتكامل الذى يحتوى على كل قوانين الذرة ، وقوانين الحياة ، وقوانين العقل فهى اذن بذرة الطبيعة فى مجموعها . وليس هناك من دليل مادى يؤكد ذلك أكثر من هذا الذى قلناه فى الفصل الخامس من أن هذه البويضة الملقحة لو ظلت تنمو بنفس النسبة التى تنمو بها خلال الأشهر الأولى لمدة عشر سنوات فقط لأنتجت كائنا يفوق المجموعة الشمسية حجما ووزنا ، فكيف بها اذا واصلت النمو على هذا المعدل أجيالا وقرونا ؟ [1] ولكن بويضة الانسان الحى لا تواصل نموها لأن الانسان هو بذرة الطبيعة وتركيزها ، ولكى يؤدى دوره يجب أن يظل على هذه الدرجة من التركيز .

ذلك هو ما يقول به العلم المادى ويثبته ، لم نجىء بحرف واحد من عندنا أو بنات أفكارنا ، فلا محل للمادى أن يعترض على قانون الطاقة الانسانية بحال .

ولا حق لأى متدين من باب أولى أن يتشكك فى صحة قانون الطاقة الانسانية ، فلو أن دينه كان وثنيا ، فقد اعتبرت هذه الأديان الانسان دائما من نسل الآلهة . ولو أنه كان ممن يؤمنون بالكتاب المقدس فهذا الكتاب يقول « ان الله خلق الانسان على صورته »

ولو كان ممن يؤمنون بالمسيحية ، فالأنجيل يصف الانسان بأنه (ابن الله) ، ويخاطب الله قائلا أبانا الذى فى السماء .

---

(١) انظر ص ١٩٤

ولو كان ممن يدينون بدين الاسلام ، فهو يعلم أن الله طلب من الملائكة أن تسجد للانسان ، وهو يعلم أنه أودع الانسان قبسا من روحه وهو يعلم ان الله قد علم آدم الأسماء كلها حيث عجزت الملائكة عن ذلك ، وهو يعلم أنه حمل الانسان الأمانة التى عجزت السموات والأرض كلها عن حملها .

وهكذا تلتقى المعانى والتصورات كلها فى كل زمان ومكان لتشير الى حقيقة الانسان ، أنه مستودع سر الطبيعة وخلاصة نواميسها وقدرتها، وأن الساعة قد حانت ليعرف من أسرار نفسه ، بعض ما أصبح يعرفه عن أسرار الطبيعة من حوله ، ليدرك أنه هو الكون الأكبر فى مقابل الكون الخارجى الأصغر ، وأنه قادر على أن يقول للشىء كن فيكون .

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

انتهى

تذييـــــل

أى طـريق نســلك ؟

- صراع أو تعاون — حرب أم سلام
- ما هو مستقبل البشرية ، وما هو هدفها النهائى ؟
- أثمة جنة فى السماء أم على الأرض ؟
- ما الذى يجب علينا أن نفعله ؟
- مقياس الخير والشر .

فلنحيا مثلنا العليا

كان يجب أن ينتهى هذا الكتاب عند نهاية الفصل السابق بعــد أن توصلنا الى القاعدة التى تربط بين ما يدور فى الذهن وما يتحقق خارجه ، وصغنا هذه القاعدة فى صورة قانون للطاقة الانسانية ، ودللنا على صحة هذا القانون ، وليس لنا من هدف فى هذا الكتاب وراء ذلك .

ومع ذلك فلم أستطع أن أرد رغبــة جاشت فى نفسى ، للاجابة على سؤالين لا يمكن الا أن يراودا كل من سيقدر له مطالعة هذا الكتاب سواء اقتنع بما جاء فيه أو لم يقتنع .

أما السؤال الأول فيدور حول طبيعة العــلاقات بين الأفراد فى عالم يبلغ فيه كل انسان منتهى القوة التى لا يحدها حد الا من ارادته . أتؤدى هذه الحالة فى التساوى بين قوى الأفراد المطلقة الى الخلاف والصراع ، فالحرب التى لا تنتهى ، أم الى التفاهم والتعاون والتوافق فالسلام الدائم؟ أيتحاب الفرقاء المتساوون أم يتباغضون ؟ هذا سؤال .

أما السؤال الثانى فيدور حول صورة المجتمع الذى يحقق فيه كل انسان غاياته وأهدافه لا عن طريق العمل والجهد والعرق المسفوح ، لا عن طريق الآلات الدوارة المصنوعة من الصلب والفولاذ ، ولكن لمجرد التصور الذهنى والتركيز عليه ، أيمكن أن يكون لعالم من هذا الطراز وجود ؟

وللرد على هذين السؤالين جئنا بهذا التذليل الاضافى ، أو التزيد الالحاقى ، ونحن نصفه بذلك لأننا لا نستطيع أن نعتبره جزءا من الكتاب، لأنه لا يستند الى أى نوع من التجارب سواء تجاربنا الشخصية أو تجارب الآخرين ، والتجربة هى الأساس الذى بنينا عليه كتابنا ، وأقمنا عليه دعائم قانون الطاقة الانسانية ، أما فى هذا التذييل فحديثنا كله يدور على مجرد الاستنتاج والقياس على ما جاء فى الكتاب .

صراع أو تفاهم ، حرب أم سلام ؟

أيقوم الصراع فى مجتمع كل من فيه قوى ؟ أتثير المساواة فى قوة الارادة المطلقة الحقد والبغض والكره وبالتالى تشعل نيران الحروب ؟ أم أنها تؤدى الى التفاهم والسلام ؟

لا يحتاج الرد على هذا السؤال الى كبير مشقة ، فمجرد القاء نظرة عابرة على كل ما يحيط بالانسان تقدم لنا الجواب على الفور . يتنافس الأحياء جميعا حول الغذاء باعتباره سبيلهم الى الحياة ، ولا يمكن الا أن يكون فى الطبيعة ما يكفى لتغذية كل ماهو حى ، ولكن الصراع يدور أكثر مايدور حول الحصول على أكبر قدر من الغذاء، وفى هذا الصراع ينتصر القوى فيحصل من الغذاء على أكثر من حاجته ، وينهزم الضعيف فلا يحصل الا على بعض حاجته ، ويستمر الصراع ويعمل الحقد ويدور دورته . أما لو كان الناس متساوين فى القوة ، لما كان أمامهم سبيل الا أن

يقتسموا الغذاء بينهم بالسوية ، ادراكا منهم أن لا سبيل لحلها الا على هذا الوجه . فالتفاوت اذن فى الأقدار ، لا التساوى هو منشأ المنازعات والخصام والفتن والأحقاد التى لا تنتهى . فما بقى هناك ضعيف وقوى فسيبقى التسخير وسيكون الاستغلال لحساب الأقوياء وسحق الضعفاء .

ولنبدأ القصة من البداية ، لنبدأها مع الحيوانات المفترسة فى الغابة . ان الحيوانات المفترسة لم تأخذ هذا الاسم لأنها تفترس أفراد جنسها ، فالأسد لا يفترس أسدا والنمر لا يفترس نمرا . وانما سميت مفترسة لأنها تفترس الحيوانات الأضعف منها ، هى تفترسها لا لأن الطبيعة تقضى بذلك كناموس من النواميس التى لا تنقض ، فقد كان باستطاعة هذه الحيوانات أن تعيش على أكل الحشائش كما يفعل غيرها ومن هو أكبر حجما منها كالفيل مثلا ، ولكن المسألة بدأت عن طريق الاستضعاف فأكل الأسد غزالا أو أرنب فلم يكلفه افتراسه أى جهد ولم يعرضه لأى خطر فتحول الافتراس لهذه الحيوانات الضعيفة الى عادة متوارثة . وليس أدل على ذلك من أنه حيث يكلف الافتراس أى جهد أو مشقة ، فضلا عن التعرض لبعض الجروح والكدمات والضربات القاسية ، فان الحيوانات المفترسة تتردد عشر مرات قبل أن تعتدى على الحيوان الخطر .

وتقوم الصلة بين الانسان والحيوان على نفس القاعدة ، فليس أكل اللحم ضرورة لحياة الانسان ، وباستطاعته أن يحيا على أكل النباتات فقط، وقد عاش غاندى ، أعظم من أنجبته الانسانية فى العصر الحديث ، وهو لا يأكل اللحم . فليس أكل اللحم ضروريا ولا هو من طبيعة الانسان ، ولكنها مجرد عادة نشأت من احساسه بقوته وضعف بعض الحيوانات ، فراح يعمل على استئناسها ليذبحها وقت الطلب دون أن يكلفه ذلك أى جهد أو مشقة . وتسرح الحيوانات غير المستأنسة وتمرح دون أن يفكر

الانسان فى ذبحها لأنه لم يتعود على أكل لحمها ، أما لماذا تركها الانسان منذ البداية فليس ذلك الا لقوتها وللمخاطر التى يتعرض لها كلما فكر فى اصطيادها .

ولا تختلف علاقات الناس فيما بينهم عن هذا المبدأ وهذه القاعدة . ففى أى مجتمع تتفاوت فيه حظوظ الناس قوة وضعفا غنى وفقرا ، صحة ومرضا ، علما وجهلا ، حيث لا يكون ثمة تساو بين النـــاس اما بحكم القانون أو بحكم الواقع ، فان هذا المجتمع لا يمكن الا أن يغص بكل أنواع الشرور والمساوىء والمفاسد والمظالم فى مثل هذا المجتمع لن تجد الا قويا ينهب أو يغتصب ، ونفوسا تجيش بالحقـد وتغلى بالتذمر والثورة ، أو تعيش محطمة فى مهاوى اليأس لا تكاد ترقى الى مرتبة الحيوان . فى هذه المجتمعات التى يسودها التفاوت تنتشر الجريمة ، ويزدهر العنف ، ولا يكاد الناس يتعاملون الا سبا وقذفا ، ولا يتحادثون الا صياحا .

وعلى الضد من ذلك يكون الحال فى المجتمعات التى يســودها أكبر قدر ممكن من التقارب فى كل شىء ، فى التعليم والثروة والصحة والاعتداد بالشخصية والنفوذ والسلطان . فى مثل هذه المجتمعات يسود الســـلام ويستتب الامن ويتبادل كل من فيه الثقة بالآخر ويعـامله بالاحترام . فى مثل هذه المجتمعات لن تجد انسانا يرفع الصوت على انسان آخر فضـلا عن أن يهينه بالقول أو الاشارة لأى سبب من الأسباب ما من مشكلة أو خلاف فى الرأى لا يحل عن طريق التفاهم ، أو الاحتكام الى القـانون . فالعقل والمنطق هو الحكم النهائى بين الأفراد [1] .

---

(١) لعل أقرب مثـــال لهـذه المجتمعـــات فى الوقت الحاضر هو الدول السكندنافية ، والمجتمع الانجليزى ، حيث بلغ الامر الى حد أن رجل البوليس غير مسلح بأى سلاح حتى ولا مجرد عصا صغيرة .

وليس ذلك الا نتيجة التسوية القانونية والفعلية بقدر الامكان بين الناس ، لأنه ما دام ان كل فرد يعرف أن لكل فرد آخر مثل حقوقه وقوته ، وأن كل فعل يقع منه لا يمكن الا أن ينتج رد فعل مساويا ، فأى عدوان سيرد عليه بعدوان مماثل ، فان مصلحة الانسان نفسه هو فى أن يحافظ على السلام والامن لأن فى ذلك سلامته وأمنه وكرامته وحريته . فالتساوى فى القدرة وليس التفاوت هو مصدر كل خير ونعيم فى الدنيا .

الموقف الدولى

وهذا الذى يصدق على الأفراد داخل المجتمع الواحد ، يصدق على علاقات المجتمعات فى مجموعها . ما من دولة من الدول تخاصم دولة تعرف أنها قادرة على أن تكيل لها الصاع صاعين ، وترد اللطمة لطمتين . وانما تتخاصم الدول مع من تتصورها أضعف حالا منها . فلم يحدث عبر التاريخ ، أن هاجمت دولة دولة أخرى الا عندما يغلب عليها الظن أنها الأقوى والأقدر وأنها ستخرج من الحرب فائزة منتصرة . ومن المحال أن تتصور أن دولة من الدول تخوض حربا وهى موقنة أنها ستخرج منهزمة ، ومن الصعب أن تخوض أى دولة حربا لو أنها وثقت أنها لن تكسب أو تخسر ، فالاعتقاد بامكان النصر هو الدافع الوحيد الذى يدفع أى دولة لشن حرب هجومية .

والحديث يجرى وقت كتابتى هذه السطور (سبتمبر عام ١٩٦١) حول خطر الحرب التى قد تندلع فى أى لحظة بين الشرق والغرب ، أو بين أمريكا وكتلتها وروسيا وكتلتها ، ويجرى تفجير القنابل الذرية على ساق وقدم ، وتحشد كلتا الكتلتين جيوشهما وعتادهما وأسلحتهما فى الجو والبر والبحر ، ومع ذلك فلن تقوم حرب كما لم تقم فى كل الأزمات المماثلة خلال الخمسة عشر عاما الماضية ، ما ذلك الا لأن كلا من الطرفين

يدرك أن لدى الآخر من القوة ما يكفى لتحطيمه وابادته ، ومن هنا راح الطرفان كلاهما يعلن أنه انما يتخذ هذه الاستعدادات محافظة على السلام العالمى الذى يتلاشى فى اللحظة التى يتصور فيها أحد الطرفين أن الثـانى غير مستعد .

ولن تقوم الحرب ما بقى توازن القوى حقيقة واقعة ، وفى اللحظة التى يختل فيها هذا التوازن بالفعل لأى سبب من الأسباب كأن يسبق أحـد الطرفين الآخر باختراع سلاح يتصور أنه يلغى أسلحة خصمه ، أو لمجرد أن يتوهم أنه قادر على الفوز على خصمه فستقوم الحرب فورا .

واذن فيجب أن نطمئن الى ثبوت القاعدة ، أنه حيث يوجد التساوى والتكافؤ ، ينعدم النزاع والخصام .

ويســـود التعـــاون

بل ان المساواة المطلقة لا تقف عند حد احلال السلام محل الخصام ، بل تذهب الى ما وراء ذلك ، تذهب الى التعاون والتوافق بين المتساوين والأكفاء فى القدرة ، لأن ناموس الطبيعة هو التعـاون والتكامل ، واذا كانت الطبيعة قد بدأت بالواحد فلا يمكن الا أن تعود الى الواحد ، اذا كانت الطبيعة قد بدأت من البسيط الى المركب فلا منـاص من أن تعود من جديد الى البسيط ، فهذه هى سنتها دورة دائمة . والتكامل والتوافق بين المتساوين يتحقق بصورة نموذجية فى الانسان الواحد . ليس هـذا الانسان كما رأينا فى الفصـل الخامس الا تكاملا من بلايين البلايين من الخلايا ، ولقد رأينا كيف أن لكل خلية من هذه الخلايا شخصيتها وفرديتها الذاتية وقدرتها المساوية لقدرة أى خلية أخرى ومع ذلك فان هذه الخلايا تعمل فيما بينها فى تعاون باهر وتكافل وتعاضد لتأليف هذا الكل وهـو

الانسان الذى يعمل على المحافظة عليها ، من خلال محافظتها عليه .

هذه الصورة للحياة داخل الكون الانسانى ، هى الصـــورة التى سيكون عليها البشر مجتمعين اذا سادت بينهم المساواة المطلقة .

ماهو مستقبل البشرية ؟

واذا كنا قد انتهينا من الاجابة على السؤال الأول ، فباستطاعتنا أن ننتقل الى الرد على السؤال الثانى الخاص بصورة المجتمع الذى يحقق فيه كل انسان ارادته من خلال التصور الذهنى ولا زيادة ، أى بغير حاجة الى كد أو تعب أو آلات من أى نوع كان . واذا كنا قد استنبطنـا الرد على السؤال الأول مما يحيط بنا وفى داخل جسدنا ، فان الرد على هذا السؤال يستلزم أن تستحضر من جديد كل الذى قلناه لك فى الفصـــل الرابع خاصا بأنه كل ما دار فى ذهن البشرية مجتمعة على أنه موجود أو سيوجد ، فلا يمكن الا أن يكون هذا الشىء موجودا بالفعل أو أنه كان أو سيكون [1] . لأنه لا معنى اطلاقا لأن يدور فى الذهن أمر لا يكون من قبيل الذكريات الماضية ، أو انعكاسات الحاضر ، أو مبـدأ لخلق شىء سيكون . ولقـد تساءلنا فى ختـام هذا الفصـل اذا كنت لا تزال ذاكرا — وانك لكذلك ان شاء الله — أليس باستطاعتنا قياسا على ما أثبتناه ، أن نتساءل عن مستقبل البشر ، وقد وعدنا بالرد على هذا السؤال فى هــذا التذييل .

مثل البشر الأعلى فى الحيـــاة

لم ينفك البشر فى أى عصر من العصور ، ولا فى أى بلد من البلاد ، ولا فى ظل أى ظرف من الظروف عن التطلع الى حياة كاملة تخلو من الكد

(١) انظر صفحة ١٣١ .

والتعب والظلم والاجحاف ، ينال الانسان فيها حظه من متع الحياة وفقا لمشيئته ورغبته ، ولا يكدره فيها شجار أو خصام أو حرب ، ولا يعانى فيها حسدا أو حقدا ، ولا يتألم فيها بأى نوع من الألم ولا يمرض أو يموت.

هذه الصورة لحياة انسانية كاملة قد تعلق البشر بها على مر العصور والدهور ، يستوى فى ذلك المؤمنون والملحدون ، المتدينون والكافرون ، الالاهيون والطبيعيون والماديون . والخلاف الوحيد الذى وجد بين هؤلاء وأولئك ، أن الأولين تخيلوا عدم امكان تحقق هذه الصورة على الأرض فارتفعوا بها الى السماء فى حياة ثانية ، أما الآخرون فقد قالوا أن ليس ثمة حياة سوى هذه الحياة الدنيا ، وأن هذه الجنة المأمولة يجب أن تتحقق هنا فينعم بنو الانسان بكل هذه الطيبات ، والحياة المثالية التى يؤملون فيها ويصبون اليها .

وهكذا لن تجد الانسان الا بين مؤمل فى جنة سماوية ، أو جنة أرضية، وفى ذلك يقول « ول ديورانت » فى كتابه قصة الحضارة الذى استعرض فيه كل تاريخ البشر وتفكيرهم :

« يمكن تشبيه عقيدتى النعيم فى الدار الآخرة أو جنة الدنيا بدلوين يتبادلان النزول فى بئر فاذا نزلت احداهما ارتفعت الأخرى . فعندما ضعف شأن الأديان اليونانية والرومانية القديمة ثارت الاضطرابات الشيوعية فى أثينا عام (٤٣٠ ق . م) وبدأت الثورة فى روما عام (١٣٣ ق . م) فلما أن أخفقت هاتان الحركتان، نجحت العقيدة القائلة بالبعث والنشور التى بلغت ذروتها فى الديانة المسيحية . فلما أن ضعفت العقيدة المسيحية فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد عادت الشيوعية الى الظهور . » (١)

---

(١) قصة الحضارة ـ جزء ٣ ـ مجلد ٣ ـ ص ٢٩١

فاذا أردنا أن نرسم مستقبل البشرية ، فليس أمامنا الا أن نستوحى صورة الجنة السماوية كما تصورها البشر فى كل زمان ومكان ، وكذلك الجنة الأرضية التى تصورها غير المؤمنين بجنة فى السماء ، فيكون القسم المشترك من الصورة هو الذى يحدد بلا جدال أو شبهة مستقبل البشرية الذى ترنو اليه والذى يجب أن تعمل على تحقيقه .

الجنـــة عند القبـــائل البدائيـــة

تظهر قصة الجنة فى جميع القصص الشعبية فى العالم كله ، فالهنـــود الحمر يقولون :

« ان جميع الهنود الطيبين حين يموتون يصعدون الى عالم الأرواح بعيدا جدا عن النجوم حيث يجدون نساء حسناوات لا يلحقهن أبدا كهولة ولا بدانة وأرضا بهيجة للصيد زاخرة دائما بالغزلان لا ينقص عددها أبدا مهما يكثر صيدها [١] » .

أما أهالى مكسيكا القدماء فكانوا يعتقدون أن الرجال الذين يموتون فى الحرب والنساء اللواتى يمتن فى حالة الوضع ، تذهب أرواحهم لتقيم فى قصور فى الشمس وبعد أربع سنوات تحل هذه الأرواح فى طيور جميلة تستطيع أن تعيش كما تشاء على الأرض أو فى السماء .

وأهالى جزيرة جرينلاند الذين تقع جزيرتهم فى المنطقة الثلجية والذين يستمر الليل عندهم شهورا فى كل عام ، آمنوا بجنة تصورها بعضهم فى أعماق الأوقيانوس وتصورها البعض الآخر فى القمر ، وهذه الجنة فىصيف دائم ونهار لا آخر له ، وتكثر فيها الحيوانات الشهية التى تقدم لهممسلوقة فى المراجل .

---

(١) ول ديورانت ـ مباهج الفلسفة .

أما أهالى الاسكينديناف القدماء فكانوا يعتقدون أن الجنة من نصيب المحاربين الذين يموتون وهم يقاتلون ، حيث يطاف عليهم بالخمر وهم متكئون على الأرائك ينعمون ، ويستمعون الى الأشعار التى تقال فى مدح أفعالهم والثناء عليهم [1] .

الجنة عند الشعوب المتحضرة

أما المصريون القدماء وهم الشعب الزراعى فجنتهم هى المثل الأعلى فى الزراعة ، فهناك فى الشمال الشرقى من السماء تقع « حقول يارو » هذه الحقول اليانعة الدائمة الاخضرار الوفيرة الخيرات الكثيرة العدس حيث يعلو قمحها فوق أى قمح ينبت على ضفاف النيل ، يعمها السلام والامن والطمأنينة ، وينال كل فرد فيها نصيبه .

وثمة أرواح أخرى تظل تعلو طبقات الهواء بعد الموت حتى تبلغ الشمس (رع) فتقابل أتباع المعبود هناك وتعيش كنجوم أزلية [2] .

أما عند الفرس من أتباع زرادشت « فالأرواح الطيبة تبدأ حياة جديدة بعد الموت فى عالم خال من الشرور والظلام والآلام ، حيث لا موت ولا فساد ولا انحلال أو شيخوخة وتعيش كل الخليقة فى خلود دائم حيث يحكم اله النور (أهورمزدا) الى أبد الآبدين [3].

ويقول الهنود فى كتابهم المقدس « الفيدا » ان الروح الصالحة بعد

(١) دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدى ـ المجلد الثالث ـ نقلا عن دائرة معارف (لاروس)

(٢) كتاب تاريخ مصر القديمة ـ لجيمس هنرى بريستد ـ ترجمة الدكتور حسن كمال ـ ص ٤٢

(٣) قصة الحضارة ـ المجلد الاول ـ الجزء الثانى ـ وقادة الاديان

الموت يتلقاها « ياما » فيرفعها الى الجنة لتنعم بكل صنوف اللذائذالأرضية وقد كملت ودامت الى الأبد [1] .

وقد حاول بوذا أن يؤسس دينا لا جنة فيه ولا نار ، وجعل محوره يدور على محاولة التخلص من الألم فى هذه الدنيا بالوصول الى مرتبة « النرفانا » . وقد حارت العقول فى وصف هذه النرفانا ، فقيل انها انعدام شعور الفرد بفرديته ، وقال بعض أتباع بوذا انها اتحاد بالله وحياة فى فردوس من السعادة بعد الموت ، ولكن البوذية لم تلبث تحت ضغط حاجة البشر ، أن تحدثت كبقية الأديان الأخرى عن عديد من الجنات تعلوها جنة النعيم ، فثمة جنات حول جبل ميرو الذى سفحه من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة ومقسم الى عدة طبقات فى كل طبقة أهلها من الصالحين على حسب درجاتهم ، وفوق هذه الجنات جنات أخرى ثم أخرى تنتهى الى جنة علوية فى السماء حيث يحيا الأبرار فى حالة فناء لا مفكرين ولا غير مفكرين بل فى سعادة مطلقة [2] .

الجنة عند الأغريق

حتى اذا وصلنا الى الأغريق ، أساتذة الفكر الانسانى ، وجدنا أن أحد الأديان السائدة بين صفوفهم هى « الأورفية » ذات الطقوس السرية تتحدث عن جنة ينعم فيها الصالحون بالخلود والسعادة وتسمى هذه الجنة جزائر المنعمين .

ولكن أروع تصوير للجنة نراه فى شعر بندار اذ يقول :

« وفى ضياء الشمس الجميل يقيم المتقون لا فرق بين أيامهم ولياليهم فى بهجتها وبهائها ، حيث لا يفعلون ما اعتادوا فعله فى الأيام الخوالى عندما كانوا يكدحون كدحا كنودا لحرث الأرض واثارتها ليحصلوا على حاجاتهم

---

(١) قصة الحضارة ـ المجلد الأول ـ الجزء الثالث
(٢) دائرة معارف القرن العشرين ـ لفريد وجدى

الباطلة ، أو عندما كانوا يخوضون عباب البحر بسفنهم . وانما يقيمون فى نعيم دائم مع الآلهة العظام ويقضون معهم حياة خالية من الأحـــزان ، مستمتعين فيها بسرور وهناء جزاء لهم على ما حفظوا من عهود على ظهر الأرض [١] .

حتى اذا وصلنا الى أفلاطون أمير فلاسفة اليونان وجدناه يقول لنا : اذا مات الانسان انتقلت روحه اذا كانت فاضلة الى « جزائر المباركين » واذا تطهرت الروح خلال الحيويات المختلفة من جميع آثامها تحررت من التجسد وصعدت الى الفردوس تتمتع فيه بالسعادة السرمدية [٢] .

الجنـــة عنـــد الرومان

وورث الرومان كل ما عند الاغريق بالاضافة الى ما كان عندهم حيث كانت عقيدتهم تقول لهم « ان الموتى ينتقلون الى جنات النعيم »

ويختم شيشرون كتابه عن الجمهورية بوصف الجنة والنعيم الأبدى الذى ينعم فيه الصالحون بعد موتهم [٣] .

أما فرجيل أعظم شعراء الرومان فيخصص الكتاب السادس من ملحمته الكبرى « الأنيادة » لوصف الجنة وما تغص به من أودية خضراء ينعم فيها الصالحون الى أبد الآبدين [٤] .

الجنـــة عند اليهـــــود

ولم يعرف اليهود سوى جنـــة عدن التى أخرج منها آدم وهى على هذه الأرض ، ولم يؤمن اليهود بخلود الروح بعد الموت ، بل لم يتصوروا

---

(١) قصة الحضارة ـ جزء ثانى ـ مجلد ٢ ـ ص ٣٤٣

(٢) قصة الحضارة ـ جزء ثانى ـ مجلد ٢ ـ ص ٤٨٠

(٣) قصة الحضارة ـ جزء ١ ـ مجلد ٣ ص ٣٣٦

(٤) قصة الحضارة ـ جزء أول ـ مجلد ثالث ص ٦٣

أن جسد الانسان ينطوى على روح ، فتراهم يخاطبون ربهم قائلين «الموتى لا يقومون بحمدك فاستبق حياتنا لتستبقى من يعبدك » وكذلك يمكن اعتبارهم بحق حملة لواء الدعوة المادية التى لا تؤمن بجنة فى السماء وانما تسعى لتحقيق أكبر قدر من الخير لنفسها على ظهر هذه الأرض .

ولكن اليهود كسائر البشر لم يلبثوا أن آمنوا بالجنة كما يصفها لنا التلمود (مستودع حكمة اليهود ومعارفهم) فجنة عدن تقع فى السماء الرابعة ولها بابان يحفظهما ستمائة ألف ملك فاذا جاءتهم روح تقية ألبسوها تاجين ورقصوا وغنوا لها قائلين « كل خبزك وتمتع » ثم يوصلونه الى جهة تجرى فيها أربعة أنهار من « لبن وعسل وخمر وماء » حيث يجلس الصالحون على موائد من أنفس الأحجار الكريمة ... الخ (١)

وفى القرن السابق على الميلاد أصبح اليهود يترقبون نزول مسيح من السماء يحمل الناس جميعا على الايمان بالله (يهوه) والشريعة الموسوية . ويسود بعد ذلك عصر طيب تسعد به الدنيا بأجمعها فتكون الأرض كلها خصبة ، وتحمل كل حبة قدر ما كانت تحمل من قبل ألف مرة ، ويصير الخمر موفورا ويزول الفقر ، ويصبح الناس كلهم أصحاء مستمسكين بالفضيلة وتسود العدالة والصداقة والسلام فى الأرض (٢) .

الجنة فى المسيحية

ثم جاء المسيح عيسى بن مريم يبشر باقتراب ملكوت السماء ويعد المتقين الأبرار بدخول ملكوت السماء .

« طوبى للمساكين بالروح فان لهم ملكوت السموات .

— طوبى للمضطهدين من أجل البر فان لهم ملكوت السموات .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ــ مادة جنة

(٢) قصة الحضارة ــ جزء ٣ ــ مجلد ٣ ص ١٨٢

— يضىء الصديقون مثل الشمس فى ملكوت أبيهم (الفصل الثامن عشر) .

— وعندما يجىء ابن البشر فى مجده وجميع الملائكة معه فعندئذ يجلس على عرش مجده ..

ثم يهب الخلود وملكوت السماء الى أبد الآبدين للمتقين والصالحين (الفصل السادس والعشرين — انجيل متى)

رؤيا يوحنا

ويصف لنا تلميذه يوحنا ملكوت السموات وصفا مسهبا يختمه بقوله: « وسمعت صوتا عظيما من العرش قائلا :هوذا مسكن الله مع الناس وسيسكن معهم ويكونون له شعبا والله نفسه يكون معهم الاها لهم . ويمسح كل دمعة من عيونهم ولا يكون بعد موت ولا نواح ولا صراخ ولا وجع لأن ماكان سابقا فقد مضى (الفصل ٢١ رؤيا يوحنا)

ويمضى أئمة المسيحية وشعراؤها يصفون لنا الجنة وملكوت السموات، ولعل الكوميديا الالهية التى ألفها دانتى فى القرن الرابع عشر هى التى خلدت أكثر من غيرها ، وفيها يصور لنا ملكوت السماء معتمدا على وصف بطليموس الفلكى للسموات التسع ، فيروح يصعد فى السموات العلا متقابلا مع القديسين والأنبياء والشهداء ، حتى يصل الى خاتمة المطاف فى السماء التاسعة فلا يجد فيها نجوما بل كل ما فيها نور صاف ، ويقول لنا ان كل ما رآه بعدئذ تعجز اللغة عن وصفه ويعجز الخيال عن تصوره [1].

الجنة فى الاسلام

وقبل ذلك كان القرآن وهو آخر ما عرف البشر من كتب سماوية

---

(١) قصة الحضارة ـ الجزء السادس ـ المجلد الرابع ص ٣٤٢

يصف جنة الخلد بأكمل وأروع ما وصفها به الواصفون فى سائر الأديان ، وما من سورة من سور القرآن ، الا وهى تصور لنا نعيم الجنة المقيم وتحدد خصائص هذه الحياة الثانية . وبغض النظر عما ورد فى آيات القرآن من تشبيهات واستعارات لم يكن منها مناص لافهام العرب عن طريق لغتهم ، حقيقة هذا النعيم ، فان جوهر هذه الآيات كلها انما يهدف الى تصوير ثلاثة مبادىء بالنسبة لهذه الحياة الثانية ، وهى مفهوم الجنة فى كل زمان ومكان . اما المبدأ الأول فهو خلود الروح الى أبد الآبدين ، والثانى استمتاع الانسان بحياة خالية من شوائب الدنيا ومتاعب الحياة المألوفة ، فلا جوع ولا مرض ولا كد أو تعب .

أما المبدأ الثالث فهو أن هذه الحياة ستقوم على الحب والصفاء ، فلا حسد ولا حقد ولا بغضاء أو اطماع وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

— ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين .

— لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين .

— لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما — الا قيلا سلاما سلاما .

— وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب .

— وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون .

— لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى .

— وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام .

الجنة الارضية أو المجتمع المثالى

ويظن أقوام أن ما تنادى به الشيوعية هذه الأيام من تسفيه القول بوجود جنة فى السماء ، وأن ذلك كله ليس الا لونا من ألوان الوهم

والخيال السقيم، يتصورون أن الشيوعية فى ذلك قد جاءت بجديد، نتيجة لتطور العقل البشرى ونضجه ، مع أن هذا القول بانكار جنة السماء قديم قدم القول بوجودها ، فقد وجد دائما حتى بين القبائل البدائية الساذجة من لا يعرف جنة الا على هذه الأرض ، ومن لا يحفل بحياة الا بهذه الحيــاة التى نحياها ، ولقد أشرنا فيما سبق الى أن اليهود أنفسهم كانوا من حملة لواء هذه الفكرة فى عصورهم المتقدمة ، والذى يعنينا فى هذا المقام هو ما قلناه من قبل ، من أن القائلين بذلك القول ، الجاحدين بجنة فى السماء ، قد دعوا الى جنة فى الأرض .

وكثيرا ما يشار فى هذا الموطن الى جمهورية أفلاطون ، ولكن أفلاطون كان من المؤمنين بجنة فى السموات وبمجتمع مثالى على هذه الأرض .

ولكن الأقرب الى تمثيل هذا المذهب هو زينون الرواقى ، الذى دعا فى جمهوريته التى نشرها عام ٣٠٠ ق . م الى نظام شيوعى مثالى ، حيث نرى واحدا من أتباعه يصف لنا « الجزيرة المباركة » فى المحيط الهندى (وقد تكون جزيرة سرنديب) وفى هذه الجزيرة يعيش الناس كلهم أكفاء ، لا فى الحقوق فحسب ، بل وفى قدرتهم وذكائهم ، وأنهم كلهم يعملون على قدم المساواة ، ويقتسمون ثمار عملهم بالتساوى ، ويشتركون كلهم اذا جاء دورهم فى تصريف شئون الحكومة .

وليس فى هذه الجزيرة فقر ولا غنى ، ولا حرب بين الطبقات ، وأن الطبيعة تنتج فيها الفاكهة الموفورة بلا حاجة الى جهد ، وأن الناس يعيشون فيها متآخين متحابين [١] .

جمهورية كونفشيوس المثالية

ومن الصين فى القرن السادس قبل الميلاد ، يدعو كونفشيوس البشر

---

(١) الجزء الثالث ـ المجلد الثانى ـ حياة اليونان ـ ص ٢٠

الى جمهوريته السعيدة ، جمهورية « التوافق العظيم » — : « وعندئذ فسوف تصبح الدنيا كلها جمهورية واحدة ، يتعاون الناس فيها فى اخلاص ومحبة عاملين من أجل السلام العالمى . فى هذه الدولة لن ينظر الانسان لوالديه باعتبارهم آباءه دون غيرهم ، كما لن ينظر الى أبنائه باعتبارهم أولاده فقط ، وسيحصل كل رجل على حقه وكل امرأة على شخصيتها ، ستختفى الأنانية ولن تجد نافذة لتطل منها ، سيتطهر وجه الأرض من اللصوص والمجرمين والخونة والأشرار .

ستتحول الدنيا كلها الى « التوافق العظيم » [1] .

الاشتراكية المثالية

وتتكرر الدعوات والصيحات الى مجتمع مثالى على هذه الأرض ، حيث لا ظلم ولا طغيان ولا فقر ولا حرب أو خصام ، ومن حين لآخر يطلع الكتاب والفلاسفة والشعراء بطوباهم ، ومثلهم العليا للمجتمع الانسانى .

فهذا توماس مور الانجليزى يكتب لنا فى القرن السادس عشر عن طوباه أو جزيرته المثالية ، فيصف لنا المجتمع وكيف يجب أن يكون على لسان رحالة برتغالى (رفاييل) كما رآه فى جزيرة الخيال ، الأمر الذى استحق توماس مور من أجله أن يكون أب الاشتراكية المثالية فى العصر الحديث [2] .

ايمان كوندورسيه

ويفرغ لنا كوندورسيه أحد زعماء الثورة الفرنسية ايمانه بمستقبل الانسان فى كتابه « تاريخ تقدم الروح الانسانى » ، وان الظروف التى كتب فيها كتابه وهو على عتبة الموت ، هارب من أصدقاء الأمس الذين يطلبون

---

(١) صور حية لقادة الأديان ـ ص ٦٧ .Relgious Leaders

(٢) الاقتصاد ـ للدكتور محمد حلمى مراد

رأسه ، وسقوط هذه الرأس بالفعل بعد كتابة هذا الكتاب تحت المقصلة ، كل ذلك من شأنه أن يجعل من كتابه عن مستقبل الانسان أشبه بنبوءة تجيء من ضمير الوجود [1] اذ يقول : « ان مبادىء الثورة عن ايمان القرن الثامن عشر بالعقل ستنتشر فوق الأرض بكاملها — والحرية والمساواة — مساواة صحيحة فى الاقتصاد والاجتماع والفكر ستقوى باستمرار واطراد ، وسيخيم السلام على الأرض ، وستعتبر الحرب أكبر وباء وأفظع جريمة ، بل أكثر من ذلك كله فانه تنظيم المعرفة على شكل أفضل ، وتسخير الذكاء فى تحسين كيفية الانسان العضو الحى ، سيؤدى الى القضاء على الأمراض وتطويل معدل الحياة الانسانية الطيبة .

أية صورة رائعة للجنس البشرى اذ يتحرر من قيوده ، وينعتق من عبودية الصدفة ، ويسير بخطى أكيدة على طريق الحقيقة والفضيلة والسعادة . ناسيا البخل والخوف والحسد والعذاب والفساد ، انه هناك ليعيش مع اخوانه فى نعيم خلقه عقله ، تغنيه محبته للانسانية أطهر الأفراح [1] »

جنة الشيوعية

حتى اذا وصلنا الى العصر الحديث نجد التبشير بالجنة الأرضية يصل الى ذروته لدى الماركسيين ، فيحدثوننا عن التطور الذى ستصل اليه الانسانية من خلال الاشتراكية فالشيوعية فالمجتمع اللاطبقى ، عندما يختفى نهائيا من المجتمع كل ظل من التفرقة بين البشر ، فلا كبير ولا صغير ولا حاكم ولا محكوم ولا غنى ولا فقير ، بل اخوان متعاونون متحابون بدون حاجة الى دولة أو حكومة تحكمهم ، بدون حاجة الى بوليس أو جيش أو

(١) تكوين العقل الحديث ـ جولد هرمان راندال ـ ص ٥٥٠

سجون أو محاكم [1] فالملكية التى تدنس النفوس وتغرس فيهـا الحقد والحسد والأنانية لا يعود لها وجود فلا يبقى من الناس الا أن يتحـابوا ويتآخوا ، وستتولى الآلات عملية الانتاج فلا يحتاج الانسان للكدح أو الشقاء وسيغزر الانتاج نتيجة التفوق العلمى بحيث يستطيع كل انسان أن يحصل على كل ما يحتاجه بغير ثمن وبدون جهد أو مقابل من أى نوع كان ، وسيصل العلم من الرقى والابداع بحيث يصبح الانسان قادرا على القضاء على المرض كما قضى على الفقر ، بل وأن يقضى على الموت نفسه فيصبح من الخالدين .

وليس هذا الذى تدعو له الشيوعية سوى جنة السماء وقد قامت على الأرض .

اى الجنتين سـيتحقق ؟

وقد حق لنا أن نتساءل بعد هذا الاستعراض أى الجنتين ستكون جنة الأرض أم جنة السماء ؟ وأغلب الظن أن الجنتين ستوجدان حتمـا مادام العقل البشرى قد فكر فى هذه وتلك .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن الأرض فى نهـاية الأمر ليست سوى أحد كواكب السماء ، فلو أن انسانا كان يعيش على كوكب آخر

---

(١) عبر انجلز عن زوال الدولة فى مؤلفه « ضد دورنج » قائلا « حالمـا لاتوجد بعد أى طبقة اجتماعية تخضع ، وحالما يلغى مع السيطرة الطبقية الكفاح من أجل الوجود الفردى الذى كان مؤسسا على الفوضى السابقة فى الانتاج . وتلغى معها المصارعات وأوجه التجاوز فانه لن يبقى شىء يعاقب يمكن أن يجعل من الضرورى قيام قوة قمع أى دولة... ويغدو تدخل سلطة الدولة فى العلاقات الاجتماعية غير مجد فى نطاق بعد آخر ... وتحل محل حكومة الأشخاص ادارة الأشياء وتوجيه عملية الأنتاج فالدولة لاتلغى ، ولكنها تذبل

(وقاية النظام الاجتماعى ـ محمد عصفور ـ ص ١٨٣)

لتطلع الى الكوكب الأرضى وهو سابح فى السماء باعتباره يتطلـع الى السماء .

فالجنة آتية لا ريب فيها ، مادامت قد ألحت على ذهن الانسان بهذه الصورة ، وما دام قد جعلها هدفا نهائيا له لا ينفك يسعى للوصول اليه .

فى الطريق نحو الغـــاية

وهناك بادرتان فى عصرنا الحديث تقطعان بأن البشر سائرون نحـــو الغاية التى نشدوها دائما .

أما البادرة الأولى فهى هذا التقارب بين أرجاء الكرة الأرضية بحيث أصبح الوصول الى أى طرف من أطرافه يتحقق بأسرع مما يصل القروى فيه من قريته الى احدى القرى المجاورة .

لقد حدثنا راكبو الأقمار الصناعية بانتقالهم من قارة لأخرى فى بضع دقائق . واذا كان هذا فعـــل الصـــواريخ التى لم يعم استعمالها بعد فان الطائرة النفاثة أصبحت تنقل من مشرق الدنيا حتى مغربها فى بضع ساعات. أما انتقال الأخبـــار فقد أصبح يتم بأسرع ممـــا يحدث بين متخاطبين فى حجرة واحدة ، ولا يكاد الحادث يقع فى أى ركن من أركان العـــالم حتى يتسامع به البشر فيتجاوبون معـــه حزنا أو فرحا أو قلقـــا أو ضيقـــا أو فرجا ... الخ .

وتعمل الفنون والآداب من خلال السينما والاذاعة والتلفزيون على توحيد مشـــاعر البشر وأذواقهم وآدابهم وعاداتهم ، فالرواية السينمائية أصبحت تعرض فى مئات الدور من السينما فى شتى أرجاء العالم فى وقت واحد ، فيتجاوب معها الملايين بمشاعر واحدة وأحاسيس مشتركة ســـواء كانت بكاء أو ضحكا أو اعجابا أو استهجانا أو تفكيرا .

ولم يعد اختلاف اللغة يؤلف حاجزا يحول دون التفـــاهم فكل دولة

أصبحت تذيع أخبارها بشتى اللغات وتعرض كل ما يتصل بها بشتى اللغات كذلك . وعندما يجتمع ممثلو الشعوب فى أى مناسبة من المناسبات يتكلم كل انسان بلغته الخاصة وتتولى الترجمة الفورية افهام ما يقول لكل انسان بلغته .

ويعمل البشر الآن متكاتفين على حل المشاكل الانسانية بطريقة دولية ، واذا كانت هيئة الأمم فى بداية الطريق من الناحية السياسية ، فهى ليست كذلك فى الناحية العلمية أو الاجتماعية أو الصحية ، فقد أصبح ينبثق منها عديد من المنظمات للعمل دوليا من خلال الجهود المشتركة ، لمواجهة مشاكل العمل والعمال والصحة وزيادة الانتاج فى الزراعةوالصناعة والتعليم والخدمات ، ولعل أروع مثل على هذا التعاون الدولى ما يجرى فى بلادنا من محاولة لانقاذ آثار النوبة ، باعتبارها تراثا عالميا انسانيا على العالم كله أن يتضافر على انقاذها .

ولم يعد هذا التفكير فى وحدة العالم ، وقفا على المنظمة العالمية ، بل أن الدول الكبرى والغنية قد راحت تمد يد المعونة المالية والفنية للشعوب التي اضطرتها ظروف الاستعمار القديمة على التخلف . وأصبحت الدول الناشئة تطالب بهذه الاعانات لا على سبيل الاستجداء ، ولكن على سبيل الشعور بحق البشرية المشترك فى كل ما على الأرض من ثروات قد خلقت من أجل البشر جميعا ، لا من أجل فئة من الفئات أو شعب دون شعب ، وأمة دون أمة .

وقد أدركت الشعوب القوية والغنية ، أن العالم اليوم أصبح وحدة اقتصادية واحدة ، وسوقا واحدة وأنه لا سبيل باحتفاظهم بغناهم اذا ظل أهل الفقر على فقرهم ، غير قادرين على شراء منتجاتهم . وعلى ذلك فقد أصبح العمل على رفع مستوى البشرية كلها هو الصيحة التى تتردد فى

كل مكان ، ذلك أن الفقر والجهل والمرض ، كأى ميكروب يتربص الدوائر بالانسانية كلها ، ووجوده فى أى ركن من أركان العالم معناه قيام الخطر على رؤوس الجميع ، ومن هنا رأينا التنافس على أشده بين الشرق والغرب فى مد يد المساعدة للبناء والانشاء والتعمير فى كل مكان .

حقا لا يزال هذا الاحساس فى بدايته ، ولا تزال آثار الماضى من الاستعمار والاستغلال ، تعرقل الجهود المبذولة فى هذا الاتجاه العالمى الانسانى ، ولا تزال بذور الشك والخوف من تكرر المآسى الماضية يحجب عن بعض الأنظار التطور الكبير المدى الذى طرأ على علاقات البشر ، ومع ذلك فان الحقيقة الثابتة المشرقة تشير الى أن البشرية تستقبل عهدا جديدا تتجه فيه نحو عالم واحد تحكمه حكومة واحدة ، على أساس قيم مشتركة وقانون انسانى واحد .

نفوذ الانسان الى الفضاء الخارجى

أما البادرة الثانية التى تدل فى عصرنا الحديث على أن البشر سائرون بالفعل نحو الوحدة ، وهو فى نظرنا يعطى للظاهرة الأولى قوة لم تكن لها من قبل ، فهى نجاح الانسان بطريقة مادية من التحرر من الجاذبية الأرضية، تمهيدا للوصول الى القمر وبقية الكواكب الأخرى بكل ما يحمله هذا التطور الكبير من امكانيات واحتمالات لقدرة الانسان وتغلبه على الزمان والمكان ، والاحاطة بأسرار الوجود والحياة ، وكل ما من شأنه أن يجعل من المتصور امكان القضاء على الأمراض بالفعل ، واطالة الحياة . ولعله مما يجدر ملاحظته أن هذا العالم الجديد الذى انفتح للبشر سيظل الى آماد طويلة فى متناول أفراد من البشر ، سيكون عليهم أن يواجهوا هذه العوالم المجهولة غير معتمدين الا على قدرتهم الذاتية ، مما سيكشف للبشر أكثر وأكثر عن حقيقة قانون الطاقة الانسانية الذى قلنا به .

ماذا يجب علينا ان نفعل ؟

واذا كانت الدلائل تدل هكذا على أن الانسان سائر فى الطريق نحو الأمام ، نحو الأمل المنشود فى حياة أكثر أمنا وعدلا ورخاء وحرية ، حياة خالية من الشوائب التى لا تزال تملؤها ، فهل نستطيع أن نحدد ما الذى يجب على الانسان فعله لتقريب هذا اليوم الموعود ؟ أحسب أن ذلك بات فى قدرتنا ، مادام أن هدف الانسانية قد أصبح واضحا ومحـددا ، فان ذلك يزودنا بميزان دقيق لمعرفة ما يجوز من أعمالنا ومالا يجوز ، ما يحق علينا أن نقوم به من أعمال ، وما يجب أن لا نقوم به من هذه الأعمال .وفى عبارة محددة ما يمكن اعتباره خيرا مطلقا فى كل زمان أو مكان ، وما يمكن اعتباره شرا مطلقا فى كل زمان أو مكان . فكل قول أو فعل أو حركة أو تصرف من نوع الهدف النهائى الذى تنشده الانسانية ، فهو لا يمكن أن يكون الا خيرا ، وخيرا مطلقا مادام أنه يحقق هذا الهدف المنشـود ولو للحظة واحدة ، أو على الأقل يصور لنا امكان تحقق الهدف المنشـود . وعلى العكس من ذلك فكل فعل أو قول أو حـركة أو تصرف ، يقع فى الاتجاه المضاد للهدف المنشود ، فهـو لا يمكن أن يكون الا شرا وشرا مطلقا ، لأنه اما يبعدنا عن الهدف المنشود ولو بمقدار لحظة من الزمن ، أو على الأقل يصور لنا استحالة هذا الهدف المنشود ولو فى لحظة واحدة .

بهذا المقياس البسيط والممعن فى البساطة نستطيـع أن نقيس خيرية الأمور وشرها . ولنحاول الآن أن نقيس به بعض الأمور مما اعتاد الناس أن يتباحثوا ويتناظروا فيه مختلفين .

المثالية والواقع

أن أول خلاف يقوم بين البشر فى تفكيرهم وحياتهم الذهنية كلهـا ، والذى ينعكس على أعمالهم بعد ذلك هو هـذه المقـارنة المستمرة بين

المثالية والواقع ، ولما كانت المثالية لا تعنى شيئا سوى هذا الهدف الذى ينشده البشر ، فان كل حديث عن وجوب الأخذ بالأمر الواقع والنزول على أحكام الأمر الواقع ، والرضاء بالأمر الواقع مهما كان هذا الواقع يغص بالمفاسد والشرور والنقائص التى تضاد الهدف المنشود ، فان ذلك لا يمكن أن يكون الا شرا وشرا محضا بلا جدال أو شبهة ، لأنه تعويق للبشر عن السير نحو هدفهم المنشود . يستوى فى ذلك أن تكون الدعوة للواقع دعوة عملية أو دعوة فكرية بحتة كهذه الفلسفات التى لا تعترف الا بالأمر الواقع المحسوس الملموس ، فان ذلك كله صرف للبشر عن الاندفاع نحو مثلهم العليا التى تقررت على مر الأجيال والدهور ، وحثهم على احترام الواقع المادى بكل ما ينطوى عليه هذا الواقع المادى من بلاء وشقاء .

وعلى العكس من ذلك فان كل دعوة مثالية ، تدعو لكل ما يصبو اليه البشر ويتمنونه ، فهى لا يمكن الا أن تكون خيرا محضا بلا نزاع أو شبهة ، لأنها على أقل تقدير تذكر البشر بما يجب عليهم أن يتجهوا صوبه وأن يعملوا على تحقيقه ، ولو للحظة واحدة من الزمان .

اطعام الطعام

ولقد رأينا ونحن نستعرض الجنة وصورها المختلفة عند المؤمنين والماديين على السواء ، أن الحصول على الطعام الشهى بدون مجهود ، وبالقدر الذى يريده الانسان ، يحتل المكان الأول فى تصور جنة السماء والأرض معا . واذن فكل ما يحقق للبشر أفرادا أو جماعات هذا الهدف أو بعضه ، فهو خير وخير مطلق على شريطة أن لايتم ذلك على حساب الآخرين . وكل عامل وكل مساهم فى تقديم الطعام للناس ، يقوم بأجل

الأعمـــال وأكثرها تحقيقـــا لآمال البشر . وعلى الضد من ذلك كل من يتسبب بطريق مباشر أو غير مباشر فى تجويع الناس ، والتضييق عليهم فى موضوع الطعام ، كل اسراف فى تناول الطعام يؤدى الى حرمان الآخرين منه فهو شر بلا جدال أو شبهة ، لأنه على خلاف الهدف النهائى للبشرية وهو توفر الطعام لكل البشر على السواء .

الألم والمرض

والمثل الأعلى للبشر الذى تخيلوا الجنة على صورته ، يقوم على حياة لا تعرف المرض أو الألم ، فكل عمـــل أو تصرف حتى ولو بالقول يؤدى الى ألم انسان ، أو امراضه فهو شر بلا جدال أو شـــبهة ، وعلى العكس من ذلك كل فعل يؤدى الى تخفيف الألم عن الناس ، كل محاربة للمرض فى أجزائه ومجموعه ، بالنسبة لفرد واحـــد أو جمـــاعة فهو خير مطلق وخير عميم لأنه من نوع الهدف الذى نشده البشر وينشدونه فى كل زمان ومكان .

الحيـــاة والموت

وليس هناك ما يتمناه البشر أعظم من طول العمر ، فكل انسان يدعو للآخر بطول العمر كأعظم هبة يمكن أن تمنح للانسان ، وقد تصور البشر جميعا الجنة على أساس أن الموت فيها لا يلحق الانسان ، وحتى الماديين يسعون لاطالة حياة الانسان والقضاء على الموت لو استطاعوا الى ذلك سبيلا . فالحياة اذن لا الموت هدف البشر النهائى ، ومن ثم فباستطاعتنا أن نقرر طبقا للمقياس الذى اصطنعناه ، أن كل عمل أو تصرف يؤدى الى ازهاق الروح البشرية فهو شر مطلق بلا جدال أو شبهة ، وليس يغير من هذا الوضع أن يكون هذا الازهاق دفاعا عن النفس ، أو قصاصـــا من مجرم ، أو أن يتم بحكم القانون ، فذلك كله لا يحول الموت من شر الى

خير ، ولذلك فان الدعوات الداعية الى الغاء عقوبة الاعـدام لأى سبب من الأسباب هى دعوات خيرة بلا جدال أو شبهة ، وعكس هذه ، الدعوات الى الابقاء على عقوبة الاعدام لأى سبب من الأسباب . وسيظل النـاس يقتلون بعضهم بعضا ، مالم يؤمنوا بقدسية النفس البشرية ، وأن ليس من حـق أى انسـان أو جمـاعة أن تزهق روح انسـان أيا كان السبب أو الدافع [1] .

واذا كان قتل انسان واحد لأى سبب من الأسباب لا يمكن أن يكون الا شرا مطلقا ، اذ هو يعوق البشرية عن بلوغ هدفها ولو للحظة واحدة ، فكم بالأحرى يكون حكمنا على القتل بالجملة من خلال الفتن والثورات

---

(١) عبر القرآن عن هذا المبدأ أروع تعبير وهو يقص علينا أول جريمـة ارتكبت فى الوجود ، اذ رفض هابيل أن يدافع عن نفسه ضد أخيه قابيل وآثر أن يموت من أن تمتد يده بالأذى لأخيه ولو على سبيل الدفاع . « لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين» . (المائدة – ٢٧)

وأعرف أن كثيرين عند مطالعة هذا الذى نقول به سيحتجون بالقرآن الذى أباح الموت قصاصا ، فقال قوله الكريم « النفس بالنفس » « ولكم فى القصاص حياة» « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به» « وجزاء سيئة سيئة مثلها» ولكن الذين يشيرون الى هذه الآيات ينسون أن القرآن لم يجعل من ذلك مثلا أعلى أو الهدف النهائى الذى يمكن أن يسعى اليه البشر ، فما من مرة قال هذا القول الا وذكر أن خيرا منه العفو والصفح ، فاذا كان القصاص حق « فمن تصدق به فهو كفارة له . (المائدة – ٤٥) واذا كان الرد بالمثل أسـلوب يجب أن يتبع لاقرار السلام فيقول القرآن « فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » فهو يضـيف على الفور « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (النحل ١٢٦) واذا قال «وجزاء سيئة سيئة مثلها» فانه يردفها بالقول «فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لايحب الظالمين . ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور (الشورى ٤٠ – ٤٣) وهكـذا يجعل القرآن الدرجة العليا هى من نصيب العفو والصفح وليست فى جانب القصاص . وتلك هى سنة القرآن فى كثير من الموضوعات ، يبين حكم الواقع ثم يردفـه بالمثل الأعلى الذى يجب أن يسعى البشر لتحقيقه .

« اقرأ فى هذا المعنى « كما تحدث القرآن » للاستاذ الكبير خالد محمد خالد – ص ٣٧)

والحـروب ؟ لا ينبغى أن نتردد فى اعتبـار ذلك شرا مطلقا لأنه اهـدار لكل ما يهدف اليه البشر من مثل أعلى فى الحياة ، والحق أن الحرب تجمع كل ما يضاد هذا الهدف ، فهى التى تجيع الناس وتؤلم النـاس وتسبب المرض والضيق للناس ، وهى التى تقطع الوشائج والروابط الانسانية ، وهى التى تطلق الحقد والبغض والظمأ للدماء من عقالها ، وهى فى نهاية الأمر تدمر وتخرب وتحرق ثم تقتـل ، فهى مجمـع كل الشرور والآثام التى يمكن أن يرتكبها فرد أو جماعة .

المســاواة بين البشر

وتصور البشر مثلهم الأعلى على شكل مجتمع تسوده المسـاواة بين البشر فى سائر الميادين ، فى الحظ والقدرة والكرامة والحـرية والشعور بالاستقلال ، وليست الجنة سوى مجتمع قد خلا من الاستعباد والاستغلال والظلم والاجحاف ، واستعلاء انسان على أخيه الانسان ، أو انتقـاص انسان من قدر انسان . واذن فكل قول أو فعل أو تصرف يهدف الى تقرير حق الانسان فى المساواة المطلقة فى الحرية والارادة والكرامة والحصول على طيبات الحياة ، فهو خير مطلق بلا جدال أو شـبهة ، لأنه من نوع الهدف النهائى لبنى الانسان . وعلى الضد من ذلك كل قول أو فعل أو تصرف من شأنه الاخلال بهذه المساواة ، كل مساس بكرامة انسـان أو حرية انسان أو ارادة انسان ، الا بالقدر اللازم لمنع العدوان على حرية الآخرين فى المساواة ، فهو شر بلا جدال أو شبهة ؛ لأنه تعويق للبشر عن بلوغ الهدف النهائى .

الحب والكـــــره

ومثل البشرية الأعلى كما صورته فى الجنة الأرضية أو السماوية ، أن تخلو الحياة بين الناس من الحقد والكراهية والبغض والحسد ، يصبوا

الناس جميعا الى أن يعيشوا فى الحب وللحب وبالحب ، فكل قول أو فعل أو تصرف من شأنه أن يؤجج روح الكراهية بين النـاس لأى سبب من الأسباب ، كل تصرف وكل دعوة لا تجعل الحب للبشر كل البشر سداها ولحمتها ، فهى دعوة غير انسانية وهى شر مطلق بلا جدال أو شبهة ، لأنها فى الاتجاه المضاد لما يرنو اليه البشر ، وما جعلوه قبلتهم وهدفهم النهائى . وكل دعوة تدعو للحب ، حب الأعداء قبل الأصدقاء ، حب الغرباء قبل المعارف ، كل دعوة للتسامح لنسيان الماضى الكريه ، للصفح لعدم الأخذ بالثأر ، لعدم الأذى لأى سبب من الأسباب ، فهى دعوة خيرة بلا جـدال أو شبهة لأنها من نوع ما يصبو اليه البشر مجتمعين .

التوحيـــد بين البشر

وأخيرا فقد تصور البشر ، بدون استثناء ، جنتهم سواء كانت على الأرض أو فى السماء ، لا تعرف حدودا ولا جمارك أو فواصل ، لا تعرف دولا متباينة ولا تعرف أوطانا متفرقة . لم يتخيل البشر الجنـة تفرق بين الناس لسواد جلدهم ، أو لطول قامتهم ، أو للون دمائهم . المجتمع الذى يصبو اليه البشر مجتمع قد خلا من التفـاخر بالقوميـات والعصبيـات والمذاهب والأديان ، فالجميع فى هذا الفردوس قد أدركوا الحقيقة المؤكدة وهى أنهم نسلوا جميعا من أم وأب واحدين بل أن الأم نفسها قد خرجت من الأب ، فعلى البشر أن يحيوا حياة واحدة متكاملة . لقـد خرجوا من الواحد والى الواحد يعودون . واذن فكل عمل أو قول أو تصرف يعمل فى هذا الاتجاه ، فهو خير مطلق بلا جدال أو شبهة ، لأنه من نوع الهـدف المنشود . وكل قول أو فعل يفرق بين البشر بسبب الدين أو الجنس أو المذهب ، كل تأجيج للخلافات والتعصب واثارة النعرات ، كل ما يظهـر

البشر متعادين متصارعين فهو شر وشر مطلق بلا جـدال أو شبهة ، لأنه تعويق للبشرية عن بلوغ هدفها النهائى .

الوسيلة يجب أن تكون من نوع الهدف كذلك

وهكذا نستطيع أن نمضى الى مالا نهاية فى تعديد ما يمكن أن يعـد خيرا وما يمكن أن يعد شرا ، ونحن ندع لكل قارىء على حدة أن يقوم بهذا العمل لنفسه بعد أن زودناه بالمعيار وآلة القياس . ولكن الأمر الذى لا نستطيع الا أن نشير اليه ونؤكده ونحن فى صدد ماهو خير وما هو شر ، أن الوسائل هى دائما جزء لا يتجزأ من الأهـــداف ، ويجب أن تقاس الوسائل بنفس المعيار الذى نقيس به أى عمل من الأعمال ، فالشر لا ينقلب بحال من الأحوال الى خير بمقولة أنه يراد به الخير . ان اشـــقاء البشر لا يمكن أن يتحول الى خير لمجرد القول أن المراد بهذا الشقاء هو خير البشرية ، ان قتل الناس بالجملة خلال أى ثورة أو فتنة لا يمكن أن يكون خيرا لأن أهداف الثورة خيرة ، أن أى حرب لا يمكن أن تنقلب الى خير لأى سبب من الأسباب بمقولة أن أهدافها النهائية خيرة ، فالحرب هى الحرب شر واثم وعمل على خلاف كل القيم التى ينشدها البشر . ليس هناك ماهو أتعس وحقيق بكل رثاء من دعوات وحركات تهدف كما تزعم لأسعاد البشر ، ويكون سبيلها الى ذلك الدم والحقد والبغض والكراهية. ليس هناك ما يدعو للرثاء والاشفاق من دعوات وحركات تدعو للمؤاخاة بين البشر عن طريق التحريض على قتل أو ابادة فريق آخر من البشر قل أو كثر ، لأن هذا الفريق هو أيضا من البشر . ليس هناك ما يدعو للاشفاق والرثاء من حركات ودعوات تهدف الى اعلاء الكرامـــة البشرية وتدعيم الحـــرية البشرية ، من خلال اهـــدار كرامة البعض أو حـــرية البعض فحرية البشر كل لا يتجزأ وكرامة البشر كل لا يتجزأ وحياة البشر وسعادتهم

وكل ما يتصل بهم كل لا يتجزأ . وفى كلمة يجب اعتبار القول بأن الغاية تبرر الواسطة هو شر مطلق بلا جدال أو شبهة . ولا يحتجن علينا أحــد بواقع الحياة وأن القصاص والانتقام والدفاع عن النفس ، والقوة لا ترد الا بالقوة ، والنظام الفاسد سيظل يتحكم فى الناس الى أن يدفع بالقوة ، لا يحتجن أحد علينا بهذا الواقع فقد بدأنا بحثنا كله من هذه النقطة نقطة الواقع وقلنا أن كل تمسك بالواقع هو شر مطلق بلا جدال أو شبهة ، فلو ظللنا تتمسك بهذا الواقع فسنظل غارقين فيه حتى الأذقان ولن ندلف الى مثلنا الأعلى أبدا ، لن ندخل الجنة أبدا اذا ظللنا نعمل على أساس الواقع المقوت المضاد لكل ما يتمناه البشر . ولعل استعراضنا المسهب لحيــاة البشر منذ أقدم عصور التاريخ فى كل زمان ومكان قد أقنع كل انســان أن البشر لم يحققوا أى خير أو تقدم من أى نوع كان فى أى ميدان من ميادين النشاط الانسانى الاجتماعى أو الانتاجى أو الفنى أو العلمى الا على أساس التمرد على الأمر الواقع والخروج من تحت براثنه وسلطانه .

فلنطهر أذهاننـــا

واذ عرفنا الآن المقياس الذى نقيس به أمورنا وأعمالنا أيها خير وأيها شرير . واذ عرفنا قبل ذلك من قانون الطاقة الانسانية ، أن ما يقــع فى الخارج سواء لنا أو للآخرين ليس الا تحقيقا لما فى أذهاننا ، أما وقد عرفنا خطورة ما يدور فى أذهاننا وارتباطه بما يقع فى الكون كله ، فلم يعد أمامنا لكى نحقق السعادة لأنفسنا وللآخرين ، لكى نقرب اليوم الموعود الذى يتحقق فيه مثل البشر الأعلى فى جنة فى السموات والأرض معا ، الا أن نطهر أذهاننا من كل الصور التى تضاد الهدف النهائى للبشر ، فكل صورة للحقد أو الانتقام أو الغل والحسد ، كل صورة للطمع فى سلب الآخرين أو الاستعلاء على الآخرين أو ظلم الآخرين ، كل صورة من صور التجبر

والتكبر والتحكم ، يجب أن لا يكون لها أى محل فى تفكيرنا يجب أن نتقى أذهاننا منها والا كنا عاملين على ابقاء هذه الشرور فى الكون الىالأبد ونكون قد أخرنا بذلك وصولنا ووصول البشر الى الهدف النهائى .

ولنملأ أذهاننا ونجعل تركيزنا على جميع الصور التى يهدف البشر لتحقيقها . لنملأ أنفسنا بالمثل العليا بصور المحبة الشاملة ، بصور الأخوة والتعاون بين البشر ، بصور الصفاء والوفاق والسلام والحب . ولا ينزعن هذه الصور من أذهاننا خطأ الآخرين أو عدوانهم أو قسوتهم فلو قابلنا البغض بالبغض لزادت كمية البغض فى الكون ، ولو قابلنا القسوة بالقسوة لزادت كمية القسوة فى الكون . فليكن الحب هو شعارنا ودثارنا وسلاحنا ومصدر قوتنا وانطلاقنا ، فالله هو الحب ولا شىء غير الحب ولا حقيقة فى الوجود يقوم عليها الكون سوى الحب .

معـــــا على الطريق

ولنكن على ثقة ويقين أننا اذ نفعل ذلك فنحن على الطريق ، الطريق السلطانى ، الطريق المستقيم أقصر الطرق التى تؤدى الى الغاية . ومجرد السير على الطريق المستقيم يؤدى بنا الى السعادة المنشودة والأمل العظيم، مجرد السير فى الطريق نحو الغاية هو النجاح الذى لا نجاح بعده ، هو الأمن والطمأنينة وراحة الضمير ، هو القوة كلها وهو الخلود والبقاء الذى لا يطاوله بقاء .

وعلى الضد من ذلك فان السير فى الاتجاه المضاد لما ينشــده البشر أجمعــون ، لا يمكن أن يكون الا شرا كله ، لا يمكن الا أن يملأ نفس السائر فيه بكل ألوان الخوف والقلق والشقاء والتعاســة حتى ولو كان يسكن أضخم القصور حتى ولو كان يملك سلطان الدنيا بأسرها ، كيف لا

وهو يبعد كلما مضت به الأيام والحوادث عن الهدف المنشود . وما عليك الا أن تقارن بين نفسك وأنت تضرب فى الاتجاه المضـــاد لبيتك الذى تلخصت فى الوصول اليه سعادتك ، وبينك وأنت فى الطريق نحو بيتك حيث الهدوء والراحة والدفء والحب فى انتظارك .

لنمض على الطريق نحو الغاية التى ينشدها البشر ، ونحن مؤمنون أنه لن يصيبنا أو ينالنا فى هذا الطريق الا الخير والخير المطلق ، لا تجعل عبيد الواقع يصورون لك أن السير فى الطريق نحو المثل الأعلى قـد يجعلك فقيرا ، أو يجعلك صغيرا أو يجعلك مغمورا أو ينتهى بك الى الموت فى النهاية ، فكل ذلك غير صحيح وانما الصحيح هو عكسه تماما . ان الذى رفع على الصليب هو الذى يتعبد باسمه الناس . ان الذى حاربهم الناس هم الأنبياء والرسل والمصلحون ، ان الذين ملكوا ملاء الأرض ذهبا قد أصبحوا فى طى النسيان أما الذين لم يكنزوا مالا وآثروا عليه التمسك بالمثل الأعلى فى الحياة وما ينبغى عليه أن تكون ، هم وحدهم الخالدون وهم وحدهم المكرمون ، وهم وحدهم الذين يذكرهم الناس وسيذكرونهم الى أبد الآبدين .

نـــداء

أيها البشر فى سائر بقاع الأرض ، أيها الناس من جميع الأجنـاس والألوان والقوميات والأديان والمذاهب ، أيها البيض والسود والحمـر والصفر ، أيها الأقوياء والضعفاء ، أيها المنتصرون والمنهزمون ، أيهـا الظالمون والمظلومون ، تعالوا جميعا نبدأ من جديد ، لنسدل ستارا على الماضى ، لنكف عن نبش القبور ، لنتوقف عن نكء الجروح . لنسر معا على الطريق لا يؤذى بعضنا بعضا ، ولا ينهب بعضنا بعضا ، ولا يسرق بعضنا

بعضا ، ولا يتحكم بعضنا فى بعض ، ولا يستغل بعضنا بعضا ، معا على الطريق فى تفاهم ومحبة واخاء ، معا على الطريق فى صفاء ووفاء وسلام ، معا على الطريق نحو الأمة الواحدة والوطن الواحد والانسانية الواحدة ، نحو العدل المطلق والخير المطلق والحب المطلق ، والمساواة المطلقة .

معا على الطريق نحو الحقيقة والحق ، نحو الجنة والمثل الأعلى ، نحو الله نجده أمامنا ، نجده تجاهنا ، نجده معنا ، نجده فينا « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ »

والحمد لله رب العالمين .

تم بعون الله فى ١٩٦١/٩/٢٧

فهرس الموضوعات

الفصل الأول
نسبية المعرفة

الفصل الثانى
هل الانسان اليوم احسن حالا منه بالأمس

صفحة

صفحة

الفصل الثالث

هذا الكون أهو من صنع الانسان

الفصل الرابع

كل ما يدور فى عقل البشر أما أنه كان أو كائن أو سيكون

الفصل الخامس

الانسان مم تكون وكيف تكون ؟

الفصل السادس
الارادة الانسانية

مراجع خاصة

الفصل السابع

الايمان

الفصل الثامن

بعض تطبيقات لقوة الايمان

الفصل التاسع
التوصل الى اثبات وجود الطاقة الانسانية بطريقة تجريبية معملية

الفصل العاشر
قانون الطاقة الانسانية

تذييل

أى طريق نسلك

شكر

انني اذ أحمد الله سبحانه وتعالى أن قدرني على اتمام هذا الكتاب ، فلست أستطيع الا أن أشكر الاخوان والأصدقاء الذين كان لهم فضل معاونتي على اصداره سواء بالتشجيع المعنوي ، أو بالعون المادي ، وان أسماءهم لتقفز الآن على سن القلم لأسجلها على القرطاس بمداد من عرفان الجميل ، ولكن الظروف تردني عن تحقيق هذه الأمنية ، فليس يسعني الا أن أدعو الله العلي الكريم أن يتولاهم بالجزاء والمكافأة فيحيطهم برعايته وبره وحنانه . كما أوجه شكري العميق لجميع أفراد أسرة مطبعة مصر من عمال ومصححين واداريين ، فهم شركاء كل كاتب ومؤلف



كتب للمؤلف

كتب سياسية

١ ـ ايمانى
٢ ـ الأرض الطيبة
٣ ـ وراء القضبان
٤ ـ الاشتراكية التى ندعو اليها
٥ ـ فى ظلال المشنقة
٦ ـ قصة مصر (بالانجليزية طبع نيويورك)

كتب اجتماعية وعلمية

٧ ـ الزواج والمرأة
٨ ـ رسالة فى الحرب
٩ ـ رسالة فى المجد (العلم)
١٠ ـ الطاقة الانسانية

كتب رحلات

١١ ـ مشاهداتى فى جزيرة العرب
١٢ ـ يقظة العملاق (رحلة فى آسيا)
١٣ ـ أمة تبعث (رحلة فى الهند)
١٤ ـ من وحى الجنوب (رحلة فى منابع النيل)

كتب قانونية

١٥ ـ قضية مقتل النقراشى (مرافعة)
١٦ ـ قضية التحريض على حرق القاهرة
١٧ ـ علاقات العمل
١٨ ـ مجموعة تشريعات العمل

مسرحيات

١٩ ـ من الحياة (مسرحيتان اجتماعيتان)

تحت الطبع

مسرحيات تولستوى (مترجمة)

ـ سلطان الظلام
ـ نور يبدد الظلمات

الثمن ٥٠ ص